. فيصل السامر
ـــة الآداب

الدولة الحمدانية

في الموصل وحلب

الجزء الأول

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الطبعة الاولى

مطبعة الايمان ـ بغداد ١٩٧٠

دكتور فيصل السامر
كليـــة الآداب

الدولـة الحمدانية

في الموصل وحلب

الجــزء الأول

ساعدت جامعة بغداد على نشره



الطبعة الاولى

مطبعة الايمان ـ بغـداد ١٩٧٠

نطاق البحث

يمتد تأريخ الدولة الحمدانية نحو مائة عام أي منذ قيام امارتهم في الموصل عام ٢٩٣ هـ (٩٠٥ ـ ٩٠٦ م) حتى سقوط إمارتهم في حلب عام ٣٩٢ هـ (١٠٠١م) ، ومعنى ذلك إن الدولة الحمدانية شملت أواخر القرن الثالث وكل القرن الرابع للهجرة تقريباً. إن دراسة الحمدانيين تعني دراسة قطاع من تأريخ الخلافة العباسية من جهة ، ودراسة تأريخ خاص بدويلة من الدويلات المستقلة في إقليم من أقاليم الدولة العربية الاسلامية من جهة اخرى : ولعل مصدر أهمية الدولة الحمدانية لا يكمن في كونها مجرد دويلة مستقلة من تلك الدويلات الكثر التي ظهرت إبان ضعف السلطة المركزية وضياع هيبة الخلفاء العباسيين فحسب ، ولا مجرد كونها مركزاً هاماً من مراكز الاشعاع الثقافي والجذب الفكري في تلك الحقبة الزاهرة حضارياً من تأريخ الدولة العربية الاسلامية ، بل لكونها احدى الدويلات العربية القلائل بين الدويلات المستقلة التي قامت على حساب الخلافة العباسية ، ولأنها وقفت سداً منيعاً في وجه الغزو البيزنطي الذي كان يستهدف بيت المقدس كما سنرى . والحق ان هذا لم يكن بالأمر الهين في عصر شهد سيادة العناصر الأجنبية من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وتضاؤل نفوذ العنصر العربي في الادارة والسياسة والجيش : صحيح أن الحمدانيين لم يوفقوا كثيراً إلى إشاعة الاستقرار في الاقاليم التي حكموها ـ وهي الجزيرة والشام ـ ولم ينالوا الرضى التام من جانب رعاياهم العرب ، وصحيح أن القبائل العربية أعلنت عصيانها على الحمدانيين في كثير من الحالات، غير أن هذا الأمر ـ وهو يرتبط بطبيعة أساليب الحكم في العصور الوسطى ـ لا يمنعنا من القول بأن الأمراء

الحمداليين كانوا عرباً في حياتهم الخاصة والعامة ، وكانوا أمراء شعر وحرب وكرم وفروسية وثأر وعصبية وبذلك مثلوا الخصال العربية القبلية خير تمثيل .

ويرتبط قيام الدولة الحمدانية أشد الارتباط بحالة الضعف التي مرت بها الخلافة العباسية في هذا القرن ، فكما أعلن الصفاريون والسامانيون إستقلالهم في الاقاليم الشرقية، وكما قامت الدولتان الاخشيدية والفاطمية في الأقاليم الغربية قدر لقبيلة تغلب وهي صاحبة النفوذ في الجزيرة أن تتمتع بسيادة فعلية في هذا الاقليم . والحق أن واجب الحمدانيين في حكم هذه البلاد كان شاقاً عسيراً بسبب وجود عدة قوى ذات بأس وخطر . فاذا إستثنينا الخوارج الذين طالما اتخذوا الجزيرة مركزاً لنشاطهم والقرامطة الذين ظلوا يثورون هنا وهناك حتى أيام سيف الدولة نجد هناك قوتين عظيمتين أولاهما القبائل العربية وثانيتها القبائل الكردية . وقد سلك الحمدانيون في سبيل إخضاع العرب مسلك اللين تارة والبطش تارة أخرى، ولجأوا في جذب الأكراد اليهم إلى سياسة حكيمة فصاهروهم وبذلك إرتبطوا معهم برابطة الخؤولة ووفروا على أنفسهم قلاقل هذه العناصر القوية .

وسوف نرى إن الحمدانيين أقاموا دولتهم أول الأمر في الموصل منذ سنة ٢٩٣ ثم أخذ ناصر الدولة يبسط نفوذه في إقليم الجزيرة ويحاول إعلان إستقلاله . غير أنه لم يوفق في توفير عناصر الاستقرار لدولته فكانت حياته سلسلة من الصراع المرير مع معز الدولة البويهي وحين توفي الخصمان إستمر الصراع بين خليفتيهما أبي تغلب الحمداني وعضد الدولة البويهي . وكانت النتيجة ان فقد الحمدانيون سيادتهم على الجزيرة نهائياً . والحق ان إختلاف كلمة أولاد ناصر الدولة وتنازعهم على

السلطة كانا من الأسباب التي أدت إلى ضياع سلطانهم سنة ٣٦٩ـ ٩٧٩م ويجدر بنا أن نشير هنا إلى حقيقة هامة في تاريخ الأسرة الحمدانية هي أن الحب والألفة كانا أمراً نادراً بين أفرادها، وسوف نورد بعض الأمثلة لتصوير هذه الحقيقة :

غير أن سقوط الحمدانيين في الموصل لا يعني إختفاءهم من مسرح التاريخ فقد ظلت دولتهم قائمة في حلب حتى أواخر القرن الرابع : ذلك أن سيف الدولة ـ وهو أعظم أمراء الحمدانيين وأجملهم سيرة ـ استطاع بقوة عزيمته ومثابرته أن يقتطع أغلب بقاع سورية ويقيم فيها إمارة على حساب الأخشيديين . ولم يلبث هذا الأمير الحمداني ان بسط نفوذه على العواصم والثغور وبذلك امتدت سلطته من دمشق جنوباً حتى حدود الروم شمالا، غير أن هذه الأقاليم الشاسعة أخذت تتقلص وتنكمش في عهد خلفائه حتى إذا ما توفي سعيد الدولة سنة ٣٩٢ هـ استأثر لؤلؤ بالحكم وبذلك سقطت الدولة الحمدانية في حلب نظرياً، وان كانت قد سقطت عملياً منذ أيام سعد الدولة الذي خضع للفاطميين تارة وللروم تارة أخرى :

ولكي يتفهم الباحث تاريخ الحمدانيين جيداً يجب عليه أن يدرسه في ضوء علاقاتهم الخارجية . ذلك أن البقعة التي قامت فيها الدولة أصبحت في النصف الثاني من القرن الرابع ميداناً لاطماع قوتين عظيمتين هما البيزنطيون والفاطميون :

أما البيزنطيون فالعداء بينهم وبين المسلمين قديم يرجع في أصوله إلى أيام الخلفاء الراشدين، وقد ظل المسلمون منذ ذلك الوقت يقومون بغزواتهم السنوية على الحدود البيزنطية دون إنقطاع تقريباً. غير ان سيف الدولة أضفى على هذه الغزوات الرتيبة روحاً جديداً وأخذ على عاتقه

واجب الجهاد دون هوادة فاستطاع أن يوقف - إلى حين - توسع الروم بل استطاع أن يتوغل في بلادهم مراراً . غير أن جهوده انتهت بتفوق عدوه ، ذلك التفوق الذي ظهرت نتائجه في عهـد خلفائه ، حتى أصبح الروم أصحاب السيادة في أملاك الدولة الحمدانية وصاروا يهدفون إلى فتح بيت المقدس أي إعلان حرب صليبية . ومما هو جدير بالذكر ان هذه الحرب التي رفعت من ذكر سيف الدولة كانت - في الحق - وبالا على العواصم والثغور فقد عطلت الزراعـة وعرقلت التجارة وأودت بالسكان وشردتهم من ديارهم حتى أصبحت تلك الأقاليم قفراً يباباً ، ومع ذلك فقد نتجت عن هذه الحرب علاقات تجارية ودينية وحضارية بين المسلمين والبيزنطيين وبخاصة في أوقات الهدنة . ومن جهة أخرى فقد كانت هذه الحروب جهاداً قام به سيف الدولة على أحسن الوجوه فتصدى للخطر البيزنطي تصدياً شجاعاً .

أما العلاقات بين الحمدانيين والفاطميين فقد كانت عدائية منـذ البـداية مع ان الاسرتين كانتا تعتنقان المذهب الشيعي ؛ والحـق ان الروابط المذهبية لم تكن العنصر الحاسم بجالب الاطماع السياسية ، بدليل ان البويهيين الشيعة وقفوا في وجه الحمدانيين والفاطميين وكذلك دعا الحمدانيون للخليفةالعباسي رغم وجودخلافة شيعية فيمصر وهيالخلافة الفاطمية.وقدهدف الفاطميون منذالبداية الىالتوسع فيبلادالشامباعتبارها الحدود الطبيعية لمصر واتيح لهم بسط نفوذهم فيالقسم الجنوبي منها فلما لمسوا ضعف الأمراء الحمدانيين واستئثار الغلمـان بالسلطة اخـذوا يتدخلون في شؤون سورية الشمالية حتى تم لهم إعلان سيادتهم فيها منذ عهد سعد الدولة الذي خطب لهم وضرب النقود باسمهم ؛

يلاحظ الباحث في تأريخ الحمدانيين انه اصطبغ بصبغة عسكرية

منذ بدايته حتى نهايته حتى ليمكن القول ان الحروب ـ الداخلية والخارجية ـ استنزفت جل جهود الأمراء ووقتهم واموالهم ، وهذا أمر طبيعي في عهد كانت فيه القوة هي الفيصل النهائي. غير ان هناك ناحيتي مجد في تأريخ هذه الأسرة هما اللتان رفعتا من شأنهما في نظر التأريخ اولهما العناية بالثقافة : لقد كان غير قليل من الأمراء الحمدانيين شعراء مجيدين وكان الشعر والحرب عند سيف الدولة صنوين لايفترقان ، ومن هنا فتح بابه لكل عالم واديب حتى إجتمعت في عصره نخبة من المع رجال الفكر في التأريخ العربي. غير ان هناك حقيقة هامة يجب الا تغرب عن بالنا هي ان كثيراً من هؤلاء الأدباء كانوا وسيلة دعاية للحمداليين يتغنون بانتصاراتهم ويبررون هزائمهم ويدعون الناس إلى نصرتهم : لذلك كان أغلب أدب هذا العصر ارستقراطياً عاش على موائد الملوك واغفل تصوير الحياة العامة إلا في النادر القليل. ومع ذلك فيكفي سيف الدولة فخراً انه رعى المتنبي وابا فراس وابن خالويه والفارابي .

وثانيهما تصديهم الدائب ـ وبخاصة في عهد سيف الدولة المجيد ـ للخطر البيزنطي على حدود الدولة العربية بل والتوغل ـ في كثير من الحالات ـ داخل املاك الدولة البيزنطية وتهديدها في الصميم : وليس ادل على ذلك من كثرة ترديد اسم سيف الدولة في ادبيات البيزنطيين في ذلك العصر واعتباره من الشخصيات الشبيهة بالاسطورية .

ادى إنشغال الحمدانيين بالحروب الخارجية والمنازعات الداخلية الى نتيجتين سلبيتين خطرتين هما :ـ

١ـ انهم احتاجوا الى كثير من المال للانفاق على حروبهم وجنودهم فلجأوا الى سياسة مالية واقتصادية قاسية وبخاصة في الجزيرة حتى امتلك ناصر الدولة اكثر الاراضي ، واتبع اسلوباً متشدداً في جباية الخراج

وحذا حذوه ابنه ابو المطلب .

٢- انهم انصرفوا عن اي اصلاح ايجابي فلم يقدموا لرعاياهم خدمات اجتماعية او اقتصادية ، ومع ذلك فقد ادخلوا زراعة القطن الى الجزيرة وعنوا بالحبوب والغلات مما ادر عليهم ارباحاً طائلة .

وإذا انتقلنا الى طبيعة السلطة الحمدانية وجدناها غير ثابتة الاركان وبخاصة في الموصل ، حيث عصف البويهيون باستقلالها . اما في حلب فكانت اكثر إستقراراً وثباتاً بل وأكثر حضارة وتقدماً. وقد تمتع سيف الدولة بسيادة فعالة على سورية الشمالية والثغور ، وكان ذا علاقات ودية مع العباسيين . واتخذ الحمداليون لأنفسهم وزراء وكتاباً كانو أشبه بوزراء التنفيذ من حيث انهم خضعوا خضوعاً تاماً للامراء. ومما يحسن ذكره ان جميع الموظفين كانوا كذلك بما فيهم القضـــاة بدليل ان أبا حصين كان يستولي على ارث من يموت لمصلحة سيف الدولة . ومما يؤثر إن هذا لم يعين القضاة من الشيعة لانه راعى مذاهب غالبية السكان السنة وهو دليل على سعة افق هذا الأمير وعزوفه عن التعصب المذهبي الذي تميز به غيره من معاصريه، غير ان سعد الدولة اتخذ بعض القضاة من الشيعة لأن اتباع هذا المذهب ازداد عددهم بحلب بعد سنة ٣٥١هـ .

إن نظم الدولة الحمدانية كانت نموذجاً مصغراً لنظم الدولة الاسلامية ايام العباسيين الكنها لم تكن واضحة المعالم لأن الأمراء قبضوا على جميع السلطات بأيديهم واتبعوا سياسة مرنة لا تجري على قواعد ثابتة ، غير ان الحمدانيين وجهوا عناية خاصة الى الجيش باعتباره الأداة المنفذة لسياستهم العسكرية . وكان الجيش الحمداني يتكون من عدة عناصر على غرار الجيوش الاسلامية في القرن الرابع فنجد فيه العرب والترك والديلم وغيرهم. الا ان الطاعة لم تكن سائدة بين الجند وبخاصة

في العهود المتأخرة ، وذلك بسبب ضعف الامراء وإهمالهم الحرب مع البيزنطيين ، ومن هنا يمكن القول ان الغلمان الذين كونوا نواة الجيش الحمداني أيام سيف الدولة وناصر الدولة اصبحوا اداة هدامة في جسم الدولة الحمدانية فيما بعد وكانوا من عوامل ضعفها وسقوطها .

هذا موجز حاولت فيه ان ارسم للقاريء صورة مصغرة للبحث الذي اضعه بين يديه ، وسوف يتضح له مسبقاً انني لم اكرس بحثي لنواحي النشاط السياسي والحربي للدولة الحمدانية في الموصل وحلب فحسب ، بل خصصت فصولا لدراسة نواحي الحضارة في مجتمع الدولة الحمدانية كذلك ، وفي الوقت نفسه فانني وجهت عناية خاصة الى العلاقات الخارجية وبخاصة مع البيزنطيين باعتبار ان الحرب الحمدانية ـ البيزنطية تمثل صفحة خطيرة من صفحات النزاع بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي ، حتى لنستطيع اعتبارها تمهيداً للحروب الصليبية باعتبار ان فتح بيت المقدس كان الهدف في هذه وتلك .

وختاماً فانني اود ان اقدم القاريء تبريراً لاختياري هذا البحث الذي كان في الأساس رسالة نلت بها درجة الدكتوراه في التأريخ الاسلامي من جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ ، ذلك انني اردت يومذاك ان اختار موضوعاً لم يكتب فيه مرجع جامع بالعربية ، وان يكون ضمن نطاق تأريخ العراق الاسلامي ، فاقترح علي اساتذتي ان اختار موضوع الحمدانيين لان ما كتب فيه لم يزد عن بحوث متفرقة يتناول اغلبها حياة سيف الدولة باعتباره اشهر امراء الحمدانيين في نظر الشرقيين والغربيين على الاطلاق ، في حين ان تأريخ الحمدانيين في الموصل والجزيرة ـ بصورة اخص ـ لم ينل كبير اهتمام من المؤرخين ، فلعلي استطيع ان اساهم في احياء ناحية من تأريخ العراق الاسلامي .

التي اذ انشر هذا البحث (بعد ادخال تعديلات جوهرية فيه) بعد انصرام كل هذه السنوات ، اود ان اوضح للقاريء بأن ظروفاً خاصة فوق طاقتي هي التي منعتني من نشره قبل هذا اليوم. وانني إذ افعل الآن إنما اشعر بنوع من رضى الضمير لاداء مهمة علمية ارجوا ان تكون ذات جدوى في وقت نحن احوج ما نكون فيه الى الجهد العلمي والله ولي التوفيق :

في المصادر

استطيع ان اقسم المصادر التي افدت منها في هذا البحث الى طائفتين ، الاولى تشمل المصادر الخاصة بتأريخ الحمدانيين ، والثانية تشمل المصادر التي تبحث في التأريخ العربي الاسلامي على وجه العموم. ولا اريد هنا ان اقدم بحثاً مسهبا عن جميع الكتب التي افدت منها ، وهي مجموعة ضخمة ، مخطوطة ومنشورة ، قديمة وحديثة ، عربية واجنبية ، وانما سأؤكد على الكتب التي كانت ذات قيمة اساسية بالنسبة لموضوع بحثي ، خاصة وقد زودت القارىء بثبت كامل لقائمة المصادر في آخر الكتاب يمكنه الرجوع اليها إذا شاء ذلك .

وتعتبر مخطوطة « كتاب اخبار الزمان في تأريخ بني العباس او كتاب الدول المنقطعة » لجمال الدين بن ظافر من اعظم الوثائق في تأريخ الحمدانيين وقد عاش هذا المؤرخ في مصر ايام الايوبيين وتوفى سنة ٦٢٣هـ ويتضمن كتابه القيم هذا اخبار الدويلات الاسلامية المستقلة مرتبة على السنين فبدأ بسنة ٣٢٨ وانتهى الى سنة ٥٧٥ وارخ للدويلات الحمدانية والساجية بالجبال والطولونية والاخشيدية والفاطمية بمصر والصنهاجية بالمغرب والأندلس . ويوجد من هذا الكتاب مجلد واحد في دار الكتب المصرية وهو صورة شمسية عن مخطوطة المتحف البريطاني. ومما يميز هذا الكتاب انه امدنا بمعلومات جديدة عن الحمدانيين لم ترد في الكتب الاخرى وبخاصة فيما يتعلق بالوزراء والحجاب والقضاة، فضلا عن انه أسهب في علاقات الحمدانيين الخارجية وأحوالهم الداخلية .

ولا يقل كتاب « زبدة الحلب من تأريخ حلب » ، لكمال الدين بن

العديم (٥٨٨ ـ ٦٦٠ هـ) قيمة عن كتاب ابن ظافر ؛ وقد اكتشف العلماء الغربيون قيمة هذا الكتاب ، فتصدى له المستشرق فريتاغ ونشر منه فصولا عدة ، كما قام بترجمة النص العربي إلى اللاتينية وعلق عليه وذلك في سنة ١٨١٥م، ثم أخذ يوالي نشر فصول أخرى منه في السنوات التالية. وقام المستشرق مولر بترجمة القسم الخاص بحوادث الفترة الواقعة بين سنتي ٣٩٤ ـ ٤٧٢هـ . اما تحقيق المخطوطة ونشرها كاملة فعمل قام به المؤرخ السوري الدكتور سامي الدهان معتمداً المخطوطة الاصل الموجودة بباريس مع مقابلتها على النسخة الثانية الموجودة في لنينغراد وقد أصدر الدكتور الدهان « الزبدة » في ثلاثة اجزاء بين عامي ١٩٥١ ـ ١٩٦٨ ، فقدم بهذا العمل الجليل خدمة جليلة للتأريخ العربي ، خاصة وقد بذل جهداً فائقاً في اغناء الاصل بالشروح والتعليقات .

كان عصر ابن العديم ـ أواخر القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع ـ عصراً حافلا بالمؤرخين الثقاة أمثال ياقوت الحموي وابن خلكان وابن شداد ، وكلهم كانوا من أصدقاء ابن العديم الذين لازمهم فأفاد منهم وأفادوا منه . ولما كان ابن العديم متصلا بالأوساط الرسمية العليا واتيح له ان يختلط بالملوك والوزراء وان يقوم بسفارات سياسية بينهم ، فانه استطاع أن يطلع على بواطن الامور . ومن ثم يعتبر كتابه وثيقة بالغة الاهمية . وفيما يتعلق بالحمدانيين فالباحث لا يستغني عن هذا المرجع وبخاصة فيما يتعلق بوصف حلب وبالفترة الاخيرة من حكم خلفاء سيف الدولة أي فترة استبداد الغلمان والمماليك .

ويعتبر كتاب « العيون والحدائق » الذي استفدت من نسخة مصورة لمخطوطته الوحيدة (١) من الكتب ذات الفائدة المحققة وبخاصة فيما

---

(١) برلين تحت رقم ٩٤٩١ .

يتعلق بالحمدانيين خلال عصر امرة الامراء وبدايات العصر البويهي ، وهو الجزء الرابع من هذا الكتاب (١) ويختلف كتاب العيون عن مسكويه مثلا في انه اعتمد على الفرغاني ، وقد أورد معلومات طريفة عن علاقة ناصر الدولة بالمتقي وأمير الامراء بجكم ، وتعرض لنواحي جديدة في تاريخ الحمدانيين خلال هذه الفترة بالذات .

وقد أفدت من مخطوطة « الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة » لابن شداد (المتوفي سنة ٦٨٤ هـ) وتوجد منها صورة شمسية في جامعة الدول العربية .. والجديد الذي أتى به هذا المؤرخ هو وصفه لبناء حلب وابوابها واسوارها وقصورها ومساجدها ومدارسها ومشاهدها وأحوالها الاقتصادية والبشرية ، أما فيما عدا ذلك فهو تاريخ عام ليس فيه جديد اللهم الا بعض الحقائق عن حروب سيف الدولة مع الروم . (٢) ولا يقل عن كتاب ابن شداد أهمية كتاب « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » فهو من أوثق المصادر في تاريخ حلب وآثارها ومعاهدها وجوامعها ومدارسها وعن هذين الكتابين أخذ المؤرخون المحدثون الذين كتبوا على حلب كالغزي في كتابه « نهر الذهب في تاريخ حلب » والطباخ في « اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » وغيرهما .

ولعل من خير المصادر عن تاريخ الموصل مخطوطة ابي زكريا

---

(١) يشتمل على الفترة بين ٢٥٦ ــ ٣٥١ هـ / ٨٦٩ ــ ٩٦٢ م . ويبدو ان المؤلف عاش في القرن السابع الهجري . أما المخطوطة فترجع الى القرن العاشر .

(٢) غير انني وجدت فيما بعد ان هذا المؤلف القيم نشر في أجزاء ثلاثة ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ، وقد عني بنشر الجزء الاول منه الاستاذ دومينيك سورديل وصدر في سنة ١٩٥٣ ، وقام الدكتور سامي الدهان بنشر وتحقيق الجزءين الثاني والثالث ، وبذلك قدما خدمة جليلة للتراث العربي . هذا وقد صدر الجزء الثاني بتاريخ دمشق في سنة ١٩٥٦ والثالث الخاص بلبنان والاردن وفلسطين في سنة ١٩٦٢ .

الازدي «تأريخ الموصل» وهي مرجع قيم في تأريخ الموصل في العصرين الاموي والعباسي وقد أفدت منه فيما يتعلق بأحوال الموصل الاجتماعية والعمرانية وخططها وقبائلها . ولا يوجد من هذا الكتاب للأسف سوى الجزء الثاني وهو صورة شمسية بدار الكتب المصرية (١) .

ويمكن إعتبار مخطوطة الذهبي « تأريخ الاسلام من المصادر ذات القيمة بالنسبة لبداية الحمدانيين ، وقد رجعت إلى صورة شمسية لهذا الكتاب بمعهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة صورت عن نسخة المكتبة الاحمدية بحلب (٢) أما مخطوطة ركن الدين الدوادار المصري (المتوفي سنة ٧٢٥هـ) (زبدة الفكرة في تأريخ الهجرة) فلها قيمة خاصة فيما يتعلق ببدء ظهور الحمدانيين وعلاقتهم بالاكراد والقرامطة ، وقد وجدت لها صورة شمسية بمكتبة جامعة القاهرة عن مخطوطة جامعة اوبسالا ومكتبة جامعة اوكسفورد (٣) :

وتجدر الاشارة الى تأريخ الفارقي أو تأريخ ميافارقين لاحمد بن الازرق الفارقي (ولد سنة ٥١٠ هـ) الذي حققه الدكتور بدوي عوض ونشر في القاهرة في سنة ١٩٥٩ (١٣٧٩ هـ) ، وهو ذو أهمية في دراسة الدولة المروانية التي أعقبت الدولة الحمدانية وشغلت جزء من الاقاليم التي كانت تحت سلطتها . ويعتبر تأريخ ميافاقين هذا من الكتب الفريدة في بابها ، فقد كتبه ابن الازرق ليكون تأريخاً لمدينة ميافارقين حتى عصره (القرن السادس الهجري) محاكياً أمثال الخطيب البغدادي الذي

---

(١) تحت رقم ٢٤٧٥ غير ان هذا المؤلف القيم صدر مؤخراً في القاهرة (١٩٦٧) وقام بتحقيقه تحقيقاً علمياً جيداً الدكتور علي حبيبة ، مما أتاح لي أن أفيد من الكتاب فائدة أشمل .

(٢) تحت رقم ٦٥ / ٥٨٠ .

(٣) تحت رقم ٢٤٠٢٧ .

كتب تأريخ بغداد وتأريخ الموصل للأزدي وغيرها . ويعتبر الكتاب موسوعة للعصر الذي عاش فيه المؤلف حيث تحدث عن الامويين والعباسيين وذكر الوزراء وأرباب المناصب والامراء في الشام والعراق والجزيرة وأرمينية وفارس وعن علاقاتها ببعضها وبالخلافة العباسية وبالروم والفاطميين . ولما كانت مدينة ميافارقين من المدن الرئيسة في الدولة الحمدانية فأن الرجوع إلى هذا الكتاب ضروري لمعرفة تأريخ هذه المدينة وتطورها العمراني وولاتها وحكامها وخططها .

إن كتاب ابي علي مسكويه (١) « تجارب الامم وتعاقب الهمم » من أعظم المصادر وأوفاها عن علاقة الحمدانيين بالخلافة في العصر البويهي بصورة خاصة . ذلك ان هذا المؤرخ إشتغل خازناً لعضد الدولة البويهي وكان شاهد عيان فيما أورده عن تأريخ الحمدانيين في الموصل في عهد ناصر الدولة وأبي تغلب . وقد رافق مسكويه عضد الدولة في حملته على الموصل سنة ٣٦٨هـ واشترك بنفسه في أحداث تلك السنة التي شهدت نهاية أبي تغلب الحمداني . والحق إن كتاب مسكويه هذا ذو أهمية بالغة فيما يتعلق باحوال العراق والجزيرة في تلك الحقبة . ويزيد من قيمة المعلومات التي أوردها مسكويه خبرته الشخصية واطلاعه على الوثائق الرسمية من مصادرها الاصلية ودقته العلمية الواضحة في سرد المعلومات وحياده التأريخي الذي يثير الاعجاب . وحين يتصدى مسكويه إلى وصف شخصيات عصره ذات النفوذ نجده غير ميال إلى المبالغة والنفاق بل على العكس فهو يظهر مزاياهم وعيوبهم على حد سواء . مثال ذلك ان مسكويه لا يغالي كغيره من المؤرخين والشعراء - في وصف بطولات

---

(١) هناك خلاف في اسم هذا المؤرخ فبعضهم يقول أنه مسكويه على حين يسميه البعض الاخر ابن مسكويه ومن هؤلاء بروكلمان ودائرة المعارف الاسلامية .

سيف الدولة، بل إنه لا يتردد في ذكر أخطائه العسكرية التي أدت إلى هزيمته أحياناً في حروبه مع البيزنطيين . وقد أفدت إلى حد كبير من مؤرخين متأخرين عن مسكويه قاما بتكملة تأريخه وهما أبو شجاع (المتوفي سنة ٤٨٨) وابن القلانسي (المتوفي ٥٥٥) فالاول يكمل مسكويه ، حتى سنة ٣٨٨ في كتابه الذي إعتبره ذيلا لتجارب الامم ، وهو ذو قيمة بالنسبة لتأريخ الحمدانيين المتأخرين ، على حين يفيض إبن القلانسي في كتابه « ذيل تأريخ دمشق » في موضوع العلاقات بين الحمدانيين المتأخرين ومصر .

والحق ان كتاب محمد بن يحي الصولي « الاوراق » (١) مصدر ثر لتأريخ الحمدانيين أثناء توليهم أمرة الامراء أيام الخليفة المتقي (٣٢٩- ٣٣٣) ومما يزيد في قيمة هذا الكتاب ان مؤلفه كان مؤدباً للخليفتين المتقي والراضي (٣٢٢ - ٣٢٩) فجاءت كتاباته عن عصرهما مباشرة ودقيقة . لقد كان كتاب « الاوراق » أحد المراجع الاساسية التي نقل منها مسكويه حين وضع كتابه « تجارب الامم » الذي أشرنا اليه ، ولا تقتصر قيمة الاوراق على الاخبار العسكرية والسياسية لتلك الفترة المضطربة ، بل تتعداها الى المعلومات المالية والاقتصادية .

انه لمن نافلة القول الاشارة إلى أهمية الطبري وابن الاثير بالذات في هذا الصدد. فكتاب الطبري «تأريخ الرسول والملوك» الذي وصل به الى سنة ٣٠٢هـ من أعظم المصادر الاولية عن تأريخ الدولة العربية ، ومن ثم فقد أفدت منه ومن صلته التي كتبها عريب بن سعد القرطبي والتي

(١) توفي الصولي سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧م) وقد عني بنشره الاستاذ هيورث دن من مجلدين في دار الكتب المصرية أولهما قسم أخبار الشعراء وثانيهما « أخبار الراضي بالله والمتقي بالله » هذا ونشر في القاهرة سنة ١٩٣٥ (١٣٥٤ هـ) .

وصل بها إلى سنة ٣٢٠/٩٣٢م ، فائدة محققة فيما يتعلق بأحوال الخلافة العباسية الداخلية خلال القرن الثالث وبدايات القرن الرابع للهجرة . أما كتاب ابن الأثير « الكامل في التأريخ » فبالإضافة إلى كونه مكملاً لتأريخ الطبري ، فإنه ذو قيمة كبيرة جداً في دراسة تأريخ الحمدانيين في الموصل وحلب ، وبالنسبة للشؤون الداخلية في الدول العربية الإسلامية كذلك ؛ وتتضاعف قيمة ابن الأثير بالنسبة للدراسة للفترة الأخيرة من تأريخ الحمدانيين في الموصل وقيام المروانيين ، وكذلك في موضوع الحروب البيزنطية . وما دمنا بصدد التواريخ العامة فيمكن الإشارة إلى أهمية المسعودي في كتابه العظيم « مروج الذهب » وابن خلكان وابن خلدون والمعاجم المختلفة وكتب الطبقات والموسوعات ، وهي جميعاً مما لا يستطيع الباحث في التأريخ الإسلامي أن يستغني عنها .

أما عن علاقات الحمدانيين بالإخشيديين والفاطميين فقد أفادت من المراجع الخاصة بتأريخ مصر ككتاب « الولاة والقضاة » للكندي الذي نشره روفن جست و « المغرب في حلي المغرب » لابن سعيد و « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » لأبي المحاسن ، و « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » للمقريزي ، وجميعها من المصادر القيمة في علاقات الحمدانيين بمصر ، ولا بد لي هنا من أن أؤكد على أهمية « النجوم الزاهرة » بصورة خاصة فيما يتعلق بصلات الحمدانيين بالفاطميين ؛ ويمكن اعتبار كتاب القرماني « أخبار الدول » ، وكتاب ابن القلانسي « ذيل تأريخ دمشق » من المصادر الهامة في هذا الموضوع كذلك ؛

ولما كنت قد وجهت عناية خاصة لعلاقات الحمدانيين بالبيزنطيين وأسهبت في دراسة الحروب العربية البيزنطية وبخاصة في عهد سيف

الدولة ، فقد إحتجت إلى الرجوع إلى عديد من المصادر العربية والأجنبية في هذا الصدد : ومن الكتب القيمة عن حروب الحمداليين مع الروم تأريخ يحي بن سعيد الأنطاكي، وهو مؤرخ عربي مسيحي عاش في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، وقد إهتم الغربيون بالتأريخ الذي وضعه فعرفه شلمبرجر اليهم (١) ونقل مدليكييف مقتطفات منه في كتابه عن العرب والروم ، ثم أشترك مع كرانشكوفسكي في نشره سنة ١٩٢٤ ضمن مجموعة Patrologia Orientalis . ويقول مؤلفه انه كتبه ليكمل تأريخ سعيد بن البطريق المسمى « كتاب التأريخ المجموع على التحقيق والتصديق » الذي إنتهى به إلى سنة ٣٢٦/٩٣٧م. وقد قلد يحي سعيداً في منهجه وتحدث عن جميع الخلفاء والأمراء بإيجاز ووجه إهتماماً خاصاً إلى البطاركة في الشرق ووصل إلى سنة ٣٥٩/٩٦٩م وكتابه هذا عظيم القيمة في حروب العرب والروم ، وقد نشر كذلك في بيروت سنة ١٩٠٩م.

وإذا إستثنينا مسكويه وابن الأثير وإبن العديم - الذين أشرت اليهم - وجميعهم ممن أولى إهتماماً للحروب بين الحمدانيين والبيزنطيين، نجد طائفة من المراجع الأجنبية إنصبت على العلاقات العربية البيزنطية بصورة عامة وعلاقات الحمدانيين بالبيزنطيين بصورة خاصة، وهذه كتبت بالاغريقية أو بالسريانية وأفاد منها الباحثون المعاصرون من الثقاة في مجال الدراسات البيزنطية . وفي مقدمة هؤلاء الباحثين الكبار يقف فازيلييف الحجة الشهير في الدراسات البيزنطية ، والذي كرس كثيراً من أبحاثه للعلاقات بين العرب والروم ، نذكر منها بحثه الدقيق في « تأريخ كامبرج الوسيط »

(١) في كتابه عن الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس

Un Empereur Byzantin au disime siecle Nicephore Phocas (Paris 1840).

وكتابه الشهير « العرب والروم » والفصل القيم عن « بيزنطة والاسلام » الذي ظهر بين مجموعة من الدراسات نشرها المؤرخان لورمان بينز وموس تعنى بتراث الامبراطورية البيزنطية . خاصة وإن الميزة الأساسية لفازيليبف إنه إطلع على المصادر اليونانية والعربية معاً .

ويمكن أن نذكر من الأبحاث القيمة عن الحروب بين الحمدانيين والروم البحث الذي وضعه ليونهارت عن نقفوز فوكاس والحمدانيين ، وبحث شلمبرجر عن نقفوز نفسه . وقد إهتم المؤرخ رونسيمان بالحروب العربية ـ البيزنطية فى كتابه عن الامبراطور لهكابينوس وفى مؤلفاته الاخرى فى مجال التأريخ البيزنطي . ولقد أفدت كذلك فائدة محققة من مؤلفات بيوري وأومان وفينلي وديهل وكلهم من المؤرخين الثقاة فى البيزنطيات .

وسيجد قاريء هذا الكتاب إن فصولا وافية كرستها لجغرافية الأقاليم التي حكمها الحمدانيون وهي الجزيرة والشام ، ومنطقة العواصم والثغور التي تنقلت ملكيتها بين العرب والروم بحسب الأحوال : ومن ثم فقد رجعت إلى المصادر الجغرافية العربية الشهيرة وهي مؤلفات المقدسي والاصطخري وإبن حوقل وابن خردابه وقدامة والهمذاني وإبن رسته وإبن الفقيه وياقوت وغيرهم وبالاضافة الى الباحثين المعاصرين وفي مقدمتهم لسترانج وتعد هذه الكتب فى الوقت نفسه مراجع هامة عن الأحوال الاقتصادية والعمرانية

وتعد المصادر الأدبية ـ نثر أو شعراً ـ مصدراً غنياً لتأريخ الحمدانين الذين إزدان بلاطهم بباقة زاهية من الادباء والشعراء والمفكرين : لذلك فقد أفدت كثيراً من شعر الوأواء والصنوبري فى وصف الأديرة والرياض والقرى بحلب ، وكذلك من ديوان السري الرفاء فى وصف الموصل وأسواقها وحماماتها وحاناتها ، فى حين كان ديوان كشاجم كبير القيمة

فى وصف حفلات الأكل والشراب وآلات الطرب والعادات الاجتماعية فى ذلك العصر . وغني عن البيان إن ديواني المتنبي وأبي فراس (١) يعتبران مصدرين تأريخين هامين وبخاصة عن حروب سيف الدولة وغزواته فى أرض الروم. ولاتقل عن هذه الدواوين أهمية يتيمة الثعالبي التي تعتبر مصدراً رئيساً عن الحياة الثقافية فى عصر الحمدانيين. وعلى ذكر الكتب الأدبية أود أن أشير إلى كتاب التنوخي «جامع التواريخ» أو «نشوار المحاضرة» باقسامه المخطوطة منه والمطبوعة الذي يقدم صوراً قصصية زاهية تتعلق بحياة ناصر الدولة الأولى وعلاقته بوالده أبي الهيجاء وافراد اسرته، والحق ان هذه النصوص أشبه بالحكايات غير أنها تقدم بعض المعلومات الطريفة عن الحمدانيين :

وأجد لزاماً علي أن أشير إلى طائفة من المؤرخين المعاصرين الذين قاموا بمجهودات مشكورة فى موضوع الحمدانين ، والذين إنتفعت بمجهوداتهم فى كتابة هذا البحث . فمن المؤرخين المعاصرين الأجانب الذين عنوا بتأريخ الحمدانيين الاستاذ ماريوس كانار ، الذي تخطت مجهوداته العلمية الجدية التأريخ السياسي لهذا العصر فقام كذلك بجمع نصوص نادرة عن حياة سيف الدولة. وعني أشد العناية بموضوع العلاقات العربية - البيزنطية - ونشر المؤرخ الهندي صدر الدين كتاباً خاصاً بسيف الدولة وعصره ، وتعتبر دراسات سوفاجية باللغة الأهمية فى دراسة الحمدانيين فى حلب وكذلك كتاب الاستاذ فريتاخ الالماني عن الحمدانيين الذي هو بمثابة إنتخابات من إبن العديم :

---

(١) كانت فائدتي كبيرة جداً من شرح إبن خالويه لديوان أبي فراس ، وقد قام الدكتور سامي الدهان بنشره من مخطوطات عديدة . وفضلاً عن فائدته في سرد بعض الاحداث التاريخية فأنه ذكر أكثر أفراد آل حمدان وقرنهم باعمالهم من باب المدح .

وأخيراً نجد دراسات قيمة لبعض المؤرخين العرب المعاصرين منها كتاب ابن الشحنة «الدر المنتخب في تأريخ حلب» وكتاب الاستاذ سامي الكيالي عن « سيف الدولة وعصر الحمدانيين » والمؤلف القيم عن «خطط الشام» للمؤرخ محمد كرد علي وكتاب الغزي عن حلب والذي أسماه « نهر الذهب فى تأريخ حلب » ، ومؤلف سليمان صائغ الموصلي فى « تأريخ الموصل » الذي يعتبر من الكتب القلائل فى هذا الباب .

ولابد لي من أن أشير إلى إستفادتي الاكيدة من المعاجم المختلفة وكتب الطبقات والتراجم والأنساب مثل مؤلف البلاذري القيم في «أنساب الأشراف» « التنبيه والأشراف» للمسعودي وكتاب إبن حزم العظيم الأهمية« جمهرة أنساب العرب » ونهاية الآرب للنويري واصبح الاعشى للقلقشندي ومؤلف البكري «معجم ما استعجم» ومعجم الاستاذ كحالة عن القبائل العربية » « ووفيات الأعيان » للمؤرخ الحجة إبن خلكان و « معجم البلدان » و « معجم الادباء » لياقوت الحموي و « أعيان الشيعة »للعاملي ودوائر المعارف المختلفة وبصورة أخص دائرة المعارف الاسلامية ودائرة المعارف البريطانية .

أما بقية المراجع فسيجد القاري الكريم ثبتاً تفصيلياً بها فى آخر هذا البحث .

الباب الأول

ظهور الحمدانيين

الفصل الأول

روح العصر

إذا صح ما يقال من أن القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان قرن النضج الحضاري فى مجتمع الدولة العربية الاسلامية ، بحيث غدت بغداد محط أنظار العالم الوسيط ، وانصبت فيها كل جداول العلم والمعرفة وكذلك كل أفانين البذخ والوان الترف ، فإن هذا القرن شهد فى الوقت نفسه قمة الصراع الفكري والاجتماعي والسياسي ، كما شهد زخم الحركات المعارضة ذات الاصول المتباينة التي راجت فى الواقع منذ النصف الثاني للقرن الثالث .

وإذا أراد الباحث أن يجمل السمات العامة التي حددت روح العصر فإنه يجد ثلاث سمات بارزة - ميزت النصف الثاني من القرن الثالث والقرن الرابع - هي: أولا ، ضعف السلطة المركزية - أي الخلافة العباسية - وضياع وحدة الدولة الاسلامية ، واستقلال الأطراف استقلالا واقعياً ، وثانياً ، حدة التمايز الاجتماعي وسوء أحوال الطبقة العامة ، وتكدس الثروة فى أيدي طبقة اجتماعية محدودة العدد . وثالثاً ، إنتشار الحركات الثورية والنزعات الاجتماعية والدعايات الدينية المعارضة للسلطة المركزية .

والحق ان هذه السمات لايمكن أن تبحث بمعزل عن بعضها البعض فهي مترابطة ترابطاً عضوياً وذات تأثير متبادل : ذلك إن سوء أحوال الطبقات العامة أدى إلى إذكاء الحركات المعارضة ، التي وجد قادتها فى هذا التمايز الاجتماعي الحاد غذاء يذكي طموح الجماهير المعدمة ويدفعها إلى الارتماء فى أحضان أية دعوة سياسية أو إجتماعية أو دينية تدعو إلى تغيير

الأوضاع ، ولقد زاد في إقبال العامة على هذه الحركات ـ مهما كانت دوافع قادتها ـ إنها تبنت الدعوة الدينية كسبيل إلى تنفيذ برامجها السياسية أو الاجتماعية : إن هذه الحركات التي إمتلأت باخبارها مراجع القرنين الثالث والرابع للهجرة ، وجدت في ضعف السلطة المركزية عاملا مشجعاً ، أدى إلى دفع الكثيرين من الخارجين والطامعين والثائرين ـ الذين كسبوا الأنصار بسهولة ـ إلى تهديد الخلافة في عقر دارها ، فضلا عن تصديهم إلى إقتطاع الأجزاء البعيدة من جسم الدولة ، حيث كانت رقابة السلطة المركزية تتراخى شيئاً فشيئاً على مر الأيام ، وبذلك إستحقوا لقب « المتغلبين » الذي أضفته عليهم مراجع ذلك العصر .

غير ان ضعف السلطة المركزية وإن كان أحد الأسباب في تمادي الحركات الاستقلالية أو الانفصالية أو الاجتماعية ، إلا أنه يمكن أن ينظر اليه على أنه نتيجة لتزايد هذه الحركات وإنتشارها . فقد زاد في ضعف السلطة المركزية انها أضطرت إلى الاحتفاظ بجيوش ضخمة من المرتزقة تطلبت ميزانية هائلة للصرف على أرزاق الجند وتوفير سلاحهم وأقواتهم ودوابهم . وإذا كان الخارجون على الخلافة يعتمدون على أعوان يجلبونهم من بين الفلاحين بالدرجة الاولى ، فأن النتيجة الحتمية التي لرتبت على ذلك هي النقصان المطرد في الايادي العاملة والمنتجة ، مما أدى بدوره إلى شلل في الزراعة ، وبالتالي إلى نقص في موارد الدولة ، بحيث إنعكس الأمر على مراكز الخلفاء المتأخرين بالذات : كما أن مطالبة الجند ـ وقادتهم بالدرجة الأولى ـ بارزاقهم ، وزيادة هذه الأرزاق كلما تأزم موقف الخلافة واحتاجت إلى خدماتهم ، أظهر الخليفة بمظهر العاجز عن تلبية هذه الطلبات ، مما أدى بدوره إلى تمرد الجند ، وبالتالي إلى عزل الخليفة والتنكيل به . وقد اضطر

الخلفاء الضعفاء في سبيل المحافظة على سلطتهم بل وعلى سلامتهم ، إلى إتباع سياسة مالية واقتصادية استنزفت كل مدخرات بيت المال وافقرت الزراع والتجار والصناع بلـه الفلاحين. فاذا ما وصل إلى الحكم خليفة ذو مزايا ورغبة في الاصلاح ومقاومة فساد القادة العسكريين من الأتراك والديلم ، تألب عليه ذوو المصالح المباشرة في بقاء الفساد وتخلصوا منه بشكل أو بآخر .

ومن جهة أخرى فأن كثرة الثورات والحركات الانفصالية وتعدد الفتن أديا إلى إختلال الأمن وضياع الاستقرار في أرجاء الدولة، فبجانب الثائرين ذوي الاهداف المخلصة ظهرت فئات اجتماعية كانت وليدة هذه الأوضاع الشاذة، منها فئة مارست العنف بل والسطو والسرقة ، وأخرى إتخذت الحيلة إسلوباً لها ، وثالثة رمت نفسها في احضان السلطة تخدمها وتتملق لها وتعيش على موائدها، ورابعة آثرت التمرد على كل المواضعات السائدة فتنكرت للقيم والتقاليد والأفكار المحاطة بهالة من القدسية والاحترام، وخامسة انسحبت من المجتمع مؤثرة السلامة والبحث عن لقاوة الروح ، فاحتجت سلبياً على الفساد المستشري وراحت تعبر عن نفسها بطريق صوفي.

إن ظاهرة ضعف السلطـة المركزية لا تنفصل عن ظـاهرة تجزؤ الدولة واستقلال الأطراف ، كما ان هاتين الظاهرتين ترتبطان بظاهـرة تزايد الثورات والحركات الاجتماعية وحدة الصراع الفكري والاجتماعي. ويبدو للباحث إن هذه الظواهر كانت نتائج حتمية منسجمة مع طبيعة الأحوال وتطور المجتمع الاسلامي : إن نمو الحركة الفكرية ، وامتزاج الثقافات العالمية القديمة ، وتطور اقتصاد الدولة الذي تحول إلى الزراعة الواسعة القائمة على الاقطاع واستغلال الرقيق وأشباه الرقيق من الفلاحين، وتركز الاراضي بيد فئة محدودة من القادة العسكريين والتجار الاغنياء

والموظفين الكبار ، والنشار الدعاية الاجتماعية والدينية ، كل ذلك كان لابد أن يؤدي الى النتائج المتوقعة . فكيف يظل أي مجتمع ساكناً جامداً وهو يشهد كل هذه التحولات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية؟ إن كون الخليفة يتمتع بصفة من القدسية حفظت للخلافة عمراً أطول ، لم يكن كافياً لتفادى انفجار الثورات والحركات الانفصالية التي شهدها العصر .

والحق ان ظاهرة التجزؤ تبدو طبيعية ولا تثير استغراب المؤرخ العصري ، وهي ليست ظاهرة خاصة بالدولة العربية - الاسلامية، بل هي لصيقة بكل الدول الكبرى القديمة والحديثة والتي تضم أقاليم واسعة شاسعة متباعدة وشعوباً وقوميات وثقافات متباينة . صحيح ان الاسلام كان رابطة قوية وحدت بين جميع الأقوام التي اعتنقته وعاشت فى ظل دولته ، وحلت محل أية رابطة أخرى قبلية أو عنصرية، الا ان هذا الأمر يصح بالنسبة للعصور الاسلامية الأولى ولا يمكن ان ينطبق على العصور المتأخرة . ولا نريد هنا أن نخوض فى التفاصيل، بل تكفي الإشارة إلى ان تحول الخلافة إلى ملك موروث ، واتباع سياسة مالية واجتماعية ميزت بين الرعية ، وسوء تصرف كثير من الولاة والموظفين الاداريين وجباة الضرائب فى الأقاليم ، وبقاء الاتجاهات والنزعات القديمه - دينية وعنصرية - فى صلب المجتمعات القديمة التي دانت للاسلام نتيجة الفتوح، وظهور الحركات ذات الاصول المتباينة فى اطراف الدولة مستغلة فقدان أمل الكثيرين بالعدالة الاجتماعية ، كل ذلك وجه ضربة ماحقة الى وحدة الدولة الإسلامية والى تصدعها بل وتجزئتها .

وأود هنا أن أرد على ما يقوله كثير من الباحثين ، من ان كثرة الثورات وعدم الاستقرار فى العصور العباسية المتأخرة ، انما كان سببه

ضعف الخلفاء . فهذا العامل وحده لا يشخص الأسباب الأساسية التي تفسر هذه الظاهرة . لقد استطاع ابو جعفر المنصور مثلا ان يكبح جماح حركات المعارضة ويقضي على الحركات الخطيرة التي شهدها حكمه ، إلا ان تفوق ارادته وعزمه الراسخ وزهده في الترف لا تفسر وحدها نجاحه ، كما ان نقيض صفات المنصور وهي ضعف الارادة والانهماك في الترف لا تفسر وحدها كذلك تفاقم الثورات والحركات الاستقلالية والانفصالية في عهود الخلفاء المتأخرين . إننا يجب ان نبحث عن الأسباب الأساسية فيما اصاب المجتمع من تحولات اقتصادية واجتماعية وفكرية اخذت تتبلور حتى أسفرت عن النتائج التي اشرنا اليها .

ويجب علينا هنا ان نؤكد أمراً هاماً ذا علاقة وطيدة بظاهرة تجزؤ الدولة ، وهو ان الأقاليم التي ضمت الى الدولة الاسلامية عن طريق الفتوح السريعة ، لم يتوفر لها الوقت الكافي للدخول في وحدة عضوية مع مركز الدولة . ان حركة الفتوح السريعة وان غيرت شكل الارتباط السياسي ، إلا انها لم تكن كافية لتغيير النظام الاجتماعي والعلاقات بين الطبقات في تلك المجتمعات تغييراً أساسياً . وقد عرقل الوصول إلى هذا الهدف ، إن الاساليب التي اتبعها الـولاة والموظفون الماليون ـ بعد إنقضاء عصر الخلفاء الـعـادلين والاقوياء ـ أثارت ردود فعل سيئة لدى أهالي تلك الاقاليم ، الذين كانوا يطمحون إلى العـدالة الاجتماعية التي وجدوها في تعاليم الاسلام وحرص عـلى تحقيقها الخلفاء الاول . فقد لجأ كثير من الولاة الى استنزاف اكثر ما يمكن استنزافه من المال من الولايات التي انيطت بهم ، بل إعتبرها بعضهم على انها ملك شخصي يجب أن يدر عليهم المال والنشب مستعينين بحاشية من الموظفين والاداريين والماليين أكثر جشعاً ، وما دام الخليفة بعيداً عنهم ، ووسائل

الردع كادت أن تكون معدومة لإنشغال الخليفة بشؤونه الخاصة وبمشاكل العاصمة وما حولها ، ودفع أخطار الجند المرتزقة من الأتراك والديلم ، فقد خلا الجو تماماً لكل طماع طماح أوكلت اليه ادارة إقليم من تلك الاقاليم :

يضاف الى كل ذلك ان المجتمع في الاقاليم التي ورثتها الدولة الاسلامية من الروم والفرس ، كان مجتمعاً طبقياً وإن أدى دخول الاسلام فيه الى تخفيف الفوارق الطبقية . وقد ظهر فيما بعد ـ أي في العصر الاموي ـ تمايز جديد هو اقامة فروق بين العرب والموالي كان نتيجتها ظهور حركات المعارضة التي إتسمت بطابع العنف وتبني أفكار وعقائد قديمة والتي كان ميدانها الاقاليم الشرقية من بلدان الخلافة . كما ان تعدد الاجناس والعناصر ضمن اقاليم الدولة الاسلامية ، والتي لم تندمج ببعضها اندماجاً كلياً ، تحول ـ فيما بعد ـ الى عامل لعب دوره في ذر قرن الخصومة والشحناء . ذلك ان هذه الفروق اختفت أول الامر تحت تأثير العقيدة الدينية ، أما حين تقدم الزمن فقد نشأت عصبيات بين الاجناس والالوان والعناصر تردد صداها في أدبيات القرنين الثالث والرابع . فقد ألف الجاحظ رسالة للمفاضلة بين البيض والسود وأخرى في الرد على النصارى (١) وفي فترة إستبداد الأتراك في النصف الثاني من القرن الثالث والثلث الاول من القرن الرابع ، اشتدت كراهية الناس لهم (٢) وخاصة حين عرقل شغبهم المستمر أسلوب الحياة المعتاد للناس وأثر على معيشتهم . وحين استبد الديلم بالامور على عهد البويهيين (٣٣٤ ـ ٤٤٧ / ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م)

---

(١) مجموعة رسائل الجاحظ « مصر » .

(٢) انظر ابن الاثير جـ٧ ص١٣٩ « مصر » .

ضاق الناس بهم ذرعاً » وثار أهل الموصل على الديلم والاتراك (١) كما نجد الناس «لا تقنع إلا بقتل الديلم» (٢) ومن جهة اخرى يشتد العداء وتحتدم الصراعات العنيفة الدامية بين الاتراك الذين فقدوا مركزهم وبين الديلم الذين احتلوا هذا المركز (٣) :

ومن جهة اخرى انقسم الناس في عاصمة الدولة نفسها الى طبقتين اثنتين ، طبقة عليا تركز في ايديها المال والجاه والنفوذ ، وأخرى - وهي الغالبية الساحقة - طبقة فقيرة تسعى سعياً دائباً لا هوادة فيه من أجل لقمة العيش ، فتظل تحيا على الكفاف : وبين هاتين الطبقتين فئات إخرى عاشت على افضال الطبقة العليا فاحترفت الوظائف او العمل الترفيهي أو الادبي . ويروى في هذا الصدد عن الفضل بن يحى البرمكي(٤) انه قسم الناس في المجتمع العباسي الى أربع طبقات ، « الاولى : ملوك قدمهم الاستحقاق ، والثانية : وزراء فضلهم الفطنة والرأي ، والثالثة : علية انهضهم اليسار ، والرابعة : أوساط الحقهم بهم التأدب : والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء ، لكع لكاع وربيطة اقضاع ، هم احدهم طعمه ونومه » . وهذا الوزير المترف يرى في العامة رأي طبقته فيهم ، وانظر الى ما يقوله وزير آخر هو المؤرخ ابو شجاع(٥) « لا يستظرف من الغوغاء تناقض الاهواء ولا يستنكر للرعاع اختلاف الطباع . وهم أجرأ الخلق اذا طمعوا واخبثهم اذا قمعوا » . واليك ما يقوله المثل الشائع

---

(١) أبو شجاع ، ذيل تجارب الامم ص ١٧٥ .

(٢) نفس المصدر والمكان .

(٣) انظر مثلا مسكويه ، تجارب الامم ج ٢ ص ١٠٠

(٤) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان (ليدن) ص ١

(٥) ذيل تجارب الامم ص ١٧٨

يومذاك في العبيد : « ان العبد اذا جاع نـام واذا شبـع زنى (١) » وهذه الأقوال جميعاً الما تعبر أوضح تعبير عن وجهة نظـر الارستقراطية في العامة من جهة، وهي نظرة قائمة على الاحتقار والأزدراء ، وعن الحقد على ابناء هذه الطبقـــة والدعوة الى اضطهادها بل وتجويعها لأسكات صولها وابعاد خطر تحركاتها وثوراتها .

ومن تلك الفئات الـــتي عاشت على موائد الطبقة العليا القصاصون والشعراء وكتبة الرسائل والمنجمون ، وهم يمثلون من الناحية الاجتماعية انتقالا بين الطبقة العامة والطبقــة العليا ، فمن هؤلاء من كان يعيش وفق الصدف ومنهم من كان يســعده الحــظ فيصل بقابلياته الى أوسـاط البلاط قصور السـادة ، ومنهم من كان يعيش منبوذاً مطروداً من المجتمع . كما نجد في قعر الســلم الاجتماعي ـ فوق العبيد وانصاف العبيد ـ الحواة والشحاذين وطوائف المشـردين والمحتالين والظرفاء من طوائف بني ساسان(٢) .

ونحن نعثر في بطون المراجع على فئات اجتماعية منبوذة أخــرى أسلفتَ القول انها خرجت على العرف السـائد ، ومارست ـ في سـبيل العيش ـ اسلوباً مستنكراً كالعيارين والشطار الذين يقول ابن الاثير (٣) في حوادث سنة ٣١٥ انهم عاثوا في العاصمة فساداً واكثروا فيها النهب والسلب . ونسمع في سنة ٣٣١ عن لص كبير ببغداد يدعى ابن حمدي يترأس عصابة كبيرة احترفت انتهاب اموال اغنياء بغداد . وقد عجزت الخلافة عن كسر شوكته ، حتى ان أمير الامراء ابن شيرزاد اتفق معه

---

(١) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ص ٢٧٨ .

(٢) يمكن الرجوع الى مقامات الهمداني وبديع الزمان بهذا الصدد .

(٣) جـ ٨ ص ١٧٣ (دار صادر)

على ان يظل يجبي الأتاوات ويؤدي مبلغاً معينا له . ويبدو ان ابن حمدي ارهب وجهاء البغداديين فهجروا بيوتهم وطلبوا من يستأجرها بالمجان ، واغلقت عدة حمامات وتعطلت اسواق ومساجد (١) . وهو امر يدل في الوقت نفسه على اضطراب حبل الأمن وانعدام الاستقرار في تلك الفترة . ونسمع كذلك عن جماعة « العـراة » الذين يردد الطبري(٢) ذكرهم ويورد بيتا من الشعر يصف فيه عمرو الوراق وضعهم الاجتماعي:

عريان ليس بذي قميص   يغدو على طلب القميص

كذلك يشير الطبري(٣) في مواضع شتى الى «الغوغاء» و«العراة» و«السفلة» و « العيارين » واستمع الى ما يقوله ابن الاثير (٤) عن فئات غريبة من العامة يردد ذكرهم في حوادث الفتنة ببغداد في سنة ٣٦١ « وتحزب الناس وظهر العيارون وأظهروا الفساد وأخذوا أموال الناس وكثر بين العامة الذين نفروا للغزاة ضد الروم فئات من أصناف البنوية والفتيان والسنية والشيعة والعيارين» والمهم هنا ان مؤرخينا القدامى وصموا هذه الفئات من العامـة بالافساد دون النظر الى دوافعهم . فمن الواضح ان «الغوغاء» و العيارين وغيرهم انما كان يحركهم الجوع ، كما ان فتنة ٣٦١ الما كانت احتجاجاً على اهمال الجهاد ضد الروم وتعرض حدود الدولة الاسلامية (دار الإسلام) لخطر الغزو الاجنبي :

غير ان المؤرخ الحاذق مسكويه ينصرف الى دراسة النتائج الاجتماعيـة التي ترتبت على الكساد الاقتصادي الذي ساد اثر دخول البويهين بغداد

---

(١) كتاب العيون ورقة ٢٠٧ أ . كذلك آدم متز نقلا عن المنتظم ص ٧٢ أ
(٢) جـ ٧ ص٦٦-٦٨ ، (مطبعة الاستقامة)
(٣) نفس المرجع جـ ٧ ص ٦٨ ، ٦٩ .. الخ (الاستقامة)
(٤) جـ٨ ص ٦١٩ ـ ٢٠ (دار صادر ـ بيروت)

سنة ٣٣٤/٩٤٥م «فيقول» وفي هذه السنة افرط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتة واكل الناس الموتى والحشيش والميتة والجيف. وكانت الدابة اذا راثت اجتمع على الروث جماعة ففتشوه ولقطوا ما يجدون فيه من شعير واكلوه وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهر الطريق وهو تالف ضراً فيصيح الجوع ! الجوع ! الى ان يسقط ويموت : وكان الانسان اذا وجد اليسير من الخبز ستره تحت ثيابه . وخرج الضعفى الى البصرة خروجاً مفرطاً متتابعين لاكل التمر فتلف اكثرهم في الطريق، ومن وصل منهم مات بعد مديدة » : وكانت الدور والعقارات تباع برغفان واخذ الدلال بحق دلالته بعض ذلك الخبز » : وعلى الرغم من الصفة الاسطورية والمبالغة الواضحة في هذه الاقوال فهي تدل على سوء الاحوال العامة التي نتجت عن الفوضى السياسية والعسكرية التي شهدها ذلك العصر :

فهذه النتائج كانت حتمية ولا مفر منها اذا عرف القارئ مقدماتها: ان قراءة النصوص الكثيرة حول النصف الثاني من القرن الثالث والثلث الاول من القرن الرابع تجيز لنا ان نسمي هذا العصر بعصر الجند الاجانب المرتزقة او عصر نفوذ المماليك والغلمان . ان هؤلاء المرتزقة لم يخدموا هدفاً او عقيدة ولا نظاماً معيناً ، انما منحوا ولاءهم الى من كان يدفع لهم اجراً اعلى وارزاقاً اكثر تسربت الى جيوب قادتهم بالدرجة الاولى . وقد لحقت كل فئة من هؤلاء الجند المماليك بسيد لها تسمت باسمه ، ثم ما لبثت ان تحولت فيما بعد الى فئات ذات اثر كبير في الحركات السياسية والعسكرية منذ مقتل المتوكل في سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م) ومن هذه الفئات العسكرية على سبيل المثال لا الحصر (البابقية) نسبة الى بليق (١) والهارونية والمؤنسية (٢) وغلمان ام المقتدر والحجرية

---

(١) وترد اليلبقية نسبة الى يلبق « مسكويه جـ١ ص ٢٦٠ » .

(٢) نسبة الى مؤنس الخادم . وسيرد ذكره كثيراً .

والساجية (١) وغيرهم . وكانت هذه الفرق العسكرية من الترك والديلم والفرس والمغاربة والسودان وغيرهم دائمي الشكوى من تأخر ارزاقهم، واخبار تمرداتهم وشغبهم متواترة ومتشابهة تتكرر في جميع مراجع ذلك العصر . وقد لجأ المسؤولون في حالات افلاس الخزينة الى اساليب ملتوية وغير شرعية لدفع أرزاق هؤلاء الجند دفعاً لخطرهم وشرهم ، فلجأ الوزراء الى مطالبة مياسير التجار بأموال يعجلونها، ويكتب لهم بها سفاتج ، وهذا ما يمكن ان يطلق عليه حسب المصطلح العصري القرض الداخلي . فاذا اختفى التجار خوفاً من استنزاف اموالهم الذي لم يقف عند حد، لجأت السلطة الى ايقاع العقوبات بهم بل لجأت عند تأزم الاحوال الى مصادرة الوزراء انفسهم ، فصودر ابو عبدالله بن عبدوس وعلي بن عيسى واخوه وعلي بن محمد البريدي وعلي بن الفرات ومحمد الخاقاني وحامد بن عباس وابن مقلة ، بل صودر اغلب الوزراء على يد من يخلفهم في الوزارة (٢) والحق ان اغلب هؤلاء الوزراء انما جمعوا بدورهم ثرواتهم بطرق غير مشروعة وبلغ بعضهم قمة الثراء .

ان دراسة الوضع الاقتصادي يفسر لنا كثيراً من الاحداث التي ملأت القرنين الثالث والرابع، كما يفسر حدة الصراع الفكري وانتشار الحركات ذات الاصول المتباينة وذات المضمون الاجتماعي . ففي هذا العصر نشأ الاقطاع والملكية الواسعة للاراضي الزراعية . واراضي الاقطاع هي التي اقطعها السلطان لشخص ما فتصير له رقبتها اي تصبح ملكاً له (٣). وقد

---

(١) فرق عسكرية من المرتزقة نسبت الى القواد وينسب الساجية الى يوسف ابن ابي الساج والي اذربيجان وارمينية في عهد المقتدر « ابن الاثير ج٨ ص ٩٨ » .

(٢) انظر بهذا الصدد مسكويه ج٢ في مواضيع مختلفة وكذلك الصولي . الاوراق في مواضيع مختلفة .

(٣) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٤٠ .

تعددت أنواع الإقطاع فكان هناك إقطاع التمليك وهو ما يتملكه صاحبه ويورثه ، واقطاع الاستغلال وهو ما يقابل الاقطاعات العسكرية (١) كما منح كبار الموظفين أراضي واسعة بمثابة إقطاع ، فأدى هذا وبخاصة إقطاع التمليك إلى نشوء أراضي الملك (٢) . وكانت هناك أراضي بور موات أراد الخلفاء إحياءها فمنحوها إلى الاغنياء الذين إستغلوها لمصلحتهم وجلبوا لها رقيق الأرض ، ولعل خير مثل على ذلك الأراضي المحيطة بالبصرة (٣) .

ويعتبر الخليفة وكبار الموظفين والقواد العسكريين أهم كبار ملاك الأراضي ، لان صغار الملاك كانوا يلجئون أراضيهم اليهم . وبجانب هؤلاء نجد كبار التجار الذين جمعوا ثروات طائلة عن طريق جلب البضائع النادرة وأدوات الترف لتلبية حاجة قصور الخلفاء والأمراء ، حتى بلغت ثروة إبن الجصاص ـ وهو تاجر عاش فيالقرن الثالث ـ عدة ملايين (٤) وامتلك تاجر بصري آخر عشرين مليون دينار (٥) فـإذا التفتنا إلى غالبية الناس وجدناهم ـ كما أسلفنا ـ يمثلون الطبقة العامة ما بين صانع وفلاح وعاطل عن العمل . إلا أن أسوأ أنواع الإقطاع التي شهدها القرن الرابع هو الإقطاع العسكري . فبعد أن فتح معز الدولة البويهي بغداد (في سنة ٣٢٤/٩٤٥م) منح الإقطاعات إلى كبار جنده ليسكتهم ويرضيهم (٦) الكنهم تمسكوا بها حين أخذت تدر عليهم

---

(١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٣) الاصطخري ، مسالك الممالك ص ٨٠ .

(٤) مسكويه جـ٢ ص ٣٥ .

(٥) جرجي زيدان ، تأريخ التمدن الاسلامي جـ ٥ ص ٤٢ .

(٦) مسكويه جـ ٢ ص ٩٧ .

الأرباح الطائلة ، فإذا وجدوا أن الأرض لا تعود عليهم بارباح مجزية ردوها فعوضوا عنها بغيرها أحسن منها . وكانت النتيجة الواضحة أن الأراضي المعادة تركت مخربة مهملة(١). هذا من جهة ، ومن جهـة أخرى وقع العبء على كاهل الفلاحين « فأتت عليهم الجوائح ورقت أحوالهم ،فمن بين هارب حال وبين مظلوم صابر لا ينصف، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره ويوافقه(٢) .

ان العصر الذي ظهر فيه الحمدانيون على مسرح الأحداث هو نهاية القرن الثالث على نحو ما سنرى . وقد مكنت الأوضاع العامة التي أشرنا اليها الحمدانيين وغير الحمدانين من الأفراد والأسر من ذوي الطموح والثروة والجرأة ان يظهروا بقوة عـلى مسرح التأريخ ليلعبوا دورهم ويفرضوا إرادتهم . وقد رأينا ان المجتمع الإسلامي قد شهد تحولات كبرى سياسية واجتماعية وفكرية واقتصادية . وهـذه التحولات - كما أسلفت - ليست ظواهر غريبة وهي ليست مقصورة على مجتمع الدولة العربية الإسلامية ، وإنما هي نتيجة حتمية لتوسع الدولـة الهائل وكثرة شعوبها واجناسها وتباين ثقافاتها وحضاراتها ، وقد شهد العصر العباسي حركات دينية اجتماعية فلسفية سياسية معاً هددت كيان الدولة في الصميم فحركات الخوارج والقرامطة وغيرها إنما كانت مظاهر لحركة واحدة تمثل الضيق الاجتماعي والأهداف الإجتماعية في ذلك العصر . ان التبدل الذي طرأ على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية أدى إلى قيام كثير من الثورات والفـتن في القرنين الثـالث والرابع نجـد جـذورها في القرن الثاني .

---

(١) نفس المصدر جـ ٢ ص ٩٧ .

(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ٩٧ .

ان ظهور الثائرين ومؤسسي الدويلات المستقلة والمتمردين على الخلافة في المشرق والمغرب - بل وفي مركز الدولة كذلك - نجد تفسيره في التحولات الكبرى التي طرأت على المجتمع الاسلامي والتي المحنا الى خطوطها العريضة . وثمة ملاحظة أخيرة ان هذه المقدمات وحدها هي التي تتيح انا المضي في دراسة التأريخ السياسي للخلافة العباسية وللحمدانيين بالذات الذين كانت دولتهم وليدة هذه الظروف .

الفصل الثاني

نسب الحمدانيين

ينتسب الحمدانيون إلى جدهم أبي العباس حمدان بن حمدون وبه تسموا ، وهو أقدم فرد في هذه الاسرة له دور في التأريخ ، فكأن الأسرة الحمدانية تبدأ به ، أما من قبله فمغمورون لا نعرف عنهم سوى أسمائهم وبعض قصص الفخار التي رددها ابوفراس في شعره(١). وحمدان هذا هو ابن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد بن المثنى بن رافع بن غطيف بن محربة بن حارثة بن مالك بن عبيد بن عدي بن اسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب (٢)؛ أما المسعودي فيخالف قليلا سلسلة النسب هذه فيقول (٣) : إنه حمدان بن الحارث بن منصور بن لقمان ، ثم يعود فيتفق مع ابن خلكان وغيره في تتمة نسب الحمدانيين. وقداشارت بعض نسخ ديوان ابي فراس(٤)التي رواها ابن خالويه إلى ان جد الحمدانيين هو احمد بن حمدون ، غير ان اكثرها ذكرته بإسم حمدان . وقد اشار العاملي (٥) إلى نسخة خطية

---

(١) الديوان ـ تحقيق الدهان ـ ص ١٠٩ .

قوله : أنا الحارث المختار من نسل حارث   اذا لم يسد في القوم الا الاخاير .. الخ .

يقول ابن خالويه ـ الديوان ص ١٢٤ : أراد جده الادنى الحارث بن لقمان بن راشد .. فأنه أصلح بين قبيلة بني تغلب وودى قتلاهم من ماله وكانوا مئة قتيل .

« ٢ » ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج١ ص ١٧٥ .

« ٣ » مروج الذهب ج٨ ص ١٤٧ [طبعة باريس] .

« ٤ » نسخة برلين (مكتبة العاصمة) رقم ٧٥٨٠ .

« ٥ » أعيان الشيعة ج ٢٨ ص ٨٧ .

للديوان في حوزته علق على هامشها نقلا عن ابن خالويه في شرح قول ابي فراس « وكان له جد من القوم ماثر » (١) بما يلي : كان جده ابو العباس احمد بن حمدون أمار (٢) المعتضد وحاشيته وقت إصعاده إلى حرب الطولونية . ولقد حدث عن ابي العباس حمدان بن حمدون قال ..» فكأن احمد وحمدان اسمان لمسمى واحد هو جد الحمدانيين الادنى، خاصة وقد أشار سعيد بن حمدان والد ابي فراس الى ابيه بقوله .

أنا سعيد وأبي أحمد
بالسيف ضربي وبه أنفع (٣)

والحق ان الأسرة الحمدانية نسبت الى حمدان وبه عرفت واشتهرت، ولم تنسب الى احمد وفي هذا إجماع المؤرخين . بل ان ابا فراس نفسه يذكر جده بإسم حمدان فيقول :

حمدان جدي خير من وطيء الثرى
وأبي سعيد في المكارم احمد

وقوله :

فما أنا من حمدان في الشرف الذي
له منزل بين السماكين طالع (٤)

وبنو حمدان حسب أغلب الروايات وأرجحها ـ بطن من بني تغلب بن وائل العرب العدنانية ، وقد شذ عن هذا الرأي الهمداني (٥) فاعتبر بني حمدان موالي لبني تغلب . ويقول

« ١ » في قصيدته الرائية الشهيرة يقول :
أبو الفيض مار الناس حولاً محرماً وكان له جد من القوم مائر
(٢) مار وأمار من الميرة أي إنه زودهم بالأقوات .
(٣) أعيان الشيعة ج ٢٨ ص ٨٧ .
« ٤ » الديون ص ٨٨ و ١٨٢ .
« ٥ » صفة جزيرة العرب ص ١٣٣ .

ابن خلدون (١) ان ابن حزم لم يذكر بني حمدان في كتاب الجمهرة واعتبرهم موالي بني أسد غير أني رجعت الى الجمهرة فلم أجد أية إشارة الى هذا الموضوع ، ومن جهة أخرى لم أجد أية اشارة الى بني حمدان علما بأن هذا المرجع يعتبر فذاً في بابه ويكاد يأتي بكل شاردة وواردة من انساب العرب . الا ان عدم ايراد الحمدانيين في بطون تغلب من جانب ابن حزم لا يقف دليلا على نكران نسبتهم إلى تغلب الربعية . (٢) ويقول ابن خلدون . (٣) عند كلامه على موقف بني تغلب من الفتوحات الإسلامية ايام الخليفة عمر بن الخطاب في العراق - كما سنرى فيما بعد - انه اشتهرت ثلاثة بيوت من تغلب في العهد الإسلامي هم : آل عمر بن الخطاب العدوي وآل هرون المعمر وآل حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن اسد . وهكذا نرى ان ابن خلدون يختلف هنا مع النسابة الاخرين فيجعل اسداً أباً للقمان بدل راشد ويستطرد قائلا أن هذه البيوت لم يذكرها بن حزم في الجمهرة. (٤) وهو امر صحيح ويقول: « وقفت على حاشية في هذا الموضع من كتابه - أي الجمهرة - فيها ذكر هؤلاء الثلاثة كالاستلحاق عليه. وقال في بني حمدان: وقيل انهم موالي بني أسد. ثم قال آخر الحاشية انه من خط المصنف يعني ابن حزم ويتضح ان هذا الهامش اضافه شخص وقعت بيده المخطوطة: ان لابن خلدون رأياً واضحاً في موضوع الانساب يستحق الإهتمام فهو يقول : « ان بعضاً من الأنساب يسقط الى

« ٢ » العبر جـ٤ ص ٣٢٨ - مجلد ٤ ص ٤٨٩ طبعة بيروت ٩٥٨ - .

« ٣ » انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم [مصر ٩٦٢] وقد ذكر بطون تغلب المشهورة وهم : بنو جشم وبنو مالك ابني بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .

« ٤ » العبر جـ٤ ص ٣٢٨ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ١١٤ - ١١٨

أهل نسب آخر بقرابة اليهم أو حلف او ولاء او لفرار من قومه لجناية اصابها فيدعي نسب هؤلاء ، فولي القوم منهم وسواء كان مولى رق او اصطناع وحلف . والولاء نعرة كل احد على اهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اختصام جارها او قريبها او نسيبها .. ثم ان الصريح في النسب لا يكون الا للمتوحشين ، اما الموجودون في مناطق الخصب فاختلطت انسابهم » .

ان الادلة على نسبة الحمدانيين الى بني تغلب متوفرة لدينا ، فبالأضافة الى اقوال المؤرخين الثقاة(١) في هذا الصدد ، نستطيع ان نقدم هذه الشواهد على أنهم تحدروا من أصل عربي لا شائبة فيه

١- لا يستطيع الباحث حين يقرأ تاريخ بني حمدان منذ ظهورهم حتى بلغوا أوج مجدهم في القرن الرابع الهجري ، الا ان يقطع بصحة نسبهم العربي . ففي عصر كان فيه للأعاجم صولة وجولة ، وكان فيه الممسكون بأزمة الحكم واعنته من الترك والديلم ، لم يكن هناك ثمة داع للتمسك بالأرومة العربية والافتخار بها والتغني بأمجادها . ومع ذلك نجد الحمدانيين شديدي الفخر بنسبتهم الى تغلب بن وائل بن ربيعة . والذي يقرأ شعر ابي فراس الحارث بن سعيد الحمداني ، يجده يغالي في التغني بامجاد تغلب ومكانتها في الجاهلية والإسلام، ويعرض بالاعاجم في اكثر من موضع في ديوانه(٢) :

---

(١) الطبري ابن الاثير ، ابن خلدون ، ابن حوقل ، الصولي ، مسكويه ، التنوخي ... الخ فهؤلاء وغيرهم « مثل ابن ظافر وابن شداد » لم يوردوا ما يشير بشبهة الى نسبة الحمدانيين لتغلب .

(٢) منها قوله « الديوان » .

وقد علمت ربيعة بل نزار ... بأنا الرأس والناس الذنابى

وقوله :

٢ـ كما ظهر اعتزاز الحمدانيين بنسبهم التغلبي في تسمية انفسهم باسمها ، اذ نجد اثنين من أفراد هذه الأسرة يسميان بتغلب هما ابو وائل تغلب بن داود بن حمدان وابو تغلب ابن ناصر الدولة .

٣ـ كانت طباع الحمدانيين القبلية البدوية ملازمة لهم دائماً حتى فى أوج مجدهم من فروسية وكرم ومروءة وحب للثأر وعصبية . بل ان هناك من يذهب الى أنهم التزموا جانب العرب فى أغلب الأحيان وانهم مثلوا كفاح العنصر العربي في القرن الرابع ضد سطوة الاجانب الذين استأثروا بالسلطة فيالدولة الإسلامية. غير ان فيهذا الرأي ـ كما سنرى ـ غير قليل من المبالغة ، لأن الحمدانيين وضعوا ايديهم بأيدي الأتراك والأكراد وتصاهروا مع هؤلاء الاخيرين واتخذوهم عوناً لهم وحلفاء .

٤ـ خاض الحمدانيون صراعاً مريراً متصلا مع كثير من القبائل العربية فى الجزيرة والشام ـ كما سنرى ـ غير ان واحدة من هذه القبائل لم تتهم الحمدانيين او تعيرهم بأنهم كانوا موالي لبني تغلب أو بني أسد .

= وما نحن إلا رالـــل ومهلهل ... صفاء ، وإلا مالك ومتمم

وقوله :

وأعمامي ربيعة وهي صيد ... واخوالي باصفر وهي غلب

وقوله :

سمت بنا وائـــل وفازت ... بالمـــر اخـــوالنا تميم

وقوله :

تبوأت من فرعي معد كليهما ... مكاناً اراني كيف تبنى المفاخر
ويجمعنا في وائـــل عشرية ... وود وأرحام هناك شواجر
لنا أول في المكرمات وآخر ... وباطـــن مجد تغلبي وظاهر

وقوله :

اذ العرب العرباء تبني عماده ... ومنا له طاو على الثأر ذاكر
اذاق العلاء التغلبي ورهطه ... عواقب ما جرت عليه الجرائر
ومنا الاغر ابن الاغر مهلهل ... خليلي ان ذم الخليل المعاشر

٥- ان اشارة ابن خلدون الى ما قال انه ورد في جمهرة ابن حزم إنما هي متأتية من تعليق أو هامش على نسخة أطلع عليها ، كان كاتبها ممن وقعت في يده هذه النسخة وهو أمر معروف وشائع في المخطوطات العربية . يؤيد هذا ان مثل هذه الاشارة لم ترد في المتن المطبوع لكتاب ابن حزم(١) : ان النسب الذي أورده ابن خلدون والذي يجعل فيه أسداً جداً للحمدانيين، أمر يدعو للمناقشة . فأسد هو ابن ربيعة بن نزار وولده جديلة وعنزة وعميرة ، ومن جديلة بن أسد تحدر دعمي الذي كان منه النمر بن قاسط(٢) . غير اننا نجد - من ناحية ثانية - ان أسداً أخرى كانت تنتسب الى مضر وهي أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر(٣) . فأي أسد منهما كان يعنيه ابن خلدون ؟

٦- لقد هاجم ابن حوقل(٤) الحمدانيين هجوماً عنيفاً وسبهم سباً مقذعاً وعرض بسياستهم الداخلية وعلاقاتهم بالقبائل العربية في الجزيرة وبأجراءاتهم الاقتصادية ، إلا انه لم يعرض بنسبهم العربي ، بل أيده وجعلهم من أولاد عمومة بني حبيب التغالبة .

٧- ويجدر بنا ان نختم هذه الشواهد بالقول بأن المؤرخين والباحثين القدامى الثقاة في هذا الصدد كادوا يجمعون على نسب الحمدانيين التغلبي : ويكفي ان نستشهد بابن خلكان(٥) وابن خلدون(٦) والمسعودي وابن حوقل وياقوت والقلقشندي والصولي ومسكويه وابو شجاع والفارقي

---

١ - حقق الجمهرة وعلق عليها الاستاذ عبدالسلام محمد هارون ونشرتها دار المعارف بمصر [١٣٨٢ / ١٩٦٢] .

٢ - ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص ٢٩٣ .

٣ - المصدر السابق ص ١١ .

٤ - صورة الأرض في مواضع متعددة من بحثه عن الجزيرة ص ١٨٧ - ٢٠٧ طبعة بيروت

٥ - وفيات الاعيان ج١ ص ١٧٥ [مصر] .

٦ - العبر ج ٤ ص ٤٨٩ .

والقلانسي وابن ظافر وابن حوقل وابن الأثير وغيرهم ان لم يؤيدوا نسب الحمدانيين التغلبي - واكثرهم أيده - فأنهم لم يشكوا فيه . وقد سار على منوال المؤرخين القدامى في تأكيد نسب الحمدانيين التغلبي الباحثون المحدثون كوستنفيلد وسوبرنهايم وكنار وفريتاخ وغيرهم .

وهكذا نستطيع ان نخلص إلى القول بأن بني حمدان كانو بطناً من بطون بني تغلب بن وائل من العرب العدنانية ، ووائل هو بن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمي بن جديلة بن اسد بن ربيعة بن نزار بن معدبن عدنان(١) وقدتفرعت الأسرة الحمدانية من حمدان بن حمدون هذا الذي انجب ثمانية اولاد هم (ابو اسحاق) ابراهيم و (ابو علي) الحسين وابو السرايا نصر وابو الهيجاء عبدالله وابو العلاء سعيد و (ابو سليمان) داود وكان اشهر هؤلاء الأولاد ابو الهيجاء الذي انجب ولدين هما الحسن الذي لقب فيما بعد بناصر الدولة ، وهو مؤسس فرع الحمدانيين في الموصل ، وعلي الذي لقب بسيف الدولة وهو رأس الفرع الحمداني في حلب (٢) غير ان هناك ولداً سابعاً لابي العباس حمدان لم يذكره ابن ظافر هو ابو الوليد سليمان الذي سماه ابن خالويه «بشيخ بني حمدان» ووصفه بـ «الحرون» (٣) ، وولد ثامن ورد ذكره في شعر أبي فراس هو علي :

ومن بين هؤلاء الأولاد الثمانية لحمدان بن حمدون يبرز الحسين وعبدالله بالدرجة الأولى ، ومن نسل عبدالله بالذات انحدر الحسن (ناصر الدولة) وعلي (سيف الدولة) وهما اللذان قدر لهما أن يشيدا

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ج١ ص ١٦٥ و ١٩٩ ، السمعاني ، الأنساب ص ١٠٧ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ج١ ص ٣٣٧ .

(٢) ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة [مخطوط] ورقه ٢٥ ب .

(٣) ديوان ابي فراس ج ٢ « الدهان » ص ١٢٤ وما بعدها .

الدولة الحمدانية . أما الأخوة الستة الاخرون فقد قاموا بادوار ثانوية فرعية فحسب في تأريخ هذه الفترة(١) ويقرن سوبرنهايم (٢) بروز ابي الهيجاءعبدالله في ميدان الطموح السياسي الى أخلاقه الشريرة وهو حكم مبتسر.

اعتبر النسابون ربيعة من العرب العدنانية التي عاشت في تهامة والحجاز ونجد ، وهي ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان(٣) . وكان اخوة ربيعة الأخرون قضاعة ومضر وربيعة وإياد وانمار(٤) . واذا أردنا ان نحدد مساكن ربيعة القديمة في شبة جزيرة العرب ، فيمكن القول أنهم أقاموا في مهبط الجبل من غمر ذي كندة وبطن ذات عرق وما صاقبها من بلاد نجد الى الغور من تهامة(٥) . وبعد نزوح قضاعة وانمار واياد عن مواطنها في تهامة بسبب شحة الموارد الاقتصادية وزيادة السكان والحروب والوقائع الدامية بين القبائل ، ظلت ربيعة تحيا مع اختها مضر ، ثم لم تلبث ان هجرت مساكنها بسبب الحروب التي قامت بين قبائلها ، فنزحت عبدالقيس الى البحرين وهجر ، ونزلت قبائل ربيعة أخرى في نجد والحجاز واليمن . أما سائر قبائل ربيعة وهم بكر وتغلب وعنزة وضبيعة فقد أقامت في ظواهر نجد والحجاز . وجدير بالذكر ان ربيعة قد تفرع منها بطنان أسد وضبيعة ، وكانت أسد اكثر افخاذاً فمنها جديلة التي ينتمي اليها وائل بن قاسط الذي انحدر من صلبه بكر

---

(١) يستطيع القاريء أن يرجع الى شجرة النسب الخاصة بالأسرة الحمدانية الملحقة بهذ الفصل.

Ency. Islam Vol. 11 P. 78 (٢)

(٣) ابن حزم . الجمهرة ص ٢٩٢

(٤) المصدر السابق ص ٩ . يشك ابن حزم في نسب قضاعة الى معد فيقول انه مختلف فيه فمنهم من يعتبرهم عدنانيين ومنهم من يعتبرهم من القحطانيين (ص ٨) .

(٥) تهامة : هي المنطقة التي توازي امتداد ساحل البحر الاحمر . وهي تهامة الحجاز وتهامة اليمن .

انظر ياقوت جـ٦ ص ٢١١ ، الهمداني في عدة مواضع .

وتغلب وهما اعظم قبائل ربيعة شأناً(١) . وقد اشتهر من تغلب هذا كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت بسبب ذلك حرب البسوس(٢) بين بكر وتغلب التي دامت - كما قيل - اربعين سنة في القرن الخامس الميلادي(٣) . وظلت « الأيام » الدامية تتوالى بين بكر وتغلب ومنها يوم واردات ويوم الذناب ويوم الحنو ويوم التحالق وغيرها ، والنصر في اكثرها لتغلب ، حتى قدر لبكر ان تنتصر اخيراً في يوم قضة باليمامة(٤). والحق ان بني تغلب كانت قبيلة كثيرة الميل الى الحروب ، فهي لم تكتف بصراعها مع اختها بكر بل خاضت كذلك حروباً دامية مع بني يربوع التميمية (٥)

---

(١) يقال ان جد هذه القبيلة (تغلب) كان اسمه دثار (ابن حزم ص ٣٠٢) وان اباه تمنى له ان يغلب فلحق به هذا الاسم . غير ان اسم تغلب انما هو صيغة الامر للمؤنث الغائب. وتدل تغلب من حيث التذكير والتأنيث على أن الاسم اقدم من الاسطورة المتعلقة بجدها. والشعر القديم يجعل تغلب ابنة وائل لا ابنه Ency. Islam Vol. 5 P. 325

(٢) حول البسوس انظر ، البكري ، معجم ما استعجم ص ٢٤٢ - ٤٣ ، الاغاني جـ ٤ ص ١٤٣ ، ابن الاثير جـ١ ص ٣٨٤ - ٩٧ .

(٣) يجب على القارىء ان ينظر الى الارقام هذه - بصورة عامة - نظرة شك .

(٤) من ايام بكر وتغلب كذلك (سويمة) وهي هضبة طويلة .. لا يعرف بنجد جبل اطول منها . وقد كانت بكر بن وائل وتغلب اقتتلوا عندها (ياقوت ، البلدان جـ ٣ ص ١٩٩ لا يبزج ١٨٦٦) ، و (الصماب) جبل بين اليمامة والبحرين جرى فيه يوم من ايام بكر وتغلب [البلدان جـ ٣ ص ٣٨٧] . أما (قضة) فواد كانت فيه وقعة بين بكر وتغلب في قتل كليب ، والجاهلية تسميتها حرب البسوس . (ياقوت جـ ٤ ص ١٢٩) . ويقول ياقوت (جـ ٤ ص ١٢٩) عن يوم التحالق ان بكراً انتصرت فيه على تغلب فتفرقوا من ذلك اليوم . وانظر ياقوت [جـ ٤ ص ٨٨] حول يوم واردات . ومن ايام بكر وتغلب يوم (جدود) انتصرت فيه تغلب (ياقوت جـ ٢ ص ٤٠) انظر كذلك البكري ص ٥٦ ، العقد الفريد جـ ٣ ص ٦٩ حول يوم التحالق . انظر كذلك حول ايام تغلب عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب (دمشق ١٩٤٩) ص ١٢١-١٢٢ .

(٥) بنو يربوع من تميم هزموا امام تغلب في عدة وقائع منها وقعة في تبرة ويوم إراب ويوم اللوى ويوم زرود (كحالة ، ص ١٢١) .

ومع بني شيبان(١) ومع سعد بن تميم(٢) .

كانت تغلب اذن من قبائل ربيعة ذات الشأن في الجاهلية ، بحيث آل اليها لواؤها فوليه منهم وائل بن ربيعة وهو كليب الذي أسلفنا ذكره(٣) ، وقد انجب تغلب (دثار)(٤) ثلاثة اولاد ذكور هم غنم والأوس وعمران(٥) . ومن صلب غنم جاء عمرو ووائل (وولد وائل هذا شيبان) ، اما عمرو فقد انجب حبيب الذي انجب بدوره ثلاثة أولاد ذكور هم جشم وبكر ومالك . ومن صلب بكر تحدر الاخوة الستة الذين يسمون بالأراقم(٦) وهم جشم ومالك والحارث وعمرو وثعلبة ومعاوية (٧) . والذي يهمنا هنا ان بني جشم بن بكر وبني مالك بن بكر كانا اكبر بطون تغلب ، ومن صلب أسامة بن مالك انحدر حمدان بن حمدون جد الاسرة الحمدانية .

ويبدو ان تغلب ، بعد أن ضاقت بها مواطنها الأصلية في شبه الجزيرة

---

(١) خاضت تغلب مع بني شيبان وقعات منها وقعة في قطيمة بالبحرين ظفرت فيها تغلب ووقعة في دير « لي » ويروى « لبنى » دير قديم على جانب الفرات الشرقي وهو من منازل بني تغلب ذكره . الاخطل . [ياقوت ج ٢ ٦٩] ويقول « ياقوت ج ٣ ص ٩٠٣ » عن قطيمة انه موضع بالبحرين كانت به وقعة بين بني شيبان وبني ضبيعة وتغلب .

(٢) من ايام تغلب مع سعد بن تميم يوم ذي بهدى « يقول ياقوت ج٢ ص ٢٥٦ » : الحريم موضع في ديار بني تغلب قريب من ذي بهدا . ومن ايام تغلب يوم الكلاب .

(٣) هو كليب بن ربيعة .

(٤) ابن حزم . جمهرة انساب العرب ص ٣٠٢

(٥) نفس المرجع ص ٣٠٣ .

(٦) نفس المرجع ص ٣٠٤ .

(٧) يلقب ابناء معاوية الاربعة بالخناقين . يذكر العقد الفريد ابناء بكر بن حبيب ويسميهم بالاراقم لكنه يهمل ذكر مالك ج ٢ ص ٤٥ . وتستعمل الاراقم في الغالب كناية عن تغلب Ency. Islam Vol. 2 P. 325

العربية ، اخـذت تنتشـر في الأرض ، فنزلت مع غيرها من قبائل ربيعة هضاب لجد والحجــاز وتخوم تهامة ، وكانت منازلها في الأحفـــار والأزاغب والموثج وعالز وعذ ـارة وكاثرة وعنيـــة والنهـــى وهـذه الاخيرة كانت من مواقـــع حـ رب البسوس بين البحرين واليمامة : وظلت تغلب تشغل هذه البقاع حتى القرن السادس الميلادي ، غير انها اخذت توطد اقدامها شيئاً فشيئاً عـــلى المجرى الأدنى لنهر الفرات في ديار ربيعـــة (١) .

وكانت كباث شمالي الأنبار سوق تغلب ايام الجاهلية (٢) ، وفي القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) لم يلبثوا ان تمركزوا في وسط الجزيرة بين قرقيسيا وسنجار ونصيبين والموصل شمالا وعانة وتكريت جنوباً ، وهي منطقة اقرب ما تكون الى شبه جزيرة تحدها انهار الخابور ودجلة والفرات . لقد شغلت تغلب منطقة واسعة امتدت شمـــالا من منبج والرصافة حتى عين التمر وجبل الإهة (لاهة) جنوباً ، كما انهم عاشوا بين خفــان والعذيب وعبرت جماعـــة منهم الى اذربيجان (٣) لقد انتشرت تغلب في هذه المناطق الواسعة ، واخذت تستقر فيها منذ هجرتها التي بدأت في ايام ذي نواس حوالي سنة ٣٨٠م، والتي استمرت عدة قرون ولم تنـ الا في العهد الاسلامي حيث استقر بهم المطاف في ديار ربيعـــة وغيرها من مناطق الجزيرة . (٤) وقـــد ذكر المؤرخون

« ١ » مراصد الاطلاع جـ ٣ ص ٢٥٥ .

« ٢ » موضـع بالجزيرة لبني تغلب ، كان يقـام » سوق في الجاهلية غزاه المسلمون أول أيام عمر [ياقوت ، معجم البلدانـ ٤ ص ٢٣٢] . انظر كذلك مراصد الاطلاع ـ ٢ ١٧٥ .

« ٣ » أنظر حول هذا الموضوع : دائرة المعارف الاسلامية (الترجمـــة العربية جـ ٥ ص ٣٤ فما بعدها تحت عنوان « تغلب » . انظر كذلك البكري، معجم ما استعجم جـ٣ ص٥٠٠

« ٤ » Kindermann E . I Supp. P 223

والجغرافيون القدامى كثيراً من الأودية ومراكز المياه التي نسبت لبني تغلب ، فمن اوديتها ظبي (على الفرات) ومن مياهها البشر (١) وقباقب والتنوير . (٢) وبالاضافة الى هذه ذكر ياقوت من منازل تغلب ومواطن مياههم بالجزيرة وادي الثرثار الذي استأثرت بنو تغلب باكثره والثني قرب الرصافة(٣) ودير لبي او لبنى على جانب الفرات الشرقي(٤) والرضاب قرب الرصافة (٥) والرميل في ديار بكر (٦) وكباث وهو على حد قول ياقوت (٧) موضع بالجزيرة لبني تغلب كان يقام به سوق في الجاهلية ، والبني وهو ماء بالجزيرة لبني تغلب والمصيخ (٨) الذي يقع بين حوران والقلت والحريم قرب ذي بهدا (٩) وحزة (١٠)

---

[١] البشر : بكسر الباء منازل بني تغلب بن وائل ، وقد استمد اسمه من البشر بن هلال بن عقبة الذي كان خفيراً لفارس قتله خالد بن الوليد حين سار من العراق الى الشام لنجدة ابي عبيدة (ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٦٣) .

(٢) التوير : ضم الثاء ماء بالجزيرة من منازل تغلب [ياقوت ج١ ص ٩٤٠] .

(٣) الثني : فتح الثاء موضع قرب الرصافة تجمعت فيه بنو تغلب ـ لحرب خالد بن الوليد ـ [ياقوت ج١ ص ٩٣٧] .

(٤) دير لبي بضم اللام وتشديد الباء وفتحها ويروى لبني دير قديم على جانب الفرات بالجانب الشرقي منها ، وهو من منازل بني تغلب ذكره الأخطل [ياقوت ج٢ ص ٦٩٠] .

(٥) أوقع خالد باهل البشر في أيام أبي بكر وعطف من البشر إلى الرضاب وهو موضع بالرصافة قبل بناء هشام .. فاشفع من بها من بني تغلب (ياقوت ج٢ ص ٧٨٩) .

(٦) الرميل : بضم الراء موضع في ديار بكر شرقي الرصافة أوقع فيه خالد بتغلب (ياقوت ج٢ ص ٩٤٧) .

(٧) معجم البلدان ج٤ ص ٢٣٢ .

(٨) المصيخ : ضم الميم وفتح الصاد وتشديدها بين حوران ذالقلت وهو مصيخ بني البرشاء « الطبري ج٢ ص ٥٨٠ » .

(٩) الحريم موضع في ديار بني تغلب قريب من ذي بهدا « ياقوت ج٢ ص ٢٥٦ » .

(١٠) حـزة فتح الحاء وفتح الزاء وتشديدها : بين نصيبين ورأس العين على الخابور كانت عنده وقعة بين تغلب وقيس « ياقوت ج٢ ص ٢٦٣ » .

والحشاك (١) والحصيد (٢) وهكذا نرى مدى سعة انتشار بني تغلب في ارض الجزيرة من الناحية الجغرافية ، وهو امر يدل على كثرة عددها وقوة بأسها ويعتقد فريتاخ (٣) ان عمرو بن هند كان هو الذي قدم بني تغلب من جزيرة العرب واناخ بهم فيما بين الحيرة والفرات . ويبدو ان بني تغلب تفرعوا بعد ذلك ثلاث شعب سكنت إحداها في الصحراء والثانية في ديار ربيعة وديار بكر والثالثة في حلب وما حولها (٤) :

إعتنقت بنو تغلب النصرانية في الجاهلية بتأثير إتصالها بالروم وكانت قبل ذلك وثنية - شأنها شأن القبائل العربية الاخرى - تعبد الصنم أوال اسوة باختها بكر بن وائل (٥) . وبعد الإسلام ظلت أكثر تغلب على النصرانية ، على حين أسلمت جماعة منهم منذ السنين الأولى بعد الهجرة (٦) . ولم تكن تغلب وحدها من القبائل التي إعتنقت النصرانية قبل الإسلام فقد فعلت ذلك تلك القبائل التي إرتبطت سياسياً أو اقتصادياً مع الروم وحاربت المسلمين مع هرقل أسوة بنصارى العرب يومئذ كغسان واياد وقضاعة وزابلة (٧) . ونجد تغلب - من جهة اخرى - تحارب الى جانب الفرس وترتبط معهم في عدة مواقف قبل الإسلام

---

(١) الحشاك : بفتح الحاء والشين وتشديدها واد أو نهير بارض الجزيرة يأخذ من الهرماس ويصب في دجلة . « ياقوت جـ٢ ص ٢٧٢ » .

(٢) الحصيد : بفتح الحاء موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة «ياقوت جـ٢ ص ٢٨٠».

(٣) أنظر Freytag Z. D. M. G, Vol. x 1 P. 436

(٤) المسعودي التنبيه والاشراف ص ١٤٨ .

(٥) ياقوت معجم البلدان جـ١ ص ٢٩٥ - أوال صنم كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل - .

(٦) قدم وفد من تغلب على الرسول في المدينة سنة ٩ هـ .

(٧) ابن خلدون ، العبر جـ٤ ص ٢٢٧ .

وفي أيام الفتح الأولى وتحسين هذه المواقف والصحيح فنحن إذا تتبعنا التاريخ هجرة تغلب ومنازلها التي احتلتها نجد ان الظروف وضعتها في أقاليم ذات أهمية عسكرية واقتصادية وهي من مناطق الصراع بين القوى السياسية الكبرى المتصارعة يومذاك. ولما كانت تغلب قد مثلت في بعض المناطق قوة حربية ذات خطر على الحدود فان مصلحتها ارتبطت بهذه الدولة او تلك حفاظا على بقائها ووجودها :

ولم يتغلغل الإسلام في تغلب في السنين الأولى، لذلك نجدها عند بدء حركة الفتوحات في العراق في صراع مع الجيش الإسلامي الفاتح (١).
ونحن نسمع عن وفد من بني تغلب وصل الى المدينة عام ٩ للهجرة كان بعضهم من المسلمين والبعض الآخر من النصارى، فيمن قدم من الوفود الكثيرة خلال هذا العام والعام الذي تلاه وذلك بعد أن ثبت الإسلام أقدامه في شبه الجزيرة العربية (٢) . غير ان الإسلام لم يتغلغل في بني تغلب، لذلك يقول البلاذري (٣): ان سجاح المرتدة التميمية حين اخفقت دعوتها وقتل زوجها مسيلمة الكذاب صارت إلى أخوالها بني تغلب وماتت بينهم :

لقد حاربت تغلب في أيام الفتوحات الإسلامية الأولى إلى جانب الروم والفرس، ففي عام ١٢ للهجرة كانت تغلب وأياد والنمر مع جيش

« ١ » Kindermann, Ency. of Islam., Supp., P. 224

« ٢ » قدمت على الرسول (ص) ، عام ٩ هـ ، وفود عربية عديدة أسلمت على يده منها وفد بني أسد ، ووفد الداريين من لخم ، ووفد بني تميم ، ووفد بهراء ووفد بني فزارة .. الخ ـ أنظر الطبري جـ٢ ـ القاهرة سنة ١٩٣٩ ص ٣٦٣ـ ٣٨٢ .

« ٣ » فتوح البلدان ص ١٠٦ .

الفرس في عين التمر ، وكان هؤلاء العرب بقيادة عقة بن ابي عقة (١) الذي هزم على يد خالد بن الوليد شر هزيمة وعوقب بالقتل لانه أصر على حرب المسلمين وكمن للجيش الإسلامي بقيادة خالد (٢). وفي المصيخ (٣) إستطاع خالد أن يشتت فلول بني تغلب وحلفائها بقيادة الهذيل بن عمران (٤). وأرادت تغلب أن تثأر لمقتل عقة فتحالفت بقيادة ربيعة بن بجير التغلبي مع القائد الفارسي روزبة وتجمعت في الثني (في سنة ١٢ هـ) لكنها القيت هزيمة جديدة على يد خالد (٥) . ويبدو ان تغلب أساءت للمسلمين الى حد كبير مما دفع خالداً إلى أن يقسم « ليبغتن تغلب في دارها » (٦) ، وإستطاع فعلا ان يلحق بها هزيمة ماحقة في البشر ، وبعد أن صفى خالد الجيوب المعادية في هذه المنطقة سار إلى الفراض « والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة » (٧) ولما إحتشد الجيش الإسلامي الفاتح في هذه المنطقة التي تعتبر حدوداً للروم والفرس معاً ، تحالف الجيشان الفارسي والبيزنطي لصد خطر المسلمين مستعينين كذلك بتغلب وإياد

« ١ » عقبة ابن أبي عقة قيس بن البشر بن هلال بن البشر بن قيس بن زهير بن عقة بن جشم بن هلال بن ربيعة بن النمر بن قاسط - ياقوت - فتوح البلدان ج١ ص ٦٢١ - ٦٢٢ - (وستنفلد) .

« ٢ » الطبري ج٢ - القاهرة ٩٣٩ - ص ٥٧٦ - ٥٧٧ .

« ٣ » المصيخ : مصيخ بني البرشاء بين حوران والقلت (ياقوت ج٤ ص ٥٥٦). أنظر الطبري ج٢ ص ٥٨٠ - ٥٨١ .

« ٤ » نفس المصدر والمكان .

« ٥ » نفس المصدر والمكان . ياقوت ج١ ص ٩٣٧ .

« ٦ » الطبري ج٢ ص ٥٨٢ .

« ٧ » نفس المصدر والجزء ص ٥٨٣ .

والنمر الذين أمدوهم بنجدات ضخمة(١) غير ان جيش المسلمين حقق على يد خالد بن الوليد نصراً مؤزراً فى معركة « الفراض » هذه حتى بلغ عدد القتلى - على حد قول الطبري - (٢) مائة الف . وفي أوائل خلافة عمر بن الخطاب هزمت تغلب هزيمة أخرى على يد المثنى بن حارثة فى الكباث وهو سوقها المتبد فى الجزيرة (٣) .

يبدو ان هذه الهزائم المتتالية التي حلت بتغلب فتت من عزيمتها خاصة بعد إنهيار المواقع الفارسية والبيزنطية فى العراق والشام. وفى عهد الخليفة عمر خضعت تغلب للمسلمين ، ويروي لنا ابن خلدون (٤). ان الخليفة أراد أن يفرض الجزية على رجالها إسوة بغيرهم من أهل الذمة فاخذتهم العزة وقالوا له « يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب واجعلها صدقة مضاعفة ففعل » وتفصيل الأمر كما ورد فى فتوح البلدان (٥) ان عمير بن سعد كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه انه أتى شق الفرات الشامى ففتح عانات وسائر حصون الفرات وانه أراد من هناك من بني تغلب على الإسلام فأبوا وهموا باللحاق بأرض الروم ، وكذلك وقف التغلبيون فى الشق الشرقي من الفرات نفس الموقف . فأمر الخليفة قائده أن يضاعف الصدقة التي تؤخذ من المسلمين على بني تغلب ، فإذا أبوا حاربهم حتى يبيدهم أو يسلموا ، فرضي التغالبة بهذا الحل قائلين : « أما إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج فإنا نرضى ونحفظ ديننا » . ومن الجدير بالذكر

« ١ » الطبري ج٣ ص ٥٨٣ (القاهرة ١٩٣٩) .

« ٢ » نفس المصدر والمكان .

« ٣ » ياقوت ، معجم البلدان (وستنفلد) ج٤ ص ٢٣٢ .

« ٤ » العبر ج٤ ص ٣٢٧ .

« ٥ » البلاذري ، ص ١٩٠ .

ان الصلح بين المسلمين وبني تغلب نص كذلك وعلى أن لا يصبغوا (١) صبياً، ولا يكرهوه على دينهم » (٢) . وفى رواية اخرى للبلاذري (٣) ان النعمان بن زرعة (أو زرعة بن النعمان) قال لعمر : « أنشدك الله فى بني تغلب فإنهم قوم من العرب يأنفون من الجزية وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يغن عدوك عليك بهم ، فأرسل عمر فى طلبهم فردهم وأضعف عليهم الصدقة » . ويبدو ان الخليفة عثمان بن عفان هم بأن يعيد النظر فى وضع بني تغلب فأمر ان تؤخذ منهم الجزية ذهباً وفضة فحسب ، إلا أنه تراجع حين ثبت له إن عمراً أخذ منهم الصدقة مضاعفة (٤) .

لقد ناصرت تغلب الخليفة على بن أبي طالب في بداية الأمر ، غير انها ما لبثت ان انحازت إلى الأمويين وحاربت مع معاوية فى صفين ومع يزيد فى الحيرة ومع مروان بن الحكم فى مرج راهط (٥). ولعل انحياز بني تغلب إلى معاوية كان بسبب موقف علي الصلب منها لأنها نقضت العهد فنصرت أولادها، مما دفع بالخليفة إلى القول «لأن تفرغت لبني تغلب ليكونن لي فيهم رأي ، ولأقتلن مقاتلتهم ولأسبين ذريتهم »

---

(١) أي المعمودية أو التعميد .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٩٠ .

(٣) فتوح البلدان ص ١٨٩ .

(٤) نفس المصدر ص ١٩١ . يبدو ان مسألة بني تغلب الخاصة اعتبرها الفقهاء حالة تستحق المناقشة ، حتى نص الفقهاء المسلمون بما فيهم مالك وأبو حنيفة وأبو يوسف على أن يؤخذ من التغلبي ضعف ما يؤخذ من المسلم في أرضه وماشيته وماله وقالوا جميعاً ان سبيل ما يؤخذ من أموال بنى تغلب سبيل مال الخراج لانه بدل من الجزية . (البلاذري، نفس المصدر والمكان) .

Kindermann, E. 1 Supp. P. 225 (٥)

فقد نقضوا العهد وربّت منهم الذمة حين نصروا أولادهم »(١) .

وقد خاضت تغلب في العهد الأموي حروباً ضارية ووقائع دامية مع قيس أشبه ما تكون بأيامها في الجاهلية . وسبب هذه الوقائع ، هو نفس السبب الذي تعلل به أيام القبائل ، فهو لا يخرج عن الصراع حول الاستئثار بالأراضي العامرة ذات الخصب والماء . وقد غذى نار هذه الحروب روح الثأر والإنتقام لقتلى أعزاء ذهبوا في حرب سلفت . نحن نعلم ان تغلب إستقرت في الجزيرة فيما بين الخابور والفرات ودجلة ، وينوه ان بني سليم القيسيين بقيادة عمير بن الحباب هبطت عليهم في منازلهم وارادت ان تشاركهم فيها ، مما أدى الى الصدام المحتم بين القبيلتين . وتمدنا المراجع بتفاصيل وافية عن هذه الوقائع الدامية أو (الأيام) التي نالت أسماء المواضع الجغرافية التي جرت فيها او حولها : وفي هذه الوقائع تتكتل البطون والقبائل بدافع العصبية وتجابه بعضها في حمية تذكرنا بأيام الجاهلية ذهب ضحيتها الكثير من ابناء الجانبين. والذي يهمنا هو ان كثيراً من بني تغلب ما زالت في هذا الوقت ـ أيام عبدالملك بن مروان ـ يدينون بالنصرانية وهو وضع ديني خاص كان يحتم عليهم اتخاذ مواقف معينة من باب الدفاع عن النفس إلا ان هذه التكتلات القبلية التي افاد منها عبدالملك بن مروان وشجعها بشكل واضح (٢) عصفت باستقرار الجزيرة كما عصفت بإستقرار

---

(١) فتوح البلدان ص ١٩١ .

(٢) يروى ان عبدالملك سأل الأخطل شاعر بني تغلب بحضور الجحاف بن حكيم بن عاصم بن قيس زعيم بني سليم: أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال نعم ، هذا الذي أقول فيه :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر   بقتلى أصيبت من سليم وعامر

إشارة بذلك الى ما فعلته تغلب بقبائل الجحاف في يوم الحشاك فاثار ذلك ـــ

المجتمعات القبلية واخرت تحضرها وتمدنها، واودت بالتطور الاقتصادي، واحالت تلك المناطق الخصبة ذات المياه الوفيرة الى ساحة حرب داخلية بين القبائل العربية ذاتها . ونحن لا نريد ان ندخل في تفاصيل هذه الأيام بين تغلب وقيس ، لكننا نود ان نشير الى اهمها : فنها يوم ابي (٣) - بين تكريت والموصل - قرب الثرثار ، ويوم ماكسين (٤) وهي قرية من قرى الخابور - ويوم الثرثار الأول (٥) ويوم الثرثار الثاني (٦) ويوم الفدين (٧) ، ويوم السكير (٨) ، ويوم المعارك (٩) ، ويوم بلد (١٠) ، ويوم الشرعبية (١١) ، ويوم البايخ (١٢) ، ويوم الحشاك (١٣) ، ويوم الكحيل (١٤) ويوم البشر وحزة .

الجحاف وقاد قبيلته في حرب ضد تغلب عند الرحوب أو البشر وهو ماء لبني جشم بن بكر فأثار ذلك قوم الأخطل قرب الرقة فقتل جماعة عظيمة من بني تغلب . ولكثرة قتلى تغلب نصحوا الا يدفنوهم لكيلا يرى الناس كثرة قتلاهم فيستضعفوهم ويغزوهم . [أنظر البلاذري : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣٢٨ - ٣٢٩] ياقوت ، معجم البلدان جـ ١ ص ٦٣٢ .

(٣) إستعانت تغلب بالخوارج من قومها في أذربيجان فانجدوهم بالفي فارس بقيادة شعيب بن مليل الذي عبر دجلة الى لبي بين تكريت والموصل، وأتى الثرثار فوجد قيساً مجتمعين عليه وتغلب بازائهم ولبي فوق تكريت وهي من أرض الموصل ، وقد التقى في ديرها الفريقان فتصافوا أي تكافأوا [البلاذري انساب الأشراف جـ ٥ ص ٣٢٢] ويقول ياقوت [جـ٢ ص ٦٩ طبعة وستنفيلد] ان دير لبي ويروى لبنى دير قديم على جانب الفرات الشرقي ، من منازل بني تغلب ذكره الأخطل .

(٤) بين قيس وتغلب . وكان على قيس عمير بن الحباب وعلى تغلب شعيب بن مليل فغسروا عمير بني تغلب وجماعتهم بماكسين وهي قرية من قرى الخابور بينه وبين رأس عين يوم أو يومان . قتل من بني تغلب خمسمائة وقتل قائدها شعيب [البلاذري أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣١٧] .

(٥) يوم الثرثار الأول : نهر ينزع من هرماس نصيبين . وفي هذا اليوم إستمدت تغلب لثأر ليوم ماكسين وحشدت أعوانها ومنهم النمر بن قاسط وأتاها المجشر بن الحارث

ولدى تتبع أخبار هذه الوقائع او الأيام بين تغلب وقيس (وبخاصة سليم) ، نجد الها أخبار مملة ومتشابهة ، وتمثل صفحات من الصراع القبلي مليئة بالدماء والثأر المتبادل الذي وصل الى حدود غاية في القسوة تعدت قتل الأعداد العديدة من الرجال ، الى بقر بطون النساء . غير النا نجد - من ناحية اخرى، ان هذه الوقائع - الشبيهة كل الشبه بأيام العرب في الجاهلية ، التجت ادباً شعرياً دار حــول الفخر بالقبيلة والاعتزاز بأمجادها لعله يتمثل خير تمثيل في شعر الأخطل الذي كان خير معبر عن لسان حال بني تغلب : وأود ان أؤكد هنا على أن الامويين لعبوا دوراً في اذكاء نار هذه الحروب بتأييدهم لكلب ووقوفهم ضد القيسية التي نكبت بوم مرج راهط (سنة ٦٥هـ) فظلت تطلب الثأر لقتلاها . ولما كان بنو تغلب - وهم مروانيون - قـد أيدوا قيساً وآزروها في غاراتهـا ضد كلب (اليمانية) ، فأنهم زجوا انفسهم في صراع دام استمر طوال

= من ولد أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان [وكان من سادات بني شيبان بالجزيرة] وأتاها زمام بني مالك الشيباني في جمع . وفي هذه الموقعة التي تحالفت فيها قبائل ربيعة ضد القيسيين انهزمت قيس وبقر التغلبيون بطون ثلاثين امرأة من بني سليم [وهو عمل معتاد في هذه الحروب ، ولعله دلالة رمزية على إتلاف البطون التي تنجب الأعداء] . البلاذري ، أنساب الأشراف جـ٥ ص ٣١٨ .

(٦) في يوم الثرثار الثاني : تجمعت قيس واستمدت واستعدت وكانت برئاسة عمير بن الحباب واتاها زفر بن الحارث زعيم القيسية وبطلها في هذا العصر . وكان يتزعم بني تغلب والنمر ومن معهما ابن هوبر فالتقوا بالثرثار في حرب حامية الوطيس أبلت فيها سليم وبنو عامر بلاء حسناً. أسفرت عن هزيمة تغلب ومقتل ابني عبد يسوع بن حرب وعكان وعبدالحارث من بنى الأوس بن تغلب .

ياقوت معجم البلدان جـ١ ص٩٢١

البلاذري ، أنساب الأشراف جـ٥ ص ٣٢٠

(٧) يوم الفدين : « الفدين قرية تقع على الخابور لها حصن » وتسميها العامة الصور

هذا العصر . فما هي حصيلة هذا الصراع في المستقبل ؟

نحن نجد ان المنطقة التي جرى فيها هذا الصراع ـ وهي منطقة الجزيرة ـ كانت من المناطق ذات الاهمية العسكرية والاقتصادية ، وان جميع الحكومات حاولت ان تكسب الى جانبها القبائل ذات القدرة الحربية في هذه المنطقة . وعلى الرغم من جميع الظروف السيئة التي احاطت بتغلب ـ هزائمها امام القيسيين ونصرانيتها التي جعلتها في موقف المستضعف ـ فأن هذه القبيلة ظلت قوية عفية كثيرة العدد فائقة النفوذ في المنطقة ، وانها انتشرت في كل مناطق الجزيرة انتشاراً واضحاً . ومن جهة اخرى فأن تغلب اخذت تتخلى عن نصرانيتها بالتدريج ، واخذت تذوب في المجتمع الاسلامي الكبير .

= والحقيقة انهما قريتان بينهما اربعة فراسخ ، ويوم الفدين غارة قام بها عمير على القرية فقتل عامة اهلها .

البلاذري ، أنساب الأشراف جـ٥ ص ٣٢١

(٨) يوم السكير : هو سكير العباس وقرية تشرع على الخابور ومنها ناحية تشرع على الفرات التقى فيهما بنو سليم بقيادة عمير مع بني تغلب بقيادة ابن هوبر فانهزمت تغلب والنمر .

البلاذري ، أنساب الأشراف جـ٥ ص ٣٢١ .

(٩) يوم المعارك : المعارك موضع بين الحضر والعقيق من أرض الموصل جرت فيه واقعة بين قيس وتغلب انهزمت فيها تغلب .

أنساب الأشراف جـ٥ ص ٣٢١

(١٠) يوم بلد : في هذه الموقعة تكافأ قيس وتغلب .

أنساب الأشراف جـ٥ ص ٣٢٢

(١١) الشرعبية : (بفتح الشين والعين) جرى فيها يوم بين قيس بزعامة عمير وتغلب وحلفائها بزعامة ابن هوبر ، وفي هذه الموقعة حققت تغلب نصراً على قيس ، والشرعبية من بلاد بني تغلب ، وبناحية =

وحين انهارت السلطة الأموية - التي أيدها بنو تغلب وحازوا في ظلها عطفاً ورعاية حتى تولى منهم أفراد مناصب عالية امثال حنظلة بن قيس وعمرو بن بسطام الذي تولى السند(١٥) نجد تاريخ بني تغلب يكتنفه الغموض ، ونجدهم كغيرهم من القبائل يضيعون في خضم الاحداث الكبرى التي تلت قيام الحكم العباسي الذي ذوب الصراع القبلي نتيجة استناده الى قوى خارجية وجيوش مدربة جاءت من فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان . اننا سوف نشهد في الفصول القادمة ان الصراع قد تحول من صراع قبلي الى صراع اجتماعي ، وان القبائل العربية لم تعد سوى عنصر فحسب في الجيوش الضخمة التي تكونت من عناصر عديدة منها الفرس والديلم والترك والمغاربة والفراغنة والزنج وغيرهم من اجناس العالم الوسيط .

= منبج شرجية اخرى .

أنساب الأشراف جـ٥ ص ٣٢٢

(١٢) يوم البليخ: اجتمعت تغلب بزعامة ابن هوبر وسارت الى البليخ حيث احتشدت القيسية بزعامة عمير ، فهزمت تغلب وقتل منها الكثير وبقرت بطون نسائهم كما فعلوا هم يوم الثرثار .. والبليخ نهر بين الرقتين .

أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣٢٣

(١٣) يوم الحشاك : الحشاك واد أو نهر بارض الجزيرة بين دجلة والفرات يأخذ من الهرماس « نهر نصيبين ويصب في دجلة » وقال بعضهم الحشاك وتل عبدة عند الثرثار كانت فيه وقعة لتغلب مع قيس .

ياقوت ، معجم البلدان جـ٢ ص ٢٧٢

وفي يوم الحشاك جمعت تغلب حضرها وبدوها وسارت الى الحشاك وهي منطقة فيها تلال « قرب الشرجية » فالتقى الفريقان - قيس وتغلب - عند تل الحشاك واستمر القتال ثلاثة ايام قتل خلالها ابن هوبر زعيم تغلب فتزعمها مرار بن علقمة الزهيري

ان النتيجة التي أريد أن اصل اليها من هذه المقدمات ان الحمداليين، الذين انحدروا من بني تغلب ، أفادوا من هذه القبيلة وانتفعوا بها في مجهودهم لبناء دولتهم ، لكننا سنرى انهم - حين حذقوا فنون سياسة العصر - أخذوا ايضاً - أسوة بغيرهم من الدول - يعمدون الى تكوين جيوش نظامية كان عمادها - بل وعمودها الفقري - المماليك الذين يدينون بالطاعة والولاء لمن يدفع لهم أرزاقهم ويوسع لهم في هذه الأرزاق :

صحيح إننا سوف نجد بني تغلب وغيرها من أقربائها مجرد عنصر في جسد الدولة الحمدانية ، لكننا سوف نجد - من ناحية أخرى - ان القبائل العربية سوف لن ترضى بهذا الوضع ، وانها تثور عليه كلما اسعفتها الظروف محاولة أن تجد لنفسها ظلا من كيانها القديم في مجتمع أخذت تذوب فيه القيم البدوية وتصبح فيه الكيانات القبلية ليست بذات أثر فعال في المجتمع الجديد . غير ان هذه الثورة التي تقوم بها القبائل أيام

الذي عبأ تغلب على راياتهم وامر كل بنى أب ان يجعلوا نساءهم خلفهم فلما ابصرهم عمير قال لاصحابه « يا معشر قيس ان تغلب هي كثرة العدد » وفي هذه الحرب قتل عمير وانتصرت تغلب .

أنساب الأشراف حـ٥ ص ٣٢٤

(١٤) يوم الكحيل : ارادت قيس أن تثأر لقتلاها في يوم الحشاك فحشدت كل قواها وانجدها زفر بن الحارث فتصدوا لبني تغلب التي اجتمعت بالعقيق من أرض الموصل فلما أحست بخطورة الحملة ضدها ارتحلت تريد عبور دجلة . وعند الكحيل لحقهم زفر فهزمهم وقتل الكثير وغرق آخرون وبقرت بطون نساء منهم كما فعلوا يوم الثرثار .

أنساب الأشراف حـ٥ ص ٣٢٦ حـ ٢٧٠

(١٥) وهو إسم كما يبدو لشخص مسلم كان أبوه نصرانياً .

الحمداليون ـ وهي ثـــورة مارسها بنو حمومة الحمداليين كما سنرى ـ لم تكن متأتية عن الثأر أو العصبية ، انما عن دوافع اقتصادية واجتماعية واضحة . ان هذه القبائل وجدت ان هناك سلطـة قوية تهـدد مصالحها وتبتز أموالها وتفرض عليها التزامات فادحـة وتطالبها بضرائب لا قبل لها بدفعها ، مما دفعها الى أن تنتفض على هذه السلطة وتثور ضـــدها ، وتبحث لها أحياناً عن ارض جديدة في حماية سلطة اخرى :

الفصل الثالث

الحمدانيون والخوارج

١ ـ الخوارج في الجزيرة .

٢ ـ تحالف حمدان مع الخوارج .

١ـ الخوارج في الجزيرة :ـ

كانت الجزيرة في العصر الأموي الميدان الرئيس لنشاط الخوارج ، حتى ليمكن إعتبارها مجالهم الحيوي فى أيام الأمويين الأخيرة : ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن جميع ثورات الخوارج فى هذه للفترة تكاد ان تكون قد خرجت من الموصل ومن آل بكر (١) ويرجع سبب كثرة اضطرابات الخوارج وغيرهم فى الجزيرة الى كثرة القبائل وتعدد إنتماءاتها وميولها واهدافها ووجود القبائل البدوية التي عاشت حياة شبه بدوية رعوية ، وأهمها بنو شيبان التى كانت اكبر القبائل واشدها بأساً والذين إنتشروا فى أطراف الموصل وبخاصة فى شرقيها (٢) . ففي سنة ١٠٠ هـ ـأي فى أيام عمر بن عبدالعزيز ـ خرج شوذب (ويسمى بسطام أيضاً) من بني

---

(١) فلهوزن ، الخوارج والشيعة [الترجمة العربية] ص ١٢٩ .

(٢) سلمان صائغ، تاريخ الموصل ص٧٣ .

يشكر ، ولما كان الخليفة يكره سفك الدماء ويميل إلى المسالمة، فأنه دخل مع شوذب وجماعته في مناظرة ادت الى اعجاب الوفد الخارجي بعمر وتصريح هذا بعدم رضاه عن ولاية العهد ليزيد، ويقول ابن الأثير (١): ان بني امية خافوا ان تخرج السلطة من ايديهم « فوضعوا على عمر من سقاه سماً ». وبعد وفاة عمر سنة ١٠١/ ٧١٩م الذي دعاه الخارجي شوذب « بالرجل الصالح » ، لنشب القتال بين جيوش يزيد بن عبدالملك واعوان شوذب من بني شيبان ويشكر اسفر عن هزيمة عدة جيوش أموية لكن شوذب ما لبث ان قتل على يد الجيوش الأموية (٢). وفي عام ١٥٠/٧٣٣ م (أي في ايام يزيد بن عبدالملك) خرج حروري (٣) آخر إسمه عقفان ، كما ظهر مصعب بن محمد الوالبي الذي عسكر في حزة من اعال الموصل لكنه مني بالهزيمة ايضاً (٤). وفي خلافة هشام بن عبدالملك خرج بهلول بن بشر الملقب كثارة وهو من الموصل من شيبان وذلك في سنة ١١٩ /٧٣٧م غير انه هزم عند الكحيل في الموصل (٥) كما شهـــدت السنة نفسها خروج الصحاري بن شبيب بناحية حبل (٦) .

إلا ان حركات الخوارج اخذت تشتد وتقوى لمـــا بدأت الخلافة الأموية في التداعي ، فقد أصبحوا باعداد ضخمة بعد ان كانوا يقاتلون

---

(١) الكامل جـ٣ ص ٤٥ وما بعدها [طبعة دار صادر ١٩٦٥] .

(٢) ابن الأثير جـ٥ ص ٦٨ ـ ٧٠ .

(٣) نسبة الى حروراء وهي قرية بظاهر الكوفة نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا الامام علي بعد صفين فنسبوا اليها [انظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٥٧ القاهرة .

(٤) ابن الأثير جـ٥ ص ١١٩ ما بعدها .

(٥) انظر فلهوزن ص ١٣٠ .

(٦) ابن الأثير جـ٥ ص ٢١٣ . يذكرها « فلهوزن ص ١٣٠ » جبل وفي الهامش عل انها جبل القديمة في سهل دجلة .

في جماعات صغيرة (١) . فبعد قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٦ / ٧٤٣م خرج بالجزيرة حروري (أي خارجي) يقال له سعيد بن بحدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة فيهم الضحاك بن قيس الشيباني ، وقد أفاد سعيد من إنشغال مروان بن محمد في مشاكل الشام فاعلن الثورة بأرض كفرتوثا ، وسار إلى العراق لكنه مات في الطريق فبايع الشراة(٢) خليفته الضحاك بن قيس الذي إجتمع إليه خوارج أرض الموصل وشهرزور حتى أصبح جيشه من الصفرية (٣) أربعة آلاف . والطريف في الأمر ان أهل الموصل كاتبوا الضحاك يستدعونه اليهم فسار الى الموصل فعلا وفتح اهلها له ابوابها فدخلها . واستولى الضحاك على الموصل وكورها في سنة ١٢٨ / ٧٤٥م (٤) . وتضخم أنصاره حتى بلغ جيشه الذي حاصر به تصيبين اكثر من مائة الف (٥) كما انه وجه جيشاً في أربعة آلاف أو خمسة آلاف الى الرقة . غير ان مروان - حين تفرغ من مشاكله موقتاً - سار الى الضحاك فالتقوا في نواحي كفرتوثا من اعمال ماردين - وأسفر القتال عن مقتل الضحاك . ويروي

---

(١) انظر ابن الأثير جـ٥ ص ٤٥ تجد ان شوذب خرج بثمانين رجلاً ، وفي نفس المصدر جـ٥ ص ١٠٩ تجد ان عقفان خرج في ثمانين ايضاً .

(٢) الشراة : أي الخوارج باعتبارهم باعوا أنفسهم لله واشتروا الجنة « انظر حول هذا الموضوع فلهوزن ، الخوارج والشيعة ص ٧٤ وما بعدها » .

(٣) الصفرية : من فرق الخوارج نسبة الى زياد بن الاصفر او نسبة الى عبدالله بن صفار « فلهوزن ص ٧٢ » . وقد قالو بالتقية في القول دون العمل ولم يكفروا الذين قعدوا من الحرب ما داموا متفقين في العقيدة . وهم فئة معتدلة بعكس الازارقة الغلاة (انظر الشهرستاني جـ١ ص ١٨٤ - ١٨٥) و (فلهوزن ص ٧٣) .

(٤) انظر حول الضحاك ابن الأثير جـ٥ ص ٣٣٤ - ٣٣٦ وص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٥) ابن الأثير جـ٥ ص ٣٤٩ .

ابن الأثير ان الضحاك قاتل ببسالة حتى وجـد في وجهه ورأسه اكثر من عشرين ضربة (١) .

وفي سنة ١٢٩/٧٤٦م تألق نجم شيبان بن عبدالعزيز ابوالدلف اليشكري الخارجي الذي بايعه الخوارج وبلـغ اصحابه نحو اربعين الفاً . وكانت الموصل تدين له بالولاء ، بحيث إتخذها قاعـدة له . فكانت ميرتهم ومرافقهم منها (٢) بل إن أهلها كانوا يقاتلون معه . وظل مروان بن محمد يحاربهم أشهراً عديدة دون جدوى، حتى استنجد بيزيد بن عمر بن هبيرة يأمره بالمسير من قرتيسيا بجميع من معه إلى العراق . وكانت الكوفة تدين بدورها بالولاء للخوارج فكان المثنى بن عمران العائذي خليفة لهم بها وبالعراق عامـة ، حيث كان لهم أعوان ونفـوذ وولاء في واسط والبصرة كذلك (٣) عزيمة مروان وكثرة جيوشه انهيا سلطة شيبان فقتل في سنة ١٣٠ / ٧٤٧م .

ويحلل فلهوزن(٤) ثورة الخوارج الاخيرة هذه فيقول انها قربتهم من السلطان اكثر من اية ثورة سابقة لهم ، وفي هذا القـول كثير من الصحة ، فقد أسلفنا القول ان الخوارج حكموا العراق حكماً فعلياً وعينوا فيه عمالا لهم ودانت لهم بالولاء الامصار الكبرى وهي البصرة وواسط والكوفة فضلا عن الجزيرة وقاعدتها الموصل . ويعلل فلهوزن سبب اخفاقهم بدخول عناصر اجنبية في جيوشهم والتحالف مع فرق أخرى،

---

(١) نفس المصدر جـ ٥ ص ٣٤٩ .

(٢) ابن الأثير جـ٥ ص ٣٥٣ .

(٣) انظر نفس المصدر جـ٥ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٥ .

(٤) الخوارج والشيعة ص ١٣٦ .

وهو تعليل فيه كثير من الحق ، لكنه لا يفسر وحده اخفاق حركة الخوارج . ففي هذا الصدد يمكن ان نضيف عوامل أخرى مثل طبيعة تنظيم الجيوش وتسليحها وتموينها والصرف على اعدادها، وهي شروط توفرت لدى السلطة المركزية اكثر مما توفرت لدى الثوار الخوارج .

والحق ان مجيء العباسيين بدعوى ازالة الظلم الأموي وتوفير العدالة لجمهور المسلمين، لم يوقف حركات المعارضة الا بصورة موقتة : والذي يهمنا هنا ان حركات الخوارج بالذات استمرت في الظهور في منطقة الجزيرة (بعد توقف موقت في بداية الحكم العباسي) وهددت سلطة العباسيين تهديداً خطيراً . والحق ان ثورات الخوارج عادت فنشبت منذ عهد المهدي، حيث تغلب خوارج بني تميم على أغلب ديار ربيعة . وفى سنة ١٧١هـ (٧٨٧م) اي في بداية خلافة الرشيد ، خرج الصحصح الخارجي بالجزيرة وسار الى الموصل ثم غلب على ديار ربيعة كلها، لكنه قتل بدربن (من اعمال الجزيرة) على يد قواد الرشيد (١) . وفى عام ١٧٦هـ خرج بنصيبين الفضل الخارجي وسار الى دارا وآمد وأرزن وخلاط ، وجبى من اهلها المال ثم عاد الى قاعدته نصيبين ومنها قصد الموصل وهزم جيشاً عباسياً على الزاب(٢) .

لكن قمة الحركات الخارجية في الجزيرة كانت في سنة ١٧٨/٧٩٤م حيث خرج الوليد بن طريف التغلبي ، فاستولى على نصيبين واتخذها مركزاً له ودخل الى ارمينية وكاد أن يفتح خلاط (بأرمينية) لولا ان

---

(١) ابن الأثير جـ٦ ص ١١٢ .

(٢) جـ ٨ ص ٤٦١ ، ابن الأثير جـ٦ ص ١٣٣ ، انظر كذلك أبو الفدا جـ٢ ص ١٦ .

اهلها افتدوا انفسهم بالمال(١). ثم سار الى اذربيجان، فحلوان وارض السواد، ثم عبر الى غرب دجلة وقصد مدينة بكد حيث افتدى اهلها انفسهم بمائة الف دينار. لقد هدد الوليد كل اقليم الجزيرة وهدد الخلافة في الصميم واقلق الخليفة القوي الرشيد(٢). والطريف في الأمر ان القائد الذي ارسله الرشيد لقتال طريف، وهو يزيد بن مزيد الشيباني اخذ يتلكأ في حرب خصمه، بحيث اتهمه البرامكة لدى الرشيد بالتواطؤ معه باعتبار صلة النسب التي تجمعهما وتردهما الى وائل، وحين اندفع يزيد الى القتال واستطاع قتل طريف قال بعض الشعراء:

وائل بعضهم يقتل بعضاً   لا يفل الحديد الا الحديد(٣)

٢- تحالف حمدان مع الخوارج.

وأول ما نسمع عن الحمدانيين التغالبة في حوادث الخوارج بالموصل عام ٢٥٤/٨٦٨م حين استطاع مساور بن عبدالحميد البجلي الموصلي الخارجي ان يستولي على اكثر اعمال الموصل فيتصدى له الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوي التغلبي عاملها نيابة عن ابيه

«١» نفس المصدر جـ٦ ص ١٤١.

«٢» نفس المصدر والمكان.

«٣» بعد مقتل الوليد قادت أخته ليلى بنت طريف قومها وعليها الدرع فجعلت تحمل على الناس فعيرها يزيد بانها قد فضحت العشيرة فاستحيت وانصرفت وهي ترثي أخاها في قصيدتها الشهيرة التي تقول فيها:

فيا شجر الخابور مالك مورقاً   كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى   ولا المال إلا من قناً وسيوف

ابن الأثير جـ٦ ص ١٤٣

بجيش ضخم كان احد قواده حمدان بن حمدون « جد الامراء الحمدالية » ذو النفوذ في الموصل وما حولها من القلاع(١)، غير أن مساوراً هزم هذا الجيش العباسي وانتشرت سلطته في الموصل وحزة (من اعمال أربل)(٢).

غير اننا يجب ان نعود قليلا الى الوراء لنلقي بعض الضوء على بدايات حركة مساور البجلي: فقد بدأت هذه الحركة في رجب سنة ٢٥٢/٨٦٦م في الفترة التي تلت قتل المستعين : وتسترعي الانتباه رواية إبن الأثير عن دوافع هذه الحركة فهو يقول: (٣) ان سبب خروج مساور بالبوازيج(٤) ان حسين بن بكر ملتزم شرطة الموصل لبني عمران وامراء المدينة أخذوا إبناً لمساور اسمه حوثرة فحبسوه بالحديثة ، وكان حوثرة جميــلا فكان حسين هذا يستغله لاغراض دنيئة ، فكتب إلى أبيــه يقول « أنا بالنهار محبوس وبالليل عروس » مما أغضب الأب واقلقه فخرج ثائراً وبايعــه جماعة فخرج الى الحديثة حيث اطلق سراح ابنه «وكثر جمعه من الاكراد والعرب ، وسار إلى الموصل فنزل بالجانب الشرقي » انا اعتقد ان تعديلا هاماً يجب ان يدخل على رواية ابن الأثير ، وهو ان سبب حبس حوثرة والاساءة اليه إنما كان لكونه خارجياً ابن خارجي، وان هذا العمل انما اقترف نكاية به وبابيه وإلا فكيف يصح ان يكثر أعوان مساور من الأكراد والعرب لمجرد انه خرج لاطلاق سراح ابنه والثأر لشرفه؟ أو لعــل

« ١ » ابن الأثير جـ ٧ ص ١٨٨ .

(٢) نفس المصدر والمكان . ابن خلدون ، العبر م ٤ ص ٨٤٩ « بيروت »

(٣) ابن الاثير جـ٧ ص ١٧٤ .

« ٤ » أصلها بيت وازيق وهي بلدة كانت بجوار تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة [سليمان صائغ ص ٧٩ ـ الهامش] .

هذه القصة منحولة أصلا ؟

ومهما يكن فالطبري(١) يتحدث عن إتساع نفوذ محكم(٢) يدعى مساور بن عبدالحميد في سنة ٢٥٣ / ٨٦٧م وقد حكم البوازيج وهدد السلطة واستطاع ان يهزم جيشاً عباسياً يفوق جيشه عدداً وبعد ذلك نجد مساور يأخذ في توسيع سطوتة ايام الخليفة المهتدي في سنة ٢٥٥ / ٨٦٨م حيث استولى على الموصل دون قتال بسبب معارضة أهلها للخلافة ولضعف واليها عبدالله بن سليمان . غير انه غادر الموصل لانه خاف من أهلها وعاد الى الحديثة التي كان اتخذها دار هجرته (٣). والحق ان الظروف خدمت مساوراً في هذه الفترة ، فقد كانت الخلافة تتعرض لاخطار جسيمة لعل من ابرزها قوة الزنج التي بدأت في البصرة وما حولها في هذه الأيام بالذات (٤) وقد اتاحت هذه الظروف لمساور ان يمد نفوذه على مناطق واسعة امتدت ما بين تكريت والحديثة والموصل وسنجار ونصيبين ومنقطة الخابور، فقد كان يحكمها حكما فعلياً وينظر في شؤونها ويحسن السيرة في اهلها على حد قول ابن الاثير (٥). وقد استطاع هزيمة الجيوش العباسية بقيادة مفلح، ووسع دائرة نفوذه ووطد سلطانه فجبى الخراج

---

(١) الامم والملوك جـ ٧ ص ٥١٤ - ٥١٦ [طبعة الاستقامة - القاهرة] .

(٢) من أسماء الخوارج وهي مشتقة من التحكيم إشارة لموقفهم في صفين وبعدها .

(٣) اتخذ الخوارج ماسموه بدار الهجرة أي الموضع الذي يقيمون فيه ويحاربون منه اعداءهم (فلهاوزن . الخوارج والشيعة ص ٧٤)

(٤) راجع (ثورة الزنج) للمؤلف . (بغداد ١٩٥٤) .

(٥) ابن الاثير جـ٧ ص١٨٨ و ٢٠٥ . في سنة ٢٥٨ تعاون الاعراب بتكريت مع مساور الشاري (ابن الاثير جـ٧ ص ٢٥٧) انظر الطبري جـ٧ ص٥٢٤ حول نشاط مساور في سامراء وانتصاره على جيوش الخلافة . كذلك انظر الطبري جـ٨ ص١٨ حوادث سنة ٢٦٥ وابن خلدون م٤ ص ٤٨٩ وما بعدها .

«وقويت شوكتــه واشتد امــره » (١) غير ان موت مساور سنة ٢٦٣ وهو في مهمة حربية ضد جيوش الخلافة ، ادى الى حصول خلافات حــادة داخل صفوف الخوارج بحيث تنازعوا واقتتلوا على أمــر من سيخلف مساوراً (٢) .

وقد اسفر هذا الصراع عن تفوق هارون بن عبدالله البجــلي الذي برهن على حـذق سياسي ونزعـة دنيوية واقعيـة هزمت صرامة منافسيه وتقشفهم ومثالينهم . فنحن إذا تجاورنا عن التفاصيل نجد ان قيم هارون الدنيوية الواقعية كان يقابلها قيم منافسه في زعامـة الخوارج وهو محمد بن خرزاد (من اهل شهرزور) الـذي كان رجـلا كثير العبادة والنسك متقشفاً يلبس الصوف الغليظ ويرقـع ثيابه ويجلس على الأرض دون أي فراش (٣) وفي الموصل وما حولها التقى المتنافسان على زعامـة الخوارج، غير ان النصر كان لهارون الذي انفرد بزعامـة الخوارج لاسباب يمكن اجمالها فيما يـلي : -

١- استمال هارون بني تغلب الذين نصروه واجتمعوا اليـه .

٢- اتبـع هارون سياسةاللين والصرف على اعوانه وتحسين اوضاعهم المعاشية ، على حين كان ابن خرزاد متشدداً في تقشفه . وفي هذا الصدد يقول ابن الاثير (٤): «ولم يبق مع ابن خرزاد الا عشيرته من الشمردلية وهم من اهل شهرزور الأكراد ، وانما فارقه اصحابه لانه كان خشن العيش » .

---

(١) الكامل جـ٧ ص٢٢٧

(٢) الطبري جـ٨ ص٣٤ ، ابن الاثير جـ٧ ص٣٠٩ فما بعدها .

(٣) ابن الاثير جـ٧ ص٣٠٩

(٤) نفس المصدر جـ٧ ص٣٦٠

٣ـ يبدو ان أعداء ابن خرزاد كانوا من العرب والأكراد معاً ،وهم اذا اتحدوا في الجزيرة على هدف فلا تستطيع قوة ان تقف في وجوههم .

ومن ثم فإن اعداء ابن خرزاد من الأكراد وقفوا ضده وبخاصة الجلالية الذين لقي حتفه على ايديهم (١) .

والذي يمكن ان نستنتجه مما اسلفنا ذكره، ان الحلف بين بني تغلب والاكراد (وبخاصة الجلالية) هو الذي ادى الى نصرة هارون على منافسه ابن خرزاد الكردي الاصل . واذا اردنا ان نبحث عن الدوافع فنحن نجدها في المصالح المادية والشخصية ، التي اتاحت لسياسة هارون الواقعية الانتصار على خصمه الذي مثل الصرامة التي اشتهر بها الخوارج الأول. وهكذا استطاع هارون ان ينفرد بالرئاسة على الخوارج « وقوي وكثر اتباعه ، وغلبوا على القرى والرساتيق ، وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة، وبثوا نوابهم في الرساتيق يأخذون الاعشار من الغلات »(٢) . اي ان سلطة هارون تحولت الى حكومة ذات تنظيمات مالية وادارية .

فأين كان مكان حمدان بن حمدون من هذه الاحداث ؟ علمنا ان حمداناً كان مجرد قائد بسيط في جيش الحسين بن ايوب التغلبي الذي كان ينوب عن ابيه في ولاية الموصل ، وهذا يدل على ان حمدان كان في بداية حياته العملية السياسية من جهة ، وعلى انه كان يعيش يومذاك في

---

(١) نفس المصدر والمكان

(٢) ابن الاثير جـ٧ ص٣٦٠

الموصل او في جهالها(١) : وفي احداث سنة ٢٩٠هـ في الموصل نجد حمدان بن حمدون في جيش اسحاق بن أيوب التغلبي الذي عينه اساتكين(٢) عاملا جديداً بعد أن ثار اهل البلد ضد ابنه المستهتر الفاسق أذكوتكين بن اساتكين فطردوه وقلدوا أمرهم الى يحي بن سليمان .:

ولما بلغت ثورة الموصل اقصاها وطردوا الوالي الذي عينه اساتكين وهو الهيثم بن عبدالله بن المعمر التغلبي ، أرسل اساتكين اسحاق بن ايوب التغلبي الذي استعان بحمدان بن حمدون وعشيرته في احتلال الموصل لكنه اخفق تجاه المقاومة الباسلة التي ابداها السكان بقيادة يحي بن سليمان الذي ارتضوا به عاملا عليهم(٣) . واشترك حمدان كذلك في احداث سنة ٢٦٦/٨٧٩م الى جانب اسحاق بن ايوب ضد اسحاق بن كنداج (أو كنداجق) الذي كان جندياً تركياً طموحاً ساهم في جيوش الخلافة ضد الزنج بالبصرة، ثم وقف ضد السلطة حين اسندت ولاية ديار ربيعة الى غيره. وقد حشد ابن كنداج جيشاً ضخماً سار به الى بلد فأوقع بالخوارج من الأكراد اليعقوبية فهزمهم(٤) ، ثم لقي ابن مساور الخارجي فقتله وسار الى الموصل حيث اتفق مع اهلها على مال يدفعونه له(٥) : وهنا نجد حمدان بن حمدون ينحاز الى جانب اسحاق بن ايوب (وكلاهما

---

(١) ابن خلدون ، العبر جـ٤ ص٢٢٨ « القاهرة » م ٤ ص ٤٩٠ « بيروت »

(٢) ابن الاثير جـ٧ ص ٢٦٩ . من الجدير بالذكر أن الخلفاء ـ أيام ضعفهم كانوا يقلدون هؤلاء القواد على طريقة الضمان فيقيمون ببغداد وينتدبون من ينوب عنهم .

(٣) نفس المصدر جـ٧ ص ٢٧٠-٢٧١ العبر م٤ ص ٤٩٠

(٤) الطبري جـ٨ ص٤٩ وابن الاثير جـ٧ ص٤٢٣ ويشير ابن الاثير الى « اليعقوبية الشراة »

(٥) ابن الاثير جـ٧ ص ٣٢٣ العبر م٤ ص ٤٩٠

من تغلب) ونشب حرب بين الطـــرفين تسفر عن هزيمة ابن ايوب وحمدان الى نيسابور ، فاستولى ابن كنداج على نصيبين وديار ربيعة . واعترف الخليفة المعتمد بسلطة ابن كنداج الواقعية فأرسل اليه عهـــداً بولاية الموصـل(١) . غير ان اسحاق بن ايوب وحمدان بن حمدون لم يلبثا ان جمعا جيشاً من ربيعة وتغلب وبكر وقصدا ابن كنداجيق فى سنة ٢٦٧/٨٨٠م ، الا انهما منيا بالاخفاق فهربا الى نصيبين ثم الى آمد حيث تعقبهما ابن كنداج وهزمهما فى عدة مناوشات حول آمد(٢) .

في هذه الفترة بالذات (سنة ٢٦٧) كان الخوارج تحت زعامـــة هارون الشاري الذي سانده حمدان وبنو تغلب خلال صراعه على زعامة الخوارج في عام ٢٦٣ كما أسلفنا (٣) . ويبدو ان حلف حمدان بن حمدون مع هارون الشاري كان متينـا واستمر حتي سنة ٢٧٢ / ٨٨٥م حيث نجدهمـا يدخلان الموصل سوية ويصـــلي الشاري بجماعته في المسجـــد الجامع (٤) وحين نزل بنو شيبان ـ ذوو النفوذ في الجزيرة ـ بين الزابين من أعمـال الموصل سنة ٢٧٢ ، تصـــدى هارون لهم وكتب إلى حمدان يستنجده فإجتمعا بالموصل وعبرا إلى الجانب الشرقي وسارا إلى نهـــر الخابور حيث مساكن بني شيبان غير ان هـــؤلاء حققوا نصراً مؤزراً

---

(١) الطبري جـ٨ ص ٥٠ (حوادث سنة ٢٦٦) ، ابن خلدون م ٤ ص ٤٩٠

(٢) راجع الفصل الخاص بجغرافية الجزيرة .

(٣) انظر ابن الأثير جـ٧ ص ٣٦٠ ويروي ابن الأثير جـ ٧ ص ٥٢٧ شعراً للحواني ذكر فيه ان هارون كان خياطاً وان أعوانه كانوا « زط ونوب واكراد وانباط » وقد جاء الشعر في معرض الهجاء .

« ٤ » ابن الأثير جـ٧ ص ٤١٩ . كذلك انظر ابن خلدون م ٤ ص ٤٩١

على الخوارج وبني حمدان في هذه الموقعة (١) . والحق ان الخوارج بزعامة هارون بلغوا من القوة حداً مكن هيبتهم في نفوس سكان المدن - وبخاصة الموصل - الذين لم يجدوا سلطة رسمية تحميهم الحماية اللائقة . لذلك نجد أهل الموصل يعتذرون لهارون ويطلبون منه الأمان حين ثارت ثائرته لقتل أحد أعوانه في مدينتهم سنة ٢٧٦ يسمى نعيما (٢) . ونلاحظ ان هارون كان يقيم في هذه الفترة في حديثة الموصل، ويستطيع ان يقصد هذه المدينة متى شاء لضعف السلطة هناك وإنشغال واليها ابن كنداج في صراعه مع القواد الأتراك تارة ومع العباسيين تارة ومع الطولونيين تارة ثالثة لتوسيع سلطانه في أرض الجزيرة (٣) .

لقد ارتبط حمدان بالخوارج إرتباطاً وثيقاً كما أشرنا استمر فترة تعتبر طويلة نسبياً إذا أخذنا بنظر الإعتبار ان العهود والمواثيق لم تكن لها قيمة كبيرة لدى قادة هذا العصر ، وان الارتباطات كانت تقوم على مصالح آنية وتزول بمجرد زوالها . والذي يتتبع تفاصيل احداث تلك الفترة يكتشف ان الساسة والقادة كانو يتحولون بسهولة وبسرعة من معسكر إلى آخر كلما دعتهم مصالحهم الى ذلك . ومع ذلك نجد حمدان مرة أخرى مع جيش الخوارج بزعامة هارون في سنة ٢٧٩ وخلال حربه ضد بني شيبان . وتفصيل الأمر ان بني شيبان عبروا الزاب

« ١ » نفس المصدر والمكان العبر م٤ ص ٤٩١ .

« ٢ » ابن الأثير جـ٧ ص ٤٢٧ .

« ٣ » راجع حول اسحق بن كنداج [أو كنداجيق] ابن الأثير [جـ ٧ - طبعة بيروت] صفحات ٤٠٩ - ٤١٠ [مسيره الى الشام] وصفحات ٤٢٢ - ٤٣٠ (حول علاقته بابن ابي الساج) وحين توفي ابن كنداج في سنة ٢٧٨ ولي ما كان إليه من أعمال الموصل وديار ربيعة إبنه محمد (ابن الأثير جـ٧ ص٤٥١) وكذلك ابن خلدون م٤ ص٤٩١ .

وقصدوا نينوى للإغارة على الموصل ، « فاجتمع هارون الشاري « وحمدان بن حمدون وكثير من المتطوعة المواصلة وأعيان أهلها على قتالهم ودفعهم » (١) . وهنا يجب ان نلاحظ بأن الصراع حول الموصل دار في هذه الفترة بين الخوارج وحمدان التغلبي وأنصارهما من جهة وبين محمد بن اسحاق بن كنداج والي الموصل وديار ربيعة وبني شيبان حلفائه من جهة أخرى . وكان ابن كنداج لا يقيم في الموصل بل يرسل نواباً عنه يبدو ان أغلبهم كانوا من بني شيبان. أما أهل الموصل فيبدو انهم كانوا متكتلين ضد ابن كنداج وولاته وضد الشيبانيين، لذلك نجدهم يستعينون بالخوارج، على حين يتصدى بنو شيبان لإسناد نائب ابن كنداج ويسيرون لقتال الخوارج وأهل الموصل. وفي هذه الموقعة حقق حمدان والخوارج نصراً على بني شيبان فطردوهم وملكوا بيوتهم (٢) . غير ان إعراب بني شيبان عادوا بعد أن بلغوا الزاب وضربوا مؤخرة الجيش الحمداني - الخارجي وقتلوا كثيراً من اهل الموصل (٣) . إلا ان أهل الموصل حققوا النصر النهائي من ثورتهم، فقد أقنعوا الخليفة الجديد القوي المعتضد بالله بضرورة خلع ابن كنداج عن أمرة الموصل في سنة ٢٧٩/٨٩٢م رغم وساطة خمارويه ابن طولون وذلك بسبب « كراهة أهل الموصل من عماله - أي عمال ابن كنداج - » (٤) .

كانت احداث الجزيرة في هذه الفترة توجهها أربع قوى، الخوارج

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٢) نفس المصدر والمكان .

(٣) نفس المصدر والمكان .

(٤) ابن الأثير ج٧ ص ٤٥٤ .

وحلفاؤهم بنو تغلب، وبنو شيبان، والأكراد، والولاة الرسميون الذين تعينهم الخلافة. وقد رأينا ان الموصل كانت هدف هذه القوى المتصارعة. ومن جهة اخرى وجدنا إن بني تغلب بزعامة حمدان كانوا الى جانب الخوارج، وان بني شيبان كانوا إلى جانب ابن كنداج. أما الأكراد فيبدوا انهم لعبو دوراً ثانوياً في هذه الفترة، لكنهم - وبخاصة الأكراد اليعقوبية - مالوا الى الخوارج (١). ان الفوضى التي ضربت أطنابها أيام الخليفة المعتمد على الله، والتي نجمت عن انشغال السلطة المركزية بحرب الزنج بالدرجة الأولى حتى سنة ٢٧٠ ثم الإنهماك بصد خطر الصفارين والطولونيين والثورات الداخلية فيما بعد مما ادى الى ضياع الاستقرار في منطقة الجزيرة على النحو الذي رأيناه.

ويظهر فى سنة ٢٨٠هـ خارجي آخر هو محمد بن عبادة المعروف بأبي جوزة وهو رجل معدم من عمار الشعب من بني زهير ومن أهل قبراثا (فى البقعاء) وشق عصا الطاعة على هارون وجمع حوله أعواناً من الأعراب واخذ يجمع العشور على الغلات ويقبض الزكاة. وقوي أمر ابي جوزة فدخل معاثايا واستولى على سنجار حيث بنى حصناً حصيناً حمل اليه الامتعة والميرة، جعل فيه ابنه ابا هلال فى مائة وخمسين رجلا من بني زهير وغيرهم(٢). غير أن هارون حاصر الحصن مع اعوانه من بني تغلب وغيرهم وفتحه وقتل ابا هلال، ثم قصد محمد بن عبادة وهو

---

١ - عين المعتضد على الموصل عاملاً كردياً هو علي بن داود بن زهراد الكردي
ابن الأثير جـ٧ ص ٤٥٥، ابن خلدون (م ٤ ص ٤٩١)

٢ - كان ابو جوزة فقيراً وكان هو وابنان له يلتقطون الكمأة ويبيعونها.
ابن الأثير جـ٧ ص ٤٦٢

بقبراثا فالقيهم في جيش من أربعة آلاف رجل ، لكنه هزم امـام قوة هارون الماحقـة ولجأ الى أمد حيث سلمه صاحبها ـ بعد حرب ـ الى الخليفة المعتضد « فسلخ جلده كما يسلخ الشاة . »(١)

شمر المعتضد عن ساعد الجد للقضاء على الفوضى الضاربة أطنابها في الجزيرة حيث كانت السيادة للخوارج وبني تغلب وبني شيبان والأكراد. ففي سنة ٢٨٠/٨٩٣م قصد الجـزيرة فقضى على نفوذ بني شيبان الذين طلبوا منه الامان كما قضى على جماعات من الأعراب كانت تهدد أمن الخلافة عند السن (٢) . ويبدو ان اهتمام المعتضد كان موجهاً بالدرجة الاولى الى الخوارج بإعتباهم اخطر القوى المناوئة للسلطة المركزية في الجزيرة ، فأخذ يقتل ويسجن كل من وقـع في يده منهم (٣) . ثم قرر المعتضد أن يقوم بحملة حاسمة يقودها بنفسه فخرج في سنة ٢٨١/٨٩٤م الى الموصل « قاصداً لحمدان بن حمدون ، لأنه بلغه ان حمدان مال الى هارون الشاري ودعا له (٤) . وهنا يستوقفنا هذا النص الذي نستطيع أن نستنتج منه جملة حقائق : أولها ان هارون الشاري أصبح يطمح الى الخلافة أو الإمامة وان تأييد حمدان اه لم يقف عند حد التأييد العسكري بل تعداه الى حد ترويج الدعوة له . ونستنتج كذلك ان حمـدان كان يتآمر على الخلافة سراً مـع الخوارج لإقامة دولة خارجيـة . ونستنتج كذلك ان نقمة المعتضد إنصبت بالدرجة الاولى على حمدان ، مما يدل

---

(١) ابن الأثير جـ٧ ص ٤٦٤ .

(٢) الطبري جـ٨ ص ١٦٦ ابن الأثير جـ٧ ص ٤٦٢ .

(٣) الطبري جـ٨ ص ١٦٦ ابن الأثير جـ٧ ص ٤٦٤ .

(٤) الطبري جـ٨ ص ١٦٨ ابن الأثير جـ٧ ص ٤٦٦ .

على أهميتــه وكثرة أعوانه من بني تغلب ، وعلى ان وقوفــه إلى جانب الخوارج يمدهم بالقوة والمنعة ويضعف موقف الخلافة .

ويبـــدو ان التحالف ضد الخـــلافة في الجزيرة ألف بين العرب والأكراد، حتى انهم حين سمعوا بمسير المعتضد «تحالفوا انهم يقاتلون على دم واحد» (١) . لكن المعتضد هزمهم وسار الى الموصـــل يريد قلعة ماردين ـ وكانت لحمدان بن حمـدون ـ فهرب حمدان وخلف ابنه الحسين بها. وبعد حصار قصير إستسلم الحسين بن حمدان فإستولى المعتضد على القلعة وأمر بنقل ما فيها وهـــدمها (٢) ، وأرسل قـــوة أخـذ تطارد حمدان وتلاحقه بإصرار ومثابرة . ظل المعتضـد في الموصل حتى بدايات سنة ٢٨٢ وفي نيته القضاء على خصومه ، وكتب الى حمـدان بن حمدون واسحاق بن أيوب يطلب منهما الإستسلام ففعل اسحـــق في حين رفض حمدان وتحصن في قلاعه بباسورين ، لكن جيوش الخليفة بقيادة وصيف موشكير جدت في طلبه فهرب ومعه أمواله في زورق كان أعده في دجلة وعبر الى الجانب الغربي فصار في ديار ربيعة، وإختبأ في قلعة له بدير الزعفران فلما أدركته قوات الخليفة ترك أمواله وهرب ، لكن المطاردين لم يتوانوا في طلبه ، فاضطر الى أن يلجأ إلى خيمة حليفه القديم اسحق بن ايوب في معسكر المعتضـد الذي احضره الى الخليفة فابقاه أسيراً لديه . وتتابع إستسلام رؤساء الأكراد في المحرم من سنة ٨٩٥/٢٨٢م (٣).

بقي هارون الشاري وحـده في الميدان تواجهه جيوش الخـــلافة

---

(١) الطبري حـ٨ ص ١٦٩ .

(٢) الطبري حـ٨ ص ١٦٩ ، مروج الذهب حـ٤ ص ١٥٧ « بيروت » . ابن الأثير حـ٧ ص ٤٦٦ ، إبن خلدون م٤ ص ٤٩١ .

(٣) انظر الطبري حـ٨ ص ١٧٠ ـ ١٧١ . ابن الأثير حـ٧ ص ٤٧٠ .

الضخمة وكانت الخطوة الاولى دعوة هارون الى الإستسلام لكنه رد على دعوة قائد الخليفة نصر القشوري رداً عنيفاً ، رفض فيه الإستسلام وهدد بالحرب قائلا بثقة عالية « ولعمر الله ما ندعو الى البراز ثقة بانفسنا ، ولا عن ظن ان الحول والقوة انا ، لكن ثقة بربنا .. » (١) . وقد وردت في جواب هارون هذا إشارة إلى حمدان فيما اعتقد حين قال: « وما غرك إلا ما أصبت به صاحبنا ، فظننت أن دمه مطلول أو ان وتره متروك لك ، كلا ان الله تعالى من ورائك آخذ بناصيتك » (٢). وحين اطلع المعتضد على كتاب هارون ثارت ثائرته ، وولى الحسن بن علي كورة الموصل وأمره بحرب الخوارج والزم مقدمي الولايات والأعمال بطاعته، وبعد موسم الحصاد وجمع الغلات، سار الحسن وعبر الزاب فلقي الخوارج قرب المغلة ، وبعد حرب حامية الوطيس انتصر الجيش العباسي وهزم الخوارج ودخلت فلولهم الى أذربيجان(٣). أما هارون فقد وقع في الفخ، وأخذ يتنقل في البرية ولجأ الى حلفائه بني تغلب ثم عاد الى البرية ثم رجع فعبر دجلة الى حزه ثم عاد الى البرية محاولا الهرب من مطاديه بعد أن إستسلم أكثر أعوانه للخليفة (٤) .

كان هارون الشاري اخطر أعداء الخلافة في الجزيرة لذلك خرج المعتضد مرة ثالثة للقضاء عليه في المحرم سنة ٢٨٣. فانتهز الحسين بن حمدان شدة رغبة الخليفة في القبض على الخارجي الفار ووافق على القيام بهذه المهمة قائلا « ان أنا جئت به الى أمير المؤمنين فلي ثلاث حوائج الى

(١) نفس المصدر ج٧ ص ٤٧١ .

(٢) نفس المصدر والمكان .

(٣) انظر العبر م٩ ص ٤٩٢،(بيروت)

(٤) ابن الأثير ج٧ ص ٤٧٢ ، ابن خلدون ، العبر ج٤ ص ٢٢٩ (مصر) .

أمير المؤمنين فقال: اذكرها . قال أولها اطلاق أبي وحاجتان أسأله اياهما بعد مجيء به اليه . فقال المعتضد لك ذلك فإمض » (١) .

إنطلق الحسين بن حمدان بثلاثمائة من خيرة الفرسان وأخذ يطارد هارون في دأب وصبر عجيبين ، ولعله كان مدفوعاً بدافعين أولهما حبه لابيه ورغبته في تحريره ، وثانيهما طموحه في أن يكون له شأن لدى الخليفة في ذلك العصر الذي إرتفع فيه ذوو الجرأة من المغامرين . واستطاع الحسين ان يقبض على حليفه السابق هارون ويأتي به اسيراً الى المعتضد (سنة ٨٩٦/٢٨٣م). وقد سر المعتضد بتخلصه من عدوه اللدود وخلع على الحسين وطوقه بطوق من ذهب كما خلع على جماعته « وزين الفيل بثياب الديباج واتخذ للشاري على الفيل كالمحفة واقعده فيها والبس دراعة ديباج وجعل على راسه برنس حرير طويل » (٢) ، وهذا اسلوب من اساليب التشهير بالأسرى في ذلك العصر :

وصلب هارون وهو يصرخ بأعلى صوته « لا حكم الا لله ولو كره المشركون (٣) وهو شعار الخوارج المأثور . ووفى المعتضد بوعده ففك قيد حمدان واحسن اليه اما المطلبان الاخران اللذان تقدم بهما الحسين الى المعتضد فقد سكت عنهما المؤرخون ، غير ان ابن خالويه وحده ذكرهما في شرحه لديوان ابي فراس فقال: (٤) ان الحسين طلب

---

(١) الطبري ج٨ ص ١٧٣ ، ابن الأثير ج٧ ص ٤٧٦ .

(٢) الطبري ج٨ ص ١٧٤ . يقول ابن الأثير (ج٧ ص ٤٧٧) ان هارون رفض أن يلبسوه ديباجاً مغيراً وقال هذا لا يحل فالبسوه كارهاً .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ٤٧٧ [دار صادر] . المسعودي ، مروج الذهب ج٤ ص ١٦٦

(٤) نفس المصدر ج٧ ص ٤٧٧ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٢٩ .

(٥) ديوان ابي فراس (تحقيق سامي الدهان) ص ١٢٨ .

إزالة الاتاوة على بني تغلب فأزيلت ، واثبات خمسمائة فارس منهم يضمون اليه فأثبتوا . ومن هنا نجد الحسين يفيد من خدمته الكبيرة للخلافة فائدة ذات جدوى لاسرته وعشيرته :

ماالذي نستطيع ان نستنتجه من كل هذه التفاصيل التي مر ذكرها؟ الحق ان اقليم الجزيرة كان اقليماً خاصاً في تكوينه البشري والاجتماعي ، فقد هاجرت اليه كثير من القبائل العربية - عدنانية وقحطانية - فعاشت في ربوعه الخصبة العامرة حياة تفاوتت بين البداوة القائمة على التنقل والرعي ، وبين الاستقرار وممارسة حياة زراعية متحضرة . فمن جهة نجد قبائل مثل بني شيبان - اكبر قبائل بكر واقواها - تمارس حياة طابعها الرعي والغزو فكأنها ظلت محتفظة بنمط حياتها القديم اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً. ومن جهة نجد بني تغلب وقد استأثروا بمنطقة جليلة القدر عظيمة الثروة وافرة الانتاج تقع بين جبل سنجار وجبل طور عابدين - اشبه بجزيرة ترويها الانهار - وتمتد حول برقعيد في منطقة روافد نهر الهرماس (نهر نصيبين) وفي المنطقة الواقعة على ضفة دجلة اليسرى بين جزيرة ابن عمر والموصل وعند جبل الجودي ، ومن جهة أخرى من طور عابدين حتى ماردين على الطريق الذي يوصل الموصل بالشام . لقد كانت ضياع الحمدانيين وقلاعهم - كقلعتي ماردين وأردمشت - تقع بين اراض خصبة غنية : ومن جهة ثالثة نجد الأكراد الذين عاشوا مابين حياة زراعية مستقرة وحياة بدوية، والذين تكونت بلادهم - كما رأينا - من مناطق جبلية وعرة واخرى سهلية أو على شكل مراع وسهوب وهضاب .

في مثل هذه البيئة ذات الغنى الوفير والخصب العميم والثروة الاقتصادية الهائلة ، لابد ان يكون الصراع على الاستئثار بالارض على

أشده . وقد شجع هذا الصراع نزوح القبائل المستمر بحثاً عن مواطن لها جديدة يتوفر فيها الكلأ والماء.. ومن هنا نجد الصراع على أشده بين القبائل البدوية كبني شيبان وبين الجماعات التي اتيح لها الاستقرار واستأثرت بالارض الصالحة الخصبة . وهذا يفسر لنا أوضح التفسير ما ذكرناه عن موقف قبيلة بني شيبان وغاراتها المستمرة على منطقة الموصل وما حولها ، كما يفسر موقف الحمدانيين التغلبية في العمل على صد غارات الشيبانيين . وقد اتفقت مصالح بني تغلب مع مصالح الأكراد في هذه الفترة ضد الغزو البدوي الذي اشرنا اليه ، لأن الأكراد كانوا بدورهم - وهم عنصر جبلي محارب - يدافعون عن اراضيهم الزراعية والرعوية .

غير ان الأمر الأساسي الذي يستدعي المناقشة هو التكتل الخارجي الذي ضم العرب والأكراد من جهة ، والقبائل المستقرة والبدوية (الأعراب) من جهة أخرى ، والذي فرض نفوذه - أيام هارون الشاري - على مجتمع مدني متحضر هو مجتمع الموصل . فكيف نفسر هذه الظاهرة ؟

كان اهل الموصل يضيقون ذرعاً بولاة العباسيين وقوادهم الذين اساءوا السيرة وارتكبوا الاعمال المنكرة وشددوا في المطالبة بالخراج على الغلات وصادروا الاموال حتى كان اذكوتكين بن اساتكين (من القواد الاتراك) الذي تولى أمر الموصل في سنة ٢٥٩ (٨٧٢) قد دعا « وجوه الموصل الى قبة في الميدان ، واحضر انواع الملاهي ، واكثر الخمر ، وشرب ظاهراً ، وتجاهر اصحابه بالفسوق ، وفعل المنكرات ، واساء السيرة في الناس »(١) وزاد في الطين بلة ان موسم تلك السنة كان رديئاً

---

(١) ابن الاثير جـ٧ ص ٢٦٩ .

بسبب البرد الشديد الذي اهلك الاشجار والثمار والحنطة والشعير ، بحيث عجز اهل الموصل عن دفع ما طولبوا به .

ويستطرد ابن الاثير قائلا : ان اذكوتكين فعل كل ذلك واهل الموصل صابرون حتى « وثب رجل من اصحابه على امرأة فأخذها في الطريق فأمتنعت واستغاثت ::: فاجتمع وجوه الموصل الى الجامع وقالوا : قد صبرنا على اخذ الاموال ، وشتم الأعراض ، وابطال السنن والعسف ، وقد افضى الامر الى أخذ الحريم »(١) وقد أسلفنا الاشارة الى ثورة اهل الموصل وطرد الوالي . لقد ابغض اهل الموصل ولاتهم ، حتى لقد دفعهم ذلك الى مساندة الخوارج، بحيث انهم فتحوا مدينتهم لهم اكثر من مرة دون حرب املا في التخلص من حكام غير عادلين امثال عبدالله بن سليمان بن عمران الأزدي واذكوتكين . غير ان ذلك لا يعني ان اهل الموصل تحولوا فعلا للدعوة الخارجية ، فهناك من الادلة ما يؤيد ان مساندتهم للخوارج انما كانت بدافع البغض لولاتهم وحكامهم(٢) . وقد أدرك المعتمد خطورة ما يجري في الموصل فعين عليها عاملا من اهلها هو الخضر بن احمد التغلبي الذي استطاع إعادة الهدوء الى المدينة وبث الطمأنينة في نفوس اهلها(٣) ، وهي محاولة لتهدئة الرأي العام في منطقة ملتهبة .

وعلى صعيد السلطة المركزية نجد هناك صراعاً بين ذوي المطامع والمطامح من الساسة والقواد ، الذين لم يألوا جهداً في الحصول على الحظوة لدى السلطان بغية الوصول الى حكم الموصل والجزيرة . ولعل

---

(١) نفس المصدر جـ٧ ص ٢٧٠ .

[٢] نفس المصدر جـ٧ ص ١٨١-١٨٢ و ٢٠٥

[٣] ابن الاثير جـ٧ ص ٢٨٨

القارىء قد فطن الى الدور المعقد العجيب الذي لعبه اسحاق بن كنداج (أو كنداجق) الذي اخذ على عاتقه مهمة القضاء على حركة الخوارج في سنة ٢٦٧ (٨٨٠) : غير ان ابن كنداج قام بدور يتصف بالتخريب، لانه كان في الحقيقة يهدف الى النفع الشخصي ويساوم العباسيين واعدائهم الطولونيين ، ومن ثم اخفق في تحقيق أي هدف وتركت نشاطاته آثاراً سيئة في المنطقة، وهو انما يكون مثلا لحالة الادارة العباسية في هذه الفترة، تلك الإدارة التي شجعت على تفسخ وحدة الدولة وزيادة حركات الانفصال وإذكاء حركات المعارضة .

بقي ان نجيب على سؤال خطير : هل كان حمدان بن حمدون خارجياً مؤمناً بتعاليم الخوارج يدين بمذهبهم ، أم انه كان رفيق طريق لهم ، يريد الوصول الى اهدافه عن طريقهم؟ لعلنا لاحظنا الصلة الوطيدة بين حمدان والخوارج ، وارتباطه بهم مدى سنوات كثيرة حتى تم القبض عليه على يد المعتضد واطلاق سراحه، بعد ان تطوع ابنه الحسين بالقضاء على حركة هارون الشاري . وهنا استطيع ان استنتج ان مساومة جرت بين المعتضد والحسين بن حمدان على ان يطلق المعتضد سراح ابيه مقابل ان يأتي له برأس هارون . ويمكن الاستنتاج ايضاً بأن الحسين بن حمدان كان على اطلاع تام بتحركات هارون ويعلم حق العلم اين يختفي ومن ثم استطاع حقاً ان يفي بوعده وان يحصل ـ مقابل ذلك ـ على حرية ابيه وعلى مكاسب شخصية . انني اشك ان حمدان كان خارجياً، فقد اسلفت القول ان اهل الموصل وكثيراً من الاعراب من شتى قبائل الجزيرة تعاونوا مع الخوارج في ظروف معينة . ان مايفسر موقف حمدان وقبائل الجزيرة العربية والكردية في تأييد الخوارج هي النزعة نحو الاستقلال عن السلطة العباسية وتحقيق حكم ذاتي لهذه العناصر في مناطقها

التي تحيا فيها : وأضيف على ذلك أن لقب « الشراة » اطلق على الأكراد اليعقوبية كما أسلفت وهذا لا يعني ان الأكراد تحولوا للمذهب الخارجي ، وانما هو اشارة الى معارضتهم للسلطة التي عبر الخوارج تعبيراً حازماً عن عدائهم لها وهدفوا الى ازالتها . يضاف الى كل ذلك ان الخوارج كانوا حزباً ثورياً صريحاً ومتشدداً ، على حين كان كثير ممن انضم اليهم إبان قوتهم انما فعلوا ذلك لمصلحة سياسية أو نكاية بالخلافة، وربما كان حمدان من اولئك الذين ارادوا ان يحققوا اهدافهم من وراء حركة الخوارج . وسوف نرى فيما بعد ان الحمدانيين كانوا من الشيعة ، ومن ثم لم يكن اعتناق حمدان لمذهب الخوارج أمراً ينسجم مع عقيدته الشيعية : الا ان العصبية القبلية من جهة اخرى كانت مازالت تفعل مفعولها في ذلك العصر - في منطقة الجزيرة حيث التكتلات القبلية المعروفة - فقد ساندت بطون ربيعة حركة الخوارج ايام مساور مثلا وطلبت بثأر احد اصحابه ممن قتلتهم السلطة(١) ، خاصة وقد لاءمت حركة الخوارج المزاج القبلي لانها دعت الى التمرد على السلطة المركزية وشجعت النزعة الاستقلالية .

---

[١] ابن الاثير جـ٧ ص ٢٧٢

الفصل الرابع

الحسين بن حمدان

في خدمة الخلافة

١ ـ ضد الخوارج ٢ ـ في بلاد الجبل ٣ ـ ضد القرامطة
٤ ـ ضد الطولونيين ٥ ـ الحسين ومؤامرات البلاط ٦ ـ ضد الصفارين
٧ ـ خاتمة الحسين :

١ ـ ضد الخوارج : بدأ نشاط الحسين بن حمدان يوم كلفه المعتضد بالقضاء على هارون الشاري حليف أبيه حمدان عام ٢٨٣/٨٩٦م كما أشرنا. إننا إذا فحصنا الروايات التأيخية التي وردت لدى الطبري (١) وابن الأثير (٢) وابن خلدون (٣) مثلا ، نجد انهم يتفقون على التفاصيل التي تتعلق بالإتفاق الذي تم بين المعتضد والحسين بن حمدان وبتفاصيل الخطة الحربية التي إتبعها الأخير والتي أدت إلى أسر هارون الشاري وتسليمه الى المعتضد مع إختلاف جزئي في الفاصيل. غير ان ابن خالويه (٤) يضيف ان الذي نصح المعتضد بتكليف الحسين كان (بدر) احد القواد الأتراك. ويتفق الطبري وابن خالويه على ان (موشكير) التركي هو الذي سار تحت

---

(١) الامم والملوك جـ٨ ص ١٧٣ - ١٧٤ (الاستقامة) .
(٢) الكامل جـ٧ ص ٤٧٦ - ٤٧٧ (صادر) .
(٣) العبر م٤ ص ٤٩٢ .
(٤) ديوان ابي فراس جـ ٢ ص ١٢٨ .

إسوة الحسين بن حمدان مع ثلاثمائة فارس ، على حين يقول ابن الأثير انه كان وصيف بن موشكير الذي يسميه في مواضع أخرى (١) وصيف موشكير إسوة بالطبري في مواضع أخرى كذلك (٢) . وواضح من ذلك ان جميعهم يتحدثون عن الشخص نفسه وهو أحد المماليك الأتراك في جيوش الخلافة . ويتفوق ابن خالويه (٣) على غيره بذكر الحوائج الثلاث التي اشترطها الحسين على المعتضد إن هو جاء بهارون الخارجي ، على حين يذكر الآخرون الحاجة الأولى وحدها وهي إطلاق سراح أبيه حمدان . وقد أشرنا الى المطلبين الاخرين هذين وهما إزالة الإتاوة عن بني تغلب ، وإثبات خمسمائة فارس منهم يضمون إلى الحسين كجند نظاميين . وقد استجاب الخليفة الى ذلك فعلا . وواضح ان هؤلاء الفرسان هم الذين سار بهم لحرب هارون كما يتضح من إشارة الطبري (٤) .

كان الحسين من طراز القادة الواقعيين الذين أتقنوا الإفادة من الظروف السيئة التي كانت تمر بها الخلافة العباسية آنذاك . فإنه خان حليف أبيه وسلمه الى الخليفة الذي قتله بعد ان شهر به ، غير إنه - أي الحسين - حقق من وراء ذلك جملة أهداف هي إطلاق سراح أبيه والترفيه عن بني تغلب برفع الإتاوة عنهم وتكوين فرقة نظامية له من خمسمائة فارس من بني قومه كانوا ذوي نفع له في المستقبل . وهنا نتساءل هل كانت دوافع الحسين إخلاصه للخلافة ، أم إنه كان مدفوعاً بمصالحه ومصالح أسرته؟ ان هنالك ما يدل على ان الحسين كان متلكئاً في القبض على هارون :

---

(١) الكامل ج ٧ ص ٤٦٩ ، ٤٧٦ ، ٥١٣ .

(٢) الامم والملوك ج ٨ ص ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٧ .

(٣) ديوان أبي فراس ج ٢ ص ١٢٨ .

(٤) ج ٨ ص ١٧٢ .

يقول ابن خالويه (١) : فلما وصلا ـ الحسين وموشكير ـ تقدم الحسين وسار الى هارون فأوقع به وقتل رجاله واسره وسار به متوجهاً الى المعتضد ، وخالف موشكير إلى الموصل ، فلم ير الحسين بها وكتب الى الملك بسرعته ومطابقته للشاري ، فغلظ ذلك على المعتضد وأمر بقتل أبيه حمدان بن حمدون ، وكان فى حبس المعتضد فسأله بدر التوقف ، ووافى الحسين بالشاري فإشتد سرور المعتضد . . » والحق ان الحسين كان طموحاً ، ونحن لا تعوزنا الدلائل على طموحه فسنرى ـ بعد قليل ـ الوسائل التي سلكها فى سبيل الوصول الى غاياته . غير اننا نود ان نشير الى حادث يؤيد هذه النزعة لدى الحسين ، فحين حاصر المعتضد قلعة ماردين (٢) وهرب حمدان « ركب المعتضد فصعد القلعة حتى وصل الى الباب ثم صاح يا إبن حمدان ! فأجابه لبيك ! فقال له : إفتح الباب ويلك ! ففتحه »(٣). من هذا يتضح عدم جدية الحسين فى حرب المعتضد ولعله حين أدرك عقم المقاومة أمام جيوش الخلافة ، نصح أباه بالفرار وسلم القلعة للخليفة ، الذي لم يبد نحوه أي سخط ، بل ـ بالعكس ـ وثق به وكلفه بمهمة القضاء على هارون الشاري وبمهمات أخرى كما سنرى .

أصبح الحسين فى خدمة الخلافة بعد قضائه على هارون الشاري سنة ٢٨٣ / ٨٩٠م لفترة محدودة ، وان كان دؤوباً على إنتهاز الفرص للوقوف ضدها كلما أسعفته الظروف كما سنشير الى ذلك . لقد كان الحسين شخصية ذات دهاء ومكر ومرونة بالإضافة الى شجاعته الخارقة

---

(١) ديوان أبي فراس جـ٢ ص ١٢٨ .

(٢) راجع الفصل الخاص بالجغرافية .

(٣) الطبري جـ٨ ص ١٦٩ ، ابن الأثير جـ٧ ص ٤٦٦ ، ابن خلدون م٤ ص ٤٩١ - ٤٩٢

وهو من طراز اولئك القادة الذين حفل بهم ذلك العصر ، ممن دفع بهم طموحهم الى ان يركبوا كل مركب خشن في سبيل تحقيق غاياتهم . ولعل تأريخ الاسرة الحمدانية ، كأسرة تريد ان تحكم ، إنما يبدأ بالحسين بن حمدان الذي انتفع بإقامته في بغداد على مقربة من بلاط الخليفة ، وقام بتنفيذ مهمات حربية أسندها اليه المعتضد :

في بلاد الجبل(١): فبعد النصر الذي أحرزه الحسين على هارون الشاري، أسند اليه المعتضد في سنة ٢٨٣/٨٩٦م ذاتها مهمة جديدة هي المشاركة في الحرب ضد بني دلف بالجبل (١) وهم بيت من بيوت العرب ينتمون الى بكر بن وائل أبناء عمومة الحمدانيين. ومصدرنا الوحيد عن دور الحسين بن حمدان في الحرب ضد بني دلف ابن خالويه في شرحه لديوان أبي فراس، أما المؤرخون فلا يوردون أية إشارة بهذا الصدد . ففي عهد المعتضد ظهر ببلاد الجبل اخوان من بني دلف هما بكر وعمر ابنا عبدالعزيز بن أبي دلف العجلي . وبحسب ما ورد في الطبري (٣) وابن الأثير (٤) نرى ان المعتضد يسند قيادة الجيش الى عبدالله بن سليمان وغلامه بدر اللذين تمكنا من القضاء على عمر فأذعن بالطاعة للخليفة في شعبان (سنة

---

(١) والجبل أو الجبال هي الاقليم الذي يشتمل على همذان والدينور واصبهان ونهاوند والكرج .. الخ . ويحد إقليم الجبال شرقاً مفازة خراسان وفارس وغرباً أذربيجان وشمالاً بلاد الديلم وقزوين والري وجنوباً العراق وخوزستان

(ابن حوقل ص ٣٠٤ - ٣٠٦)

(٢) الطبري جـ٨ ص ١٧١ . ابن الأثير جـ ٧ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٣) جـ٨ ص١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٤) الكامل جـ ٧ ص ٤٧٩ .

٢٨٣هـ/٨٩٦م) . وقبل ذلك بقليل استطاع القائدان ان يجذبا بكراً اليهما ضد أخيه بعد ان ولياه أعماله . فلما تمكنا من القضاء على ثورة عمر خلعا بكراً ، فهرب في أصحابه من العرب العجليين الى الأهواز ثم الى أصبهان وجيوش الخلافة لا تستطيع ان تقاتله . وهنا يسكت المؤرخون ، غير ان أبا فراس يقول في قصيدته الرائية الشهيرة يمدح عمه الحسين :

وصدق فى بكر مواعيد ضيفه وثور بابن الغمر والنقع ثائر(١)

وفى شرح هذا البيت يقول ابن خالويه (٢): يريد ـ أي ابو فراس ـ بكر بن عبدالعزيز بن ابي دلف العجلي ، كان له صاحب قد شاهد الحسين بن حمدان فى وقائعه ، وكان يكثر ذكره . فلما سار المعتضد ومعه بنو حمدان الى بكر ، وكان ابو جعفر بن الغمر ابن حمدون عم الحسين ، طليعة الجيش فأسر فظن الحسين انه قتل ، فالتقى العسكران ، والحسين منفرد باصحابه وانهزم جيش السلطان ولم يمهل بكر صاحبه أن قال : « ماأغنى عنهم الحسين ؟ » فلما استولى بكر على العسكر ، خرج الحسين ينادي « يالثارات ابي جعفر بن الغمر » : حتى وقع على سواد بكر فاحتوى عليه ، ووجد ابا جعفر مقيداً فاستنقذه ابو جعفر(٣) : واشتد القتال وتبارزا ، فكشفه الحسين وتمكن منه ووضع السيف عنه فلم يمهله صاحبه ان ذكر ما كان يصف . وورد الكتاب على المعتضد فى صدر النهار ، يخبره بهزيمة عسكره ، فأمر بأخراج مضاربه ، وتلاه فى آخر النهار ، كتاب الحسين بالفتح فرد مضاربه

---

(١) ديوان أبي فراس ـ ٢ ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٣) هو ابو جعفر محمد بن الغمر بن حمدون

٣- ضد القرامطة: وضع الحسين بن حمدان نفسه - كما أسلفنا - في خدمة الخلافة، ومن ثم كان نشاطه التالي مطاردة القرامطة بتكليف من الخلافة :

وهنا يجدر بنا ان نتوقف قليلا لنلقي نظرة سريعة على حركة القرامطة واثرها في احداث العصر. فالحركة القرمطية في أساسها مزيج من اتجاهات اجتماعية وفلسفية نشأت في سواد العراق في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . أما من ناحية آرائها الفلسفية فترتبط باخوان الصفا ، بينما يذكرنا مظهرها الاجتماعي بالبرنامج الاشتراكي الــذي نجده في ثورة الزنج(١) . وفي كلتا الحركتين نجد الدعوة الى امامة العلويين تتخذ ستاراً يكسب مبادءهم صبغة مقبولة لدى العامة ، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون(٢) : هذه الدعوة لم يظهرها أحد من أهل نسب العلوية ولا الطالبيين، وانما قام بها دعاة المهدي من أهل البيت على اختلاف منهم في تعيين هذا المهدي » .

انا لا نريد ان نعرض الجانب العقائدي النظري للقرمطية ، فالذي يهمنا هنا جانبها الاجتماعي . لقد اكدت الحركة القرمطية على نشـر دعوتها بين صفوف الفلاحين وأهل القرى والصناع. وقد بدأت الدعوة أول الأمر سرية وتطلبت من المنضمين اليها التزامات قاسية سواء في فرضها الخمسين صلاة في اليوم(٣) أو في دفع ضرائب مستمرة(٤) كونت بيت المال الذي اعتبر ثروة عامة لجميع الأعضاء . فكان التأكيد على

---

(١) ديموميين ، النظم الاسلامية (الترجمة العربية) ص ٥٣

(٢) العبر م٤ ص ١٨١ .

(٣) ابن الاثير ج٧ ص ٤٤٥ . وما بعدها ، ابن خلدون ، العبر م ٤ ص ١٨١

(٤) ابن الاثير ج٧ ص ٤٤٥ ، ابن خلدون م ٤ ص ١٨٢

الصلوات العديدة كان رد فعل لضعف الايمان الذي راج في هذا العصر ، وكان مشاعية الاموال والثروة نوع من التبشير بالاشتراكية بين جمهور من المعدمين والفقراء :

لقد تميزت حركة القرامطة بالثورية والعنف وعدم الهوادة في معاملة الأعداء ، وذلك انهم أباحوا دماء غيرهم حتى ولو كانوا مسلمين. وساعد في نجاح هذه الحركة التنظيم الدقيق حتى لقد جعل القرامطة العمال والصناع أصنافاً لها مراسيم دقيقة شبيهة بالانتماء النقابي ، كما ساعد على رواج دعوتهم انهم دعوا الى المساواة وهو أمر لقي الاستحسان لدى الجماهير المعدمة .

ظهرت حركة القرامطة بسواد الكوفة ، حين قدم هذه المدينة - ذات التراث العريق فى المعارضة ، والتي كانت معقلا للتشيع - رجل من الاهواز أخذ يذاكر الناس فى أمور الدين ويزهدهم فى الدنيا ويفرض عليهم خمسين صلاة فى اليوم(١) . وقد أغرم العامة بمذهب الداعية الاهوازي هذا ودفعوا له الضرائب ، ثم خلفه فى دعوته كرميتة أو حمدان قرمط الذي نسب اليه القرامطة . ويقول ابن الاثير(٢) ان هذا الرجل كان «يظهر الزهد والتقشف، ويسف الخوص ويأكل من كسب يده ويكثر الصلاة ، فأقام على ذلك مدة : فكان اذا قعد اليه رجل ذاكره امر الدين وزهده فى الدنيا ، وأعلمه ان الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة فى كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك عنه بموضعه ، ثم أعلمهم انه يدعو الى امام من آل بيت الرسول، فلم يزل على ذلك حتى استجاب

---

(١) ابن الاثير جـ٧ ص ٤٤٤ - ٤٤٩ ، ابن خلدون م ٤ ص ١٨١

(٢) الكامل جـ٧ ص ٤٤٤

له جمع كثير » . ويستطرد ابن الاثير ان هذا الرجـل اشتد به المرض فحمله رجل « كان في القرية .. أحمر العينين، يحمل على أثوار له، يسمونه كرميته لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية أحمـر العينين »(١) . واقام الداعية الاهوازي عند كرميته حتى برأ ، ودعا اهل تلك الناحية الى مذهبه. فأجابوه : « وكان يأخذ من الرجل الذي ينضم الى الدعوة ديناراً » ويزعم انه للإمام » واتخذ منهم اثني عشـر نقيباً أمرهم أن يدعوا الناس الى مذهبهم وقال : انتم كحواريي عيسى بن مريم . فاشتغل اهل كرر تلك الناحية عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات » :

هذه رواية لابن الاثير ، غير انه يورد رواية اخرى(٢) مفادها ان قرمط لقب رجل كان بسواد الكوفة يحمل غلة السواد على أثوار له . واسمه حمدان ، «هو الذي ينسب اليه مذهب القرامطة . ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية فيقول(٣) ان اول من ظهر بالدعوة القرمطية بسواد الكوفة سنة ٢٨٧/٩٠٠م رجل اظهر الزهد وزعم انه يدعو الى المهدي » ولقب قرمط وأصلها بالكاف. وفشا هذا المذهب في السواد». ويتحدث المؤرخون عن علاقـة قرمط بصاحب الزنج ويروي ابن الاثير وابن خلدون(٤) انه اتصل به وقال له : « اني على مذهب ورأي ، ومعي مائة الف ضارب سيف ، فناظرني ، فإن اتفقنا على المذهب ملت اليك بمن معي ، وان تكن الاخرى انصرفت عنك . فتناظرا ، فاختلفت آراؤهما ، فانصرف

---

(١) ابن الاثير جـ٧ ص ٤٤٥

(٢) انظر الكامل جـ٧ ص ٤٤٤ - ٤٤٩ (صادر)

(٣) العبر مجلد ٤ ص ١٨١ - ١٨٢ (بيروت ١٩٥٨)

(٤) الكامل جـ ٧ ص ٤٤٩ ، ابن خلدون ، العبر مجلد ٤ ص ١٨٣ .

هنمقرمط.» ». والحق انه لو اتفق القرامطة والزنج لكان في ذلك خطر جسيم على الخلافة العباسية - قد كان يودي بها . ومهما يكن ففي الوقت الذي اخفقت فيه ثورة الزنج وقتل زعيمها في سنة ٨٨٣/٢٧٠م ، ظلت دعوة القرامطة تنتشر بين الجماهير في العراق والأهواز واليمن ، حتى اذا ما أهل عام ٢٨٦ ، ظهر ابو سعيد الجنابي في البحرين وانضم اليه الاعراب وهدد البصرة ، وهاجم المعتقدات الدينية ونكل بقوافل الحجاج(١) ويعتبر ابن خلدون(٢) الجنابي - ويسميه ابا سعيد الحسن بن بهرام - بانياً لدولة قرمطية له ولبنيه وان دعوته اثرت على الاسماعيلية بالقيروان.

شمر المعتضد عن ساعد الجد ووجه الى البحرين (في سنة ٩٠٠/٢٨٧) جيشاً لقي هزيمة نكراء(٣) ، ومع ان قواد الخليفة استطاعوا في سنة ٩٠١/٢٨٩م للقبض على كثير من القرامطة بسواد الكوفة والتنكيل بهم(٤) ، فإن مبادىء القرامطة ظلت في أيام المكتفي تجذب اليها جماهير الناس ، وتوفي المعتضد وما زال القرامطة اقوياء في البحرين والجزيرة والشام ، ولم يكد المكتفي يتولى الخلافة (٢٨٩-٩٠١/٢٩٥-٩٠٧م) (٥) ، حتى أخذ يطارد القرامطة الذين تزعمهم زكرويه بن مهرويه داعية قرمط في الشام الذي يسميه ابن خلدون(٦) ذكرويه بن مهدويه والفرج بن

---

(١) ابن الاثير ج٧ ص ٤٩٤
(٢) العبر م٤ ص ١٨١
(٣) ابن الاثير ج٧ ص٤٩٨-٥٠٠ . اطر حول قرامطة البحرين ابن خلدون م٤ ص١٨٨ وما بعدها .
(٤) ابن الاثير ج٧ ص٥١٢-٥١٣
(٥) المكتفي بالله هو أبو محمد علي بن المعتضد وقد بدأت خلافته في ٨ جمادي الاولى سنة ٢٨٩هـ .
(٦) العبر م٤ ص ١٨١ وما بعدها .

عثمان القلشلي في ذات الوقت ، واستطاعت جيوش الخلافة سنة ٢٩١/٩٠٣م لن تقهر قرامطة الشام وأن تقبض على زعيمهم الذي شنق ببغداد (١) .

ان الذي يهمنا هو دور الحسين بن حمدان في القضاء على حركة القرامطة فقد أصبح للخلفاء كبير الثقة به ، ومن ثم عهد اليه المكتفي سنة ٢٩٠ / ٩٠٢م مع قواد آخرين بمهمة القضاء على الحسين بن زكرويه القرمطي الذي سمي « صاحب الشامة » والذي كان على حد قول ابن خلدون(٢) احد ثلاثة اولاد المذكرويه (أي زكرويه) روجوا الدعوة بين بعض بطون كلب بن وبرة المستضعفة حتى انهم آمنوا بدعوة يحيى (احد الأخوة) وبايعوه اماماً على انه من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق وكنوه ابا القاسم ولقبوه « الشيخ » ولما قتل يحيى انضم انصاره الى أخيه الحسين « صاحب الشامة » .

وقد كللت جهود جيوش الخلافة بالنجاح فحمل القرمطي الى بغداد سنة ٢٩١/٩٠٣م حيث شنق وجماعته (٣) كما كانت العادة المألوفة بالنسبة للمعارضين والخارجين على السلطة . ويبدو ان دور الحسين بن حمدان في مقاتلة « صاحب الشامة » كان بارزاً ومؤثراً بإعتراف المؤرخين بحيث ان محمد بن سليمان القائد الأعلى للجيش كتب يثني عليه وعلى بني شيبان «فأنهم اصطلوا الحرب وهزموا القرامطة واكثروا القتل فيهم والأسر»(٤) . ويقدم المؤرخون القدامى (٥) وصفاً مسرحياً لموكب « صاحب الشامة »

---

(١) ابن الاثير جـ٧ ص ٥٣٠ـ٥٣٢ ، ابن خلدون م٤ ص ١٨٥ـ١٨٦

(٢) العبر م٤ ص ١٨١

(٣) الطبري جـ٨ ص ٢٢٥ ، ابن الاثير جـ٧ ص ٥٣١ ، عريب ، الصلة ص ٤

(٤) الطبري جـ٨ ص ٢٢٥ فما بعدها ، ابن الاثير جـ٧ ص ٥٣١ ، ابن خلدون م٤ جـ ١٨٥

(٥) الطبري جـ٨ ص ٢٢٨ ، انظر ابن الاثير جـ٧ ص ٥٣١ـ٥٣٢ ، عريب ص٣

وهو في الاسر بعد ان قبض عليه وهو يقاسي الجوع والعطش خلف رابية في مدينة «الدالية» المعروفة بإبن طوق(١) - أي الرحبة - وأدخل الى مدينة الرقة على جمل ذي سنامين، ثم يسار به الى بغداد في صحبة جيش المكتفي «وادخل القرمطي بغداد على فيل واصحابه على الجمل» . وقد أمر المكتفي بقطع يدي صاحب الشامة وكيه فأغمي عليه ، ثم اشعلت صفائح من الخشب وضعت في خاصرتيه « فجعل يفتح عينه ويغمضها ، فلما خافوا موته ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة فكبر الناس لذلك ، ونصب على الجسر » (٢) وهي عادة مألوفة يومذاك :

وقد اشاد القائد محمد بن سليمان في الكتاب الذي ارسله بعد النصر الى الوزير بدور الحسين بن حمدان في قتال القرامطة فذكر (٣) ان القرامطة رموا بثقلهم على الميمنة التي كان يقودها الحسين « فاستقبلهم الحسين بارك الله عليه واحسن جزاءه بوجهه وبموضعه من سائر اصحابه برماحهم فكسروها في صدورهم فانفلوا عنهم ، وعاود القرامطة الحمل عليهم ، فأخذوا السيوف واعترضوا ضربا للوجوه فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس في اول وقعة ، واخذ اصحاب الحسين خمسمائة فرس واربعمائة طوق فضة وولوا مدبرين مفلولين واتبعهم الحسين فرجعوا عليه فلم يزالوا حملة وحملة ، وفي خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة حتى افناهم الله عز وجل »(٤) .

---

(١) انظر الفصل الجغرافي .

(٢) الطبري جـ٨ ص ٢٣٠ . ابن الاثير جـ٧ ص٥٣١

يقول الطبري (جـ٨ ص٢٢٩) ان صاحب الشامة حاول الانتحار في سجنه بقطع بعض عروق يده

(٣) صلة الطبري ص ٢٢٧

(٤) انظر حول دور الحسين كذلك الدوادار (زبدة الفكرة - مخطوط جـ٥ ورقة ١٣٩ أ - ١٤٠ أ) . والمسعودي . التنبيه والاشراف ص ٣٥٤ .

كذلك وصف ابن خالويه دور الحسين في حرب « صاحب الشامة » فقال : ثم عظم أمر «صاحب الشامة» بالشام والمهيمة(١) معه» فاجتمعت معه العرب ، فتخلف المكتفي في الرقة وجهز العسكر، فسار الحسين بن حمدان حتى قطع عليه السماوة وهزمه وقتل رجله ، وانحل بعدها أمره حتى هرب منفرداً وحده فأخذ في طريق الفرات متخفياً ، وكان دليل الحسين في السماوة جلهمة الكلبي فعدل به عن عصبية عن الماء ، بعد ان هلك خلق كثير من اصحابه . »(٢) وهذا النص ينسجم مع ما ذكره المؤرخون(٣) عن دور الحسين في حرب القرامطة .

ويمدنا المؤرخون(٤) بمعلومات أخرى طريفة عن لشاط قرمطي آخر ظهر بعد مقتل « صاحب الشامة » هو عبدالله بن سعيد المكنى ابا غانم . وكان ابو غانم هذا شأن كثير من زعماء القرامطة رجلا فقيراً من عامة الشعب يعمل معلماً للصبيان في الرافوفة بالفلوجة ، ولسمى نصراً ، وأخذ يتجول بين أحياء العرب فأنضمت اليه بعض بطون كلب من الفواطم وبني العليص بالدرجة الأولى . وقصد الشام واستولى على بعض مدنها ، حتى لقد استسلمت له دمشق ودخل طبرية ونهبها : وقد انتدب الحسين لحرب ابي غانم فالتقى به قرب دمشق وطارده حتى بادية السماوة؛ وهنا حدثت له القصة التي رواها ابن خالويه والتي أشرنا اليها ، حيث ضل الحسين الطريق بفعل دليله جلهمة الكلبي وأجهده العطش . ويبدو

---

(١) المهيمة : من بني كلب (ابن خالويه ، الديوان جـ ٢ ص ١٢٩)

(٢) في هذا القول دلالة على ان بعض بطون كلب انضموا الى جيوش القرامطة . (انظر ابن خلدون م ٤ ص ١٨٤)

(٣) بالاضافة الى الطبري وابن الاثير انظر ابن خلدون م ٤ ص ١٨٥ و ١٨٨

(٤) الطبري جـ ٨ ص ٢٢٦ وما بعدها . ابن الاثير جـ ٧ ص ٥٤١ - ٥٤٦

ان جلهمة كان من أنصـار القرامطة أسوة بكثيرين غيره من كلب . ثم قصد القرامطة هيت ـ على الفرات ـ فنهبوا السفن والأموال ، واوقروا ثلاثة آلاف راحلة من الحنطة ، غير ان الحسين استطاع بعد مشقة بالغة ان يتخلص من ابي غانم(١) . وبعد ان فقد القرامطـة الزعامـــة ظلت بقاياهم تتقاتل فيما بينها حتى سالت بينهم الدماء ومع ذلك ظلت جيوب لهم تمارس فرائض المـذهب القرمطي وتعكر صفو الأمن هنا وهناك في اطراف الدولة الاسلامية(٢) :

٤ـ ضد الطولونيين: إذا كان الحسـين بن حمدان قد غدا جندياً محترفاً فى خدمة الخلافة ، وتحول من المعارضة الى الولاء خلال السنوات الاخيرة ، فقد برهن فى الوقت نفســه على ارادة قوية وعزيمة كبيرة ، كان من الممكن ان تؤهلاه الدور اكبر فى الحيـــاة السياسية يومذاك . غير انه ـ كما يبدو ـ شغل بالصراع الدائر فى بغداد وفى الاقاليم ، وكرس نفسه للمهمات التي كلف بها بحيث لم يعد يفكر في مهمات أعلى : ولما كان الحسين مجرد آلة في ماكنة الخلافة سخرت للقضاء على المعارضين ، فقد اسندت اليه مهمة أخرى جديدة هي حرب الطولونيين . فمن هم الطولونيون ؟

كان أحمد بن طولون مملوكاً تركياً اهدي الى المأمون ، ولمـا كان ذا قابليات غير اعتيادية فقد استطاع أن يرقى بسـرعة حتى قدر له ان يكون

---

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٣٥٤ ، الطبري جـ٨ ص ٢٣٦ ـ ٢٤٧ ، ابن الاثير جـ٧ ص ٥٤٢ ، ابن خلدون م٤ ص ١٨٧

(٢) يبدو ان القرامطة كانوا ذوي نفوذ في سواد العراق ، وفي المنطقة الممتدة بين الكوفة ودمشق على طريق بادية السماوة وان بني العليص ـ وهم فخذ من كلب ـ كانوا متحمسين لهذه الدعوة . انظر الطبري جـ٨ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ أما ابن خلدون (م٤ ص ١٨٤) فيسميهم بني القليص بن ضمضم بن علي بن جناب .

نائباً لوالي مصر. ويمكن اعتبار احمد بن طولون واحداً من بناة الدويلات المستقلة على حساب الخلافة . ولم يكتف ابن طولون بمصر، بل استولى على الشام وضمها الى املاكه ، وبذلك حقق نفس الهدف الذي هدف اليه حكام مصر من قبله ومن بعده ، وهو اضافة سورية الى أملاكهم باعتبارها الخط الدفاعي عن مصر من ناحية الشرق(١) . غير ان احمد بن طولون شأنه شأن كثير من الأفراد العسكريين آنذاك ممن كانت لهم القدرة والمواهب والطموح ، أسلم أملاكه الى ذريته فلم يستطيعوا الحفاظ عليها ، وفي سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م ، ساءت العلاقة بين الخليفة المكتفي وهارون بن خمارويه بن احمد بن طولون ، فسير جيشاً بقيادة محمد بن سليمان ضم من بني حمدان ابا علي الحسين بن حمدان وابا سليمان داود بن حمدان «المزرفن»(٢) وابا الوليد سليمان بن حمدان « الحرون » (٣) وابا جعفر محمد بن الغمر بن حمدون ، وهنا يجب ان ننتبه الى أنه لأول

---

(١) كان طولون تركياً أهداه عامل بخارى الى المأمون فولد له أحمد سنة ٢٢٠ من جارية اسمها ناسم . وعاش أحمد في دار الخلافة واشتهر بالتقوى والامانة وحب الجهاد حتى التحق بالمرابطين في الثغور . وحين عاد الى بغداد كان قد تزود بالعلم والدين والخبرة السياسية والعسكرية . وفي سنة ٢٥٤ ولي أحمد مصر ثم شملت ولايته ايام المهتدي الاسكندرية والصعيد . ولم يلبث أن مد نفوذه الى الشام واعلن استقلالا واقعيا مستغلا ضعف الخلافة .

ابن خلدون ، العبر م ٤ ص ٦٣٦-٦٥٩ . كذلك انظر الطبري جـ ٨ صفحات ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٤ .. الخ وابن الاثير جـ ٧ صفحات ١٨٧ ، ٢١٦ وما بعدها .

(٢) يقول أبو فراس (الديوان) جـ٢ ص ١١٢

وعمي الذي سنه قيس مزرفاً   وقد شجرت فيه الرماح الشواجر

(٣) ديوان ابي فراس جـ٢ ص ١٣٤ قال ابن خالويه : كان ابو الوليد سليمان بن حمدان شيخ بني حمدان وصاحب القلب في كل وقعة لعلو شأنه سمي (الحرون - بالفتح)

مرة نجد أربعة من أسرة بني حمدان ينضمون الى جيش الخلافة كقادة، وهي دلالة على ارتباط مصالحهم -في هذه الفترة- بمصالح الدولة. ويقول ابن خالويه(١) ان كلا من هؤلاء الأربعـــة أبلى بلاء حسناً في القتال، « وضرب الحسين صاحب جيشهم فقتله وهزم الجيش ودخل مصر » .

ويستطرد ابن خالويه - بعد ان يشير الى فروسية ابي جعفر محمد بن الغمر بن حمدون - ان الخليفة عرض ولاية مصر على الحسين بن حمدان فرفض العرض، الا ان ابا جعفر قبل ولاية الصعيد الأعلى « وانصرف - اليها - ومعه الف بغل وجمل تحمـــل اثقاله »، وهي اشارة واضحة الى غناه الواسع(٢) .

وهنا نتساءل: لماذا رفض الحسين ولاية مصر أو « كرهها » على حد تعبير ابن خالويه؟ لقد كان الحسين بن حمدان ينشد الولاية دون أدنى شك، غير انه رفض ولاية مصـــر لسببين، أولهما انها كانت منطقـــة مضطربة خطرة، بحيث انه ما كادت جيوش الخلافة تحقق النصر حتى ظهر ابراهيم الخليجي الـذي ما لبث ان احتل مصر . والثاني ان الحسين -كما يبدو- كان يطمح الى ان يولى على الموصل وديار ربيعة وهي بلاد أبائه وأجداده، أو على الأقل ان يكون قريباً من الأحداث في بغداد. ومهما يكن فقد استطاع الحسين أن يكون لنفسه قوة حربية من بني تغلب - كما أسلفنا - يحارب بها هنا وهناك لحساب الخلافة . ويؤيد هـذا ما ذكره الطبري وابن خلدون (٣) عن وجـــود بني تغلب في حـرب « صاحب

---

(٢) الديوان جـ٢ ص ١٢٩

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ١٣٠

(٣) جـ٧ ص ٢٢٨ ، العبر م٤ ض ١٨٥ .

الشامـــة ، الذين أبلوا (مع بني شيبان وبني تميم) بلاء حسناً إستحقوا عليه شكر الخلافة .

وظل الحسين منغمراً في نشاطه لنصرة الخلافة ضد القرامطة وغيرهم من الثائرين هنا وهناك في أطراف الدولة . فنحن نجـــده يتعقب فلول القرامطـة في الشام والطريق المؤدي اليها في منتصف سنة ٢٩٤ / ٩٠٦م أي إثر القضـاء على زكرويه ، فيقتل منهم جماعات ، ويأسر جماعات اخرى يبعث بهم إلى بغـــداد (١) . ويذكر المؤرخون (٢) كذلك ان الحسين قبض عـــلى رجل يعرف (بالكيال) في طريق الشام مع ستين رجـــلا من أصحابه كانوا في جيش زكرويه ، وقد إستسلموا للحسين فأرسلهم إلى بغـداد . وفي خـــلال شهر رمضان من تلك السنة يدخل الحسين في معارك ضارية ضد القبائل العربية في الشام مثل كلب والنمر وأسد وطيء وغيرهم ، ممـن إجتمعوا عليـه فهزموه حتى بلغوا به باب حلب (٣) فهل كانت هـــذه الجماعات مـــن الأعراب من أنصـــار القرامطـــة ؟ .

لقد إتسع نشاط الحسين خلال السنوات الواقعة بين ٢٨٣ ـ ٢٩٤ هـ/ ٨٩٦ ـ ٩٠٦ م (أي خلال عهدي المعتضد والمكتفي) ، وأثبت انه كان قائداً حربياً ناجحاً حتى لقد كان في خزائنه نيف وعشرون طوقاً لنيف وعشرين فتحاً بالمشرق والمغرب على حد قول ابن خالويه(٤) ويستشهد

---

(١) الطبري جـ٨ ص ٢٤٨ . ابن الأثير جـ٧ ص ٥٥١ .

(٢) الطبري جـ٨ ص ٢٤٩ .

(٣) نفس المصدر جـ٨ ص ٢٤٩ . ابن الأثير جـ٧ ص ٥٥٣ .

(٤) ديوان ابي فراس ص ١٣٠ .

ابن خالويه (١) على شجاعته وقوته الخارقة بهذه الحادثة . ولقد نازل الحسين الأسد ثلاث مرات فقتله ، واحداهن بين يدي المعتضد . فكان احسن ما فعله ، انه قتل الأسد ومسح سيفه في جلده ، ورده في غمده ، وركب وسار في عرض الناس ولم يلتفت الى الخليفة ولا احتفل بما فعله» . ولا ندري صحة امثال هذه الوقائع التي يرويها ابن خالويه عن الحسين خاصة وهو متعصب للحمدانيين ومن أشد أنصارهم حماساً ، فقد عاش في بلاط سيف الدولة وكان من أقرب المقربين الى بني حمدان .

٥- الحسين ومؤامرات البلاط : بلغت علاقة المكتفي بالحمدانيين حد الثقة المطلقة ، فبالإضافة الى اعتماده الكلي على الحسين بن حمدان وانتدابه لاخطر المهمات في الداخل والخارج ، ولى اخاه ابا الهيجاء عبدالله بن حمدان على الموصل واعمالها فوصلها في المحرم سنة ٢٩٣ / ٩٠٥م . غير ان وفاة المكتفي بن المعتضد (٢) في آواخر سنة ٢٩٥/٩٠٨م وتولي المقتدر بالله الخلافة (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ٩٠٨ - ٩٣٢ م) اديا الى تغير جذري في موقف الحسين من السلطة فتحول من الولاء الى المعارضة العنيفة . ويبدو ان الحسين كان من اشد المعارضين في مجيء المقتدر (٣) ، وقد سعى للحيلولة دون مجيئه ، فلما غلب على أمره انحاز الى الحزب المعارض للخليفة الجديد ، واشترك في مؤامرة ضخمة لخلعه وتولية عبدالله بن المعتز :

---

(١) نفس المصدر والمكان .

(٢) هو ابو محمد علي بن المعتضد بالله ابي العباس احمد بن الموفق بن المتوكل .

(٣) هو ابو الفضل جعفر بن المعتضد .

انقسم الساسة والقادة إثر وفاة المكتفي الى حزبين يريد أحـــدهما تولية المقتدر الصغير السن العديم المواهب لـكي يكون طـــوع بنانهم ، ويميل الآخر وهو حزب الأكثرية الى تولية عبدالله بن المعـــتز الشاعر المطلـع على بواطن الأمور (١).وكان الحسين بن حمدان من ابرز العناصر التي شجبت مجيء المقتدر وناصرت ابن المعتز ، غير ان الوزير العباس بن الحسن جاء بالمقتدر بناء على نصيحة علي بن محمد بن الفرات (احــد اربعة كبار يتولون الدواوين) غير انه لم يمض سوى أربعة اشهر حتى حصل اجماع بين الساسة والقـادة - بما فيهم الوزير العباس بن الحسن - على خلـع المقتدر والبيعة لإبن المعتز . وكان المتصدي الأول لتنفيذ هذه العملية الحسين بن حمـدان . وقد تم خلـع المقتـدر والبيعة لابن المعتز في سنة ٢٩٦/ ٩٠٨م(٢). والذي يهمنا هنا الدور البارز الذي قام به الحسين بن حمـــدان الذي لم يتردد في قتل الوزير العباس حين رأى منـه تردداً وميلا الى عدم تنفيذ هذه العملية . ثم اسرع الحسين الى « الحلبـة » على امل ان يجد المقتدر يلعب الكرة والصولجان فيودي بحياته (٣) . غير ان المقتدر - حين احس بالضجة - دخل الى قصره وأغلق دونه الأبواب. ومع ذلك فقد دعا الحسين الى اجتماع سياسي في قصر سليمان بن وهب بالمخرم حضره القواد والجند واصحاب الدواوين والقضاة ، وكلهم من حزب ابن المعتز الذي بويـع بالخـلافة كما اشرنا ولقب المرتضي بالله .

---

(١) مسكويه ، تجارب الأمم جـ١ ص٣ ابن الأثير جـ٨ ص ١٠٩ .

(٢)الطبري جـ٨ ص ٢٥١ وما بعدها ، عريب ، الصلة ص ٢٠ ، المسعودي التنبيه والاشراف ص ٣٢٦ ، ابن الأثير جـ٨ ص ١٤ .

(٣) الطبري جـ٨ ص ص ٢٥١ ابن الأثير جـ٨ ص ١٥ مسكويه جـ١ ص ٥

وهكذا تمتعت بغداد بضعة ايام بخليفتين يسند كلا منهما حـزب من المنتفعين. وفي اليوم التالي قاد الحسين فرقة عسكرية حاصرت دار الخلافة طوال النهار ، لكنه حين ادرك ان الامور اخذت تجري في صالح المقتدر - نظراً للمقاومة التي ابداها حرسه بقيادة مؤنس الخادم - جمع امواله وسار ليلا مع اهله الى الموصل (١)٠ وقد انقذه هذا التصرف الذكي من مصير سيء محتم. فقد استطاع حزب المقتدر فعلا احباط المؤامرة واعيد المقتدر الى كرسي الخلافة ، ونكل بإنصار ابن المعـتز بين قتل وسجن ونفي ومصادرة ، وقبض على ابن المعتز - بعد ان اختفى فترة - فإغتيل ابشع إغتيال داخل دار السلطان (٢) .

وهنا نتساءل : لماذا وقف الحسين بن حمدان هذا الموقف الغامض ؟ ان ابن الاثير نفسه يتساءل(٣) : « ان ابن حمدان على شدة تشيعه وميله الى علي ، عليه السلام ، وأهل بيتـه ، يسعى لابن المعتز على انحرافه عن علي وغلوه في النصب الى غير ذلك . » ويزيد من غموض موقف الحسين، انه خذل انصار ابن المعتز - وهم الاغلبية - بفراره الليلي المفاجي° مماادى الى انهيار معنوياتهم بحيث « اضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل ان يصلوا - أي جماعة المقتدر - اليهم ، وقال بعضهم لبعض : إن الحسين بن حمدان عرف مـا يريد أن يجري ، فهرب من الليل ، وهذه مواطأة بينه وبني المقتـدر ، وهذا كان سبب هربه » (٤) ٠ يبدو من كل ذلك ان

---

(١) مسكويه جا ص١ ابن الأثير ج٨ ص ١٥ .

(٢) مسكويه ، ج١ ص١ وما بعدها . التنبيه والاشراف ص ٣٢٧ .

(٣) الكامل ج٨ ص ١٨ .

(٤) ابن الاثير ج ٨ ص ١٦ .

الحسين بن حمدان خشي من مغبة محـاولته اغتيال المقتدر ، وعلم ان مصيره سيكون القتل على أقبح صورة اذا وقع بين أيدي حزب المقتدر ، خاصة وقد ظهرت له بوادر انتصار هذا الحزب .

والحق ان المقتدر أخذ يلاحق الحسين ، وأرسل قوة عسكرية بقيادة القاسم بن سيما فساروا حتى بلغوا قرقيسيا والرحبة فلم يظفروا به فكتب المقتدر الى اخيه ابي الهيجاء والي الموصل يأمره بتسليم الحسين ، وسار ابو الهيجـاء مع ابن سيما والتقوا بالحسين عند تكريت فانهزم امامهما في رواية(١) أو ان ابا الهيجاء تظاهر بالهزيمة في رواية أخرى(٢) - ولعل ذلك كان باتفاق بينه وبين اخيه - ثم ارسل الحسين اخاه الاخر ابراهيم يطلب له الأمان من الخليفة ، فأجيب الى ذلك ودخل بغداد لاجئاً طالباً العفو ، فخلع عليه المقتدر وعقد له على قم وقاشان فسار اليها في سنة ٩٠٨/٢٩٦ م(٣) ولعل المقتدر كان مدفوعاً الى هذا العمل بجملة دوافع اولها حاجته للحمدانيين ذوي النفوذ في ديار ربيعة ، وابعاد الحسين عن بغداد كيلا يشترك في المؤامرات التي حفل بها القصر آنذاك ، أولعله اراد ان يقذف به الى حرب الصفارين ليصطاد عصفورين بحجر .

٦ـ ضد الصفارين . الصفارون أسرة فقيرة من سجستان نسمع عنها أول مانسمع حين برز فيها أخوان يعملان بصناعة الصفر هما يعقوب بن الليث وعمرو سنة ٢٥٣ (٨٦٧ م) . وقد ارتفع شأن الاخوين - أسوة بكثير من الطموحين والمغامرين وذوي الجرأة - واستطاع يعقوب في سنة ٨٦٧/٢٥٣م ان يفرض نفسه على سجستان بعد أن بدد شمل الخوارج فيها ، واظهر

---

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٥٤ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٥٢ ، صلة الطبري ، ص ٢٢ .

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٥٢ ، الصلة ص ٢٢ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٥٤ .

التمسك بطاعة الخليفة وكاتبه ، وملك سجستان ثم ملك هراة وبوشنج وغير ذلك من الاطراف البعيدة(١) ، مستغلا فترة ضعف الخلافة ابان انشغالها بثورة الزنج(٢) .

وفي سنة ٨٦٨/٢٥٥ م استطاع يعقوب ان يوطد سلطانه في كرمان وفارس(٣) وفي سنة ٨٧٢/٢٥٩ م دخل نيسابور ، وفي السنة التالية دخل طبرستان . وفي سنة ٨٧٥/٢٦٢ م توسعت اطماع يعقوب فاستغل انشغال الخلافة بحرب الزنج وسار من فارس الى الاهواز ، الا ان ابا أحمد الموفق(٤) الـذي كان متجهاً بكليته لدفع خطر الزنج ، استرضى يعقوب الصفار بتوليته رسمياً اعمال خراسان وجرجان وطبرستان والري وفارس والشرطة ببغداد في نفس السنة(٢٦٢) (٥) غير ان يعقوب لم يرضه كل ذلك وهدد بالدخول الى بغـداد ، وفعلا سار الى واسط ودخلها في أواخـر هذه السنة ، ثم تقدم الى دير العاقول ، غير انه هزم امام الموفق وانسحب الى خوزستان فنزل جنديسابور حيث استلم رسالة من صاحب الزنـج يحثه على الرجوع الى بغداد ويمده بالمساعدة ، الا انه رفض التعاون لاختلاف

---

(١) يقول ابن الاثير ج ٧ ص ١٨٤ ١٨٥ ان يعقوب بن الليث واخاه عمرو كانا يعملان الصفر بسجستان ويظهران الزهد والتقشف وكان يومذاك (سنة ٢٥٣) رجل متطوع لحرب الخوارج يسمى صالح المتطوعي ، فقاتل يعقوب معه ثم قاتل مع خلفه (درهم) ثم حل محله في محاربة الشراة . (انظر ابن خلدون م ٤ ص ٨٦٦-٧ .

(٢) ثورة الزنج (٢٥٥-٢٧٠/٨٦٨-٨٨٣ م) انظر « ثورة الزنج » للمؤلف (بغداد ١٩٥٤) .

(٣) الطبري ج ٨ ص ٥٢٠ وما بعدها ، ابن الاثير ج ٧ ص ١٩١-١٩٤ ، ابن خلدون م ٤ ص ٦٨٧-٨٩ .

(٤) هو ابو احمد الموفق بالله أخو الخليفة المعتمد وولي عهده وقد اشتهر بقضائه على ثـورة الزنج .

(٥) الطبري ج ٨ ص ٢٣ ، ٣٠ ابن خلدون م ٤ ص ٦٩٧ .

الأهداف والمبادئ"(١) بل انه هاجم صاحب الزنج من الخلف فدخل الاهواز لكنه لقي مقاومة ضاربة من علي بن ابان قائد الزنج هناك واستقر الأمر بين الطرفين على الهدنة في سنة ٢٦٣/٨٧٦ م (٢) .

وفي سنة ٢٦٥ /٨٧٨ م توفي يعقوب الصفار بجند يسابور (من كور الاهواز) ، فحل محله اخوه عمرو الذي كتب الى الخليفة بطاعته فولاه الموفق خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد ليامن شره ويتفرغ لحرب الزنج الذين هددوا العاصمة . وفعلا ، ما كادت الخلافة تقضي على حركة الزنج سنة ٢٧٠/٨٨٣ م حتى عمدت الى عزل عمرو بن الليث عن ولاية خراسان في سنة ٢٧١ وأمرت بلعنه على المنابر(٣) . وفي الفترة الواقعة بين سنتي ٢٧١-٢٧٦ ٨٨٤-٨٨٩ م جرى صراع مجدد بين الموفق وعمرو لم تحرز فيه الخلافة نصراً حقيقياً ، فاضطرت في سنة ٢٧٦/٨٨٩ م الى الاعتراف بسلطة الصفار فجعلت له شرطة بغداد(٤)، وفي سنة ٢٧٩/٨٩٢م ولاه المعتضد خراسان ،غير ان مطامع عمرو كانت اوسع من ذلك فدخل نيسابور سنة ٢٨٠. وفي ٢٨٥/٨٩٨م ولاه الخليفة بلاد ما وراء النهر ، التي كانت واقعياً في يد اسماعيل بن أحمد الساماني مما عاد بالخسران على عمرو حيث هزم في حرب عند بلخ واسر وارسل الى بغداد سنة ٢٨٧/٩٠٠ م . وارسل المعتضد للمنتصر الجديد اسماعيل الخلع وولاه ما كان بيد عمرو من الاقاليم التي اضاف اليها اسماعيل خراسان استيلاء(٥) وبمجرد ان توفي المعتضد وتولى ابنه المكتفي

---

(١) ابن خلدون م ٤ ص ٦٩٤ .

(٢) نفس المصدر مجلد ٤ ص ٦٩٦ .

(٣) ابن الاثير ج ٧ ص ٤١٤ ابن خلدون م ٤ ص ٦٩٩ .

(٤) ابن الاثير ج ٨ ص ١٥٤ . ابن خلدون م ٤ ص ٦٩٩-٧٠٠ .

(٥) الطبري ج ٨ صفحات ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ابن خلدون م ٤ ص ٧٠٢ .

الخلافة سنة ٢٨٩/٩٠١ م قتل عمرو الصفار ودفن ببغداد(١) .

وفى سنة ٢٩٦/٩٠٨ م نجد شخصاً يدعى سبكري وهو غلام لعمرو الصفار يستولى على فارس بغير أمر الخليفة ويأسر حفيدي عمرو طاهر ويعقوب ويرسلهما الى بغداد . ويبدو ان ذلك لم يضع الأمور فى نصابها بالنسبة لسبكري ، فقد ظهر فى السنة التالية فرد آخر من الصفارين هو الليث بن علي بن الليث الذي سار من سجستان الى فارس فأخذها ٢٩٧/٩٠٩ م فهرب عنها سبكري الى أرجان ، فلما بلغ الأمر المقتدر سير جيشاً بقيادة مؤنس الخادم الى فارس نجدة للسبكري فاجتمعا بأرجان ، وفى الوقت نفسه سار الحسين بن حمدان من قم (وكان يتولاها) الى البيضاء ليعين مؤنساً . فما كان من الليث الا ان سار فى طريق قصير ليباغت الحسين منفرداً ، لكنه ضل الطريق وقاسى جيشه متاعب كثيرة ، وفوجيء اذ وجد نفسه وجهاً لوجه امام جيش مؤنس والسبكري فهزماه واخذاه أسيراً ، وعاد الحسين بن حمدان الى قم (٢) :

الا ان سبكري لم يلبث ان خرج عن طاعة الخليفة ، وعلى الرغم من وساطة مؤنس الذي كان يميل الى سبكري ، فأن الخليفة بتحريض ابن الفرات اوعز الى محمد بن جعفر ان يحارب السبكري ويقضي عليه ، فالتقى الخصمان على باب شيراز وانهزم السبكري وفر الى بم حيث هزم ثانية ثم دخل مفازة خراسان (٣) . الا ان السامانيين كانوا قد بلغوا ذروة مجدهم آنذاك ، فاستطاع احمد بن اسماعيل ان يستولي على سجستان ، ويطارد سبكري ويأسره ويسيره هو ومحمد بن علي بن الليث

---

(١) ابن الاثير ج ٧ ص ١٦٥ ابن خلدون م ٤ ص ٧٠٣ .

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٥٦-٥٧ ابن خلدون م ٤ ص ٧٠٤-٥ .

(٣) ابن الاثير ج ٨ ص ٥٨ ابن خلدون م ٤ ص ٧٠٥ .

الصفار الى بغداد مشهورين على فيلين ( ) (سنة ٢٩٨/٩١٠ م)

ما هو دور الحسين بن حمدان في هذه الاحداث ؟ يبدو ان الخبر الذي اورده ابن خالويه (٢) عن فتح الحسين بلاد فارس وقتل سبكري وأسر (القتال) فيه مخالفة لما اتفق عليه المؤرخون الثقاة من أن سبكري أسر وارسل الى بغداد وانه لم يقتل في ساحة المعركة من جهة ، وان أسر سبكري انما كان على يد السامانيين كما أشرنا وليس على يد الحسين بن حمدان . ومن جهة اخرى فمن الذي أسر (القتال) ؟ان الروايات مضطربة حول سبكري هذا ، فابن الاثير (٣) يشير الى أسره وارساله الى بغداد ، والطبري (٤) يذكر انه لجأ الى السامانيين فسجنوه ، على حين يقول ابن خالويه ان الحسين بن حمدان قتله في ساحة المعركة ، وأظن ان رواية عريب (٥) هي التي تلقي ضوء على الحقائق وتفسر لنا التناقض بين الروايات المختلفة ، فهو يقول ان الحسين بن حمدان كان قائداً في جيش وصيف كامه (غلام الموفق) وكان الذي أسره سيمجور غلام احمد بن اسماعيل الساماني ، و قول عريب ان سبكري والقتال (صاحبه ورئيس عسكره) والليث بن علي الصفار أدخلوا الى بغداد أسرى مشهرين على فيلة ، وهي اقرب الروايات الى ما يبدو انه الواقع وهي التي تفسر دور ابن حمدان كما ذكره ابن خالويه .

---

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٦١ ، ابن خلدون م ٤ ص ٧٠٥ .

(٢) ديوان ابي فراس ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) ابن الاثير ج ٨ ص ٦١ .

(٤) ج ٨ ص ٢٥٣ .

(٥) صلة الطبري ص ٢٥ .

٧ـ خاتمة الحسين : مر بنا ان المقتدر قلد الحسين بن حمدان أعمال بلاد الجبـــل (قم وقاشان) في سنة ٢٩٦/ ٩٠٨م ، حيث أبلى بلاء حسناً في قتال سبكري خلال سنة ٢٩٧/ ٩٠٩م من مركز إقامته في قم(١). غير اننا نجد الحسين يعود فجأة الى بغداد في السنة التاليـة (٢٩٨) فلا يترك يقيم بها ، وانما يخلـع عليه ويقلد أعمال ديار ربيعة فيسير اليها . وسوف نرى ان كلا الاخوين الحمدانيين ابي الهيجاء والحسين سيعلنان الثورة على الخلافة ، تلك الثورة التي سطرت مصير الحسين السيء . فلماذا عاد الحسين وماذا كانت نواياه ؟ وما هي أسباب ثورة أبي الهيجاء، ثم ثورة الحسين على الخلافة ؟كل هذه الأسئلة تحتاج الى ان يتجه الباحث الى ما كان يدور في بغـــداد . ومن ثم فيجـــدر بنا أن نلقي نظرة عاجلة على الأحوال العامة في عاصمـة الخلفاء العباسيين ، ففي ذلك إجابة على كل هـــذه الأسئلة .

تميز عهد المقتدر بالله الذي إمتد خمساً وعشرين سنة (٢٩٥ ـ ٣٢٠/ ٩٠٧ ـ ٩٣٢م) بإنه كان عهداً طويلامشيناً تمثلت فيه كل عيوب العصر. وبدت الخـلافة إبانه في أبشع صور إنحلالها . كان المقتـــدر في الثالثة عشرة من عمره حين قلده الوزير العباس بن الحسن الخلافة ليكون طوع بنانه . وقد وقـع المقتدر فريسة بأيدي النساء والخدم وأسرف في ملذاته وشهواته « فخربت الدنيا في أيامـــه وخلت بيوت الأموال واختلفت

---

(١) المسعودي ، التنبيه والأشراف ص ٣٢٧ ، ابن الاثير جـ٨ ص ٥٦ ـ ٥٧، ابن خالويه (ديوان أبي فراس) جـ٢ ص ١٣٠ . يقول سوبرنهايم ان الحسين أرسل نائباً عنه الى قم قاشان وهذا خطأ E I. Vol 2. P. 247

(٢) الصابي ، كتاب الوزراء (ليدن) ص ٧٠

الكلمـــة (١) «ويقول مسكويه (٢)» : ان المقتـــدر ابتعد عن مجالس الرجال « وعاشر النساء فغلب على الدولة الحرم والخـــدم » . ويدعي بوين (٣) ان هناك قطعة نقود تصور شخصية المقتدر ، فقد رسم وبيده كأس على احد وجهيها وبيده عود على الوجه الآخر . وهو أمر يدعو الى الشك ، لإنه لا يمكـن أن يجرؤ خليفـــة للمسلمين ان يعلن للرأي العام انه خدين شراب وطرب ، ولعل هذه القطعة النقـــدية نسبت الى المقتدر مجرد نسبة فحسب .

وثمة ظاهرة بارزه في عهد المقتدر هي قلق الوزارة وكثرة الوزراء حتى تولى له أربعة عشر وزيراً . وكان أول هؤلاء الوزراء العباس بن الحسن ثم جاء أبو الحسن بن الفرات الذي تولاها ثلاث مرات ثم قتل في سنة ٣١٢/٩٢٤م. وإذا تجاوزنا التفاصيل الكثيرة عن وزارة ابن فرات فاننا نستطيع أن نتخذ من سيرته نموذجاً حياً ليس لمصير الوزراء في ذلك العصر فحسب،بل ولاضطراب الأحوال العامة بالدرجة الأولى. واعيد ابن الفرات الى الوزارة في ٣٠٤/٩١٦م لكنه لم يلبث ان خلع في سنة ٣٠٦ / ٩١٨م بسبب تأخيره صرف أرزاق الفرسان (٤) . وقـــد حالفه سوء الحظ في وزارته الثالثة التي تسنمها في سنة ٣١١ / ٩٢٣ م ، والحقت به تهمة سياسية دينية لا ندري نصيبها من الصحة. فقد حصل انهاجم القرامطة بقيادةابي طاهر ابن ابي سعيد الجنابي قافلة الحجاج لتلك

---

(١) ابن الطقطقى ، الفخري ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٢) تجارب الامم جـ١ ص ١٣ .

(٣) Ali Ibn Isa, P. 101

(٤) مسكويه جـ١ ص ٤٤ .

السنة فقتل الكثير وأسر فيمن أسر أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان ، الذي كان مسؤولا يومذاك عن طريق الكوفة وطريق مكة والعناية بالحجاج، كما أسر عم ام المقتدر وبعض خدم السلطان وحرمه والمقربين الى القصر. وحين وصل الخبر الى العاصمة في صفر سنة ٣١٢ / ٩٢٤م أثار خواطر البغداديين في الجانبين وخرجت النساء حافيات منشرات الشعور مسودات الوجوه يلطمن ويصرخن في الشوارع (١). ويبدو ان نقمة الرأي العام بلغت حداً يهـــدد بالثورة حتى ان ابن الفرات أمر قائد الجيش نازوك التركي ان يقضي على الثورة بالقوة. وانصبت نقمة الرأي العام على الوزير فاتهموه بانه «القرمطي الكبير ، وليس يقنعه الا اتلاف امة محمد» وحين قبض عليه هتف العامة « قد قبض على القرمطي الكبير ! » (٢) . ولا ندري مدى صحة هذه التهمة ، غير ان مسكويه (٣) أشار الى انه كان للقرامطة أيام ابن الفرات جواسيس داخل قصر السلطان . كما روي عن ابن الفرات انه صرح بانه حـلم ذات ليلة بانه سيموت في اليوم الذي قتل فيه الإمام الحسين (٤). ومهما يكن فإن العامل السياسي لعب دوره الأكبر فقد اتهمت حاشية المقتـدر ابن الفرات بأنه كان يسعى لبيعـة بعض بني هاشم (٥) .

---

(٢) نفس المصـــدر جـ ١ ص ١٢٠ ـ ١٢١ .انظر حــول الجنابي إبن خلـــدون ٤م ص ١٨٨ ـ ١٩٢ .

(٢) نفس المصدر والمكان .

(٣) نفس المصدر جـ١ ص١٢٢ .

(٤) نفس المصدر جـ١ ص ١٣٨ .

(٥) مسكويه جـ١ ص ١٣٧ .

ثم استوزر المقتدر علي بن عيسى الجراح الذي يعتبر من أبرز شخصيات عصره . لقد كان شيخاً فاضلا ورعاً محسناً بارعاً فى الادارة، وبالرغم من انه احتذى حذو اسلافه فى اسناد المناصب الهامة الى المقربين اليه ، لكنه حاول ان يختار اكثرهم مقدرة وكفاءة ، وكرس نفسه للاصلاح فلم يفرط في مصادرة اعدائه ونهب بيوتهم كما جرت العادة ؛ وقد عمل ابن عيسى على توفير الموارد المالية للخزينة الخاوية عن طريق رفع مقدار الوارد وتخفيض النفقات(١) . وكافح هذا الوزير الرشوة ، وأصلح النظام المالي ونظم طرق الجباية وبنى المستشفيات وعمر المساجد(٢) ، ومن ثم فقد اصطدم هذا الوزير الذي برع فى الادارة والكتابة معاً(٣) ، بفساد البلاط والحاشية فسجن واضطهد وصودر سنة ٣٠٤(٤) . وفى وزارته الثانية نظر فى رواتب الجند ومخصصات الحجاب والحشم والمتطببين والمنجمين والفراشين والطباخين والسواس والخدم فى بلاط الخليفة فأمر بالحد منها ، وهو لحد لنفوذ الحاشية الذي لم يكن من السهل تحديه(٥) .

كان المقتدر مبذراً مسرفاً حتى انه حوى فى قصره - كما قيل - أحد عشر الف خادم، وكان خاضعاً لامه خضوعاً مطلقاً ، وهي سيدة رومية

---

(١) Bowen, Ali Ibn Isa, P. 122

(٢) Ibid, P. 127

(٣) Ibid, P. 130

(٤) الذهبي، تاريخ الاسلام جـ١٦ ورقة ٥ب ، انظر كذلك ابن الطقطقى، الفخري ص٢١٦ ، مروج الذهب جـ٢ ص ٥٠٩

(٥) مسكويه جـ١ ص ١٥٧

او تركية تدعى (شغب) كانت تحكم بأمرها(١). لقد أصبحت (السيدة) اقوى شخصية فى بلاط ولدها ، وكانت كل رغباتهـا مجابة . واذا اردنا ان نذكر امثلة اخرى على سوء الاحوال فى أيام المقتدر والتبذير المفرط فى اموال الدولة فدوننا هذه الامثلة : كانت المخصصات السنوية للرجالة المصافية ورجال مؤنس (من الفرق العسكرية) ٦٨٠ر٠٠٠ ديناراً(٢) . وقد بلغ ما صرفه الوزير احمد الخصيبي (سالف علي بن عيسى) خلال ١٤ شهراً ما مجموعه ٤١٠ر٠٠٠ ديناراً(٣) . وقد رفض علي بن عيسى ان يستلم راتباً او مخصصات أو امتيازات ، ومع ذلك لم يستطع أن يوقف تيار الفســاد ، الذي جعل الخزينة العامة خاوية وحال دون رد الاخطار التي هددت الدولة . حتى لقد قال علي بن عيسى للمقتدر : « انما جمع المعتضد والمكتفي فى بيت مال الخاصة ما جمعوا لمثل هذه الحوادث ، والان فلم يبق فى بيت مال الخاصة كبير شيء فاتق الله يا أمير المؤمنين »(٤) .

عاد الحسين بن حمدان ـ كما هو واضح ـ في ايام وزارة ابن الفرات أي في سنة ٢٩٨/٩١٠م ، ويبدو لي ان الأوضاع في بغداد ـ كما أشرنا ـ هي التي شجعته على العودة يضاف الى ذلك ان ضيقه بالعيش بعيداً عن وطنه وعشيرته وحياته المليئة الصاخبة في بلد ناء مليء بالثورات والحروب كان دافعاً آخر جعله يعود هذه العودة المفاجئة . فالمراجع لا تشير أية

---

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٢

(٢) مسكويه جـ١ ص ١٥٧

(٣) نفس المصدر جـ١ ص ١٥٥ - ١٥٦

(٤) نفس المصدر جـ١ ص ١٨١ ، كذلك انظر ابن الاثير جـ٨ ص ٧٦ (القاهرة)

اشارة الى انه عزل او انه كان مغضوباً عليه ، بل ان ابن خلدون يقول (١) ان المقتدر رده الى ديار ربيعة اما بناء على طلبه أو لحاجته الى خدماته ؛ ويبدو ان الخليفة لم يشأ ان يظل الحسين في بغداد، خاصة وهو ذو انصار وذو طموح وقد كان له ضلع أي ضلع في المؤامرة التي دبرت لخلع الخليفة وتنصيب ابن المعتز كما أسلفنا . وهكذا ارسل له ابن الفرات - حال وصوله - خلعاً وكتاباً بتوليته أعمال ديار ربيعة وغيرها(٢) ؛ وبتعبير آخر أبعد الحسين عن العاصمة وجعل في منصب الشريك في ادارة ديار ربيعة لأخيه ابي الهيجاء الذي كان يتولى الموصل وأعمالها منذ سنة ٢٩٣/٩٠٥م : إلا ان الحسين ، كما يبدو ، وجه لاعمال عسكرية اكثر منها إدارية فاننا نسمع عنه في سنة ٣٠١/٩١٣م يغزو الصائفة ويفتح كثيراً من الحصون قرب طرسوس ، ويقتل عدداً كبيراً من الروم ، ويبعث بكتاب الى بغداد بهذا الصدد(٣) .

والذي يسترعي النظر ان ابا الهيجاء عبدالله بن حمدان يُعزل في صفر من نفس العام (٣٠١ هـ) عن الموصل ، ويقلد يمن الطولوني ، ثم يعزل ويولى لحرير الخادم الصغير(٤) . وهذا أمر ذو دلالة ، فأن الخلافة لا تثق بالحسين ولا بأبي الهيجاء ، ولعل النصر الذي أحرزه الحسين في الثغور ، ونوايا الاخرين في إعلان استقلال الحمدانيين قد حفز الخلافة على اتخاذ هذه الخطوة تجاهها ، فاذا كان رد فعل الأخوين الحمدانيين؟

---

(١) العبر م٤ ص ٤٩٣ (بيروت)

(٢) الصابي ، كتاب الوزراء (ليدن ١٩٠٤) ص ٧٠ .

(٣) الطبري جـ٨ ص ٢٥٥

(٤) ابن الاثير جـ٨ ص ٧٦ وما بعدها

يبدو انهما اتفقا على الثورة ، فأعلن ابو الهيجاء ثورة في الموصل في سنة ٣٠١/٩١٣ م مستنداً الى قوة اخواله الأكراد ، ويقول عريب (١) بهذا الصدد : « ورد الخبر بوثوب ابي الهيجاء عبدالله بن حمدان بالموصل ومعه جماعة من الأكراد وكانوا اخواله لأن أمه كردية ، واغاث الجند اهل الموصل فقتلت بينهم مقتلة عظيمة وصار ابو الهيجاء الى الأكراد وتأمر عليهم كالخالع للطاعة » . وهذه اشارة واضحة جداً الى محاولة الحمدانيين اعلان الاستقلال في الجزيرة مستفيدين من قوتين كبيرتين، اخوالهم الأكراد وقومهم من بني تغلب . ويبدو ان ضعف السلطة المركزية كان عاملا مشجعاً ومحفزاً لاعلان هذا الاستقلال . غير ان محاولة ابي الهيجاء فشلت حين سير اليه المقتدر جيشاً بقيادة مؤنس المظفر وجماعة من القواد ، فلما علم ابو الهيجاء بذلك قصد مؤنساً وطلب الامان وسار معه الى بغداد فخلع المقتدر عليه(٢) .

وكان لا بد للحسين بن حمدان ان يفعل شيئاً ، خاصة وهو يعلم بضعف الخلافة ، فأمتنع عن دفع المال المقرر عليه رغم الحاح الوزير علي بن عيسى . فما كان من الخليفة الا ان عاد فقلد أبا الهيجاء عبدالله ولاية الموصل من جديد في سنة ٣٠٢/٩١٤م . غير ان ذلك لم يرض الحسين فخرج بصورة عنيفة على طاعة الخلافة واعلنها ثورة عارمة بالجزيرة في سنة ٣٠٣/٩١٥ م ذلك ان مطالبة علي بن عيسى له بالاموال وتأخره في ارسالها ، جعل الوزير يأمره بتسليم البلاد الى عمال الخليفة فأمتنع (٣) . لقد حاول الحسين ان ينتفع بظروف انشغال الخلافة بحرب الفاطميين الذين ظهروا الان في افريقية وهددوا الشام ،

---

(١) عريب ، صلة الطبري ص ٣٠

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٧٦-٧٧ ، عريب ص ٣٠

(٣) ابن الاثير ج٨ ص ٩٢ ، ابن خلدون ج٤ ص ٢٣٠

فجهز جيشاً ضخماً يبلغ نحو عشرين ألف فارس على حين كان جيش الخلافة بقيادة رائق الكبير (من غلمان المعتضد) يبلغ أربعه آلاف فارس (١) . ولما كان الحسين ابن المنطقة وخبيراً بها وعليما (بطوبوغرافيتها) فإنه حصر الجيش المهاجم في موضع ليس له إلامنفذ واحد سده عليهم بفرسانه الكثيرين ، ومنع عنهم الميرة من جميع الجهات فتعرضوا ودوابهم للهلاك جوعاً . فأرسل الجيش المهاجم له رسالة يطلبون منه فك الحصار عنهم على ان يوليه الخليفة كل الأعمال التي كانت في يده لكنه رفض ذلك العرض (٢). غير ان حضورمؤنس الخادم (المظفر) إلى ميدان المعركة ، بعد عودته من الشام في جيش ضخم ، بدل ميزان القوى ، وأدى إلى رفع الروح المعنوية في الجيش المحاصر ، وإلى هبوط معنوية جيش إبن حمدان ، ففك الحصار - بعد هجوم ليلي وقع عليه - وعاد الى ديار ربيعة، وسار جيش الخلافةفدخل الموصل . وحين جد مؤنس في المسير لحرب الحسين ، راسله هذا واعتذر منه ، غير ان المراسلة لم تسفر عن نتيجة ، ونزل بازاء جزيرة ابن عمر ورحل الحسين نحو أرمينية مع أمواله وأولاده وجماعته من العرب والأكراد وتبدد جيشه فإنخرط كثيرون منهم في جيش الخلافة. وجد مؤنس في مطاردته فأرسل فرقة تبعته الى تل فافان بأرمينية فرأوها خاوية بعد أن أحرقها الحسين، لكنهم ظلوا يطاردونه حتى أسروه هو وابنه عبدالوهاب وجميع أهله واكثر من صحبه واستولوا على أمواله(٣).

---

(١) يقدر عريب (صلة الطبري ص ٣٩) جيش الحسين بـ ١٥ الفاً .

(٢) ابن الاثير جـ٨ ص٩٢ ، ابن خلدون جـ٤ ص٢٣٠ .

(٣) عريب الصلة ص٣٩ ، ٤٠ ، ابن خلدون م٤ ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

وعاد الجيش المنتصر وفي موكبه الحسين وآل بيته ، وقد أركب وإبنه على جمل وعليهما البرانس واللبود الطوال ، وقمصان من شعر أحمر ـ وهذه علامات التشهير والتحقير ـ وحبس إبنه عند زيدان القهرمانة(١) ويمدنا عريب بصورة زاهية لوصف موكب الأسرى الحمدانيين وهذا النص ذو دلالات هامة . يقول عريب(٢): وكان الظفر بالحسين بن حمدان يوم الخميس للنصف من شعبان (سنة ٣٠٣) ، ورحل مؤنس يريد بغداد ومعه الحسين بن حمدان واخوته على مثل سبيله وأكثر أهله فصير الحسين على جمل مصلوباً على نقنق وتحته كرسي ، ويدير النقنق رجل فيدور الحسين في موقفه يميناً وشمالاً ، وعليه دراعة ديباج سابغة قد غطت الرجل الذي يدير النقنق مايراه احد وابنه الذي كان هرب من مدينة السلام ابو الصقر (يعني عبدالوهاب) قد حمل بين على جمل وعليه قباء ديباج وبرنس ، وكان قد إمتنع عن وضع البرنس على رأسه فقال له الحسين: البسه يابني فإن أباك البس البرانس اكثر هؤلاء الذين تراهم وأومأ إلى القتال (٣) وجماعة من الصفارية (أي الصفارين).. ولما صار الحسين بسوق يحيي قال له رجل من الهاشميين (أي العباسيين) الحمد لله الذي أمكن منك . فقال له الحسين : والله لقد إمتلأت صناديقي من الخلع والألوية وافنيت اعداء الدولة ، وانما اصارني الى هذا الخوف على نفسي ، وما الذي نزل بي الا دون ما سينزل بالسلطان إذا فقد

---

(١) ابن الأثير جـ٨ ص ٩٢ - ٩٣ . انظر صلة الطبري ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) صلة الطبري ص ٤٠ .

(٣) ديوان ابي فراس جـ٢ ص ١٣٠ .

من اوليائه مثل ... »

وقبض المقتدر كذلك على ابي الهيجاء واخيه ابراهيم وباقي افراد الأسرة الحمدانية واودعوا السجن . وكان احد اولاد الحسين وهو حمزة قد فر الى امد، لكن عاملها قتله وارسل رأسه الى بغداد(١). غير ان عريب(٢) يبدو اكثر دقة فهو يقول : انه بعد اسر الحسين هرب إبنه حمزة وابن اخيه العطريف ، ومعهما مال ، فقبض عليهما عامل آمد وصادر هذه الأموال. ويستطرد عريب قائلا ان الغطريف مات في الحبس، وهو الذي ارسل رأسه الى بغداد. أما حمزة فقد أرسله عامل آمد حياً الى بغداد .

وهكذا ظل افراد الأسرة الحمدانية في السجن حيث مات الحسين ميتة غامضة في سنة ٣٠٦ / ٩١٨ م دعت المؤرخين(٣) الى الإعتقاد بأنه اغتيل ، وهو أمر يبدو منطقياً .

وهكـــذا فإن المتتبع لحياة الحسين بن حمدان يجد لها سلسلة من المجهودات العنيفة والمحاولات الدائبة للوصول إلى المراكز العليا. والحق ان الحسين كان قائداً عسكرياً شجاعاً اكثر منه سياسياً محنكاً. فقد رأينا كيف ابلى بلاء حسناً في قتال الخوارج والقرامطة، فضلا عن إن المقتدر كان يسند اليه بين الحين والحين مهمات عسكرية فرعية لكسر شوكــة القبائل العربية من امثال كلب وطيء واليمن واسد (٤) . وقـــد اشار

---

(١) الطبري جـ٨ ص ٢٤٩ . ابن الاثير جـ٧ ص ٢١٩ .

(٢) عريب صلة الطبري ص٤٠ .

(٣) ابن خلدون م٤ ص ٤٩٤ .

(٤) الطبري جـ٨ ص ٢٤٩ . ابن الأثير جـ٧ ص ١١٩ .

ابن خالويه في شرحه لديوان ابي فراس(١) الى دور الحسين في القضاء على نفوذ بني تميم في الرحبة واسره اربعمائة رئيس قسراً اودعهم سجون بغداد. وإذا صدقنا ما يقوله إبن خالويه عن بطولة الحسين فإنه يبدو واحداً من اشجع شجعان عصره حتى كان في خزائنه ، نيف وعشرين طوقاً لنيف وعشرين فتحاً فتحها بالمشرق والمغرب .. والحسين نازل الأسد ثلاث مرات فقتله (٢) ، . ومهما يكن من امر فنحن نستطيع ان نعتبر الحسين في مقدمة امراء بني حمدان في شجاعته وقوة شخصيته وصبره على المتاعب والأهوال ، وإن كانت الظروف لم تسعفه في الوصول الى أهدافه ، بحيث إنتهت حياته هذه النهاية المؤسفة .

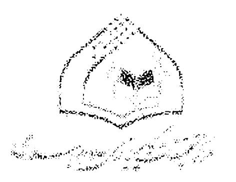
---

(١) ج٢ ص ١٢٧ .

(ديوان ابي فراس ج٢ ص ١٣٠ .

الباب الثاني

الحمدانيون في الموصل



الفصل الأول

إقليم الجزيرة

اولا : الجغرافية :

١ـ وصف عام ٢ـ ديار بكر ٣ـ ديار مضر ٤ـ ديار ربيعة

٥ـ الموصل واعمالها .

ثانياً : السكان .

١ـ العرب ٢ـ الأكراد ٣ـ الآراميون .

ثالثاً : الموارد الإقتصادية .

اولا : الجغرافية :

١ ـ وصف عام : كان بنو حمدان من اهل ديار ربيعة بالجزيرة وفيها نشأوا وبها اقاموا ـ اول ما اقاموا ـ دولتهم . وفي سبيل ان يستطيع القارئ تتبع الأحداث والوقائع التاريخية والحربية ذات العلاقة الوطيدة بالحمدانيين . وجدت من الضروري أن أعقد فصلا جغرافياً عاماً لوصف أحوال الجزيرة وتحديد مواقع المدن والأماكن التي دارت فيها أو حولها تلك الأحداث . ومن الجدير بالذكر أن أشير الى أن كثيراً من هذه المدن والأماكن أصبحت مجرد ذكريات تاريخية لا وجود لها على الخارطة الحديثة ، على حين ظل البعض الآخر قائما محتفظاً بنفس الإسم أو بإسم آخر ، مع تغير في الموضع حسب تغير مجاري الأنهار أو تحول العمران .

وما دام حديثنا يتعلق في الأساس بالجغرافية التاريخية ، فإن الذي يعنينا هنا بالدرجة الأولى تحديد مواضع الأماكن القديمة التي كان لها

وبجود في أيام الحمــدانيين ، والتي دخلت - بشكل أو بآخر - ضمن دائرة نشاطهم السياسي أو الحربي. والحق ان تعبير الجزيرة - الذي ينطبق على الفترة الحمدانية - لم يكن مقصوراً على العراق الأعلى الواقع بين دجلة والفرات (١) ، أو الإقليم الذي أطلق عليه الغربيون الاسم اليوناني Mesopotamia أي بلاد ما بين النهرين ، والذي عرفــه الجغرافيون القدامى (٢) على انها الأرض التي بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة وديار مضر ، بل انه يمتد ليشمل مناطق أوسع تقع ما بين جبال أرمينية وكردستان شمالا وشرقاً حتى الخط الوهمي الذي يصل بين عانات وحديثة وتكريت على دجلــة جنوباً . ذلك ان هــذه الأقاليم الشاسعة والموزعة اليوم ما بين العراق وسورية وتركية شهدت نشاط الحمدانيين وكان لهم فيها من وقت إلى آخر سيادة كلية او جزئية . وفي هذا الصدد يقول الجغرافيان العربيان الكبيران الأصطخري وابن حوقل (٣) : ان مدناً وقرى على شرقي دجلــة وغربي الفرات تنسب الى اقليم الجزيرة « وهي خارجة منها وبائنة عنها » (٤) .

إن إقليم الجزيرة بمعناه الجغرافي التاريخي الواسع الذي نريده هنا والذي أسلفنا أنه يقع ما بين جبال ارمينيــة وكردستان شمالا وشرقاً وعانات وتكريت جنوباً ، يمكن ان يعتبر من ناحية التضاريس هضبة ذات أراضي متموجة مرتفعة عن مستوى دجلة والفرات وروافدهما .

---

(١) الاصطخري ، مسالك الممالك ص ٧١ ابن الفقيه . مختصر كتاب البلدان ص ١٢٨ .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض (انظر الصفحات ص ١٨٩ فما بعدها) . ابن الفقيه ص ١٢٨ .

(٣) مسالك الممالك ص ٧٢ ، صورة الأرض ص ١٨٩ فما بعدها .

(٤) ابن حوقل ، نفس المصدر ص ١٨٩ .

غير ان هذه الهضبة لاتخلو من بعض المرتفعات الجبلية في الشمال والشرق حيث تزيد كمية المطر التي تساعد على الزراعة واستقرار المجتمعات البشرية . أما المنطقة الواقعة في غربي دجلة وشرقيها ومنطقة تلال حرين فتغلب عليها صفة البادية لقلة مياهها . لقد قامت مراكز الحياة المتمدنة المستقرة في الأغلب حول ضفاف الأنهار حيث قامت المدن ونشطت الزراعة والتجارة . وهذه المنطقة ـ وخاصة كلما توغلنا شمالا ـ تتميز بأنها منطقة حصينة بما يتخللها من جبال وتلال، لذلك كانت ـ كما سنرى ـ ميداناً مستمراً لمعارك وحروب طوال الفترة موضوع البحث . وقد صعب على مهاجميها ان يقتحموها دون بذل تضحيات جسيمة . كما ان كثيراً من مدنها التي شيدت في اعلى التلال او بين المرتفعات تمتعت بقلاع وحصون ـ وفق اسلوب العصور الوسطى ـ مما جعلها منيعة في وجه اعدائها . بل ان أسماء كثير من من المدن والمواضع التأريخية ـ والتي ما زال بعضها يحتفظ بنفس الإسم ـ كانت تقرن بكلمة حصن أو تل : مثال ذلك حصن كيفا، تل فافان، تل خوم ، حصن عرقة الحصن اليماني قلعة الحدث ، حصن زياد ، حصن منبج، حصن منصور وغيرها كثير.

ان إقليم الجزيرة الذي سمي بهذا الاسم « لانها تقطع الفرات ودجلة » (١) ، يحوي في الحقيقة كل الخصائص الجغرافية، ففيه جبال عالية وهضبات وسهول خصيبة وبوادي قليلة المياه واضحة الجفاف . ولعل اهم ما في هذا الإقليم من الجبال جبل سنجار بين الخابور ودجلة (ويبلغ ارتفاعه ٤٨٠٠ قدماً) وجبل ابراهيم (١٧٥٣ قدماً) وجبل مكحول (١٦٠٠) قدماً ، وهذه الجبال الثلاثة تقع غربي دجلة ، أما

---

(١) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ص ١٢٨ . وواضح ان قطع بمعنى تحد .

في شرقيه - بينه وبين الزاب الكبير - فنجد جبل باعشيقة (٢١٧٧ قدماً) وجبل مقلوب (٣٤٨٣ قدماً) وهناك جبال منفردة اخرى بين الزابين الكبير والصغير (أو الاعلى والاسفل) وبين هذا الاخير والحدود العراقية الايرانية الحالية ،

اطلق الجغرافيون العرب القدامى - كما اسلفنا - أسم الجزيرة على أرض ما بين النهرين Mesopotamia أي العراق الأعلى اليوم باعتباران دجلةوالفرات يحصران هذه الارض بينهما. غير ان المقدسي(١) أطلق على الجزيرة اسماً غريباً هو (أقور) فانفرد بهذه التسمية عن غيره ، على حين اتفق مع غيره من الجغرافيين في سائر اوصاف الاقليم ويعتقد لسترانج(٢) ان هذه التسمية ربما كانت تطلق في القديم على سهل شمال ما بين النهرين ، أي الاقليم الواقع بين دجلة والفرات(٣) .

لقد قسم الجغرافيون العرب اقليم الجزيرة الى ثلاث كور حسب بطون القبائل العربية التي اقامت فيه إبان الحكم الساساني قبل الاسلام ، وهي : ديار ربيعة ، وديار مضر ، وديار بكر (٤) . غير ان ابن حوقل والاصطخري ادمجا ديار بكر بديار ربيعة(٥) ولا نريد هنا ان نتعرض لتفاصيل هجرة هذه القبائل واسبابها ، الا اننا نود ان نشير الى ان هذه القبائل كانت كلها عدنانية ، وقد انساحت في الارض القريبة والبعيدة

---

(١) أحسن التقاسيم ص١٣٦ (طبعة ليدن) .

(٢) بلدان الخلافة الشرقية (الترجمة العربية) الفصل الخامس بالجزيرة .

(٣) يقول ابن حوقل ، صورة الارض (ص ١٨٩ فما بعدها في الفصل الذي عقده عن الجزيرة) انها الارض التي بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر .

(٤) انظر الاصطخري ص ٧١ ، المقدسي ص ١٣٧ .

(٥) ابن حوقل ص ١٨٩ فما بعدها ، الاصطخري ، مسالك الممالك ص ٧١ .

عن منازلها الأصلية في تهامة فأقامت بطون منهـــا في ارض الجزيرة في فترات زمنية متقاربة او متباعدة . فسميت هذه المناطق بأسمها . وسوف نترك الخوض في تفاصيل هذا الموضوع هنا لان له مجالا آخر عند الحديث على سكان الجزيرة وتكوينها البشري ايام الحمدانيين .

ولكي نتعرف على حدود الجزيرة ومناطقها الثلاث ، يجب ان نشير الى ان حدود هذه المنـاطق كانت تتفق وتوزيع الميـــاه ، فكان دجلة يروي ديار بكر من منبعه حتى الانحناء الكبير الـــذي يكوله النهر اسفل تل فافان ، مع الارض التي في شمالها والتي تخترقها عـــدة روافد تتصل بضفة دجلة اليسرى غربي تل فافان (١) : وتقع ديار مضـر الى الجنوب الغربي وتشمل جميع الاراضي السهلة التي يرويهـــا نهر البليـــخ رافد الفرات الاتي من حران من عين الذهبانة (حسب ما يقول ابن خرداذبه والدهمانة حسب ما ورد في ابن رستة) . على حين تقع ديار ربيعة شرقي ديار مضـر ، وكانت تشمل منطقة الخابور الكبير الاتي من رأس العين (والذي يستمد مياهـــه من الهرماس ويصب في الفرات عند قرقيسيا) والأراضي الواقعة على ضفتي دجلة من تـــل فافان حتى تكريت ، وهي أراضي سهلة كان يرويها الزابان والخابور الصغير (٢) .

ان كلا دجلة والفرات ينبعان من الشمال الشرقي وتتصل روافدهما بهما من الجهة اليسرى . وينبع الفرات من الجبال الواقعة بين بحيرة وان في جبال ارمينية وبين البحر الاسود عند خط العرض ٤٠ شمالا ، او بتعبير

---

(١) Le Strange ' The Lands of East. P 87

(٢) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ص ١٧٥ وابن الفقيه ص ١٣٤-١٣٥ وابن رستة الاعلاق النفيسة ص ٩٠ .

القدامى(١) من بلاد الروم، والواقع ان نهر الفرات - على عكس دجلة - يتمتع بأهم روافده قبل دخوله الحدود العراقية واهمهـا رافدا البليخ والخابور . ويبدو المسعودي (٢) أكثر دقة حيث يجعل مبدأ الفرات من جبال أرمينية « على نحو يوم من قاليقلا . شمـال ارضروم » والمسعودي كان على حق اذ ان هذا هو منبع الفرات الأصلي والـذي يدعى اليوم باسم (قره صو) (٣) .

اما دجلة فينبع من جبال شهرزور وفوق آمد على حدود بلاد أرمينية، ويمر بجبال السلسلة ثم بمدن آمد وميافارقين في ديار بكر قبل أن يصل الى الموصل في ديار ربيعة حيث يتصل بـه رافداه الزاب الكبير والزاب الصغير ، ثم يتجـه الى تكريت غربي ديار بني شـيبان حتى يصل الى بغداد(٤) . ومخرج الزابين من جبـال أرمينية ويصبان في دجلة الكبير بالحديثة والصغير بالسن(٥) . ويقول المسعودي (٦) ان دجلة تخرج من بلاد آمد من ديار بكر من أعين بلاد خلاط من ارمينية « ويصب اليها نهر سريط وساتر ما يخرج من بلاد أرزن(٧) وميافارقين وغير ذلك من الانهار كنهر الخابور الذي يأتي من بلاد أرمينية ويصب في دجلة في

(١) مسالك الممالك ص ٧١ ، ابن رستة ص ٩٢ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ١ ص ٦١ - ٦٢ .

(٣) لسترانج (بلدان الخلافة الشرقية) ص ١٤٩ .

(٤) العمري ، مسالك الابصار ص ٧٩ ابن خرداذبه ص ١٧٤ .

(٥) ابن خرداذبه ص ١٧٥ .

(٦) مروج الذهب جـ ١ ص ٦٣ ، أنظر ابن خرداذبة ص ١٧٤ .

(٧) أرزن مدينة قرب خلاط من نواحي ارمينية (انظر ، ياقوت . معجـم البلدان جـ ١ ص ٢٠٥) .

منطقة باسورين وقردى وبازبدى(١) . وهذه الديار - كما يقول - هي ديار بني حمدان . ثم يمر دجلة بمدينة الموصل ويصب فيها نهر الزاب وهو من بلاد أرمينية (ويعني المسعودي الزاب الاكبر أو الأعلى الذي ينبع من الجبال الواقعة بين بحيرة وان وبحيرة أورمية ويلتقي بدجلة عند منتصف الطريق بين الموصل وشرقاط) . ويستطرد المسعودي فيقول ان زاباً آخر يصب في دجلة يأتي من بلاد أرمينية واذربيجان ثم ينتهي الى تكريت (وهو يعني الزاب الاسفل او الصغير الذي يصب في دجلة في نقطة تبعد ٣٦ كيلو متراً جنوبي الشرقاط) .

ان هدفنا الحقيقي من هذه المقدمات الجغرافية انما هو تحديد مواقع المدن والأماكن ذات العلاقة بتاريخ الحمدانيين : وسوف اتبع اسلوباً يسهل على القارئ تحقيق هذا الهدف، وهو تصنيفها الى ثلاث مجموعات تتبع كل مجموعة احدى المناطق الثلاث للجزيرة وفق التقسيمات الكلاسيكية التي اوردها الجغرافيون العرب القدامى ، مكتفين بالمعلومات الأساسية ومعرضين على التفاصيل الكثيرة التي ازدحمت بها المراجع القديمة والحديثة :

٢- ديار بكر : هي اصغر مناطق الجزيرة الثلاث واقصاها الى الشمال ،

---

(١) سريط : موضع بأرمينية له نهر يصب في دجلة ما خذه من ظهر . . أرزن ويخرج من ارض أرمينية (ياقوت معجم ألبلدان ج ٢ ص ٦٧ - ليدن .)

باسورين : ناحية من أعمال الموصل في شرقي دجلتها لها ذكر في اخبار حمدان (ياقوت ج ١ ص ٤٦٧)

- يذكر ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٤٦٦) بازبدى فيقول انها كورة قرب باقردى من ناحية جزيرة ابن عمر ، وبازبدي في غربي دجلة وباقردى في شرقيه ، كورتان متقابلتان وبازبدى اسم قرية في قبالة جزيرة ابن عمر سميت الكورة بأسرها بها وبالقرب منها جبل الجودي وقرية ثمانين . وترد لدى ابن الفقيه ص ١٣٣ قردى وبزبدى وقردى وبازبدى لدى ابن رستة ص ١٠٦

ويمكن تعريفها على انها الاراضي الواقعة الى شمال مجرى دجلة الاعلى ، وعاصمتها آمد ومن مدنها الهامة ميافارقين (بفتح الميم وتشديد الياء) وأرزن (بفتح الالف وفتح الزاء) وحصن كيفا وتل فافان .

تمتعت مدينة (آمـد) وهي أمدا Amida عند الرومان بسمعة تاريخية مدوية، اما اليوم فهي بالضبط مدينة ديار بكر في تركية . ويقول المقدسي(١) ان آمد كانت بلداً خصيباً على ضفة دجلة الغربية بنيت بحجارة سود صلبة وكذلك اساسات الدور»(٢) . وكان موضع آمد حصيناً فقد شيدت على جبل غربي دجلة واحيطت بسور « من حجارة سود يدعى ميمونا » نادرة وغالية الثمن حتى ان ابن حوقل (٣) يقدر ثمن الحجارة الواحدة منها بخمسين ديناراً حسب الأسعار السائدة في العراق حيث استخدمت لصنع الأرحاء . وامتازت هذه المدينة علاوة على حصانتها ـ كأغلب المدن التي سيأتي ذكرها ـ بكثرة اشجارها وزروعها وكثرة طواحينها التي كانت تدور بمياه العيون(٤) ويرثي ابن حوقل(٥) هذه المدينة(٦) الزاهرة التي آلت فيما بعد الى الروم بقوله

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٤٠ ، ابن حوقل ص ٢٠١

(٢) انظر ابن حوقل ص ٢٠١ . يقول الاصطخري ان آمد تقع شرقي دجلة ، وهذا خطأ (انظر مسالك الممالك ص ٧٥) .

(٣) صورة الارض ص ٢٠١

(٤) نفس المصدر ص ٢٠١

(٥) نفس المصدر ص ٢٠١

(٦) يعتبر ابن الفقيه (مختصر كتاب البلدان ص ١٣٤) جبل آمد من أعاجيب الدنيا ، ويقول ان فيه صدعاً فمن وضع فيه سيفه وأمسك بمقبضه اضطرب السيف في يديه وأرعد القابض وان كان أشد الناس ، وفيه اعجوبة اخرى انه « متى يحك بذلك الجبل سكين أو حديد أو سيف حمل ذلك السيف او السكين الحديد وجذب الأبر والمال باكثر من جذب المغناطيس ... »

وجدير بالذكر ان ابن الفقيه يخطيء فيجعل آمد وأرزن وميافارقين من كور ديار ربيعة .

« وكان لها ضياع ورساتيق وقصور ومزارع برمتها هلكت لضعفهم - أي المسلمين - واقتدار الروم عليهم وقلة المغيث الناصر » . وتمتع سور آمد بخمسة ابواب سميت بحسب اتجاهها الجغرافي وهي باب الماء وباب الجبل وباب الروم وباب التل ، اما الباب الخامس فيبدو انه كان سرياً يحتاجون اليه وقت الحروب مع الروم، وهو باب صغير سمي بباب أنس(١) . لقد تمتعت آمد بوضع اقتصادي حسن للغاية ساعد على ازدهارها إبان الفترة موضوع البحث ، لذلك كانت ميدان صراع بين القوى المتطاحنة كما سنرى فيما بعد . لقد كان دجلة يحيطها من جوانب ثلاث ، وكانت فيها أرحاء وطواحين كثيرة ، ووصف الجغرافيون والسواح القدامى اسواقها بأنها كانت عامرة(٢) .

وتعتبر (ميافارقين) التي سماها اليونان مدينة الشهداء Martyropolis لانها حوت عظام شهداء النصارى(٣) من اهم مدن ديار بكر وأوسعها شهرة أيام الحمدانيين . وبالرغم من قلة بساتينها ، توفرت فيها بعض عيون المياه(٤) ، وقد أحيطت المدينة بخندق لزيادة حصانتها(٥) . ولعل أوفى معلومات يستطيع الباحث ان يحصل عليها من تاريخ هذه المدينة هو الكتاب الذي خلفه الفارقي(٦) والذي يمدنا

---

(١) المقدسي ص ١٤٠

(٢) انظر : ابن حوقل ، المقدسي

(٣) المقدسي ص ١٤٠

(٤) معجم البلدان ج ٥ ص ٧٠٣-٧٠٦ ، المقدسي ص ١٤٠

(٥) المقدسي ص ١٤٠

(٦) تاريخ الفارقي ، كتبه أحمد بن يوسف بن الأزرق الفارقي (حققه الدكتور بدوي عبداللطيف وصدر في القاهرة ١٣٧٩ / ١٩٥٩ م)

بفكرة ناصعة الوضوح عن مجد هـذه المدينة واهميتها التاريخية قبل الحمدانيين وفي ايامهم وفي العصور التي تلتهم . ومن فيض المعلومات التاريخية التي يكدسها الفارقي نستنتج ان ميافارقين كانت مدينة ذات سور عظيم عني بعمارته جميع القادة والامراء الذين اتيح لهم حكم هذه المدينة . ويبدو كذلك ان لهذا السور الجليل أبواباً عدة منها الباب الوسطاني وباب هلوفح وباب الربض وباب باقوسى . وكان بين هذه الابواب ابراج للدفاع(١) ويبدو من قراءة تاريخ الفارقي ان مدينة ميافارقين كانت ذات عيون تجري منها قنوات وذلت قصور وعمائر وبساتين جميلة(٢) . كانت ميافارقين من اعرق المدن في ديار بكر فقد وجدت فيها مباني من ايام الملك ثيودسيوس وكنائس ترجع الى عهد المسيح . وكان فيها الى جانب المسيحيين جالية يهودية لها محلة معروفة وزقاق سمي باسم زقاق اليهود(٣) .

والى الشرق من ميافارقين بقليل مدينة أرزن على نهر سربط ، وقد اشتهرت بقلعتها الضخمة الحصينة التي أصبحت مجرد اطلال ايام ياقوت(٤) . وقد تعرضت ميافارقين وارزن القريبة منها الى غارات الروم المستمرة في القرن الرابع ، فأخذوا قراها وضياعها وعضدوا اشجارها وزروعها الى أن جعلت كالخاوية على عروشها(٥) . الا ان

---

(١) تاريخ الفارقي ص ٨٦-٨٧

(٢) نفس المصدر ص ١٠٧

(٣) لسترانج ص ١٤٤.

(٤) معجم البلدان ج١ ص ٢٠٦

(٥) ابن حوقل ص ١٩٢

رواية ناصر خسرو الذي زار أرزن في سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٦م) تناقض رواية ابن حوقل فهو يصف هذه المدينة على انها كانت عامرة ، فيها أسواق وتحف بها بساتين يانعة كثيرة الماء . كما ان المستوفي الذي زارها في القرن الثامن الهجري يصفها على انها كانت في ايامه بلداً عامراً ، وهذا يناقض رواية ياقوت السالفة الذكر(١) .

وكان حصن كيفا الذي دعاه الروم Kiphas يقع كما يقول المقدسي(٢) على دجلة مباشرة ، وكذلك جعله المعلق على مخطوطة ابن حوقل(٣) (الذي عاش في القرن السادس الهجري) على ضفة دجلة الغربية ، في حين حدد لسترانج(٤) موقعه على ضفة الفرات الجنوبية وهذه هفوة . ومهما يكن فقد كان حصن كيفا (ويسميها ابن الفقيه رأس كيفا) (٥) على ايام المقدسي بلداً له قلعة حصينة ويحوي كنائس كثيرة(٦) . ويصف المعلق على مخطوطة ابن حوقل(٧) هذا البلد في القرن السادس بقوله « واما حصن كيفا فهي قلعة حصينة منيعة ذات شعب متفرقة بين الجبال .. وفيها شعاب وأودية لا يقدر عليها ، وبين يديها على الدجلة قنطرة عالية حسنة البناء .. وتحتها ربض عامر

---

(١) لسترانج (الترجمة العربية) ص ١٤٤

(٢) ص ١٤١

(٣) ص ٢٠٢

(٤) بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٤ .

(٥) مختصر كتاب البلدان ١٣٣

(٦) أحسن التقاسيم ١٤١

(٧) صورة الأرض ٢٠٢

فيه الأسواق والحمامات كالفنادق والمساكن الحسنة ، وبناؤهم بالحجر والجص ولها رساتيق كثيرة وضياع عامرة ٠٠ »

ونجد على ضفة دجلة اليسرى شرقي حصن كيفا (وعلى بعد خمسين ميلا) تل فافان وعلى مقربة منه مدينة بهذا الأسم كانت تحيط بها البساتين ٠ وقد وصفها المقدسي فى القرن الرابع بأنها رخيصة الاسعار وذات اسواق مغطاة وبيوتها من الطين(١) . وكانت على ضفاف نهر الرزم شمال تل فافان مدينة سعرت أو سعرد أو أسعرت ، وكانت تعد من أعمال أرمينية على الأغلب(٢) . وثمة بلدتان صغيرتان ذكرهما المقدسي(٣) عند هذا الموضع دون أن يمدنا بوصف لها هما الفار وحاذية ٠

٣ـ ديار مضر : تمتد منطقة ديار مضر بمحاذاة ضفتي الفرات ، وتعتبر الرقة قصبتها . أما حدودها الجغرافية فإنها تقع جنوب غربي ديار بكر وتحاذي الفرات من سميساط حيث يترك النهر سلاسل الجبال منحدراً نحو عانة ، تضاف إلى ذلك سهول نهر البليخ (٤) رافد الفرات الذي يأتي من حران ٠ واهم مدن ديار مضر التي تعنينا الرقة والرافقة وحران والرها وحصن مسلمة وقرقيسياء والرحبة والدالية ورصافة الشام وهيت وتكريت وعانة (أو عانات) .

---

(١) احسن التقاسيم ص ١٤١

(٢) لسترانج ص ١٤٥

(٣) أحسن التقاسيم ص ١٤١

(٤) يذكر ياقوت (حـ١ ص ٨٦٥) تل البليخ ويقول إنها قرية على البليخ نهر الرقة . ويجعل ابن خرداذبة ص ١٧٥ مخرج البليخ من عين الذهبانة من أرض حران ويصب في الفرات أسفل الرقة .

وصف المقدسي (١) مدينة الرقة الواقعة على ضفة الفرات الشرقية بإنها كانت كثيرة القرى والبساتين حسنة الأسواق «ولها جامع عجيب وحمامات طيبة ، وقد ظللت أسواقها » . وهذا كما يرى القاريء وصف ينطبق على اكثر المدن الشرقية يومذاك . وفي سنة ١٥٥ هـ بنى الخليفة العباسي المنصور مدينة الرافقة على مقربة من الرقـة فإندمجت المدينتان تقريباً حتى قال ابن حوقل(٢): ان الرقة والرافقة مدينتان كالمتلاصقتين « وكل واحدةبائنـة من الأخرى بأذرع كثيرة » . وفي القرن الرابع كانت المدينتان في وضع إقتصادي جيد وأسعار المـواد الغذائية فيها رخيصة بسبب وفرة الحاصلات (٣) . ثم وسع هارون الرشيد الرافقة وبنى بها قصر السلام ، فخربت الرقـة وقامت عمارات جـديدة شغلت الفراغ المجاور ، وبذلك حلت الرافقة محل الرقة وأخذت إسمها ، أما اليوم فنرى في ذلك الموضع بحيرة ضحلة (٤) . وفي أسفل الرقـة يتصل نهر بليخ ـ رافد الفرات ـ بالفرات الأصلي ماراً بمدينـة حران Carrhae التي كانت موطن الصابئة وبها معابدهم وسدنتهم والتل الذي جعلوا عليـه مصلى يعظمونه ويقدسونه (٥) • وإشتهرت بقلعتها الحجرية وجامعها ، وكانت بها قناة تروي أراضيها (٦) . ويعني ابن حوقل حران بقوله(٧) :

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٤١ ، الاصطخري ص ٧٥ .

(٢) صورة الأرض ٢٠٣ . الاصطخري . المسالك والممالك ص ٧٥ . ابن الفقيه ص ١٣٢ .

(٣) صورة الأرض ص ٢٠٣ . ابن الفيه ص ١٣٣ .

(٤) Le Strange, P. 102

(٥) الاصطخري . مسالك الممالك ص ٧٦ . ابن حوقل ص ٢٠٤ .

(٦) المقدسي ص ١٤١ .

(٧) صورة الأرض ص ٢٠٤

« وكان لهـا غير رستاق عظيم وكورة جليلة فإفتتح الروم اكثرها واناخت بنو نمير وبنو عقيل بعقوتها وبقصبتها، فلم تبق لها باقية ولا في رساتيقها ناغية ولا راغية »وينسب البلاذري(١) لحران عدة قرى منها تل عفراء تل مذانا وارض المصـلى ومرج عبدالواحد الذي كان حمى للمسلمين :

وكانت الرهـا Edessa من المـدن ذات الشهرة العظيمـة أيام الحمدانيين ، وسنرى كم دار حولها صـراع بينهـم وبين الروم بسبب مكانتها الدينية عند النصـارى . فقد ازدهرت الرهـا بآثارها المسيحية بحيث كان فيهـا وحولها اكثر من ثلاثمائة دير وصـومعة للرهبان ، كما كانت فيها اعظم كنيسة في بلاد المسلمين حتى عدت من عجائب الدنيا أو على الاقل من عجائب الجزيرة حسب تعبير ابن الفقيه(٢) . ويقـول ابن حوقل(٣) ان أغلب اهل الرها كانوا من النصارى « وبها زيادة على ثلاث مائة بيعة ودير وصوامع فيهـا رهبانهم ولهم فيهـا بيعـة ليس للنصرانية اعظم ولا ابدع صنعة منهـا :. وكان بها منديل عيسى بن مريم(٤) » . لقد ظلت الرهـا تعرف بهذا الاسم حتى القرن الخامس

---

(١) فتوح البلدان ١٨٧ .

(٢) الاصطخري ، مسالك الممالك ص ٧٦ ، المقدسي ، احسن التقاسيم ص ١٤١ . يجعل ابن الفقيه ص ١٣٤ عدد الأديرة (٣٦٠) ديراً

(٣) صورة الارض ص ٢٠٤

(٤) يقول لسترانج (هامش ص ١٣٥) انه احد مناديل كثيرة تدعى Veronica ولا تتفق المصادر الوثيقة على ما اذا كان منديل اديسا (الرها) هو المنديل المحفوظ في رومة او في جنوة او غيرهما . يذكر البلاذري « فتوح البلدان ص ١٨٨ » بضع قرى تابعة للرها مثل برأسكيفا وسلموس وكفر حدا

هشر ، فانها سميت باسم (اورفا) الذي ربما كان تحريفاً للفظة (الرها)(١) :

وتقع بين حران والرقة (باجروان)(٢) وعلى مقربة منها (حصن مسلمة) الذي ينسب الى مسلمة بن عبدالملك الاموي الذي اهتم بتزويد هذا الحصن الحربي بالمياه من نهر بليخ القريب الذي يروي البساتين القريبة(٣) .

وبانحدار الفرات جنوباً ، وعلى مقربة من التقائه برافده البليخ ، توجد عدة مدن تنتشر على ضفتي النهر تعتبر ضمن منطقة ديار مضر وتدعى بناحية الفرات او اعمال الفرات أو قريات الفرات ، ولعل اهم هذه المدن الرحبة على ضفة الفرات اليمنى : وهذه هي رحبة الشلم او رحبة مالك بن طوق بن عتاب التغلبي وهو مؤسسها الذي عاش في عصر المأمون(٤) ، وكانت على حد قول المقدسي (٥) : أعظم مدينة في نواحي الفرات ، واشتهرت بكثرة اشجارها ومياهها(٦) ، وعلى بعد ستة فراسخ من الرحبة وعلى ضفة الفرات اليسرى عند مصب الخابور كانت تقع مدينة قرقيسيا (كركسيوم Circesium) التي

E. I. Vol.3 P 302 (١)

(٢) باجروان : قرية من ديار مضر بالجزيرة من اعمال البليخ (معجم البلدان جـ١ ص ٤٥٤) ويذكرها المقدسي ص ١٣٧ ويذكر كذلك من مدن ديار مضر خانوقة والجريش وتل محوى وترموز ، وناحية سروج كذلك انظر الاصطخري ص ٧٦ ؛ ابن جبير ص ٢٤٦ ، لسترانج ص ١٣٥ .

(٣) انظر قدامة ص ٢١٥ ، ياقوت ، جـ٢ ص ٢٧٨

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ١٨٨

(٥) أحسن التقاسيم ص ١٤٢ .

(٦) الاصطخري ، مسالك الممالك ٧٧ .

إشتهرت ببسأتينها واشجارها وزروعها (١). أما الرحبة والدالية فتقعان قرب نهر يقال له نهر سعيد كان يخرج من يمين الفرات فوق قرقيسيا ويعود فيصب فيه فوق الدالية. التي عرفت بدورها بدالية مالك بن طوق. وكانت الدالية مدينة صغيرة تقع على مرتفع يسير الارتفاع على الضفة الغربية من الفرات(٢). وبين الرحبة والرقة بنى هشام بن عبدالملك مدينة سميت برصافة هشام او رصافةالشام تمييزاً لها عن رصافة بغدادوغيرها. وما زالت آثار هذه الرصافة باقية في البادية على أربعة فراسخ جنوب الرقة (٣) . ويقول البلاذري (٤) : ان هشام احدث هذه المدينة وكان ينزل قبلها الزيتونة .

ومن مدن ديار مضر التي لا يمكن اغفالها هيت غربي الفرات وقد اشتهرت بخصبها وعمرانها ، وكان فيها حصن «وهي أعمر المدن المتقدم ذكرها » (٥). وقامت قبالة هيت مدينة تكريت على ضفة دجلةالغربية على مقربة من فوهة نهر دجيل الذي يتصل بدجلة اسفل هـــذه المدينة وكان فيها عدد كبير من النصارى (٦) . وتتوسط بين بغداد والموصل ولها قلعة حصينة تطل على دجلة (٧) ولم يكن فى اقليم الجـــزيرة أسفل

---

(١) نفس المصدر والمكان . انظر لسترانج (الترجمة العربية) ص ١٣٦ .

(٢) ابن حوقل ص ٢٠٦ .

(٣) لسترانج ص ١٣٧ .

(٤) فتوح البلدان ص ١٨٧ .

(٥) ابن حوقل ، صور الأرض ص ٢٠٥ .

(٦) الاصطخري ص ٧٧ ٧٨ .

(٧) مراصد الاطلاع ج١ ص ٢٦٨ يقول ياقوت (ج٢ ص ٨٦١) تكريت بين بغـــداد والموصل ولها قلعة حصينة .. أول من بناها سابور بن اردشير.. وقبل سميت بتكريت بنت وائل .

من قرقيسيا مدينة ذات شأن غير عانة (عانات) وهي اناتو Anatho القديمة التي كانت في أيام الاصطخري مدينة صغيرة في وسط الفرات يطوف بها خليج منه (١). ويبدو ان عانة أو (عانات) تمتعت في أيام ياقوت - شأنها شأن اكثر مدن الجزيرة - بقلعة حصينة مشرفة على الفرات (٢) .

٤- ديار ربيعة : تقع ديار ربيعة شرقي ديار مضر، وتشمل الأراضي الواقعة في شرقي الخابور الكبير (رافد الفرات) والأراضي الواقعة في شرقي نهر هرماس (فرع الخابور الكبير) الذي يجري في وادي الثرثار بالإضافة الى الأراضي الممتدة على ضفتي دجلة بإنحداره من تل فافان الى تكريت ، أي الأراضي الواقعة في غرب دجلة حتى نصيبين والتي في شرقه ، وهي السهول التي يرويها الزابان الأعلى والأسفل ونهر الخابور الصغير (أو خابور الحسنية وهو رافد دجلة) (٣).

إن أهم المدن التي كانت ذات علاقة بتأريخ الحمدانيين في ديار ربيعة - بعد الموصل وهي قصبتها - رأس العين وماردين ودنيسر

---

(١) الاصطخري ص٧٥ .

(٢) مختصر كتاب البلدان ص ١٢٩ . ويصف ابن الفقيه مدينة الحضر التي تقع بازاء تكريت ، على برية سنجار ، وبينها وبين دجلة خمسة عشر فرسخاً وبينها وبين الفرات خمسة عشر فرسخاً . وهي مبنية بالحجارة البيض وتقع على تل ، ولها ستون برجاً كباراً وبين البرج والبرج تسعة ابراج صغار على رأس كل برج قصر واسفله حمام وقد حمل عليها نهر الثرثار ويشق المدينة ثم يخرج وعلى حافتي الثرثار القرى والجنان ، .

(٣) ياقوت ج ٣ ص ٩٥٤ . ويذكر ياقوت (ج١ ص ٧٥٠) البوازيج وهي قرب تكريت على فم الزاب الأسفل .

وكفرتوثا ونصيبين والأذرمة وبرقعيد وسنجار وجزيرة ابن عمر والحسنية وبلد والموصل والحديثة (حديثة الموصل) واربيل بالإضافة الى عديد من الحصون والقلاع والمواقع العسكرية التي انتشرت في هذه المناطق والتي سيرد ذكرها في خلال السرد التاريخي .

تقع منابع الخابور الكبير (١) شمال رأس العين في المناطق الجبلية المسماة قره داغ Qaradja Dagh ويأتي فرعاه الرئيسان من طور عابدين . واحد فروع الخابور نهر سابا (٢) . (ويسمى اليوم جرجيب) ويأتي من تل موزن (يسمى اليوم فيرانشهر) . ويستقبل الخابور الكبير في يساره مياه نهر ماردين الاتي من رأس العين ويصب فيه أسفل من ذلك نهر الهرماس الآتي من نصيبين. على ان اكثر مياه الهرماس كانت تنساب من سكير العباس (وكان على مبعدة يسيرة فوق ملتقى الهرماس بالخابور) الى وادي الثرثار ، فتتجمع من ذلك في الخابور مياه ثلاثة انهار كبيرة ، هذا بالإضافة الى ما ينصب فيه من مياه الجداول . ثم ينحدر الخابور جنوباً الى قرقيسيا على الفرات (وهي من مدن ديار مضر) . وقبل ان يصل الخابور الى هذه المدينة يمر بمدينتي عربان وماكسين وهما في أراضي الخابور من اعمال ديار ربيعة :

كانت رأس العين او راس عين (Resaina الرومانية) تقع على بعد خمسين كيلو متراً اسفل تل موزن على نهر خابور راس وقرب منابع

---

(١) انظر حول منابع الخابور :
Von M. Oppenheim, Der Tell Halaf (Leipzig 1931)

(٢) ياقوت معجم البلدان جـ٤ ص ٨٤٠ .

لهر الخابور الكبير. وهي مدينة تردد اسمها كثيراً في المراجع الجغرافية والتاريخية العربية، باعتبارها احدى المدن الواقعة على طريق الرقة - للموصل (عن طريق نصيبين) ، واشتهرت كذلك بكثرة عيونها حتى قيل انها بلغت اكثر من ثلاثمائة عينا(١) كانت تسقي بساتينها وحقولها الممتدة والتي كانت تبدو كأنها بستان واحد متصل » (وصف ابن حوقل(٢) هذه المدينة بقوله « كانت رأس العين مدينة ذات سور من حجارة نبيل، وكان داخل السور لهم من المزارع والطواحين والبساتين ما كان يقوتهم؛ وفيها من العيون ماليس ببلد من بلدان الاسلام ، وهي اكثر من ثلاثمائة عين ماء جارية كلها صافية بين ماتحت مياهها في قعورها على أراضيها .:: وتجتمع هذه المياه حتى تصير نهراً واحداً ويجري على وجه الأرض فيعرف بالخابور، ويقع الى نواحي قرقيسيا ويكاد وصف الاصطخري(٣) لرأس العين ان يكون صورة مطابقة لما ذكره ابن حوقل :

وفي منتصف الطريق بين رأس العين ونصيبين قامت قلعة ماردين الصخرية الشهيرة في تاريخ الحمدانيين.. وكانت تقع على قمة جبل بنفس الاسم عند الموضع الذي يتسع فيه الخابور بما ينضاف اليه من مياه الجداول الاتية من طور عابدين، كانت مدينة ماردين تقع على ارتفاع ١١٩٠ متراً. وتتكون من قلعة صخرية ومدينة تقع الى الجنوب في سفح الجبل » واعتبرت ماردين من اهم مدن الجزيرة في تاريخ بني حمدان وكانت معقلا لامرائهم في القرن الرابع وسميت بـ (الباز الأشهب) (٤) وفي القرن

---

(١) الاصطخري ص ٧٤ ، ابن حوقل ص ٢٠٠ .

(٢) صورة الارض ص ٢٠٠ .

(٣) مسالك الممالك ص ٧٤ .

(٤) صورة الارض ص ١٩٤٠ .

السادس بنيت ضاحية لماردين في جهتها الجنوبية قامت فيهــا الاسواق والخانات والمدارس . وقد وصفها ابن بطوطة(١) بأنهــا كانت مدينة جميلة غنيــة بالحاصلات الـ زراعية ، وعرفت يومئذ بالقلعــة الشهباء واشتهرت بالحجر الزجاجي(٢)٠ووصف الاصطخري (٣) جبل ماردين فقال ان ارتفاعه من الارض الى ذروته نحو فرسخين (اكثر من عشرة كيلو مترات) وبه قلعة منيعة لا يستطاع فتحها عنوة ... وهو جبل به جواهر الزجاج ٠ وكانت ماردين من المواقع الهامة عسكرياً، لذلك عمد جميع حكام اقليم الجزيرة الى وضعها تحت سطوتهم باعتبارها مركزاً دفاعياً حصيناً . فهي تسيطر على المنــاطق الواقعة على دجلة والفرات وتكون ممراً هاماً للشمال وطريقاً الى الموصل عبر نصيبين والى آمد مدينة دياربكر الهامة والى رأس العين التي أسلفنا وصفها . لقد كانت ماردين فوق ذلك من الديار التي عاش فيهــا آل حمــدان وهي من مواطنهم ذات الشهرة بالاضافة الى برقعيد وميافارقين ونصيبين والموصل ٠ والحــق ان المعلق المجهول على مخطوطة ابن حوقل (٤) أوجز اهمية ماردين في عبــارة واحدة فهو يقول : وماردين حصن حصين منيع لا يرام ولا يقدر عليه، مبني على قلة جبل شاهق في الهواء وهو مشرف على تلك الجبــال شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوباً لا يدانيه قلة جبل البتة ، وفيه من الذخائر والعــدة والأسلحة ما لا يمكن حصره، ومن تحته في ناحية الجنوب ربض عامر

---

(١) رحلة ابن بطوطة حـ ١ ص ٧٣ .

(٢) مسالك الممالك ص ٧٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٧٣ .

(٥) صورة الارض ص ٢٠٢ .

منفض بالسكان ضيق الاسواق ، وليس بين ايديهم حائل يمنعهم من النظر الى برية رأس العين والخابور وسنجار ... » .

وكانت مدينة دنيسر أو « سوق دنيسر » تقع تحت ماردين في الصحراء على بعد اربعة فراسخ . وهذه المدينة كانت في الاصل قرية صغيرة يجتمع الناس في فضائها كل يوم أحد(١) للبيع والشراء ، فلم تلبث بسبب هذه التجارة النشطة ان توسعت وتحولت الى مدينة عامرة ذات حانات وفنادق وحمامات وأسواق ، تأتيها البضاعة من سائر البلدان واستقر فيها الناس من كل فج عميق .. فكثر بها الارتفاع والضمانات »(٢) .

وكانت كفرتوثا حصناً قديماً فاتخذها ولد ابي رمثة منزلا فمدنوها وحصنوها(٣) وتقع الى الجنوب الغربي من ماردين في منبسط من الأرض حباه الله بانواع الشجر والزروع(٤) . ويصف ابن حوقل(٥) كفرتوثا بأنها تقع بين مدينتي دارا ورأس العين : « مدينة جميلة سهلية ، وكان حظها من كل خير جزيلا .. وكانت في مستواة من الارض ولها شجر وثمر ومزدرع وضياع . اما دارا فكانت تقع الى جنوبي شرقي ماردين على المجرى الأعلى لفرع من فروع نهر عويج الذي يتصل بنهر هرماس . وتبعد دارا سبعة فراسخ (اكثر من ٤٠ كيلو متراً) عن عن كفرتوثا وخمسة فراسخ (اكثر من ٢٨ كيلو متراً) عن نصيبين . واشتهرت دارا بكثرة محصولاتها الزراعية وعيونها وابنيتها ذات الحجارة

---

(١) يبدو من ذلك ان اكثر اهلها كانوا من النصارى ، خاصة وقد كثرت فيها الحانات .

(٢) ابن حوقل ص ٢٠٢

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٨٨ .

(٤) الاصطخري ص ٧٣ - ٧٤ .

(٥) صورة الأرض ص ٢٠٠ .

السود .. ووصفها ابن حوقل(١) بأنهـا « كثيرة الغلات والخيرات والخصب في جميع وجوه الخصب من المأكل والمشارب وما تحويه كالمجان » . وانها كانت ذات أهمية استراتيجية بالنسبة للروم في القرن الرابع الهجري .

ومن المدن الرئيسة ذات الشهرة الذائعة في العصور الوسطى نصيبين (Nisibis الرومانية) التي ما زالت من مدن الجزيرة الهامة (في تركية الحديثة) . وتقع نصيبين في أعالي نهر الهرماس(٢) ولنجد من وصف الجغرافي والرحالة ابن حوقل(٣) انها كانت من اعظم مدن الجزيرة وا كثرها خصباً وغزارة في المياه ووفرة في المحاصيل الزراعية ، وتقع في سهل منبسط، تأتيها المياه من جبل بالوسا(٤) فتسقي بساتينها ومزارعها وتزين البرك في دورها وقصورها . ويقول المقدسي(٥) عن نصيبين انها كانت « انزه واصغر .. من الموصل، كثيرة الفواكهة بها حمامات حسنة وقصور منيعة عليها حصن من حجر وكلس » . واشتهرت نصيبين في القـرن الرابع بمراعيها الواسعة وغلاتها العظيمـة وبحقولها وبساتينها ومتنزهاتها الجميلة، وكثرة كنائسها وصوامعها ودياراتها . وكانت على عهد ابن جبير في القرن السادس الهجري مدينة جميلة محاطة بالبساتين، وافرة المياه كثيفة الشجر ، وتمتاز بنهر يحيط بها ويتسرب اليها من عين تنبع من جبل قريب.(٦) . وظلت هذه المدينة عامرة حتى عصـر ابن

---

(١) صورة الارض ١٩٩ ، وقد اعتبرها من اعمال نصيبين الشمالية .

(٢) سماه اليونان Saocoras او مجدونيوس Mygdonius .

(٣) صورة الارض ص ١٩١-١٩٤ .

(٤) انظر كذلك الاصطخري ص ٧٣ .

(٥) احسن التقاسيم ص ١٤٠ .

(٦) رحلة ابن جبير ص ١٩٢ .

بطوطة (القرن الثامن الهجري)(١) ٠

كانت لصيبين اعظم المدن الواقعة على الطريق الغربي الذي يذهب الى الموصل ٠ وكان غالبية سكان هذه المدينة من بني تغلب ، واشتهرت في العصـــور الوسطى بكونها مركزاً ثقافياً هاماً من مراكز النساطرة ، بالاضافة الى كونهـــا مركزاً هامـــاً للمسيحية حيث حفلت بالكنائس والاديرة التي اشتهر منها دير الزعفران (أو دير عمرو) الذي كان يقع في جبل شرقي لصيبين(٢) ٠

وهناك بضعة مواقع يذكرها الجغرافيون العرب بين منطقة الخابور وطريق قرقيسيا ـ سنجار وهي من الشمال الى الجنوب: عرابان وماكسين وسكير العباس ٠ تقع عرابان وماكسين في أراضـي الخابور الـذي يمر بهما قبل ان يمر بقرقيسيا (في ديار مضـر) واشتهرت هاتان المدينتان بوفرة انتاجهما من القطن الذي كان يزرع على جالبي الخابور (٣) . وعلى مئة ميل تقريباً جـنوب نصيبين يقع السـد المعـروف بسـكير العباس الـذي يصب في دجلة والذي يقع فوق ملتقى الهرماس بالخابور حيث كانت تنساب منه اكثر مياه الخابور الكبير الى وادي الثرثار ٠ وعـلى سكير العباس هذا كانت تقوم في القـرن الرابـع الهجري مدينة كبيرة بهـذا الاسـم يقول عنها ابن حوقل(٤) انها « مدينة لطيفة فيها غلات وبها رجال » ٠ اما الاصطخري(٥) فيجعل سكير العباس مجرد

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ١٤٨

(٢) انظر الشابشتي ، الديارات ص ١٣

(٣) انظر ابن حوقل ص ٢٠٠ـ٢٠١ . والاصطخري ص ٧٤

(٤) صورة الارض ٢٠١

(٥) مسالك الممالك ص٧٤

قرية في منتصف الطريق بين عرابان وماكسين اللتين يقـول عنهما انهما كانتا من مدن الخابور ، على حين أعتبر المقدسي (عربان) قصبة ناحية الخابور(١) • ويذكر الجغرافيون العرب(٢) بضع مدن صغيرة اخرى في هذه المنطقة مثل طلبان الجحشية وتنينير والعبيدية ، في حين يذكر الاصطخري(٣) اسماء قرى اخـرى مثل المطـرية والسخيمية • كذلك يذكر ابن الفقيه(٤) عند حديثه على كور الخابور الصـــور والغـــدير وماكسين والشمسانية والسـكير وعربان وطـابان وتنينير العليـا وتنينير السـفلى وشاعا وجميعها على الخابور •

ان المنطقة بين نصيبين ودجلة من جهة وبين طور عابدين (أو طور عبدين) وسلسلة جبل سنجار من جهة ثانية تدعى باعربايا واسمها القديم بيث عربايـا (أي بلاد العـــرب Arabia) كما سمـــاها المؤرخون الكلاسيكيون وبخاصة الرومان الذين ذكروا انها كانت ذات اهمية تجارية فائقة وان العرب استقروا فيها منذ أمد طويل . ويبدو ان السهل الذي يقع في المنطقة الـــتي يتصل فيها بنهر هرماس جداول ونهيرات عديدة جنوبي نصيبين، كان في القرن الرابـع الهجري (العاشر الميلادي) كثيف السكان وافر الزراعة تنتشر فيه مواضع عديدة على طول الطـــريق من نصيبين الى الموصـل وصفها الجغرافيون العـــرب القدامى والباحثون

(١) أحسن التقاسيم ص ١٣٩

(٢) ابن حوقل ص ٢٠١ ، الاصطخري ص ٧٤

(٣) طلبان ترد لدى الاصطخري باسم طابان ولعـــل الجحشية هي السخيمية لدى الاصطخري ص ٧٤

(٤) مختصر كتاب البلدان ص ١٣٣

الغربيون المعاصرون(١) . ومن هذه المواضع الهامة مدينة أذرمة التي تقع في منتصف المسافة بين نصيبين وبرقعيد وهي من كورة تعرف ببين النهرين ٠ وقد وصفها احمد بن الطيب السرخسي الذي مر بها يوم كان فى خدمة الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) فقال انه كان بها قصر حسن ونهر يشقها وعليه في وسط المدينة قنطرة معقودة بالصخر والجص ، وعليها سوران احدهما دون الاخر ومن خارج السور خندق يحيط بالمدينة(٢) ٠ ووصفها المقدسي (٣) فىالقرن الرابع بأنها: مدينة صغيرة فى البرية ، شربهم من آبار وبنيانهم قباب ٠ ويقول ابن حوقل(٤) ان اذرمةتبعد عن برقعيد ستة فراسخ «وكانت مدينة صالحة كثيرة الغلات» . وقال عنها البلاذري(٥) بانها كانت قرية قديمة فاخذها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي من صاحبها وبنى بها قصراً وحصنها ٠

وتعتبر برقعيد مدينة تجارية ذات أهمية على طريق نصيبين تمر بها

---

(١) انظر A. Moret, Histoire de L'. Orient I p. 302
Honigmann Ency. Islam (Orfa) Vol. III p. 1062

يقول ابن الفقيه ص ١٣٥ : قال الأصمعي : كانت قريش تسأل في الجاهلية عن خصب باعربايا وهي الموصل ! لقدرها عندهم ولم يلهم في خصبها شيء قط ومن ريف الجزيرة وما يليها لأنها تعدل في الخصب باعربايا .

(٢) انظر ياقوت جـ ١ ص ١٧٧ يضيف : ان بين برقعيد واذرمة خمسة فراسخ وبينها وبين السميمية فرسخ عرضا وبينها وبين سنجار في العرض عشرة فراسخ

(٣) أحسن التقاسيم ١٣٩ـ١٤٠

(٤) صورة الارض ١٩٩

(٥) فتوح البلدان ١٨٨ ، ياقوت جـ١ ١٧٧

القوافل وتجري فيها عمليات البيع والشراء . وفي القرن الثالث الهجري كانت مدينة عامرة ذات سور له ثلاثة ابواب(١) ، ويحدد ياقوت(٢) موقع برقعيد « في طرف بفضاء الموصل من جهة نصيبين مقابل باشزى » ، واعتبرها السرخسي من أعمال الموصل من كورة البقعاء . ويبدو انها كانت مدينة كبيرة بل اكبر من أذرمة(٣) ، بحيث كان في سوقها مائتا حانوت . وهذا الوصف ينطبق على برقعيد في سنة ٣٠٠ هـ ، حيث كانت ممر القوافل من الموصل الى نصيبين : أما في ايام ياقوت (في القرن السابع) فقد أصبحت خراباً وقرية صغيرة حقيرة(٤) يضرب المثل بأهلها في اللصوصية بحيث قيل «لص برقعيدي»(٥) ، وكانت القوافل اذا نزلت بها لقيت من أهلها الأمرين ، حتى اضطر التجار بسبب ذلك الى تغيير طريقهم فجعلوا طريق قوافلهم على باشزى التي ازدهرت واحتلت مكان برقعيد. وهكذا نجد ان ياقوت وكذلك ابن حوقل(٦) يعزوان سبب اضمحلال هذه المدينة الى لصوصية أهلها وهو تعليل غير علمي كما هو واضح ، ذلك ان نشوء المدن وزوالها انما ارتبطا بعوامل جغرافية وتاريخية معروفة كتحول طرق التجارة ومجاري الانهار او الحروب المبيدة والكوارث الطبيعية المدمرة .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان جـ ١ ص ٥٧١

(٢) معجم البلدان جـ١ ص ٥٧١ . يقول ياقوت (جـ١ ص ٥٧٢) وكذلك ابن حوقل (جـ ١ ص ٥٧٢) ان برقعيد كانت موطن آل حمدان

(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص ١٤٠

(٤) ياقوت جـ١ ص ٥٧١

(٥) نفس المصدر والمكان

(٦) صورة الأرض جـ١ ص ٢٢٠

وكانت سنجار ـ التي تبعد عن بلد بتسعة فراسخ ـ تقع في مفازة ذات نخل كثير ، وهي مدينة مسورة في القرن الرابع مشهورة بحذق اسا كفتها ويرويها نهر عذبي(١) ، بالاضافة الى عيونها الكثيرة(٢) . وكان موقع سنجار حصيناً فهي تقع في وسط البرية وفي سفح جبل خصب ، يحيطها سور حجري يصد عنها هجمات المغيرين(٣) . ويقول ياقوت(٤) ان سنجار كانت تقع في « لحف جبل عال ويقال انها سميت باسم بانيها » . وكان على مقربة من سنجار ـ من ناحية الشمال والغرب ـ وادي من أودية ديار ربيعة كثير الخصب استقرت فيه بعض بطون القبائل العربية(٥) .

ومن مدن ديار ربيعة ذات الشأن جزيرة ابن عمر نسبة الى الحسن بن عمر التغلبي ، ولعل تسميتها بالجزيرة كانت بسبب احاطة دجلة بها من ثلاث جهات(٦) . وقد وصفها الاصطخري(٧) بانها كانت مدينة صغيرة على غربي دجلة لها اشجار ومياه . اما ابن حوقل(٨) فقد افاض في وصفها فقال : ان بينها وبين الموصل ثلاثين فرسخاً ، وكانت على أيامه مدينة ذات تجارة ، وهي « فرضة لأرمينية وبلاد الروم ونواحي

---

(١) المقدسي ص ١٤٠ ، الاصطخري ص ٧٣

(٢) ابن حوقل ص ١٩٩ ، المقدسي ص ١٤٠

(٣) ابن حوقل ص ١٩٩

(٤) معجم البلدان جـ٣ ص ١٥٨

(٥) ابن حوقل ص ١٩٩

(٦) ياقوت جـ٢ ص ٧٩

(٧) ص ٧٥

(٨) صورة الارض ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣

ميافارقين وارزن، وتصل منها الى الموصل المراكب مشحولة بالتجارة »» وهي أحسن تلك الناحية عمارة وارجاها ســـلامة لوفور أهلها وكثرة خصبها » . ويستطرد ابن حوقل قائلا : ان الجزيرة متصلة بمدن ثمانين وباسورين وفيشابور » وجميعها في الجبل الذي منه جبل الجودي متصل بآمد من جهة الثغور وأعالي البلد بأعمـال مرعش والاكام وبأسافلها » . وجبل الجـــودي الذي يقع شــــرقي جزيرة ابن عمر هو الذي تحدده النصوص القرآنية (١) كموضع استقرت عليه سفينة نوح . أما قريـــة الثمانين فسميت بهذا الاسم نسبة الى ما قيل من ان ثمانين من رجال نوح بنوا قرية هناك سميت ثمانين بعددهم(٢) .

وتقع الحسنية على نهر خابور الحسنية الـــذي يصب في دجلة شمال مدينة فيشابور ، والذي ينبع من الجبال القريبة من العمادية . ومـا زالت بقايا الحسنية قرب قرية حسن أغا . ولعلها - كما يقول لسترانج -(٣). تمثل البلدة القديمة، أو لعلها زاخو ، خاصة وان هناك قرية باسم حسنة تقوم اليوم بأزاء زاخو في الجانب الاخر من الخابور قرب معلثايا .

وفي المنطقة الجبلية على ضفة دجلة اليسرى (بين الخابور والزاب الكبير) تقع منطقة باهدرا التي تحدث عنها المسعودي لدى تتبعه لمجرى نهر دجلة فقال(٤) ، انها تقع على مقربة من قردى وبازبدى . اما ابن

---

(١) سورة هود ١١ الاية ٤٦

(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ص ٢٠٦

(٣) بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٣ .

(٤) مروج الذهب ح ١ ص ٦٣ (مصر) .

حوقل(١) : فيجعل حدود باهدرا من المغيثة حتى الخابور ومن معلثايا حتى فيشابور (فيروز سابور) : والمغيثة كانت كما يقول المقدسي(٢) : احدى مدن كورة جزيرة ابن عمر الهامة :

ويرد ذكر باقردى وبازبدى سوية في المراجع العربية ، غير انهما كورتان منفصلتان تقعان في منطقة جبل الجودي ويفصل بينهما نهر دوشا. ويقول ياقوت(٣) : ان بازبدى قرية سميت كورتها بها وهي في غربي دجلة ، وباقردى كورة اخرى في شرقيه . وقد سبق ان اشرنا الى رأي ابن حوقل(٤) ، في ان قردى (أي باقردى) هي جزيرة ابن عمر وجبل باسورين الى حدود باعيناثا ، وان حدود بازبدى من ضيعة المقبلة والاحمدي وباعوساوالبيضاء الى حدود جزيرة ابن عمر . واذا رجعنا الى اقوال ياقوت وابن خرداذبه وقدامة(٥) . (بالأضافة الى ابن حوقل) نجد ان مركز قردى كانت باسورين التي احتلت مكان قردى القديمة وطمست شهرتها ، على حين اندمجت بازبدى في جزيرة ابن عمر .ومهما يكن فقد ظلت لهاتين الكورتين شهرة عطرة في ادبيات ذلك العصر(٦).

---

(١) صورة الأرض ص١٤٧ .

(٢) احسن التقاسيم ص٥٤ ، ١٣٧ ، ١٤٩ ، ياقوت جـ٤ ص٥٨٥ .

(٣) معجم البلدان جـ١ ص٤٦٦ .

(٤) صورة الارض ص١٩٧ ،

(٥) كتاب الخراج ص٢٤٥ .

(٧) قال احد الشعراء :

بقردى وبازبدى مصيف ومربع
وعذب يحاكي السلسل برود

انظر مروج الذهب جـ١ ص٦٣ .

كان جبل الجودي (ارتفاعه ٢٤٦٠ م) ذا اهمية في تاريخ هذه الفترة بالاضافة الى اهميته الدينية حيث حدده القرآن الكريم كموضع رست فيه سفينة النبي نوح بعد الطوفان(١) ، وان ثمانين من اهل هذه السفينة أشادوا قرية هناك سميت (ثمانين(٢) . وفي شرقي جبل الجودي كانت تقع قرية النهروان التي اعتبرت من أملاك بني حمدان وضياعهم(٣).

ويقع جبل التنين (تنين داغ) شرقي جبل الجودي يفصل بينهما (قزل صو) فرع الخابور . وهنا تقوم (عقبة التنين) التي يمكن اعتبارها الحد الفاصل بين أرض زوزان الأرمنية ، واقليم الجزيرة الإسلامي ، وسكان هذه المنطقة خليط من الأرمن والأكراد . ويعتبر الجغرافيون العرب زوزان كورة بين جبال أرمينية واذربيجان وديار بكر والموصل « واهلها أرمن وفيها طوائف من الأكراد(٤) ... »

وحين نترك أرض الزوزان متجهين جنوباً ندخل في الأراضي الاسلامية التي يكون الأكراد اغلب سكانها . ان هذه المنطقة الحصينة المليئة بالحصون والقلاع الحربية لعبت دوراً كبيراً ايام الحمدانيين وكانت موضع صراع بين القوى المختلفة التي كانت تهدف الى السيطرة عليها ، ومن ثم تداولتها ـ وقلاعها ـ أيدي الاقوياء المرة تلو المرة . ولعل من أشهر القلاع التي امتلكها الحمدانيون في هذه المنطقة وكانت لها شهرة ذائعة قلعة (أردمشت) قرب جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة

---

(١) السورة ١١ الآية ٤٢ . انظر قدامة ص٢٤٥ .

(٢) انظر المقدسي ص١٣٩ . ابن حوقل ج١ ص ١٥٣ و ١٥٧ . ياقوت ج١ ص٩٣٤ و ج٢ ص ١٤٤ .

(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج٨ ص ١٨٠ .

(٤) مراصد الاطلاع ج١ ص٦٧٦ .

على جبـــل الجودي ، والتي تقـــع في أسفلهـــا قلعة الزعفران أو (دير الزعفران) التي سميت بقلعة كواشي ايضاً ، وهي التي اشرنا اليهـا عند حديثنا على نشاط حمدان بن حمدون . ويقول ياقوت في هذا الصدد (١) ان قلعة أردمشت قلعة حصينة قرب جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة على جبل الجودي ،وتحتها دير الزعفران وهي قلعة ايضاً ، وهي التي عرفت فيما بعد بقلعة كواشي « وهي من أعمال الموصل » . ويبـــدو ان قلعة اردمشت عرفت باسمـــاء أخرى كذلك فقد سميت باســم الصوارة كما عرفت باسم قلعة السلامة (٢). ومهما يكن فقد اقترنت هذه القلعة اقتراناً وطيداً بتاريخ الحمدانيين ، ففيها اعتقل أولاد ناصر الــدولة أباهم كما سنرى . اما قلعة دير الزعفران فقد حدد البلدانيون القدامى(٣) موضعها على انها قرب جزيرة ابن عمر تحت قلعة اردمشت «وهو في جبل والقلعة مطلة عليه » . ودير الزعفران (الــذي سمي كذلك لانه اشتهر بزراعة الزعفران) (٤) ايضاً بقربه على الجبل المحاذي لنصيبين » . وعدا هاتين القلعتين وقلعة مـــاردين (التي سبق ان اشرنا اليها) امتلك الحمدانيون قلاعاً اخرى اقترنت بتاريخهم كما سنرى مثل حصن الشعباني وبرقي(٥) وغيرهما .

وقبل ان انتقل الى الحديث عن الموصل ، أود ان أتحدث عن أحد المواضع الهامة في ديار ربيعة ـ وهي اربـــل ـ خضوعاً مني لضرورات

---

(١) معجم البلدان جـ١ ص١٩٩ ، جـ٢ ص ٦٦٣ .
(٢) مروج الذهب جـ٨ ص ١٤٥ (الطبعة الأوربية) . قلعة صوارة .
(٣) ياقوت جـ٢ ص٦٦٣ . مراصد الاطلاع جـ٢ ص٥٦١ .
(٤) مراصد الاطلاع جـ٢ ص ٥٦١ .
(٥) انظر ياقوت جـ٥ ص ٩٥٧ ، مسكويه جـ٢ ص ٢٩٢ .

البحث ، مع علمي بأن بحثها يجب ان يأتي بعد الحديث على الموصل اذا اخذنا بنظر الاعتبار التسلسل الجغرافي .

إن اربل (أربيل اليوم) هي اربيلا القديمة التي ترقى الى ايام الاشوريين والتي سموها بمدينة الالهة الأربعة (أربا - ايللو)(١)، وتقع بين الزابين وتتميز بقلعتها الحصينة التي شيدت على قمة تل ترابي . وتحدث ابن خرداذبه (٢) عن اربل باعتبارها احد الطساسيج الخمسة التي كونت كورة حلوان (أو شاذ فيروز) ، وكذلك فعل قدامة بن جعفر (٣) . ويقول عنها ياقوت(٤) : انها قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط ، ولقلعتها خندق عميق ... وهي على تل عال من التراب عظيم ... وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية ... وهي بين الزابين وتعد من أعمال الموصل ... » . ان اربل من مواطن الأكراد القديمة بحيث قال ياقوت (٥) « ان اكثر اهلها اكراد قد استعربوا ، وجميع رساتيقها وفلاحيها وما ينضاف اليها أكراد ، وينضم الى ولايتها عدة قلاع ، وشربهم من أبار عذبة » . وفي العصور العباسية المتأخرة اعتبرت اربل من اعمال الموصل . وقد اشتهرت منذ القديم باهميتها التجارية باعتبارها ملتقى طرق القوافل(٦) .

لقد اطلق الجغرافيون العرب على المنطقة التي كانت اربل قصبتها

---

(١) لسترانج ص١٢٢ ، شترك . دائرة المعارف الاسلامية م١ ص ٥٧١ .

(٢) المسالك والممالك ص٦ (طبعة بريل ١٨٨٩) .

(٣) الخراج وصنعة الكتابة ص٢٣٥ (بريل ١٨٨٩) .

(٤) معجم االبدان ص ١٨٦-١٨٧ .

(٥) ياقوت . معجم البلدان ج١ ص١٨٦ . مراصد الاصلاع ج١ ص٥١ .

(٦) سترك دائرة المعارف الاسلامية م١ ص٥٧١ .

أسم (أرض حزة) . والواقع ان حزة هي المنطقة التي كانت تشمل امارة حدياب الواقعة بين الزابين والتي امتدت الى آشور (شرقاط)والى نصيبين وكانت قاعدتها أربيل (١) . ويتحدث ابن حوقل(٢) عن (أرض حزة) ويعتبرها من رساتيق الموصل « بينه وبين اعمال المرج الزاب الكبير » .

٥ـ الموصل واعمالها

تقع الموصل ـ قصبة ديار ربيعة ـعلى الضفة الغربية (اليمنى) لدجلة ، الذي يجري الى شرقيها في شبه قوس من الشمال الى الجنوب . وتقع المدينةعلى أرض تعلو قليلا عن مستوىسطح البحر ، مقابلنينوى او نونوى(٣) عاصمة الاشوريين التي ما زالت خرائبها تبدو على الضفة الشرقية للنهر .ولم تكن الموصل قبل الفتح العربي الاسلامي ذات شأن ، انما كانت مجرد حصن صغير يقوم على تل قليعات مقابل نينوى ليصد عنها غارات المغيرين من الغرب . وبعد سقوط نينوى في سنة ٦١٢ ق.م لجأ اليها بعض الناجين . وفي القرن الرابع قبل الميلاد أورد زنفون في رحلة العشرة آلاف ذكرها بأسم Muspile وحدد موضعها في الجانب الشرقي لدجلة (٤) . لقد تحولت نينوى الى مدينة من مدنامارة حدياب (التي سماها العرب حزة) (٥) ، وهي إحدىالامارات الكلدانية

---

(١) سليمان صائغ . تاريخ الموصل جـ١ ص ١٩ .

(٢) صورة الارض ص ١٩٦ .

(٣) المقدسي ص ١٣٩ ، ياقوت جـ ٤ ص ٦٨٣

(٤) E. I. Vol. 3 P. 609

(٥) ابن حوقل ص ١٩٧.

الآرامية التي خضعت تارة للفرثيين وطوراً للرومـــان ابان القرن الثاني للميلاد (١) . ولما استولى الفرس على هذه البلاد وحولوها الى ميدان لحروبهم مع الرومان نقلوا اليها جماعات من العرب والفرس مكنوهم من الاستقرار هناك وأطلقوا على المنطقة اسم نوار دشير أو بوذ أردشير(٢).

والحق ان الاقـــوال تختلف حول تأسيس مدينة الموصل ، فيقول هونيجمان(٣) انه في الوقت الذي بدأت فيه المسيحية تقتحم تلك الاصقاع في بداية القرن الثاني الميلادي ، كانت الموصل قد اخـذت تحتل مكان نينوى . وقد أسس الراهب يشوعياب حوالي سـنة ٥٧٠ م على الضفة الغربية لدجلة قبالة نينوى ديراً ما زال يدعى بدير مار اشعيا ، بنى حوله كسرى الثاني عدة ابنية . وربما كانت هذه المستوطنة هي الحصن الذي ذكرته التواريخ السريانية التي نشرها جويدي باسم Hesna Ebhraya وهو التعبير الذي ترجمه هيرز فيلد الى « الحصن على الضفة المقابلة » .

وقد أورد القس سليمان صائغ هذا النص من كتـاب خطي(٤) « ان يشوعياب القسري الذي كان معاصراً لكسرى انوشروان ... رجـع الى بلدته نينوى . وكان في الناحية الغربية من دجلة الواقعة قبالة نينوى جنينة رائقة لم يكن حولها الا قليـل من البيوت والعمران ، فأختار يشوعياب هذا الموقع وبنى فيه ديراً وهيكلا كبيراً ثم انضوى اليـه الرهبان يتعلمون منه ... وكانت نينوى يومئذ عامـــرة واهلهـا يدينون بالنصرانية فشرع

---

(١) سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ج١ ص ١٧ - ١٨

(٢) لسترانج ص١١٥ أو Budh-Ardashiran-Shah انظر E.I. Vol .3. P609

(٣) E.I. vol. .3. p. 609

(٤) سماه (ج١ ص٤٣) بالتاريخ البيعي المحفوظ في مكتبة مار بثيون للكلدان في ديار بكر ج٢ ص١٣

الناس يتقاطرون الى ذلك الدير ... ولما ملك كسـرى ابرويز بن هرمزد بنى حول تلك الجنينة دوراً كثيرة وأتى بخلق من بلاده واعطـاهم تلك الدور مجاناً ليسكنوا فيها ويزيدوا في عمرانها وبنيانها حتى أصبحت مدينة صغيرة أو قصبة كانت تدعى الحصن العبوري ، ولما استولى عليها العرب بعد الاسلام زادوا في توسيعها على ما أقامه كسرى الثاني وسموها الموصل».

لقد وردت اشارات كثيرة فى المراجع العربية الى ان الفـرس هم الذين أسسوا الموصل (نواردشير أو بوذ اردشير) . ويقول ياقوت(١) وابن الفقيه(٢) بهذا الصدد : ان الموصل أنشئت على عهد راوند بن مابيو راسف الأزدهاق ، وانها كانت تسمى آنـذاك نواردشير . وورد كذلك في كتاب خطي سـرياني انه قام في فارس ومديـنة ملك يدعى أطوران امتـدت مملكته حتى شمات نهر دجلة فبنى على ضفته الغربية عاصمة سماها باسمه . ويرجح القس سليمان صائغ(٣) الذي نقل عن هذه المخطوطة ان اطوران قد يكون هو أرطبان الثالث ملك الفرثيين .

غير ان هذه الروايات التي تنسب تأسيس الموصل الى اقـوام اجنبية يفندها القس سليمان صائغ فيقول (٤) أمـا مدينة الموصل فـلم يؤسسها الرومانيون ولا اليونان ولا الفرس الفرثيون أو الساسانيون بل هي مدينة عربية بحتة شيدها العرب . لكنه يستدرك فيقول ان العرب انما شيدوها ليس في فراغ كما فعلوا في البصرة او الكوفة انما على مدينة صغيرة كانت قائمة هي (حسنا - عبرايا) أي القلعة على الضفة الاخرى قبالة نينوى .

---

(١) معجم البلدان جـ ٤ ص ٦٨٢ - ٦٨٣
(٢) مختصر كتاب البلدان جـ ١ ص ١٢٨ (بن بيوراسف)
(٣) تاريخ الموصل جـ ١ ص ٤٢
(٤) نفس المصدر جـ ١ ص ٣٩ - ٤٠

وكما تختلف الاقـوال في تأسيس الموصل ، فهي تختلف كذلك فى سبب تسميتها . فقيل سميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق او بين العراق والشام ، وقيل لأنها وصلت بين دجلة والفرات ، او لأنها وصلت بلد وسنجار والحديثة ، وقيل : ان الملك الذي أحدثها كان يسمى الموصل (١) . وما دمنا لا نجد في التاريخ ملكاً بهذا الأسم فأن هذا القول مردود ولا يقوم على سند تاريخي .
ويبدو واضحاً ان لفظة الموصل جاءت من فعل « وصل » لتدل على الموضع الذي يصل مكاناً بأخر ، فهي اذن لفظة عربية استعملت فى اواخر القرن الثامن الميلادي من جانب المؤرخين العرب ، اما قبل ذلك فكانت تدعى « الحصن العبوري » . ويعتقد لسترانج ان الموصل انها هي نقطة الوصل (٢) ، فى حين يرى هونيجمان(٣) انها سميت بهذا الأسم لان عدداً من فروع دجلة تتحد عند موقع الموصل لتكون مجرىواحداً .
اما المقدسي فيقول (٤) ان الموصل كانت تسمى (خولان) فلما وصل العرب بها عمارتهم ومصروها سميت الموصل ، ولحن لا ندري أصل لفظة خولان كما ان تفسير للفظة الموصل يبدو مغرقاً فى الاجتهاد وان كان طريقاً .

فتح المسلمون الموصل ايام الفتوحات الكبرى في عهد عمر بن الخطاب . ففي سنة ١٣/٦٣٤م أرسل ابو بكر خالد بن الوليد الى العراق

---

(١) ياقوت ، جـ ٨ ص ١٩٦ ، مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٣٣٣ ، ابن الفقيه ص١٢٨
(٢) The Lands. P. 87
(٣) E.I, Vol. 3, P. 611 ، كذلك يفترض لسترانج هذا الافتراض ص ١١٥
(٤) أحسن التقاسيم ص ١٣٩

ثم انجده بعياض بن غنم ، وفي سنة ١٦ /٦٣٧م كتب عمر الى سعد بن ابي وقاص أن ينتدب عبدالله بن المعتم الى تكريت لحرب الانطاق - قائد للروم - الذي سار الى تلك المنطقة في جيش كثيف كان يضم بعض القبائل العربية كأياد ونغلب والنمر « الشهارجة » (١) (أي النصارى) . غير ان هذه القبائل انضمت الى الجيش الاسلامي حين رجحت كفته ودخلت في الاسلام فهزم الانطاق وكثر القتل في جيشه(٢). وأرسل عبدالله زبعي بن الأفكل الى الحصنين نينوى والموصل، اللذين سميا بالحصنين الشرقي والغربي فصالحه اهلها (٣) . وفي سنة ٢٠/٦٤٠م ولى عمر عتبة بن فرقد السلمي الموصل فاستولى على نينوى عنوة وعبر دجلة فصالحه أهل حصن الموصل ودفعوا الجزية ثم استولى على حصون الأكراد ومعاقلهم ، كما فتح المرج والقرى المنتشرة فيه (٤) ثم عزل الخليفة عمر عتبة عن الموصل وولاها هرثمة بن عرفجة البارقي الذي اكمل الفتح وانزل بها العرب وانشأ أول مسجد جامع فيها ، لذلك نستطيع اعتباره أول من اختط الموصل كمصر إسلامي (٥) .

وبجانب الموصل استطاع عتبة بن فرقد ان يفتتح أعمالها وقراها وهي بانهدرا (أو بيت نوهدرا وهي قضاء زاخو ودهوك) ، والمرج

---

(١) ابن الاثير الكامل حـ ٢ ص٥ ص ٢٥٧

(٢) نفس المصدر حـ ٢ ص ٢٥٨

(٣) المصدر السابق حـ ٢ ص ٢٥٨

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٣١

(٥) نفس المصدر ص ٣٣٢

(وهو العقر والزيبار) وباعذرا (أوبيت عذرا) وحبتون (١)وداسان (٢) وقردى وبازبدى (٣).

اما أعمال الموصل فقد استخدمنا تعبيراً مرناً للدلالة عليها ، لأنها من الناحية الجغرافية والادارية اختلفت باختلاف العصور وباختلاف مفاهيم الجغرافيين القدامى . يقول ابن حوقل (٤) : للموصل نواح عريضة ورساتيق عظيمة وكور كثيرة غزيرة الاهل والقرى ... مثل رستاق المرج وفيه مدينة تعرف بسوق الأحد » . ثم يحدد ابن حوقل نواحي الموصل ورساتيقها فيذكر من النواحي نينوى والمرج وحزة وباعربايا التي تصاقب بازبدى وتمتد من باعيناثا الى لهرسريا . وذكر الحديثة (حديثة الموصل) باعتبارها تابعة مالياً وادارياً الى الموصل لأن اموالها تجبى بالموصل التي تبعد عنها تسعة فراسخ . (٥) ويذكر بلد التي تبعد عن الموصل سبعة فراسخ فحسب .

ويقول قدامة(٦)تحت عنوان الموصل وأعمالها انها تشمل شهرزور والصامغان ودراباذ « التي كانت من اعمال الموصل ثم أفردت عنها » . ويذكر من أعمال الموصل في الجانب الغربي من دجلة كورة الجزيرة وكورة نينوى وكورة المرج واقليم بعذرى (وترد باعذرا) (٧) وفي

---

(١) في الجبل على الزاب الأكبر .
(٢) أوبيت داسان واقعة غربي الزاب في جنوبي العمادية .
(٣) قردى هي بهنان في شمالي جزيرة ابن عمر . وبازبدى أوبيت زبداي وهي جزيرة ابن عمر .
(٤) صورة الارض ص ١٩٦
(٥) ابن حوقل ص ١٩٨ .
(٦) كتاب الخراج (طبعة بريل) ص ٢٤٥
(٧) ياقوت جـ ١ ص ٤٧٢ .

الجانب الشرقي يذكر الحديثة وحزة وبهدرا والمغله وحبتون والحناية والسا والديبور وداسن(١) . ومن جهة اخرى يجعل قدامة قردى وبازبدى (أوبزبدى) - حيث جبل الجودي - وجزيرة ابن عمر وباسورين خارجة عن أعمال الموصل وليست ضمنها من الناحية الادارية . ويعدد ياقوت أعمال الموصل فيذكر : باعذرا وباعربايا وباعشيقا وبافخارى (من أعمال نينوى وبافكي (من ارض نينوى) وبامردنى وبادشناباوتل خوسا(٢) . أما ابن الفقيه فيذكر من أعمال الموصل المرج وارض بانهدرا وداسن (جبل داسن) وهو من معاقل الأكراد ، والحديثة والطيرهان وتكريت وباجرمق ومرج جهينة ولينوى وباجلى وباعذرا وبانقلى وحزه وبانعاس والمغلة ورامين والحناية وباجرمى وبابغيش والداسن وكفر عزى . وفي العصور العباسية اعتبرت إربل (أربيل) من المناطق الملحقة بالموصل .

لقد اشتهرت من أعمال الموصل برطلى وكرمليس الواقعتان على بعد بضعة اميال شرقيها ، كما اشتهرت باعشيقا التي تقع الى شمالها بمسافة قليلة والتي تعتبر هي وبرطلى من أعمال نينوى ، وكانت كرمليس التي تقع قليلا الى الجنوب قرية كبيرة كالمدينة ذات سوق عامر . وعلى ضفة دجلة الغربية على مقربة من هذه المواضع مرجهينه أو مرج جهينة على طريق الموصل الذاهب الى بغداد(٣) . وجدير بالذكر ان نينوى اشتهرت فى التاريخ الاسلامي بتل توبة الذي يقوم عليه قبر النبي يونس والذي مايزال حتى الآن مزاراً مقدساً لدى المسلمين . وقد اشاد ناصر الدولة الحمداني (وقيل ابنته جميلة) دور استراحة للزائرين والمجاورين

---

(١) قدامة ٢٤٥ .

(٢) معجم البلدان جـ ١ صفحات ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٨٦٧ .

(٣) لسترانج ١١٩ .

=

تحيط بالجامع الذي يسمى باسم النبي يونس، والى جواره شجرة اليقطين التي تنسب اليه (١) .

ترعرعت الموصل على عهد الأمويين فاقام بها حكامهم وبنوا قصورا كثيرة درست آثارها كما فعل هشام بن عبدالملك الذي بنى بها قصرا في موضع قطائع بني وائل (٢) ، والحر بن يوسف الذي تولاها من قبل هشام سنة ١٠٥هـ وبنى بها قصر المنقوشة بين سوق الفنابين وسوق الحشيش، وسميت بالمنقوشة لانها نقشت بالساج والقشاقش واتخذت دار امارة (٣) . ومن اثار الحر نهر المكشوف الذي شق وسط المدينة سنة ١٠٧ ولم يفرغ الامويون من حفر هذا النهر الا في سنة ١٢١ وكلف خزينتهم « ثمانية الف الف الف درهم وجعل عليه ثمانية عشر حجرا تطحن (٤) » .

وفي عهد مروان بن محمد الحقت الموصل بالامصار وافرد لها ديواناً وبنى له فيها قصرا واقام سورها واشاد جسرها على دجلة(٥) . وضمت الموصل في القرن الثاني كثيرا من الاسواق اشهرها سوق الاربعاء وسوق الحشيش وسوق القنابين وسوق الدواب وسوق الداخل وسوق البزازين

= راجع حول هذه المواضع ابن خرداذبة ٩٤ .
قدمة ص ٢٤٥ ، ابن الفقيه ص ١٣١ - ١٣٢ - وكذلك ياقوت معجم البلدان الاطلاع ومراصد تحت هذه الاسماء ..

(١) المقدسي ص ١٤٦ ، ابن حوقل ص ١٤٥ ، ياقوت جـ ١ ص ٨٦٦ ، ٢/ ٧١٠

(٢) الازدي . تاريخ الموصل (مخطوط) ج ٢ ورقة ١٧

(٣) نفس المصدر ج ٢ ورقة ١٧-١٩

(٤) نفس المصدر ج ٢ ورقة ٣٧

(٥) ياقوت . معجم البلدان ج ٤ ص ٦٨٣

وسوق السراجين(١). وهو التقسيم التقليدي للاسواق الاسلامية حسب الاصناف والمهن ٥

وفى العهد العباسي ازدهرت الموصل بعد أن هدأت الفتن واستأصل العباسيون نفوذ الامويين وانصارهم هناك. ففي عهد المنصور قام واليها اسمعيل بن علي باصلاحات عمرانية هامة فقد كانت اسواق الموصل ملاصقة للمسجد الجامع فنقلها الى المقبرة وابعد هذه الى الصحراء وبنى المسجد المعروف بابي حاضر. ووسع المهدي الجامع، فقد كانت هناك حوانيت وسوق للبزازين واخرى للسراجين ومطابخ للعامة فأمر الخليفة بهدم كل ذلك وأدخله فى الجامع. ويقول الازدى أنه قرأ حجرا عشر عليه فى باب الجامع يفيد ان هذه الاصلاحات تمت على يد عامل الموصل موسى بن مصعب سنة ١٦٧هـ(٢) ٥

حين دخلت الموصل تحت حكم الحمدانيين كانت مدينة عامرة زاهرة حوت كورا واعمالا كثيرة منها تكريت وسنجار والطبرهان والسن والحديثة مرج جهينة والمحلبية ونينوى وبارطلى وباهذرا وباعذرا وداقوقا(٣) والكرخ وخانجار وشهرزور حتى امتدت الى حدود اذربيجان. وهذه الكور الاربع الأخيرة تحمل اسماء آرامية ويبدو انها كانت من مواطن النصارى الارامين هناك. وقد نالت الموصل أهميتها من موقعها الحربي والتجاري الممتاز فهي المنفذ الرئيسي:

---

(١) الازدي. تاريخ الموصل (مخطوط) ج ٢ ورقة ١٧ و ٢٤ و ٢١٥

(٢) تاريخ الموصل جـ٢ ورقة ٢١٥

(٣) ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٦٨٣. الازدي. تاريخ الموصل (مخطوط) ج ٢ ورقة ٢٤. (والنسخة المنشورة ص ٣٣)

الى العراق وخراسان واذربيجان(١) . وقد ازدهرت ايما ازدهار ايام الحمدانيين وكثر بها الزرع من نخيل وشجر(٢) كما امتازت باسواقها وفنادقها التي اتخذها التجار مثابة لهم(٣) . واشاد ابن جبير(٤) بابراجها وبيوتها وقلعتها وسورها وكثرة مساجدها وحماماتها وخاناتها واسواقها ومدارسها ومشاهدها المقدسة. ولما زارها ابن بطوطة(٥) في القرن الثامن وجدها مدينة حصينة عامرة كما كانت ايام ابن جبير .

ثانياً : السكان

كان سكان الجزيرة أيام الحمدانيين ـ شأن سكان سواد العراق ـ خليطاً من العرب القاطنين فيها قبل الفتح والفاتحين ، ومن جماعات بشرية أخرى غير عربية وغير مسلمة من أهل البلاد الأصليين . واذا شئنا ان نحدد عناصر سكان الجزيرة فيمكن القول انهم تكونوا من العرب والأكراد والأراميين بالأضافة الى الأرمن الذين سكنوا في أرمينية في المنطقة الواقعة الى شمال دجلة والفرات .

١ـ : العرب : كون العرب أغلب سكان الجزيرة وكانوا القوة الرئيسة المحركة للأحداث السياسية . ولعل خير دليل على نفوذ العرب هناك انهم استطاعوا إقامة دويلات مستقلة عملياً وان كانت تعترف ـ من الناحية النظرية ـ بسلطة الخليفة العباسي، أهمها الدولة الحمدانية التي أقامتها قبيلة

---

(١) ياقوت . معجم البلدان ٦٨٣/٤ .

(٢) ابن حوقل . صورة الأرض ٢١٤

(٣) المقدسي . أحسن التقاسيم ص ١٣٨ـ١٣٩

(٤) رحلة ابن جبير ص ١٨٧

(٥) رحلة ابن بطوطه ١٤٨/١

لقلب الربعية ، والدولة العقيلية التي أقامها بنو عقيل المضربون (٣٨٦ ـ ٤٨٩) بعد زوال النفوذ الحمداني من الجزيرة . ومن الواضح ان قيام هاتين الدولتين على أيدي العـــرب العدنانيين انما يقف دليلا ليس على نفوذ العرب وقوتهم فحسب ، بل وعلى ضخامة اعدادهم التي أتاحت لهم تكوين جيوش قوية (من العرب وغير العرب) سيطرت على تلك الأصقاع الوعرة وحمت الحدود ودفعت خطر الروم وجابهت الحركات المحلية العديدة ، وبخاصة حركات الأكراد ذوي القوة والبأس والقدرة على خوض الحـروب الجبلية ، وكذلك حركات القبائل العربية المعادية لهـم :

كان عرب الجـــزيرة مزيجاً من قبائل مضـــر وربيعة العـــدنانيين ومجموعات قبلية اخـــرى ـ عدنانية وقحطانية ـ استقرت هناك نتيجة هجرات متتابعة فى فترات زمنية مختلفة قبل الاسلام بعدة قرون(١) . لقد أطلقت المراجـــع الفارسية على منطقة نصيبين وما حولها أســـم (عربستان) أي بلاد العرب ، على حين أطلق سترابو أسـم بلاد العرب على منطقة الجـــزيرة الواقعـة جنوبي المنطقة الكردية والتي تمتد حتى الصحـراء . ويبدو ان سمعة هؤلاء العـرب التجارية كانت عالية بدليل انهم احتكروا تسيير القوافل من سورية الى العـــراق تحت حماية أمراء منهم من ذوي الســـطوة والبأس فرضوا نفوذهم وهيبتهم على طول

---

(١) يقول المسعودي (مروج الذهب ١/١٤٥) طبعة مصر سنة ١٣٤٦هـ :
كانت ملوك العرب ـ أيام الاسكندر المقدوني ـ من مضر بن نزار بن معد وربيعة بن نزار وانمار بن نزار والنضرية من بني نضر من اليمن وغيرهم من قحطان اهم ملوك ، وقد نصبت كل طائفة لها ملكاً .

الطريق المحاذي لدجلة(١) :

ويبدو من تتبع تاريخ امارة الحضر Hatra (حطرا أو حطارا) التي ما زالت آثارها شاخصة في منخفض من بادية جزيرة العراق على مقربة من الضفة الغربية لوادي الثرثار بين تكريت والموصل، ان العرب عاشوا هناك منذ سقوط دولة الآشوريين في سنة ٦١٢ قبل الميلاد وأنهم أقاموا سلالة حاكمة . ان وجود آلهة عربية عبدت في الحضر أيام الآشوريين الى جانب الآلهة الآشورية أتى بها العرب من جزيرتهم كاللات وشمش يقف دليلا على وجود العرب في المنطقة قبل الميلاد بقرون . لقد حكمت في الحضر سلالة عربية مدة ثلاثة قرون وكان أول حكامها أميراً عربياً أسمه سنطروق ورد ذكره في كتابة اكتشفت هناك نصت على ان اباه يدعى نصر وان لقبه (ملك العرب)(٢) ، ويبدو ان حكام هذه الامارة كانوا من قبيلة قضاعة(٣) ، ثم اعقبتها في أيام الغرتين امارة أرامية حكمت تحت حماية الرومان خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد تلقب امراؤها بلقب (فيلارك) الروماني وتدل اسماؤهم على انهم من العرب(٤) . واذا رجعنا الى المراجع العربية نجد ذكر الحضر وحكامها العرب يرد في اكثر من مرجع ثقة ، على الرغم من ان اخبارها

---

(١) Moret, His. de L'orient Vol. I, p, 302
لسترانج « بالعربية » ص ١٢٩ .

(٢) انظر Cteiphon and Htra (Bachdad) 1965
سليمان صائغ ص ٣٠ . الحضر (نشرة لمديرية الاثار العامة) بغداد

(٣) الطبري ٤٨٤/١ . ابن خلدون ١٧١/٢ و ٢٤٩/٢

(٤) Honigmann, E.I Vol. 3, p. 1062

لختلط بالأسطورة : يقول ياقوت(١) : « ان بني قضاعة لما افترقوا سارت قبيلة منهم - ولعل المقصود هنا بنو ضجعم - الى أرض الجزيرة وعليهم ملك يقال له الضيزن بن جلهمة أحد الاحلاف فنزلوا مدينة الحضر » . ويقول الطبري(٢) : ان الضيزن كان يلقب بالساطرون وهو من الجرامقة ، وان العرب تسميه الضيزن من أهل باجرمى . ثم يروي الطبري عن هشام بن الكلبي ان الضيزن من العرب من قضاعة(٣) وانه ملك أرض الجزيرة وامتد نفوذه الى الشام . وظل الضيزن على عرشه حتى نشب عداء بينه وبين سابور بن اردشير ملك الساسانيين أسفر عن مقتل الضيزن وسقوط امارة الحضر العربية بيد الساسانيين وتشتت قضاعة . وبني حلوان ممن كانوا في الحضر(٤) . والمهم في النص الذي أورده الطبري وجود رأيين متعارضين يجعل احدهما الضيزن من الجرامقة اي الأراميين وانه من اهل باجرمى اي بيت كرماي(٥) ، ويجعل ثانيهما الضيزن من عرب قضاعة . واذا شئنا ان نناقش هذين الرأيين على ضوء المعلومات التاريخية المتوفرة بين ايدينا نجد ان الطبري خلط بين أصل الضيزن وهو من قضاعة العرب وبين لقبه الذي اضفاه عليه الأراميون فسموه بالساطرون ، ومن هنا يكون ابن خلدون اكثر دقة حين قال(٦)

---

(١) معجم البلدان ٣٧/٢

(٢) الامم والملوك ٤٨٣/١ « مصر »

(٣) نفس المصدر والمكان .

(٤) نفس المصدر ٤٨٤/١-٤٨٥

(٥) اي كركوك وما يجاورها .

٦) العبر ٢٤٩/٢

ان الضيزن كان معروفاً عند الجرامقة بالساطرون . ولا يهمنا اثبات نسب الضيزن بقدر ما يهمنا تأكيد حقيقة أساسية هي وجود قبائل قضاعة وبني حلوان مع الضيزن في الحضر يوم حاصرها سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م) . ومن جهة اخرى فلعل المؤرخين - وفيهم الطبري - قد خلطوا بين بني الأجرام العرب القضاعيين الذين هاجروا الى الحضر ابان النصف الاول من القرن الثالث وبين الجرامقة وهم من الأراميين . وقد ذكر المؤرخون العرب « بني عبيد بن الأجرام » وقبائل قضاعة مع الضيزن اثناء صراعه مع الفرس(١) .

غير ان اضخم هجرة عربية الى الجزيرة العراقية هي تلك التي حدثت في القرن السابع الميلادي ، على اثر الحروب والوقائع الطاحنة المريرة بين المجموعات القبلية العدنانية في شمالي جزيرة العرب ذاتها وهي الوقائع التي تدعى بأيام العرب . وتفصيل الأمر ان ربيعة العدنانية - واكبر قبائلها بكر وتغلب - بعد أن خرجت على سلطة اليمن في اواخر القرن الخامس الميلادي وخلعت طاعتها ، وبدا انها أصبحت زعيمة قائدة لقبائل معد من قضاعة ومضر وأياد ونزار بدأت بينها وبين حلفائها من القبائل الاخرى ، وبين بطونها هي نفسها وقائع وحروب أدت الى كثير من المآسي(٢) . اما الذي يهمنا هنا فهو ما أعقب ذلك من هجرات قبلية ضخمة الى الجزيرة هي التي اعطتها تكوينها البشري النهائي وأسماء مناطقها الجغرافية(٣) . فالحروب التي جرت بين بكر وتغلب (من

---

(١) الطبري ١٨٤/١ ، الاغاني ٣٧/٢ ، ١٦٢/١١

(٢) انظر ابن الاثير ٢٩٥/١ و ٢٣٧ و ٢٤٢ الاغاني ٣/٣ العقد الفريد ٣٤٢/٣

(٣) ديار ربيعه ، وديار مضر ، وديار بكر (انظر الفصل الجغرافي) .

قبائل ربيعة) . واهمها حرب البسوس(١) . والوقائع التي جرت بين شيبان وتغلب (من ربيعة) ، والتي جرت بين قبائل ربيعة ومضر ، وبين قبائل مضر ذاتها ـ وبخاصة حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ـ كل ذلك ادى الى هجرات متتالية الى الأراضي المجاورة ومنها الجزيرة ـ أي بلاد ما بين النهرين ـ بسبب البحث عن أرض جديدة وعيش اكثر رخاء . ومن ثم فأن السبب الأساسي في قدوم هذه الموجات البشرية العربية الى الأراضي الخصبة المجاورة ، انما كان زيادة السكان في شبه الجزيرة العربية ـ مع شحة مواردها ورزقها . وهذه هي الدوافع التي دفعت بالكتل البشرية الزائدة الى الهجرة بحثاً عن أرض جديدة تضمن لهم البقاء .

واذا أردنا ان نتعقب هجرة هذه القبائل العدنانية فاننا نجد انها تحركت أول الأمر من مواضعها في شبه الجزيرة العربية على النحو التالي : نجدان ثلاث بطون من ربيعة تترك مواضعها في تهامة والحجاز ونجد وهي تغلب بن وائل ونمير بن قاسط وشيبان بن بكر بن وائل اخ تغلب (أي انهم من البكريين) . واستقر هؤلاء جميعاً على حدود مملكة اللخميين في الحيرة ، حيث جرت وقائع الفتح الاسلامي أول ما جرت ، على حين استوطنت جماعات منهم بين الكوفة والبصرة . ونجد ان تهامة تضيق عن أنمار(٢). بعد حرب بينها وبين مضر فتنزح عن مواطنها ، ثم نزحت إياد(٣). بعد حرب مع ربيعة ومضر فتنزل

---

(١) حرب البسوس من أيام العرب بين بكر وتغلب .

(٢) ولد نزار بن معد بن عدنان هم مضر وربيعة وإياد وقيل وانمار ، جمهرة انساب العرب ص ١٠ .

(٣) اياد بن معد بن عدنان (بن حزم ، الجمهرة ص ٩ .)

بعضهم تكريت وبعضهم الجزيرة وأرض الموصل(١)، حيث سبقهم اقربـائهم من بكر بن وائل وغيرهم . ولم يبق من بني معد في تهامة من القبائل الكبرى إلا ربيعة ومضر فنزحت ربيعة بسبب وقائع بين قبائلها(٢). فتفرقت في ظواهر نجد والحجاز والبحرين وهجر وبلاد اليمن . وبعدحرب حاسمة بين بكر وتغلب هزمت هذه الاخيرة التي طالما كانت متزعمة على قبائل ربيعة وبيدها لواؤها ، فتفرقت في الاصقاع فانحازت النمر وغفيلة الى اطراف الجزيرة وعانات ومادونها الى بلاد بكر بن وائل وماخلفها من بلاد قضاعة(٣). على حين انتشرت بكر بن وائل في مناطق كثيرة واستقرت بعض بطونها في الجزيرة . وبعد خروج ربيعة ظلت مضر وحدها في مناز لها بتهامة حتى كثرت اعدادها وضاقت بهم مساكنهم فخرجوا يبحثون عن أرض جديدة والقتال في اثناء ذلك يزداد حدة بين قبائلها وبطونها. والذي يهمنا ان بعض قبائل مضر استقرت في الجزيرة العراقية ومنها نمير وعقيل وقشير وتميم وعمرو بن مالك وسليم وغيرهم (٤) .

ولدى تتبع اخبار الفتوح الإسلامية في العراق نسمع عن بني شيبان بن بكر بن وائل الذين قادهم المثنى بن حارثة الشيباني ضد الفرس بعد أن

---

(١) البكري ص ٧ .

(٢) بخاصة بين بكر وتغلب .

(٣) بلاد قضاعة : كانت مساكن قضاعة ومراعي اغنامهم جدة من شاطئ البحر الاحمر فما دونها شرقاً الى منتهى ذات عرق وهي الحد بين نجد وتهامة الى حيز الحرم من السهل والجبل .

(٤) مضر بن معد بن عدنان وقد اقامت في حيز الحرم الى السروات وما دونها من الغور وماوالاها من البلاد . على حين اقامت ربيعة في مهبط الجبل من غمر ذي كندة [بينه وبين مكة مسيرة يومين] وبطن ذات عرق وماصاقبها من بلاد نجد الى الغور من تهامة (انظر الهمداني والبكري وكحالة حول هذه المواضع) .

دخلوا الأسلام(١) ، على حين كانت جماعة أخرى من بكر بن وائل في البصرة ايام الفتح في عهـد أبي بكر(٢) . ويذكر البلاذري(٣) ، كذلك الأزد (اليمانية)، وبني شيبان وطيء (اليمانية) والعدسيين (من كلب) في الحيرة . ونجد في الفترة نفسها قوماً من كلب وبكر بن وائل وطوائف من قضاعة فوق الانبار(٤) . وخلال وقائع الفتح الاولى نجد بني تغلب تعيش قرب عين التمر على ماء سمي باسمها ، حيث ارسل القائد خالد بن الوليد سرية طرقتهم ليلا(٥) . والطريف في الأمر هنا ان اسيراً من بني تغلب دل المسلمين على حي لربيعة دهمه المسلمون(٦) . ونستدل من بيت من الشعر أورده البلاذري(٧) ، انه كانت لبكر وقضاعة أحياء «بالسوق الذي فوق الأنبار» غير بعيد عن مساكن بني تغلب .

صبحنا بالكتائب حي بكر وحياً من قضاعة غير ميل

كما اننا نجد مجموعات مضـرية وبصورة خاصة من القيسيين عند الفرات على حدود بادية الشام .

لقد تم فتح الجزيرة العراقية في عهد الخـليفة عمر بن الخطاب على يد القائد عياض بن غنم الذي فتح الرقة وحران والرها ونصيبين وأرزن

---

(١) البلاذري . فتوح البلدان ص٢٥٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص٢٥٠ .

(٣) نفس المصدر ص٢٥٢ .

(٤) يقول البلاذري ص٢٥٥ انها سميت بالأنبار لان أهراء العجم [المخازن] كانت بها .

(٥) البلاذري ص٢٥٧ .

(٦) نفس المصدر والمكان .

(٧) نفس المصدر ص ٢٥٨ .

وسنجار وميافارقين وقرقيسيا وقسرى الفرات ومدائنها وطور عابدين وكفرتوثا وماردين ودارا وقردى وبازبدى في سنة ١٩ هجرية . «وقد افتتح عياض الجزيرة ومدائنها صلحاً وارضها عنوة»(١). والذي يهمنا هو الحالة البشرية عند فتح الجزيرة على أيدي المسلمين . اننا نجد عن طريق البلاذري(٢) ان اهل الرها كانوا من النصارى على وجه العموم، وكان حول الرقة العرب وفي داخلها جالية كبيرة من النصارى . أما حران فكانت مدينة الصابئين منذ القدم وقد صولحوا عند الفتح بما صولح عليه نصارى الرها . اما سنجار فيقول البلاذري(٣) انها كانت في أيدي الروم ثم ان كسرى ابرويز نقل اليها مجموعة من الفرس ساهمت في فتحها على عهده واقامت هناك وتناسلت، وحين فتحها عياض أسكن بها جماعة من العرب .

وشهدت الجزيرة هجرة عربية أخرى واسعة بعد توطد الدولة العربية الاسلامية وبخاصة منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان حيث انتقل الى الموصل اقوام من الأزد وطي وكنده وعبد القيس(٤) ، على حين قام معاوية إبان ولايته الشام في عهد عثمان باسكان مجموعات ضخمة من القبائل العربية هنا وهناك في انحاء الجزيرة والشام ، فأنزل المازحين والمديبر أخلاطا من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك في جميع نواحي

---

(١) نفس المصدر ص ١٨٣ .

(٢) نفس المصدر ١٨٠ - ١٨٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٥ .

(٤) سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ص ٥١ ومابعدها .

ديار مضر ، ورتب ربيعة في ديارهـا على ذلك(١) وفي أيام ولاية مروان بن محمد الموصل (١٠٢ هـ = ٧٢٠م) زادت هجرة القبائل العربية الى هذه المدينة وما حولها فاستقر بها الأزد وشيبان وسلول وخزرج والامويون وغيرهم(٢) .

نستطيع القول انالجزيرة تمتعتأيام الحمدانيين بغالبية من السكان العرب تأتي في مقدمتهم تغلب . وقد هاجرت تغلب من بلاد العربكما أشرنا واستقرت بعد تجوال طويل في أرض الجزيرة ، على حين استقر فرع أخر منها في الشام(٣). ويقال أن عمرو بن هند هو الذي قدم ببني تغلب من جزيرة العرب وأمر أن يضرب رواقسه فيما بين الحيرة والفرات(٤). وظلت تغلب تقوم بدور كبير في تاريخ الجزيرة ، حتى أتيح لبني حمدان - وهم بيت من بيوتها - أن ينشئوا دولتهم هناك خلال القرن الرابع الهجري . والحق ان تغلب كانت تسكن في ديار ربيعة وتنتشر بعض بطونها في منطقة الخابور ، على حين كانت نصيبين دار آل حمدان كما يقول الهمداني(٥) .

ومنالقبائل ذات الشأنفي تاريخ الجزيرةبنو شيبان ، الذين ساهموا

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ١٨٥ .

(٢) انظر الأزدي (مواضع مختلفة) .

Kindermann E.I. Supp. P 223 (٣)

Freytag Zdmg. Vol. XI P. 436 (٤)

(٥) صفة جزيرة العرب ١٣٢ .

في الاحداث السياسية بصورة فعالة في اواخر القرن الثالث وحالفوا العباسيين ضد الخوارج تارة ، وظهر فيهم خوارج ذوو بأس تارة أخرى .

ويقول ابن حوقل(١) : ان بني شيبان اتخذوا من المنطقة التي تقع بين الزابين مصايف لهم في الشتاء ، خاصة وان هذه المنطقة اشتهرت بمراعيها الصالحة الكثيرة وضياعها العامرة واستوطن بنو شيبان كذلك في البوازيج التي تبعد اربعة فراسخ عن مدينة السن (على الزاب الأسفل) اما الهمداني(٢) فقد وسع دائرة سكنى بني شيبان فجعلها تمتد من أول ديار بكر - أي من جبل طور عابدين - حتى حدود ولاية خرسان « لا يشاركهم في سكناها الا الأكراد » .

لقد وزع الهمداني(٣) القبائل العربية في أقليم الجزيرة ابان القرن الرابع على هذا النحو : الرافقة على الفرات يسكنها أخلاط من مضر وحران للصابئة وحولها يقيم بنو تميم ومن يخالطها من بني سليم ، وهؤلاء (أي بنو سليم) اقاموا كذلك في الرها التي اشتهرت - كما أسلفنا - بأنها موطن نصراني عريق . أما منطقة الخابور فكانت لبني عقيل أعلاه لبني مالك وبني حبيب وبطون تغلب الباقي ، أي أن قبيلة تغلب شغلت الجزءين الاوسط والادنى على حين شغلت الجزء الأعلى منه بنو عقيل وأما مدينة رأس العين - وهي أخر ديار مضر - فكانت مساكن

---

(١) صورة الأرض ٢٠٥

(٢) صفة جزيرة العرب ١٣٣

(٣) نفس المصدر والمكان .

للنمر بن قاسط . وأقامت جشم في كفرتوثا في ديار ربيعة ، على حين كانت نصيبين « دار آل حمدان ابن حمدون موالي تغلب (١) . وكان جبل سنجار لشراة بني تغلب وهم بنو زهير و بنو عمرو ، وبرقعيد ديار بني عبد من تغلب . وفي المنطقة الممتدة من برقعيد حتى بلد عاش الشراة وغيرهم حتى الموصل . أما من الموصل فيقول الهمداني ٢)ان اكثر اهلها مذحج «وهي من ربيعة» وهذا خطأ فالواقع ان مذجح (أو مذحج)من القبائل القحطانية اليمانية ويستطرد الهمداني قائلا(٣) : ان جبل الجودي الى يسار الموصل كانت فيه مساكن لربيعة، وخلفه يعيش الأكراد وخلف الأكراد يقيم الأرمن . والى يمين الموصل باتجاه بغداد تقع الحديثة (أي حديثة الموصل) وجبل بارما (حمرين)ثم السن والبوازيج وهي بلاد الشراة من ربيعة . وكان بنو شيبان - كما أسلفنا - في جبل طور عابدين يحيون جنباً الى جنب مع الأكراد .

واذا رجعنا الى ابن حوقل(٤). الذي كتب مؤلفه في القرن الرابع الهجري أي في عصر بني حمدان نجده يحدد مواضع القبائل في الجزيرة على هذا النحو : كانت الموصل تحتوي على أحياء كثيرة لقبائل ربيعة ومضر واليمن، وبيوت لذوي اليسار من بني فهد وبني عمران من وجوه الأزد واشراف اليمن وبني شحاج وبني اود وبني زبيد وبني الجارود وبني ابي خداش والصداميين والعمريين وبني هشام وغيرهم . وكانت

---

(١) صفة جزيرة العرب ١٣٣ .

(٢) نفس المصدر والمكان .

(٣) نفس المصدر والمكان .

(٤) صورة الأرض ١٩٥ .

كفر عزى - وهي في أرض حزة من رساتيق الموصل - مثابة للأعراب الرحل يمتارون منها وينزل في نواحيها الأكراد(١) .

اما براري الجزيرة فكانت مراعي لقبائل ربعية ومضرية « أهـل خيل وغنم وأبل»(٢) . يبـدو انهم كانوا مزيجاً من البدو والحضر وكانت لهم صلات وطيدة مع بطون من قيس عيـلان مثل بني قشير ونمير وكلاب(٣). الـذين لم يلبثوا أن ازاحوهـم عن اكثر ديارهم فملكوا حران وجسر منبج والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسـيا والرحبة(٤) . وقد أسلفنا القول ان منطقة مابين الزابين اتخذ منهـا بنو شيبان مصائف لهم على حين اتخذها الأكـراد الهذبانية مشـاتي لهم(٥) . وفي المنطقة التي تقع قرب سنجار بين شماليها وغربيها نجد وادي الحيال من أودية ديار ربيعـة الشهيرة بخصبها ، وقد عاش فيه بنو قشير ونمير وعقيل وكلاب . أما برتعيد فقد سكنها بنو حبيب وهم قوم من تغلب يمتون بصلة القرابة الى بني حمدان(٦) .

لقد كون العرب كما أسلفنا غالبية سكان الموصل ، فقد كان الفاتحون من تغلب وأياد والنمر ، ثـم نزحت اليها بعد الفتح الخزرج والأزد وتميم وتغلب وشـيبان وسليمى . وازدادت هجرة القبائل الى تلك

---

(١) نفس المصدر ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر ٢٠٥ .

(٣) نفس المصدر والمكان .

(٤) نفس المصدر والمكان .

(٥) نفس المصدر والمكان .

(٦) نفس المصدر ١٩٩ .

المدينة وتعاظمت منذ خلافة عثمان فجاءت الأزد وطيىء وعبد القيس وكندة وغيرها على نحو أصبحت معه الموصل ذات اغلبية عربية «أهلها عرب ولهم بها خطط واكثرهم ناقلة البصرة والكوفة» (١). وفي اواخر العصر الاموي زادت هجرة القبائل الى هذه المدينة واستقر بها الأزد وسلول والخزرج والامويون وغيرهم. وهكذا نجد ان سكان الموصل العرب كانوا مزيجاً من القبائل العدنانية والقحطانية. وجدير بالذكر ان هذه القبائل - بالأضافة الى تلك التي استقرت في الموصل قبل الفتح - انما جاءت على شكل هجرات متتالية، فوصلت المجموعة الاولى في سنة ١٦هـ (٦٣٧م) مكونة جيش الفتح، ثم وصل الخزرج في سنة ٢٠هـ وتلاهم الأزد الذين سكنوا قرب الجامع الاموي(٢)، وتميم التي تركت لهجتها في لغة أهل الموصل(٣). ثم بطون اخرى جديدة من تغلب التي سكنت قرب باب العراق في محلة التغالبة(٤). وشيبان الذين استقروا في الربض الأعلى. والحق ان هذه الهجرات كانت قد جاءت الى الموصل من مناطق الجزيرة الاخرى او من المناطق الاخرى غير البعيدة(٥).

وقد زودنا ابو زكريا الأزدي(٦)، بمعلومات قيمة للغاية عن

---

(١) ابن حوقل ١٩٥

(٢) انظر سليمان صائغ، تاريخ الموصل ٥١ وما بعدها. سعيد الديوه‌جي، الموصل ٥-٦

(٣) تاريخ الموصل ٥١

(٤) نفس المصدر ٥٢

(٥) انظر ابن الاثير ٢٥٨/٢ حول اليهود والمجوس في الموصل

(٦) تاريخ الموصل «مخطوط» المجلد ٢ ورقة ٨٠-٨٧ ومواضع مختلفة «وقد نشر الكتاب بتحقيق الدكتور حبيبة سنة ١٩٦٧»

خطط الموصل في القرن الثاني الهجري وعدد قبائلها وبيوتها بعد ان استقر تكوينها البشـري ايام العباسيين : فنجد سايمى ـ أو سايمة ـ ومنازلهم باب سنجار حيث مسجدهم وخططهـم(١) . وسليمة هو بن مالك بن فهم وله ـأي سايمةـ من الولد ـ كما قيل ـ خمسة عشر والداً منهم كلاب وغنم ومحاسن(٢) . ومحاسن بن مالك بن فهـم كان من ولده بنو جابر ومنهم بنو عمران الموصليون . ويبدو ان جابر بن جبلة هو أول من اقام فى الموصـل من سايمة وكان له فى الســكة الكبيرة ـ على حـد قول الأزدي ـ(٣) مسجد وزقاق باسمه .

واذا رجعنا الى الأزدي نجد ان عديداً من القبائل والبطون العربية استقرت فى الموصل ، فى الوقت الذي وضع فيه مؤلفه إبان القرن الرابع الهجري . فهناك بنو وائل (بن الشخاج الأزدي) الذين كانت لهم قطائع فى الربض الأسفل من المدينة . ووائل بن الشخاج الأزدي هذا من أنصار العباسيين الأول فأقطعوه القطيعة التي سميت باسمه فى الموصل (٤) . ومن هؤلاء السلميين نسمع عن جماع بن أحمـد السليمي صاحب سكة جماع بالموصل والذي كان له موالي هم بنو ابي السرداج ، وبالموصل من سايمة كذلك بنو الحشاش من ولد عبد بن سليمة الذين أقاموا فى السكة الكبيرة كذلك . وعاش فى الموصل من أخوة سليمة معن بن مالك الذين شاركوا

---

(١) الأزدى . تاريخ الموصل (تحقيق د . علي حبيبة . القاهرة) ص ٨٧

(٢) المصدر السابق ١٠١

(٣) المصدر السابق ١١٣

(٤) نفس المصدر ٢٤

بني سليمة مساكنهم في باب سنجار(١) ويبدو ان نفوذ آل معن بن مالك امتد من الموصل حتى باغ وادي الثرثار ـ بين سنجار وتكريت ـ فكانت لهم هناك خطط وضياع منها تل خوسا التي تقع قرب الزاب بين إربل (أربيل) والموصل(٢) .

ومن سليمة في الموصل آل الرواد الذين دفعت بهم مطامحهم إلى اذربيجان حتى استولوا على كورة من كورها . ومن اخوتهم كذلك فراهيد بن مالك الذين قدموا الموصل وعاش بها منهم رهط ، وعمرو بن مالك الذين يقول عنهم الأزدي(٣) انهم عاشوا في الموصل ثم انقرضوا . ونحن لا نملك في تفسير سبب هذا الانقراض الا القول بانهم أبيدوا في المعارك والحروب التي ملأت تاريخ تلك الحقبة، أو انهم كانوا جماعة صغيرة رحلت عن الموصل لسبب من الأسباب أو اندمجت في عصبية أقوى منها وأقدر على الدفاع عن نفسها وتأمين اسباب بقائها ؛ ونجد من ولد مالك بن فهم وولد عدي بن عمرو بن مالك بني ثوبان ، الذين قدموا من البصرة فنزلوا حول الموصل في ثرثار وسفطا وبحواثا والعروبة من اقاليم الديبور(٤) . ومن بني مالك بن فهم في الموصل العقا بن الحارث بن مالك بن فهم الذين سكنوا في قرى الزاب، واخوتهم الأشاقر ، والحمام من ولد مالك بن فهم الذين قدموا اليها من عمان ، في حين اقامت جماعة منهم في البصرة ، وكانت لهم في الموصل ضيعة تعرف بالحميمة(٥) .

---

(١) نفس المصدر ٩١-٩٢

(٢) ياقوت ٢/٤٠٥

(٣) تاريخ الموصل ٩٢-٩٣

(٤) الديبور : كورة تابعة للموصل ، قدامة ٢٤٥ .

(٥) الأزدي ٩٥

وهكذا يمكن ايجاز التكوين البشري للموصل العربية على هذا النحو:
كانت أولى القبائل التي وصلت الى الموصل عند الفتح الاسلامي واستقرت فيها تغلب وأياد والنمر (من القبائل العدنانية) ثم وصلتها الأزد وطي وكندة (من القبائل القحطانية او اليمانية) وعبدالقيس (من القبائل العدنانية). وفي العهد الاموي زادت هجرة القبائل فجاء المزيد من الأزد وبني شيبان وسلول والخزرج (من الأزد)(١)، فضلا عن بني تميم ذوي التأثير الواضح في تاريخ الجزيرة.

غير ان تغلب ذات الصولة والجولة في احداث الجاهلية في شبه جزيرة العرب ظلت تلعب دورها في تاريخ الجزيرة والموصل وتؤثر تأثيرها العميق في احداث العصر حتى اتيح لها ان تقيم دولة الحمدانيين. ولم تقتصر سكنى تغلب على الموصل بل ان بطونها وفروعها انتشرت في اصقاع الجزيرة، فنجدها في نصيبين ورقعيد وفي المناطق المحيطة بالموصل وفي كثير من مدن الجزيرة.

ومن الجدير بالذكر ان هذه القبائل التي نقلت مساكنها من موطنها الاصلي في شبه الجزيرة العربية الى أرض الجزيرة العراقية، نقلت معها كل تراثها من تقاليد وعادات وثقافة وظلت هذه التقاليد الموروثة تلعب دورها في المجتمع الجديد، بحيث نجد العصبية القبلية تظل تصاحب القبائل وتؤجج نيران الثأر فيها كلما دعاها داع الى الاحتكاك. ففي عام ١٩٨ هـ كانت وقعة معروفة بين اليمانية والنزارية (أي بين عرب الشمال وعرب الجنوب)، فضلا عن ان بعض الولاة كانوا يتعصبون لهؤلاء دون اولئك والعكس يصح(٢).

---

(١) انظر الازدي، تاريخ الموصل مواضع مختلفة.
(٢) المصدر السابق ٢٥٣ و ٢٦٨ ومواضع اخرى.

٢ـ الأكـــراد

كانت الجزيرة موطن الأكراد منذ القدم ، وقد كونوا عنصراً بشرياً هاماً من عناصر سكانها اشتهروا بقوة ابدانهم وشدة بأسهم وقدرتهم الحربية التي اكتسبوها من طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة . وتقع بلاد الأكراد أو « كور دوئين » بين منابع الزاب الكبير ودجلة . وفي العهود الإسلامية كانت هذه البلادتعني اقاليم متفرقة تنتشر في الجزيرة وحلوان والجبال وأرمينيةوبلاد الروم (١) .وقد استقر في هذه الاقاليم منذعصور سحيقة اقوام جاءت من جبال زاجروس اعتبرهم مينورسكي(٢) من الأيرانيين القدماء . ثم نزحت اليها اقوام هندو ـ أوربية تغلبت عليها فأصبح سكانها جميعهم من الأريين (٣) . وكان الأكراد قبل ظهور الإسلام يدينون بالعقيدة الزرادشتية التي ظهرت في فارس وميديا ، فلما ظهر الإسلام وانتشر في تلك الأصقاع بتأثير الفتح اعتنقه الأكراد وأخلصوا له واندمجوا في المجتمع الإسلامي الكبير الذي ضم عديداً من الأجناس والأقوام . وقد قام الأكراد بدور فعال في جميع الثورات والأحداث الكبرى التي شهدتها تلك المنطقة وبخاصة في القرون الخمسة الاولى بعد الهجرة(٤) .

تذكر المراجع العربية أسماء القبائل الكردية ذات الاهمية في احداث العصر الحمداني ومنهم الاكراد الهذبانية والحميدية واللارية الذين كانوا

---

(١) محمد امين زكي ، خلاصة تاريخ الكرد والكردستان ٦٤
(٢) E . I . VoL. 2 , p . 1196 (طبعة باريس بالفرنسية ١٩٢٧) .
(٣) محمد أمين زكي ، خلاصة تاريخ الكرد والكردستان ٦٤
(٤) E . I . VoL . 2 , p 1198 (الطبعة الفرنسية)

يعيشون في منطقة الموصل وما حولها حيث كانت لهم في المدينة احياء وفي خارجها مناجع للرعي(١). ويذكر ابن حوقل(٢) ايضاً ان الاكراد كانوا ينزلون في نواحي كفر عزى - في أرض حزة من أعمال الموصل. وكانت المناطق الواقعة بين الزابين تتميز بمراعيها الكثيرة وضياعها العامرة وقد اتخذها الاكراد الهذبانية مشاتي لهم في فصل الشتاء(٣). ويذكر الهمداني(٤) ان الاكراد سكنوا خلف جبل الجودي الذي يقع الى يسار الموصل، وامتدت بلادهم الى حدود أرمينية.

اختلف المؤرخون في أصل الاكراد فنسبهم المؤرخون العرب الى أصل عربي. يقول المسعودي(٥): « فالاشهر عند الناس والاصح في انسابهم - أي الاكراد - انهم من ربيعة بن نزار. فأما نوع من الاكراد وهم الشوهجان ببلاد ماهي الكوفة والبصرة وفي أرض الدينور وهمدان فلا تناكر بينهم أنهم من ربيعة بن نزار بن معد والماجردان وهم من الكنكور ببلاد اذربيجان والهذبانية والسراة ومن حوى بلاد الجبال من الشادنجان واللزبة والمادنجان والمزدنكان والبارسان والخالية والجابارقية والجاوانية والمستكان ومن حل ببلاد الشام من الدبابلة وغيرهم فالاشهر فيهم انهم من مضر بن نزار ومنهم اليعقوبية والجورقان وهم نصارى وديارهم مما يلي بلاد الموصل وجبل الجودي ». وقبل ان نناقش رأي المسعودي في اصل الاكراد، نود ان نلفت نظر القارئ الى المعلومات

---

(١) ابن حوقل، صورة الارض ١٩٥.
(٢) نفس المصدر ١٩٦.
(٣) نفس المصدر ٢٠٥.
(٤) صفة جزيرة العرب ١٣٢ (مصر ١٩٥٣).
(٥) مروج الذهب ٢٥٣/٣-٢٥٤ (طبعة باريس).

القيمة التي تضمنها هذا النص فيما يتعلق بتعداد القبائل الكردية وتوزيع مواضعها ومساكنها جغرافياً . وفي نص آخر يتحدث المسعودي(١) عن الاكراد فيقول « فأما اجناس الاكراد وانواعهم فقد تنازع الناس في بدئهم ، فنهم من رأي انهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بن بكر بن وائل انفردوا في قديم الزمان وانضافوا الى الجبال والأودية الاحوال دعتهم الى ذلك وجاوروا من هناك من الامم الساكنة المدن والعمائر من الاعاجم والفرس فحالوا عن لسانهم وصارت لغتهم اعجمية... ولكل نوع من الاكراد لهم لغة بالكردية ومن الناس من رأى انهم من مضر بن نزار وانهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن ، وانهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع كانت بينهم وبين غسان ومنهم من رأى انهم من ربيعة ومضر اعتصموا بالجبال طلباً للمياه والمراعي فمالوا عن اللغة العربية لمن جاورهم من الامم » . هذان النصان للمسعودي يردان أصل الاكراد الى العرب ، امـا ابو الفـدا(٢) فيقول عن الاكراد أنهم طائفة من الفرس ومنازلهم جبال شهرزور « وقيل ان الكرد من العرب ثم تنبطوا(٣) وقيل انهم أعراب العجم » .

غير ان الدراسات الحديثة تذهب الى ان الاكراد ـ على الرغم من غموض أصلهم الجنسي ـ ينتمون الى الشعوب الهندو ـ أوربية . وقد اطلق اسم الكرد على الاقوام التي قطنت عبر جبال زاجروس والامتداد الشرقي لجبال طوروس(٤) وذكر بوليبيوس (٢٠٠ ـ ١٢٠ ق . م) ومن

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٤٩ـ٢٥٠ (طبعة باريس) .
(٢) المختصر في أخبار البشر ١٠٤/١ (بيروت)
(٣) تنبطوا أي اصبحوا من النبط .
Encyc . Brit Vol . 13 P . 514 (٤)

بعده سترابو وليني شعباً باسم Kurtioi او Cyrtii الذي قد يعني الاكراد . وربما كان الـ Kardooucho الذين هاجموا زنفون والعشرة آلاف (٤٠١ ق . م) قرب زاخو الحالية هم اسلاف الاكراد(١) . لقد حوت السجلات التي وصلتنا من ايام الامبراطوريات القديمة في بلاد ما بين النهرين اشارات كثيرة للحروب التي جرت على حدودها الشرقية والشمالية مع قبائل جبلية اطلقت عليها اسماء تشابه اسم الاكراد (Kurd) . وتشير الوثائق الى عناصر هندو - اوربية في بلاد ما بين النهرين في القرن السادس عشر قبل الميلاد(٢) .

ان المنطقة التي عاش فيها الاكراد - والتي سميت بكردستان منذ العصر السلجوقي -(٣) ،توالى على حكمها امبراطوريات قديمة قوية ، فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد اخذ الميديون يندفعون غرباً وجنوباً حتى استطاعوا ان يسيطروا على زاجروس وما وراءها في سنة ٦٥٠ ق . م (٤) . وفي عام ٥٥٠ ق . م حلت الامبراطورية الفارسية محل الميدية في هذه المناطق، حتى عام ٣٣١ ق . م حين استطاع الاسكندر الكبير ان يمنيها بهزيمة ماحقة في معركة جرت بين الموصل واربيل . لقد كونت هذه المنطقة بعد موت الاسكندر المقدوني جزء من الامبراطوريات السلوقية (٣٣١- ١٢٩ ق . م) والفرثية (٢٤٧ ق . م - ٢٢٦ م) والفارسية الساسانية (٢٢٦ - ٦٣٦ م) ، ثم الدولة الاسلامية (٦٣٦ - ١٢٥٨ م) والمنغول والتركمان (١٢٥٨ - ١٥٠١ م) . وفي خلال القرن السادس العشر ثبتت

Ibid vol . 13 . P .514 (١)
Ibid VoL . 13 , p . 514 (٢)
Ibid , VoL . 13 p . 513 (٣)
Ibid VoL . 13 , p . 514 (٤)

الحدود بين العثمانيين والصفويين فأصبح ثلاثة ارباع الشعب الكردي ضمن ولايات الدولة العثمانية والباقي في ايران(١) .

كانت بلاد الاكراد ضمن الاقاليم التى اجتاحتها جيوش الفتح الاسلامي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد القائد عياض بن غنم فاتح الجزيرة وارمينية . وحين سار القائد حبيب بن مسلمة الفهري عام ٢٦هـ الى (قاليقلا) للقضاء على حركة تمرد قامت في بلاد ديار بكر ـ حيث يعيش الارمن ـ استعان هؤلاء بالروم ،فوجه الخليفة عمر سلمان بن ربيعة الباهلي (الذي يسمى سلمان الخيـــل) لمعونته ، وتوجه القـائدان ـ بعد الانتصار على الأرمن(٢)ـ لفتح بلاد القوقاس الجنوبية ، ففتح سلمان البيلقان صلحاً ودعا أكراد (البوشنجان) الى الاسلام فحاربوه ، غير انه انتصر عليهم ففرض على بعضهم الجزية وعلى الذين دخلوا الاسلام الصدقة(٣). والجهات التي يرد ذكرهـا في اخبار حملة حبيب على (قاليقلا) هي التي تقع على حـدود الأقاليم التي كان يسكنها الأرمن مثل الهــرك ودست الورك ومكس من نواحي البسفرجان (٤) . وظل الأكراد يحيون ضمن هذه الاقاليم غير المستقرة في أرمينية والجزيرة واذربيجان وغيرها حتى اتيح لهـــم في العصور العباسية المتأخـــرة أن يلعبوا دوراً سياسياً بارزاً ويؤسسوا دويلات أسوة بغيرهم من « المتغلبين » على الأطراف .

ويجدر بالذكر ان الاكراد دخل جميعهم في الاسلام ، وكان اغلبهم

---

(١) Ibid, VoL . 13 P. 514

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ٢٠٥ـ٢٠٦ .

(٣) نفس المصدر ٢١٠ـ٢١١ (وردت في البلاذري ـ القاهرة) البلإسجان .

(٤) نفس المصدر ٢٠٧ـ٢٠٧ يعتبر البلاذري (٢٠٢) البسفرجان احـــدى كور ارمينية الثالثة .

على المذهب الشافعي ، وظلوا يعيشون على نفس أسلوب المعيشة الذي يعيشه جيرانهم من المجتمعات النصرانية مثل الأرمن في هضبة الانضول والكلدانيين في مرتفعات حكاري وسهل أورمية(١) .

أدرك الحمدانيون قوة الاكراد وخطرهم فحالفوهم ، وتزوج حمدان - جد الأسرة الحمدانية - أمرأة كردية وحذا حذوه حفيده ناصر الدولة فتزوج من فاطمة بنت أحمد الكردية(٢) التي كان لها تأثير كبير عليه . ويرى بعض المؤرخين ان سيف الدولة كان من أم كردية ٣) ، وليس هذا بمستبعد في عصر فشا فيه الزواج بالنساء غير العربيات ، حتى لقد كان كثير من أمهات الخلفاء والأمراء «امهات ولد» أي غير عربيات . ومهما يكن من أمر فأن سيف الدولة كسب تأييد الأكراد حتى خطب له ابو سالم ديسم الكردي صاحب اذربيجان(٤) . ومما يدل على خطر الأكراد انهم استطاعوا ابتداء من سنة ٣٨٠ هـ مستغلين انقراض الدولة الحمدانية - أن يحتلوا ميافارقين وأرزن وديار بكر ويكونوا امارة ذات بلاط زاهر(٥ . وأصبحوا ابتداء من القرن الرابع الهجري قوة هائلة ، فاستغلوا ضعف السلطة المركزية واسسوا امارات مستقلة منها الأمارة الشدادية التي قامت في شمال اذربيجان وجنوبي غربي القوقاس (٣٤٠-٥٩٥-٩٥١-١١٩٨ م) ، ومنها حكومة حسنويه - برزيكاني في بلاد الجبال التي دامت طوال القرن الخامس الهجري(٦) .

---

(١) انظر ارمينية في . EncY ' Brit . ومحمد امين زكي .
(٢) مسكويه ، تجارب الامم ٢/٢٩٢ .
(٣) Hitti , History Of Syria , P . 565
(٤) مسكويه ، تجارب الامم ٢/١٦١ .
(٥) انظر ابن الاثير ، الكامل ٩/٣٠ .
(٦) محمد امين زكي ، خلاصة تاريخ الكرد والكردستان ١٤٠

٣- الآراميون : هم مجموعة من القبائل السامية التي عاشت في الحقبة الممتدة بين القرنين ١١-٨ ق . م في منطقة آرام التي تشمل مساحات واسعة في شمال سورية ، والتي استولت - في نفس الحقبة - على مناطق أخرى واسعة في ارض الجزيرة العربية . ويبدو ان موطن الآراميين الأصلي كان الصحراء السورية (بادية الشام) ، ومنها انتقلت - شأنها شأن غيرها من القبائل - الى الاراضي الزراعية المجاورة حيث اختلطت بالشعوب الاخرى المقيمة هناك . لقد وردت اخبار الآراميين في النصوص الآشورية التي يتضح منها - انهم أي الآراميون - كانوا يعيشون عند نهر الخابور وفي منطقة الفرات الاوسط . وذكرهم الملك الاشوري تجلات بلاصر الاول (١١١٦-١٠٧٦ ق . م) حيث قال انه شن عليهم ثماني وعشرين حملة في جبهة تمتد من تدمر الى عانات(١) .

وفي نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد كون الآراميون دولة BiT - Adin على ضفتي الفرات أسفل كركميش، كما أقاموا في وادي الخابور مشيخات عديدة ، واستولت بعض قبائلهم على نصيبين وعلى المنطقة الواقعة جنوب غربي ماردين ، بل انهم بلغوا منطقة جبل طور عابدين غرب الفرات . وفي الجنوب وصل نفوذهم حتى دمشق(٢) . وقد أتسع نفوذ الآراميين خلال القرن الحادي عشر فاحتلوا سورية وانتشروا على طول نهر الفرات الاوسط و الاسفل ودجلة الاوسط ، وفرضوا نفوذهم السياسي على بابل ذاتها ، بحيث اصبحت البقعة الممتدة بين بابل والبحر الابيض تحت سطوة القبائل الآرامية المعروفة بالكلدانيين في التوراة(٣).

---

(١) Ency. Brit Vol. 2 p. 207 - 208

(٢) Ibid Vol. 2 p. 207 - 208

(٣) Ibid VoL. 2 p. 207 - 208

وقد ظل الصراع قائما بين الاشوريين والارامين حتى قيام الامبراطورية البابلية الجديدة المعروفة بالكلدانية ،حيث اندمجت العناصر الكلدانية والآرامية والبابلية ببعضها(١) .

والمهم في الامر هنا ان الآراميين قاموا بدور بارز جداً في الحياة الثقافية والتجارية لمنطقة الجزيرة ،فمن الناحية الثقافية نجد ان اللغة الارامية ـ وهي لغة سامية لها شبه باللغة العربية ـ تصبح منذ القرن التاسع قبل الميلاد لغة ادبية ثقافية ، ثم تصبح فيما بعد لغة التجارة والثقافة في بلاد ما بين النهرين خلال حكم الاشوريين المتأخر والبابليين والكلدانيين (بابل الجديدة) حتى اذا ما وقعت هذه الاقاليم ضمن الامبراطورية الفارسية (٥٣٩ـ٣٣٢ ق . م) كانت اللغة الارامية لغة مستعملة ما بين مصر والهند . غير ان فتوحات الاسكندر المقدوني أحلت اللغة اليونانية محل الارمنية كلغة رسمية في الشرق ، ومع ذلك ظلت لهجات آرامية تحيا خلال العهود الرومانية ، بل ان هذه اللغة ما زالت توجد في بعض قرى سورية والجزيرة العراقية واذربيجان وطور عابدين وبحيرة اورمية (٢).

لقد كون الأراميون في العهود الاسلامية ـ كما أسلفنا ـ مجموعة بشرية ذات أهمية في اقليم الجزيرة ، بل انهم كونوا قاعدة السكان النصارى في المدن ، وبخاصة في ديار مضر وديار ربيعة ، بدلايل الأسماء الآرامية للقرى والمواضع من جهة وللاشخاص الذين لعبوا دورا ما في احداث ذلك العصر . وقد سكن اغلب الاراميين في منطقة طور عابدين ، واحتفظوا بلهجتهم وكونوا مجموعة غير صغيرة في البلاد

Ibid VoL . 2 p . 207 - 208 (١)
Ibid . VoL . 2 p . 207 - 208 (٢)

الواقعة شرقي دجلة على حافة المناطق التي سكنها الاكراد والارمن .
وعلى الرغم من ان الجغرافيين والمؤرخين العرب لم يستخدموا لفظة « آراميين » للدلالة على هذا الشعب ، الا اننا نفهم جيداً عن طريق استخدامهم لفظة « نصارى » مثلا بأنهم انما كانوا يشيرون الى الاراميين الذين عاشوا منذ قرون عديدة قبل الاسلام في اقليم الجزيرة . ونعثر كثيراً على لفظة « الجرامقة » للدلالة على النصارى في الجزيرة بصورة خاصة . ويستخدم ابن حوقل(١) لفظة « الشهارجة » عند حديثه عن كفر عزى التي تقع في ارض حزة فيقول انه سكنها « قوم من الشهارجة نصارى ذوو يسار » .

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين العرب(٢) في اصل ومدلول « الجرامقة » حتى جعلها اكثرهم تعني قوماً من الفرس او العجم ، فقد ثبت - نتيجة التحقيقات التاريخية الحديثة - ان الجرامقة انما هم الاراميون الذين عاشوا في الجزيرة منذ قرون عديدة قبل الاسلام . وقد اورد المؤرخ القس سليمان صائغ في كتابه عن الموصل ملحقاً كرسه للجرامقة انتهى منه - بعد استعراض طائفة من النصوص والاراء - الى ان الجرامقة هم الاراميون وان لغتهم كانت لغة السريان الشرقيين ، وان اصل كلمة الجرمقاني (مفرد الجرامقة) معربة عن أصلها الأرامي (جرمقايا) أي من كان أصله من (بيت كرماي)(٣) . واستشهد بدراسات المؤرخ

---

(١) صورة الارض ١٩٦

(٢) انظر سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ٤٥ فما بعدها .

(٣) بيت كرماي : يسميها العرب باجرمى تقع شرقي دجلة بينه وبين الزاب الاسفل وجبال حمرين ونهر ديالى .

لولدكه(١) الذي توصل منها الى ان الجرامقة هم من الأصل الآرامي او النبطي . وعلى الرغم من ان المؤرخين العــرب استخدموا لفظـة النبط للدلالة على أخلاط الفلاحين فى العراق ، الا انهم ارادوا بهم - على وجه الدقة - الآراميين :

لقد كون النصارى جماعة نشيطة فى الجزيرة والشام وكان لهم دور بارز في الحياة الثقافية والاقتصادية ، ويمكن القول ان النصارى تركزوا في عدة مدن اهمها ميافارقين « مدينة الشهداء » الـــتي حوت عظـــام شهدائهم ، وكانت تزخـر بالكنائس والأديرة(٢) . وكانت انطاكية كرسي اليعاقبة وكرسيهم الثاني فى مصر(٣) . وكان أغلب سكان السن من النصارى ، لذلك حوت كثيراً من الكنائس(٤) . وتعتبر الرها اعظم مواطن النصـارى فقد حوت اكثر من ثلثمائة دير وصومعة للرهبان ، كما كانت فيها أعظـــم كنيسة في الدولة الاسلامية حتى عدت من عجائب الدنيا(٥) . كذلك كان غالبية سكان تكريت من النصارى(٦) . وعاش النصارى في حصن كيفا على ضفة دجلة الشرقية وشيدوا بهـا كثيراً من الكنائس(٧) . اما الموصل وبخاصة القرى التي حولها فطالما كانت موطناً للنصارى ، ولما فتحها المسلمون وجدوا بها عدداً كبيراً منهم الى جانب

---

(١) سليمان صائغ نقلا من مجلة لغة العرب ١٧٢ من السنة الثالثة « ١٩١٣-١٩١٤ »

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ٧٠٥/٤

(٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف ١٥١

(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٣٩

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ٨٧٦/١-٨٧٧

« ٦ » الاصطخري ، مسالك الممالك ٧٧

« ٧ » المقدسي ، احسن التقاسيم ١٤١

أقلية من اليهود والمجوس(١) .

ويبدو ان النصارى تمتعوا بكثير من الحرية الدينية والتسامح فقد اتخذ كثير من الخلفاء والامراء كتابا من النصارى لبراعتهم في الامور الادارية وكانوا يلقون الاحترام من المسلمين . وقد حدث في سنة ٣٨٧ ﻫ (٩٩٧ م) ان آلت الرياسة في بلدة داقوقا من اعمال الموصل الى اثنين من النصارى(٢)، وهذا مثل من عشرات الامثلة التي تدل على تمتع النصارى بمركز اجتماعي حسن . ومما هو جدير بالملاحظة ان كثيرا من الذميين اعتنقوا الاسلام ، ولعل من اسباب ذلك اغراء الحكام لهم باعفائهم من الضرائب(٣) . ومن ادلة التسامح الذي لقيه النصارى العدد الهائل من الكنائس والاديرة والصوامع المنتشرة في بقاع الجزيرة . واستطاعوا ان يشتغلوا بالتجارة والصناعة والمهن المالية حتى جنوا من وراء ذلك ثروات طائلة . وكذلك وصل بعضهم الى مناصب عالية في الدولة الحمدانية فتولى ابو موسى النصراني وزارة أبي تغلب(٤) ونجد في عهد سعيد الدولة نصرانيا اخر هو ملكون السرياني الذي كان يوفده الحمداليون رسولا الى ملك الروم(٥) . وقد اقام النصارى الاحتفالات باعيادهم بمنتهى الحرية ، بل شاركهم المسلمون في السرور والتسلية (٦) ، فقد كان ابناء الملتين يلتقون في الكنائس على مودة . وقد اسلفنا ذكر الاهتمام الشديد الذي حظيت به الاديرة في الجزيرة والشام، كما اقيمت كنائس النصارى كل

---

١ . البلاذري ، فتوح البلدان ٣٣٢
٢ . ترتون اهل الذمة في الاسلام ٢٨
٣ . نفس المصدر ٣٨
٤ . ابن ظافر ، الدول المنقطعة (مخطوط) ورقة ٥١ أ .
٥ . ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٢/٥٠٠ .
٦ . المقدسي ، احسن التقاسيم ١٨٣ .

وقف کتابخانه عمومی حضرت آیت الله العظمی مرعشی نجفی (ره)
قم
تأسیس: ۱۳۵۲ هـ.ش

حتى قيل ان مدينة رأس عين حوت أكثر من ثلاثمائة عيناً(١) وكانت نصيبين تقع على نهر يستمد ماءه من عين تنبع من جبل قريب منها (٢). وقامت على الفرات مدن ديار مضر كالرقة وقرقيسيا فافادت مزارعها من مياه النهر القريبة التي كانت ترويها بسهولة ويسر لانخفاض ضفاف هذه النهر . ومجمل القول ان المدن والاراضي البعيدة عن مجاري الانهار اعتمدت على الامطار والعيون والآبار . وكانت أهم آلات الري الدولاب والدالية والناعورة والدولاب وهو الاسم الفارسي للآلة المسماة عند اليونان منجنون ، أما الدالية فكانت ألة ترفع الماء وتديرها الأبقار ، وأما الناعورة فكانت تركب على الانهار ويديرها الماء(٣). ويذكر ابن حوقل(٤) بأعجاب «عروب» الموصل الكثيرة في وسط دجلة وهي المطاحن القائمة في مجرى النهر الشديد الجريان وموثقة بالسلاسل الحديد» في كل عربة منها أربعة احجار يطحن كل حجرين في اليوم والليلة خمسين وقراً ، وهذه العروب من الخشب والحديد » وربما دخل بها شيء من الساج» ، ويشير كذلك(٥) الى عروب بلد والرقة وقلعة جعبر وتكريت وعداد الحديثة التي كانت قائمة في وسط دجلة ، والتي كانت تجهز العراق بما يحتاج اليه من الطحين .

كانت أغلب مدن الجزيرة محاطة بالأراضي الزراعية ،فقد كانت الموصل

---

(١) ابن حوقل . صورة الارض ٢٧٨/٢ « بيروت »

(٢) رحلة ابن جبير ١٩٢

(٣) ادم متز ، الحضارة الاسلامية ٢٤٨/٢

(٤) ص ١٩٨

(٥) صورة الارض ١٩٨

ـ قصبة ديار ربيعـــة ـ ذات نواح عريضة ورساتيق(١) عظيمة وكور كثيرة ، غزيرة الاهـــل والقرى والقصور والمواشـــي الى غير ذلك من اسباب النتاج والسائمة من الاغنام والكراع (٢) ويعدد ابن حوقـل(٣) موارد المنطقة فيقول ان المرج اشتهر بسوق الاحد الذي زخر بالامتعة وقردى وبازبدى كانتا تنتجان القمح والشعير والحبوب الأخرى، بحيث ان كل ضيعة من ضياعها كانت تنتج الف كر من الحنطة والشعير ، ويشير ابن حوقل الى انهـا اشتهرت بانتـاج النبيذ الذي در موارد على الدولة تعادل ما كانت تدره الواردات الزراعية ، وضـــرائب الخمرة هي التي تدعى باموال اللطف (٤) . واشتهرت منطقة الخـابور بكثرة الغـــلات والفواكه اليابســـة والرطبة ، على حين انتجت منطقة الموصل كميـــات هائلة من الحنطة والشعير حتى لقد بلغ ارتفاعها من الحاصل سنة ١٣٨ هـ « دون قسمة المزارعين بنينوى والمرج وكورة حزة ستة الاف كر(٥) حنطة وشعيراً قيمتها من الورق(٦) ثلاثـة الاف الف درهـم(٧) ومن الحبوب والقطاني ثلاثمائة كر قيمتها من العين عشرة آلاف دينار ومن الورق (مائة وخمسين الف درهـــم)(٨) وزرع القمح والشعير بكميات

---

(١) نفس المصدر ١٩٦

(٢) الكراع هي الدواب

(٣) صورة الارض ١٩٦

(٤) ابن حوقل ١٩٦

(٥) الكر (بضم الواو) كيل . وهو ستون قفيزاً والقفيز ثمانية مكاكيك والمكوك صاع ونصف (المصباح المنير ٧٢٧/٢)

(٦) الورق (بفتح الواو وكسر الراء) المال من الدراهم (المصباح المنير ٩٠٣/٧)

(٧) ابن حوقل ١٩٧

(٨) نفس المصدر والمكان

هائلة في باعربايا المصاقبة لبازبدى وفي برقعيد وباهمداء وبازبدى وقردى(١).

كانت الموصل محاطة بمناطق زراعية خصبة للغابة ولها كور ورساتيق كثيرة(٢)، وانه وان كانت المدينة نفسها قليلة البساتين، الا ان نواحيها التي امتدت على ضفتي دجلة شمالا وجنوباً كانت جنات يانعة وحقولا خصيبة. واشتهرت باعشيقا(٣) من نواحي الموصل بحقولها المثمرة بالزيتون والنخيل والنارنج التي ترويها عدة جداول (٤). وكانت الحديثة محاطة ببساتين كثيرة وسهول فسيحة، واشتهرت هي وبلد بالعداد - أي الطواحين - التي كانت في وسط دجلة(٥)، وعرفت نصيبين ببساتينها وكثرة اشجارها المثمرة وانتاجها أجود انواع الرز والقمح والشعير الكروم « الرائعة الزائدة عن حد الرخص » فضلا عن مراعيها التي كثرت فيها الأغنام والمواشي. وبفضل جودة كرومها انتجت انواعاً من الشراب(٦). ويضاف الى هذه المنتجات ما أخرجته حقول نصيبين واقليم ابنين المجاور لطور عابدين والذي يعتبر تابعاً لنصيبين من بقول وفواكه اخرى. وكان يحيط بسنجار سهول فسيحة خصبة ومزارع انتجت الاثمار كالجوز واللوز والزيتون والأترج. السمسم والرمان الكبير الذي صدر حبه المجفف الى العراق والنواحي فضلا عن وفرة النخيل في سنجار وهي ميزة امتازت بها على سائر مدن الجزيرة

---

(١) ابن حوقل ١٩٦

(٢) نفس المصدر ١٩٦. يقول ابن رستة (الأعلاق النفيسة ١٠٦): من كور الموصل الموصل (يعني المدينة) وتكريت وطيرهان والسن والحديثة والمرج وصيجار وباجلي وباجرمي

(٣) ابن حوقل ١٩٨

(٤) نفس المصدر والمكان

(٥) نفس المصدر والمكان

(٦) نفس المصدر ١٩١

عدا نواحي الفرات وهيت والانبار (١) . وأنتجت ديار بكر مختلف الحاصلات الزراعية والفواكه وزخرت بأشجار البلوط . ونجد في نصيبين الحبوب كالقمح والشعير والرز والكروم الوفيرة كما نجد المراعي الواسعة التي تربى فيها الاغنام والمواشي(٢) . على حين اشتهرت ماردين بالاضافة الى فواكهها وكرومها بجوهر الزجاج الذي كان يصدر الى سائر بلدان الجزيرة والعراق وبلاد الروم « فيفضل على ما سواه بجوهرية فيه »(٣). وطارت شهرة حجر الأرحية الذي كان يستخرج من آمد ، حتى كان الحجر الواحد الذي يستخدم للطحن بالعراق يساوي نحو خمسين ديناراً(٤). وكانت جزيرة ابن عمر تصدر بالسفن الى الموصل العسل والسمن والمن والجبن والجوز واللوز والبندق والزبيب والتين(٥) .

وكانت ضواحي بلد المعروفة بالأوسل كثيرة الشجر والثمر والخضر والفواكه والكروم ، واشتهرت اذرمة بكثرة غلانهـا ، ودارا بوفرة خيراتها وخصبها حتى كان « المأكل والمشرب »-أو اسعار المواد الغذائية بتعبير أوضح - كالمجـان »(٦) . واشتهرت كفرتوثا بكثرة اشجارها واثمارها وزروعها وبساتينها(٧) : اما عرابان فكانت كثيرة الاقطان ،

---

(١) نفس المصدر ١٩٩

(٢) ابن حوقل ١٩١

(٣) نفس المصدر ١٩٤

(٤) نفس المصدر ٢٠١

(٥) نفس المصدر ٢٠٢

(٦) نفس المصدر ١٩٩

(٧) نفس المصدر ١٩٩

ومن ثم فأن منسوجاتها من الثياب القطنية كانت تصدر الى الشام وغيرها(١). وكانت طلبان والحشية وتنيزر والعبيدية مدناً صغيرة ذات اشجار مثمرة وبخاصة الكروم والسفرجل(٢). واشتهرت رأس العين بالاضافة الى حاصلاتها الزراعية ومنتوجاتها الوفيرة من الفاكهة بالقطن الذي كان ينتج بمقادير كبيرة(٣) كذلك كانت حران من مراكز انتاج القطن بالاضافة الى كونها ذات شهرة ذائعة في صناعة الموازين الدقيقة(٤).

كانت الجزيرة إقليما خصباً وفير الحاصلات عظيم الغلات كثير الخيرات، حتى قال فيه الأصمعي: «كانت قريش تسأل في الجاهلية عن خصب باعربايا وهي الموصل لقدرها عندهم فلم ينبئهم في خصبها شيء قط وعن ريف الجزيرة وما يليها لانها تعدل في الخصب عندهم باعربايا»(٥). لقد تعددت الحاصلات الزراعية في هذا الأقليم التي استخدمت لاغراض غذائية كالقمح والشعير والرز واشجار الفواكه المتعددة الأصناف كالنخيل(٦) والنارنج والزيتون والكمثرى والكروم والسفرجل والرمان والتوت وغيرها من صنوف الأثمار الطرية والجافة(٧). كما اننا نجد زراعات قامت لأجل أغراض صناعية وفي

---

(١) المقدسي ١٤١، الاصطخري ٧٤

(٢) ابن حوقل ٢٠١

(٣) نفس المصدر ٢٠٠

(٤) المقدسي ١٤١

(٥) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان ١٣٥

(٦) كان رطب تلعفر - مثلا - يصدر الى الموصل ياقوت ١/٨٦٣

(٧) ابن حوقل ١٩٦، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٧

مقدمتها القطن الذي زرع بوفرة في اقليم الجزيرة بتشجيع من الحمدانيين. ويشير الجغرافيون القدامى الى عدة مدن نالت شهرة خاصة في انبات القطن الجيد مثل رأس العين وحران وعرابان وماكسين وغيرها(١) . ونستطيع ان نقول بثقة ان زراعة التوت كانت تستهدف تربية دود القز لانتاج الحرير الذي اشتهرت به غير واحدة من مدن الجزيرة كالموصل مثلا ، وكذلك اشتهر سوق باعشيقا من لواحي نينوى ببيع البز(٢) :

وكان في باجرمى من نواحي الموصل جبل يسمى شعران لكثرة اشجاره وهو جبل قنديل . وبالاضافة الى اشجار الكمثرى والعنب ، اشتهر بانواع الطيور وبالاشجار الضخمة التي كانت تقطع جذوعها وترسل الى العراق(٣) . وواضح ان هذه الأخشاب كانت تستخدم لأغراض البناء وصناعة السفن والأثاث . ولما كانت منطقة الجزيرة منطقة لنصرانية آرامية قبل الفتح الاسلامي ، وان المجتمع النصراني ظل قائماً فيها ، فأن تقاليد صنع الأنبذة والخمور بقيت سائدة رائجة في عديد من المدن وكانت زراعة الكروم على نطاق واسع تبرر سعة هذه الصناعة . ونحن نعثر بهذا الصدد على اشارات لقرى ومدن كان فيها حانات أو جبيت منها ضرائب « اللطف » وهي الضرائب التي فرضت على الخمور(٤) . واستخدم زيت الزيتون الذي زرع بوفرة لصناعة الصابون(٥) » واشتهرت مراعي الجزيرة شهرة ذائعة مما أدى الى كثرة

---

(١) المقدسي ١٤١ ، الاصطخري ٧٤

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ٤٧٢/١ .

(٣) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ١٣٢

« ٤ » انظر مثلا ابن حوقل ١٩٦

« ٥ » يقول المقدسي ١٤١ عن الرقة انها « معدن الصابون الجيد والزيتون » .

الجلود التي استغلت لصناعة الاحذية والسروج وغيرها بحيث اختصت سنجار بالمهارة في صناعة الاحذية واشتهرت بكثرة اساكفتها(١) .

وبجانب الثروة الزراعية الهائلة كانت الجزيرة منطقة مراع شهيرة ، وهذا لا يحتاج الى اثبات فهي منطقة سهوب وهضاب ووديان غزيرة الامطار نسبياً وما زالت اليوم من اغنى مناطق الشرق الادنى في تربية الاغنام والمواشي حتى قال ابن حوقل(٢) عن نصيبين انها كثيرة السائمة والكراع، وعن الموصل(٣) انها اشتهرت بتربية الغنم والبقر . واشتهرت الجزيرة بـ « الافراس الجزرية » (٤) ۰ واشتهرت حديثة الموصل بكثرة الصيود(٥) ۰ واشتهرت جزيرة ابن عمر بصناعة العسل والجبن والمن(٦) ۰

اما الثروة المعدنية فلا بد انها كانت وفيرة وقد اشرنا الى الاخشاب التي كانت تقطع وتصدر لاستخدامها لاغراض صناعية والزيوت والخمور والصابون ، وكان بالرقة على حد قول ابن الفقيه(٧) - دهن الحظارة « وفيه اعجوبة ، وذلك انه لا يتخذ الا في حانوت بها معروف، فان اتخذ في غيره من الحوانيت فسد ۰ وخاصته انه نافع للرياح

---

(١) المقدسي ١٤٠
(٢) ١٩١
(٣) ١٩٣
(٤) ابن الفقيه ١٣٥
(٥) ابن حوقل ١٥٨
« ٦ » نفس المصدر ٢٠١
« ٧ » مختصر كتاب البلدان ١٣٤

والنقرس» . فهو اذن مرهم طبي شديد الفاعلية ويحتاج الى رعاية وعناية وحفظ في جو معين كي لا يفسد . ونجد اشارات كثيرة الى الملح الذي كان يصدر الى العراق(١) والحديد الذي لعب دوراً خطيراً في صناعة الاسلحة وفي العمـــران ، حتى لقد صنعت منه ابواب المدن(٢) . اما الحجارة المتعددة الاصناف والكلس والجص فقد حفلت بها مدن الجزيرة وساعدت على ان تقوم فيها ابنية ملونة ونهضة عمرانية عظيمة ، حتى لنجد الحجارة البيضاء والسوداء والكلس والجص من مواد البناء المعتادة في بناء الاسوار والبيوت(٣) .

ولا بد ان الثروة المعدنية كانت وفيرة وان لم يستطع ابناء ذلك العصر ان يكتشفوها ويستغلوا منافعها . يقول ابن الفقيه(٤) . ان الجبل الذي بآمد ... فيه صدع ، فمن انتضى سيفه فأولجه فيه وقبض على قبيعته بجميع يديه اضطرب السيف في يديه وأرعد القابض وان كان أشد الناس . وفيه اعجوبة اخرى انه متى يحك بذلك الجبل سكين او حديد او سيف حمل ذلك السيف او السكين الحديد وجذب الأبر والمسال بأكثر من جذب المغناطيس ...» ان هذه الخاصية الكهربائية والمغناطيسية كانت تدلل على وجود ثروة معدنية كامنة في صخور جبل آمـــد لم يتح لذلك العصـــر استغلالها ولعلها لا زالت مطمورة حتى هذا اليوم .

لقد كانت استعمالات الثروة المعدنية محـددة بروح حضـارة ذلك العصر ، وهي حضارة غير صناعية قطعاً وذات طابع زراعي اقطـاعي .

---

(١) اشتهرت براري الجزيرة ومفاوزها بالملح والأشنان ابن حوقل ٢٠٥

[٢] ياقوت ١٧٧/١

[٣] المقدسي ١٤٠ و ١٤١

(٤) مختصر كتاب البلدان ١٣٣

لذلك استخدمت المعـادن لتلبية الحاجات الحربية والعمرانية (أسوار المدن وابوابها وقصور الخاصة) . وبهذا الصـدد نجد بعض الامثلة على استخدام الثروة المعدنية لأغراض الانتاج . مثـال ذلك تلك الحجارة النادرة الغالية الثمن التي اشتهرت بها آمد ايضاً بحيث كانت تباع القطعة الواحدة منهـــا في العراق بخمسين دينـــاراً ، والتي استخدمت لصنع الأرحاء(١) (أي الرحى لأغراض طحن الحبوب) : ومن هذه الامثلة استثمار براري الجزيرة ومفاوزها لجمع الملح والأشنان والقلى وهي مهمة قام بها ابناء ربيعة ومضر من البدو الذين اشتهروا بتربية الخيـل والغنم والأبل ، والذين كانوا على علاقة وطيدة بأهل المـدن حتى نستطيع ان نحسبهم بدواً متحضرين(٢) . كذلك اشتهرت باسورين بصناعة الملـح الذي كان يصدر الى العراق(٣) . ويبـدو ان حجر الزجاج او « جوهر الزجاج » كما كان يدعى استثمر بصورة جيدة فكان يستخرج من الجبال - كجبل مـاردين مثلا - ويصدر الى مدن الجزيرة والعـراق بل والى الدولة البيزنطية(٤) .

وهكذا يمكن القـول ان الجزيرة كانت اقليماً واسـع الغنى وفير الثروة عظيم الانتاج في مجالات الثروة الزراعية والحيوانية والصناعية ، وهو الأمر الذي يبرر ويفسر الصراع السياسي الحاد الذي دار بين القوى السياسية يومذاك للاستئثار به وامتلاكه .

---

(١) ابن حوقل ٢٠١

(٢) نفس المصدر ٢٠٥

(٣) قدامة ٢٤٥

(٤) ابن حوقل ١٩٤

الفصل الثاني

عهـــد ناصر الـــدولة

١ـ تمهيد ٢ـ شخصية ناصر الـدولة ٣ـ الصـراع مع مؤنس ٤ـ الحمدانيون وإمرة الأمراء أـ عصـر إمرة الأمراء بـ ناصـر الدولة أميراً للأمـراء ٥ـ ناصر الـدولة والبويهيون .

١ـ تمهيد

لجأ العباسيون في دور ضعفهم الى طريقـة الضمان أو الألتزام في جبـاية الضرائب من الاقاليم وفي ادارتهـا ، فكان العـامل يحمل في كل سنة مبلغاً مقرراً الى بيت المال في بغـداد ، ويتولى هو جباية الضـرائب وفق هواه . ومن الواضح ان العـامل كان يعمد الى الحصول ـ بشتى الطرق ـ على أكبر مبلـغ ممكن لفائدته الشخصية ، مـا دامت السـلطة المركزية تغض النظر عن الظلم الذي كان يلحقه الجبـاة بالرعية . وهذا النظام الـذي اتبع في طول البـلاد وعرضها أدى الى نتيجـة حتمية هي انفصال الولايات عن جسم الدولة بالتدريج ، خاصة اذا كان الخليفـة ضعيفـاً والوالي قوياً جريئـاً . وبفضل هذا النظـام اتيح للحمدانيين أن يستولوا على الجزيرة ويجنوا ثروة طائلة من جمع الضرائب ، وبالتـالي ان يعلنوا استقلالهم كلما ساءت الاحوال في بغداد .

كان الحمدانيون بادىء الأمر عمالا للعباسيين على الموصل واعمـالها فلما ضعفت الخلافة اخذوا يمتنعون حتى عن دفع مبلغ الضمان المفروض

عليهم ونقصوه شيئا فشيئا في الوقت الذي مدوا سلطتهم الى اجزاء جديدة من ذلك الاقليم . ففي سنة ٩٢٧/٣١٤م ضمن ابو الهجاء عبدالله اعمال الخراج والضياع بالموصل وقردى وبازبدى وغيرها (١) ، وفي عام ٩٤٨/٣٣٧م بلغ مبلغ الضمان او المقاطعة من الولايات التي كانت في يد ناصر الدولة ثمانية ملايين درهم سنوياً(٢) .

٢- شخصية ناصر الدولة

تبدأ ولاية الحمدانيين على الموصل عام ٩٠٥/٢٩٣م حين ولى عليها المكتفي ابا الهيجاء عبدالله بن حمدان في اواخر سنة ٢٩٢ فوصلها في بداية ٢٩٣(٣) . لذلك نستطيع ان نجعل هذه السنة بداية قيام الحكم الحمداني هناك . وفي عهد المقتدر ظل ابو الهيجاء يتولى هذه الاعمال حتى سنة ٩٢٩/٣١٧م حين اشترك في المؤامرة التي دبرت لخلع المقتدر فكان مصيره القتل(٤) . ولما كان المقتدر يعلم ان الحمدانيين وحدهم يستطيعون السيطرة على القبائل المتناحرة في الجزيرة وعلى ثورات الخوارج وتحركات الأكراد فأنه اقر الحسن بن ابي الهيجاء على ما بيد ابيه من اعمال قردى وبازبدى وعلى اقطاع ابيه وضياعه ، ثم ولاه في المحرم سنة ٩٣٠/٣١٨م بعد موت نحرير الصغير والي الموصل أعمال هذه المدينة(٥) . ويقول ابن خلكان ان هذا لم يكن أول عهد ناصر الدولة الحسن بالولاية ومسئولياتها ،

---

(١) ابن الاثير ٥٢/٨ (مصر)

(٢) مسكويه ١١٥/٢

(٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ١٧٥/١ . ابن خلدون ، العبر ٣٩٦/٢

(٤) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٢٢٣/٣

(٥) ابن الاثير ، الكامل ٦٧/٨

الحمدي كان نائباً لابيه للموصل منذ سنة ٣٠٨/٩٢٠م (١). وهذا يوقعنا في مشكلة تاريخية. فالذهبي(٢) يجعل ميلاد ناصر الدولة في سنة ٢٩٨/٩١٠ م وابن خلكان يقول انه ناب عن ابيه في ولاية الموصل في سنة ٣٠٨ . فهل يبدو منطقياً ان يتولى الحسن مثل هذه المناطق الثائرة المضطربة وعمره عشر سنوات فقط ؟ انهذا يبدو أمراً من الصعب تصديقه ، لكن ما هو وجه الصواب بين اقوال هذين المؤرخين الكبيرين ؟ انا اشخصياً اميـــل الى تصديق ابن خلكان ، اذ يبدو ان مولد الحسن ناصر الدولة كان اقدم من سنة ٢٩٨ لسببين اولهما ماذكرناه من صغر سنه في سنة ٣٠٨ بحيث لم يكن من المعقول ان ينوب عن ابيه في ولاية الموصل وثانيهما ان طبيعة الأحترام الذي طالما ابداه سيف الدولة لاخيه ناصر الدولة - كما نرى - تجعلنا نجزم بان هذا كان اكبر بكثير من سيف الدولة وليس بست سنوات فقط كما ذكر المؤرخون الذي جعلوا ولادة سيف الدولة في سنة ٣٠٣/٩١٥م (٣).

ولد الحسن بن عبدالله بن حمـــدان كما يقول الذهبي في سنة ٢٩٨ هـ - وهو أمر معرض للشك كما اسلفنا - في أســـرة غنية جليلة القدر ذات محتد كريم . ويبدو ان ابا الهيجـــاء كان ثالث الاخوة أولاد حمـــدان بن حمدون ، فقد كان الحسين وابو الوليد سليمان(٤) يكبرانه سناً ، وبوفاتهما أصبح هو عميد الاسرة الحمدانية . ومن صلب ابي الهيجاء ومن ذريـــة ولديه الحسن (ناصر الدولة) وعلي (سيف الدولة) تحدر جميع الامراء الحمدانيين في الموصل وحلب .ورغم غنى ابي الهيجاء والاسرة الحمدانية

---

(١) ابن خلكان ١/١٧٥ . ابو الفدا . المختصر في تاريخ البشر ٢/٨٣

(٢) دول الاسلام ٢/١٥٣

(٣) ابن الاثير . الكامل ٨/٢٢٩

(٤) انظر ديوان ابي فراس (شرح ابن خالويه) ٢/١٢٤ توفي في ٣٢٧ هـ «الصولي، الاوراق ١٣٦»

كلها ، يبدو ان ابا الهيجاء لم يمنح الحسن من الدلال والعطف الشيء الكثير. لقد اخذ ابو الهيجاء ابنه الأكبر بالصرامة والجهامة وتجافاه وامسك يده عنه وعامله باستصغار (١) .

ان بين ايدينا نصاً ذا قيمة كبيرة يروي فيه ناصر الدولة قصة حياته الاولى وعلاقته بابيه والظروف التي هيأت له سبيل الظهور . وهذا النص الذي أورده التنوخي في نشوار المحاضرة (٢) في بضع صفحات يدل على خصلتين ظاهرتين من خصال ناصر الدولة ، أولاهما طموحه الشديد والأخرى نفعيته التي ينطبق عليها القول «ان الغاية تبرر الوسيلة» . والذي يقرأ النص المذكور يرى ان العلاقة بين ناصر الدولة وابيه لم تكن كما يجب ان تكون العلاقة بين الابناء والآباء ، بل يجد الحقد والبغض والخوف في ثنايا حديث ناصر الدولة عن ابيه . واليك بعض فقراته « ولي - يعني أباه - طريق خراسان (ولاه اياه المقتدر في سنة ٣٠٨) فجلس يعرض دوابه ، فبقي منها خمسون دابة ما بين زمن واعجف الى غير ذلك. ثم قال « ياحسن أريد ان اخرج بعد شهرين الى العمل وهذه الدواب مسلمة اليك وقد رددت امرها اليك لاجربك في الأمور الكبار ، فان قمت بها حتى تصح وتبرأ وتسمن وكان فيك فضل لذلك قلت انك تصلح لما فوقه ، وان لم تصلح على يدك فهو اول عمل رددته من امري وأخره (اليك) ... فقلت : السمع والطاعة . واخذت الدواب وأفردت لها اصطبلا وجعلت لنفسي فيه دكة واستأجرت لها سواساً وأدرت ارزاقهم وطالبتهم بأشد الخدمة ... وافردت بياطرة لها لذلك فما مضى

---

(١) التنوخي ، جامع التواريخ (نشوار المحاضرة) ١/١٧٨-١٨٢

(٢) المصدر السابق ١/١٧٨-١٨٢

عليها الاشهر وأيام حتى صحت وسمنت وصارت على غاية الحسن » .
ثم رأى ابوه تلك الدواب فسر من ولده وأحبه واسدى اليــه النصح .
وأراد ناصر الدولة ان يستغل الفرصة فطلب الى ابيــه ضيعة النهروان
قرب الموصل . فغضب الأب وشتم ابنه قائلا « ياكلب سمت بك لفسك
الى ان تملك النهروان ؟ » وضربه على وجهــه بالسوط فشجه من أولـه
الى آخره «وأحسست بالنار في وجهي » . وتألم ناصر الدولة لهذه المعاملة
القاسية فقصد بغداد خلسة يحمل ثيابه وحاجاتـه على بغلين . ويستطرد
ناصر الدولة قائلا « وكان الوزير اذ ذاك علي بن عيسى وهو في غاية العناية
بابي وهو قلده العمل . وكان يحبني ويكرمني ويختصني ففكرت ان ادخل
اليه ! ودخل ناصر الدولة على الوزير فسأله عن الجرح الذي في وجهه ،
فأبت كبرياؤه ان يروي الواقعة وادعى أنه كان يلعب بالكرة والصولجان
فاصابته الكرة . وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان فقد دخل ابو الهيجاء
وهو مغضب وعاتب علي بن عيسى على استماعه لشكوى ابنه قائلا «تمكن
هذا الكلب من ذكري بحضرتك وانبسط في ؟ » غير انه ادرك ان ابنه لم
يذكره بسوء ، وتوسط الوزير بين الأب وابنـــه فسلمه الضيعة . ويقول
لناصر الدولة ان قبوله لوصية ابيه هي التي ادت الى هذه النتائج الحسنة .
وقد اورد [illegible] خي هذه الوصية وملخصها : الا يحسد ناصر الدولة أحدا
من أهله رفعه السلطان بل يخدمه ويصافيه الود ويكون عونا له .

ماذا نستنتج من نص التنوخي هذا ؟ قبل كل شيء ان هذه القصة أو
الحكاية اذا صحت أصلا ، فهي مبالغة من ناصر الدولة في مدح نفسه
وذم ابيـه . فهو يبدو وكأنه ذو مواهب ويصلح لكل مهمة . ومن جهة
اخرى فهو يلصق بابيه كل صفات القساوة والخشونة ويضفي على نفسه
الطاعة والصبر واحترام والده . فكأنما يريد ان يصل الى النصيحة التي

ختم بها قصته وهي أن لا يحسده احد من أهله ، بل يتحتم عليهم أن يقوموا بخدمته والقناعة بطاعته . ومن جهة أخرى يظهر ناصر الدولة لفسه بمظهر الأبن الحريص على سمعة أبيه والمعتز بكرامته بحيث يخفي عن الوزير علي بن عيسى سبب الجرح في وجهه ، ويدعي بأن الجرح أنما نجم عن لعبة الكرة والصولجان ، وهي لعبة كان يمارسها الخاصة والأمراء ، وليس سببها النزاع على تربية قطيع من الدواب ، وهي مهمة يبدو انه كان يأنف من التحدث عنها أمام وزير اشتهر بالذكاء والفطنة والترفع . ثم نستنتج ان ناصر الدولة الحسن انما قدم بغداد ليسعى لدى الوزير في ان يجد له مكاناً في الامارة او الولاية في عصر تميز بالمساومات والمزايدات ، ولا بد ان حضور ابي الهيجاء المفاجي الى مجلس الوزير كان متأتياً من شك الأب بأبنه وسوء ظنه فيه .

واذا شئنا ان نضرب مثلا آخر يلقي الضوء على خلق ناصر الدولة فهو النص الذي أورده التنوخي(١) والذي يدلل على أثرته وشراسة طبعه من جهة وعلى علاقته بأفراد اسرته من جهة اخرى . كان سيف الدولة يتولى نصيبين من أعمال اخيه . ويبدو ان مواردها (وان كانت وفيرة) لم تكن تلبي مطامح سيف الدولة ، خاصة وقد بلغته انباء الاحوال السياسية السيئة في الشام التي كان يتولاها امراء ضعاف عن الاخشيديين جزاء مال يحملونه اليهم . ومن ثم اراد سيف الدولة ان يضع يده على هذه البلاد الغنية الهامة . ولما كان لا يملك المال والجيش لتحقيق هذا الهدف فكر أن يستعين بأخيه فقصده الى الموصل . وهنا نترك الحديث لسيف الدولة نفسه : « فوصلت الى الموصل ... ودخلت

---

(٣) نشوار المحاضرة مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٣٢ ص ٤٣٠

الى أخي وسلمت عليه فقال : ما أقدمك؟ فقلت أمر اذكره بعد ،، وشرحت له فأظهر من المنع القبيح والرد الشديد غير قليل . ثم شافهته فكان أشد امتناعاً ، وطرحت عليه جميع من كان يتجاسر على خطابه في مثل هذا فيردهم .. ولم يبق في نفسي من يجوز أن اطرحه عليه وأقدر ان يجيبه إلا امرأته الكردية .. فقصدتها وخاطبتها في حاجتي وسألتها مسألته فقالت: انت تعلم حقيقة خلقه وقد ردك ، وان سألته عقيب ذلك ردني ايضاً فأخرق جاهي عنده ، ولم يقض الحاجة » . وفي اثناء اقامة سيف الدولة هذه لدى أخيه في الموصل ورد كتاب من بغداد ينبيء عن قتل ابي عبدالله البريدي اخاه ابا يوسف (سنة ٣٣٢) واستيلائه على البصرة(١) . «فلما قرأت ذلك مع ما سمعته من كلامه مت جزعاً وفزعاً ولم أشك انه يعتقدني كأني ابو عبدالله البريدي في الاخلاق التي وصفه بها ويعتقد في نفسه انه كأبي يوسف وقد جئته في أمر جيش ومال . ولم أشك ان ذلك سيولد له أمراً في القبض علي وحبسي » . وهرب سيف الدولة مع غلمانه من الموصل دون ان يودع اخاه أو يشعره برحيله : «وقد كنت منذ وردت وعسكري ظاهر البلد ولم ازل داراً .. » .

واذا عرفنا ان ابا الهيجاء انهمك في الدسائس السياسية ببغداد وفي المعارك الحربية في مختلف الجبهات ، وقضى اكثر وقته خارج ديار ربيعة ، استطعنا ان نستنتج أن ناصر الدولة كان قد تدرب على الادارة والسياسة وفنون الحرب منذ صباه وانه أصبح الحاكم الفعلي لتلك الاقاليم في حياة ابيه . ففي سنة ٣١٤ أحدث العرب والاكراد اضطرابات في منطقة الموصل وطريق خراسان ، وكان ناصر الدولة ينوب عن ابيه بالموصل « فكتب اليه ابوه يأمره بجمع الرجال والانحدار الى تكريت ،

---

(٢) انظر حول هذا الموضوع ابن الاثير ٨/٤٠٩-٤١٠

لفعل وسار اليها ، فوصل اليها في رمضان واجتمع بأبيه واحضر العرب وطالبهم بما أحدثوا في عمله بعد أن قتل منهم ونكل ببعضهم ، فردوا على الناس شيئاً كثيراً »(١) . فهذه العملية تدل على خبرة بالقتال وفعالية كبيرة هيأتا للحسن ناصر الدولة ان يشق طريقه في الحكم • وفي السنة ذاتها ضمن ابو الهيجاء أعمال الخراج والضياع بالموصل وقردى وبازبدى واقاليمها(٢) ، ولا بد ان ابنه الحسن كان المسؤول المباشر عن هذه الاعمال • غير أن تقدم الحسن في هذه المرحلة المبكرة من حياته العامة كان مرتبطاً كل الارتباط بمركز والده في بغداد ، ففي سنة ٣١٦ قلد المقتدر مؤنساً المؤنسي الموصل واعمالها ، وفي سنة ٣١٧ انحاز ابو الهيجاء الى مؤنس المظفر ضد المقتدر وحزبه ، وكان عنصراً أساسياً في خلع المقتدر ثم مقتل ابي الهيجاء في خلال تلك الازمة على النحو الذي مر بنا •

انعكست هذه الاوضاع على الحسن بطبيعة الحال فعزل في سنة ٣١٨ (في ربيع الاول) عن الموصل ووليها عماه سعيد ونصر • لكنه تولى ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين وميافارقين وارزن (من ديار بكر) مقابل مال يدفعه للخلافة على سبيل الضمان فاستقر في منطقة نفوذه الجديدة في ربيع الآخر ، كما استقر عماه سعيد ونصر في الموصل(٣) • واعتقد ان المقتدر كان يدرك مدى حاجته

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١٦٣/٨

(٢) نفس المصدر ١٦٧/٨

(٣) نفس المصدر ٢١٧/٨ (بيروت) • ٦٨/٨ (القاهرة)

للحمدانيين ذوي النفوذ في الجزيرة ، فكان لا يستطيع الاستغناء عنهم رغم شكه فيهم وريبته منهم ، بعد أن جرب العلاقة مع اثنين من أعمدة آل حمـــدان هما الحسين وابو الهيجاء ، اللذان قتلا كلاهما إبان حكمه .
ومما يؤيد حاجة المقتدر للحمدانيين ان منطقة الجزيرة شهدت في ذلك العام بالذات (٣١٨) حركة خوارج جديدة عنيفة هددت املاك الخلافة وزادت طينها بلة . فقد ظهر خارجي من بجيلة من أهل مدينة البوازيج يدعى صالح بن محمود سار بأعوانه من بني مالك الى سـنجار فجبى الأموال من أهلها ، وفرض العشور على القوافل التجارية ، ووصل الشجاجية من أرض الموصل وانحدر الى الحـديثة (اسفل الموصل) فطالب المسلمين بالزكاة والنصارى بالجزية. وهنا يبرز دور الحمدانيين، فقد تصدى للخوارج نصـر بن حمدان (اصغر الاخوة) وهو أمير الموصل (يشاركه في إمارتها اخوه سعيد) واستطاع أن يأسر ابناً لصالح اسمه محمد ويعتقله في الموصل . ثم اخذ يطارد صالحاً نفسه حتى البوازيج ، حيث جرت بينهما معركة حامية الوطيس قتل فيها كثير من الخوارج وأسر زعيمهم مع ابنين له حملهم نصر الى الموصل ثم أرسلهم الى بغداد مشهورين(١) .

ثم ظهر خارجي آخر بأرض الموصـل في نفس السنة ـ هو الأغر بن مطر الثعلبي ـ راجت دعوته في نواحي رأس العين وكفرتوثا واجتمع معه نحو الفي رجل ، وتصدى لنصيبين وهزم جيش واليها وأسر منهم الف رجل ، فباعهم نفوسهم(٢) ، وصالحه أهل نصيبين على اربعمائة

---

(١) ابن الاثير ٨/٢٢٠ ـ ٢٢١

(٢) نفس المصدر ٨/٢٢١

الف درهم » . ولم يستطع القضاء على الأغر سوى الحسن ناصر الدولة أمير ديار ربيعة فقد استطاع ان يأسره ويبعث به الى بغداد(١) .

ولم تكن فائدة آل حمدان للخلافة تتجلى في تصديهم للحركات الداخلية وحدها ، فقد لعبوا منذ هذا الوقت - بل وقبله - دوراً بارزاً في صد خطر الروم ، وهي مهمة قاموا بها على أحسن الوجوه . والحق ان المقتدر حين ولى سعيداً بن حمدان واخاه نصراً الموصل وديار ربيعة اشترط عليهما غزو الروم ، وان يسترجعا ملطية التي انهارت مقاومة أهلها أمام الروم فسلموهم مفاتيحها . وفي سنة ٩٣١/٣١٩م تقدم الروم الى سميساط فحاصروها ، فاستنجد أهلها بسعيد بن حمدان، فتجهز وسار اليهم على عجل فهزم الروم، وتقدم الى ملطية ففارقها الروم وحلفاؤهم الأرمن حين رأوا كثافة جيش سعيد بن حمدان وثورة أهل المدينة عليهم. وهكذا دخلها سعيد ونصب عليها أميراً مسلماً ، ثم توغل غازياً في أرض الروم(٢) .

٣- الصراع مع مؤنس

يبدو أن الحمدانيين هجروا بغداد كلهم بعد النكبات التي أصابتهم فأودت بعميديهم الحسين وابي الهيجاء . ففي هذه الفترة (أي منذ سنة ٣١٨) نجد في الموصل سعيداً ونصراً وداود وناصر الدولة الحسن بن ابي الهيجاء وغيرهم من أفراد الاسرة . غير أن الدسائس السياسية والصراع على السلطة في بلاط الخلافة انعكس عليهم بصورة مباشرة في

---

(١) نفس المصدر والمكان .

(٢) ابن الاثير ٢٥٣/٨

سنة ٣٢٠ ، فقد ساءت العلاقات بين المقتدر ومؤنس المظفر خلال هذا العام فسار الى الموصل بفرقته العسكرية بعد أن أعلن خصومته السافرة للخليفة :

كانت الدسائس قد بلغت اشدها فى بلاط المقتدر في سنة ٣٢٠ ، وأصبح الصراع مكشوفاً وعنيفاً بين الخليفة وقائده العجوز مؤنس الذي غدا الآن مريضاً بالنقرس حتي انه أوكل شؤون الجند الى غلامه يلبق الذي كان ينوب عنه فى لقاء الخليفة . وبدا لمؤنس ان الحاشية وعلى رأسها الوزير الحسين بن القاسم وهارون بن الخال ومفلح وياقوت الحاجب وابنا رائق(١) وغيرهم، أوعزوا صدر المقتدر عليه بحيث أخذ بجرده وجماعته من السلطات، بل بدا واضحاً انهم يريدون ان يوقعوا به . ومن ثم خرج مؤنس من بغداد نحو الموصل فى خمسمائة من مماليكه البيض والسود ونحو سبعين من القرامطة الأشداء (وهذا أمر يلفت النظر) يسند ظهره جيش من الف وخمسمائة بقيادة يلبق(٢) . وحين ضاقت الحيل بمؤنس فكر في ان خير ما يفعله ان يلجأ الى بني حمدان لانه كما يقول عريب « لم يجد في نفسه أوثق عنده ولا اشكر ليده من بني حمدان فأنه كان عند ذكره اياهم يقول هم أولادي وانا اظهرتهم » وكانت له عند الحسين بن حمدان(٣) وديعة فأراد ان يجتاز به ويأخذها

---

(١) كان ابنا رائق (من الاتراك) من حزب مؤنس وقد رفع مكانتهما في بلاط المقتدر ثم تحولا ضده .

(٢) تنسب الى يلبق فرقة من المماليك اليلبقية (مسكويه ١/٢٦٠)

(٣) صلة الطبري (١١٨ - ١٢٠) الحسين بن حمدان . هو أبو عبدالله الحسين بن سعيد بن حمدان (ديوان ابي فراس ص ١٣٣)

ويسير بها الى الرقة ، وقد كان بلغه تجمع بني حمدان وحشدهم لمحاربته فلم يصـــدق ذلك ثقة منه بهم »(١) . ويضيف ابن الاثير(٢) ما يؤيد أقوال عريب ، فقد قال مؤنس حين بلغه استعداد الحمدانيين لحربه وان داود بن حمدان عازم على قتله: « كيف يقاتلني وقد اخذته طفلا وربيته في حجري » . والحق ان بغداد أمرت بني حمدان بقتال مؤنس وأجمع اقطاب الاسرة على ذلك عدا داود الذي رفض ان يقف هذا الموقف ، فقد كان مؤنس قد تبناه بعد موت ابيه حمدان ورباه في حجره وأحسن إليه إحساناً عظيماً ، مما يلقي اضواء على العلاقة المتينة بين مؤنس وبين حمدان .

ماذا كانت نوايا مؤنس ؟ يقـول ابن الاثير(٣) انه كتب وهو في طريقه الى الموصل الى رؤساء القبائل العربية يستدعيهم ويبذل لهم الاموال ويزعم لهم ان الخليفة ولاه الموصـل وديار ربيعة . في حين يذكـر عريب(٤) - كما أسلفنا - انه كان يريد ان يأخذ ودائعه لدى الحسين بن حمـدان(٥) ويذهب الى الرقـة . ومهما يكن من أمر فأن الحمدانيين

---

(١) عريب ، صلة الطبري ص ١١٨

(٢) ابن الاثير ج٥ ص ٢٢٩

(٣) ج٨ ص ٢٢٩

(٤) ص ١١٨

(٥) ذكر ابن خالويه (شرح ديوان ابي فراس ١٢٢) سيرة الحسين بن سعيد بن حمدان، وقال انه كان يشارك في امارة الموصل مع عمه نصر . وكانت له وقعة مع ابي يوسف الشاري ، وكان الحسين يمارس الحرب ونصر يضبط الامور الادارية للجيش . وانتصر الحمدانيون واسروا الخارجي الذي اشار قبل الحرب الى ضخامة جيش الحمدانيين وطلب مبارزة الحسين وابي السرايا بقوله :

دعني من البهـــم وهات الجلة ابا الســـرايا وابا عبدالله

استجابوا لطلب الخلافة في التصدي لقتال مؤنس وجحدوا الفضل العميم الذي اسداه ال افراد اسرتهم . وربما كان للوشايات أثر في موقف الحمدانيين من مؤنس ، فقد يكون قد وصل الى علمهم ما قاله لشيوخ القبائل في طريقه الى الموصل من ان الخليفة ولاه الموصل وديار ربيعة ، فأشفقوا على مركزهم وانبروا للدفاع عن وطنهم . ثم نستطيع ان نضيف الى ذلك عدم الثقة بين الحمدانيين ومؤنس وغيره من الاتراك والاجانب الذين كان لهم الامر في هذا العصر ، وقد يكونون مدفوعين بالاطماع والمطامح التي يستطيعون ان يحققوها بوقوفهم الى جانب الخلافة . يؤيد كل ذلك الرسالة التي وافى بها مؤنساً بشرى النصراني كاتب ابي سليمان داود بن حمدان في آخر محرم ، « وأدى اليه رسالة صاحبه ورسالة الحسين بن حمدان وابي العلاء وابي السرايا بأنهم على شكره ومعرفة حق يده ولكنهم لا يدرون كيف الخلاص مما وقعوا فيه ، فأن اطاعوا سلطانهم كانوا قد كفروا نعمة مؤنس اليهم وان اطاعوا مؤنساً وعصوا سلطانهم نسبوا الى الخلعان وسأوه ان يعدل عن بلدهم لئلا يلتقوا به ولا يمتحنوا بحربه » . فقال له مؤنس : « قل لهم عني قد ظننت بكم غير هذا وما اخذت نحوكم الا لثقتي بكم وطمعي في شكركم ، فاذا خالفتم الظن فليس الى العدول عنكم سبيل ونحن سائرون نحوكم بالغد كائناً ما كان منكم وارجو ان احساني اليكم سيكون من انصاري عليكم وخذلانكم لي غير صارف لفضل الله عني »(١) .

وصل مؤنس فعسكر في قصور مرج جهينة ، على حين عسكر

(١) عريب ، صلة الطبري ١١٨ - ١١٩

الحمدانيون بحصباء الموصل . ويروي الفرغاني عن شاهد عيان شهد المعركة وكان ضمن جيش مؤنس(١) . ان القتال جرى يوم الاحد ٣ صفر سنة ٣٢٠ . وكان جيش مؤنس قليل العدد يتكون من ثمانمائة وثلاثة وأربعين فارساً وستمائة وثلاثين راجلا (بين اسود وابيض)(٢) ، على حين كان بنو حمدان في جيش ضخم من العرب والعجم والقبائل الاعراب (اما ابن الاثير(٣) فقد قدر جيش الحمدانيين بثلاثين الفاً كان منهم جماعات من مصر والشام وبغداد) . وفي بداية الحرب أصابت نبلة داود بن حمدان دخلت من كم درعه فصرعته(٤) . وحملت

---

(١) هو احمد بن المحسن زعفران الذي نقل عنه الفرغاني (عريب ، صلة الطبري ١١٩)

(٢) صلة الطبري ١١٩ . ابن الاثير ٢٣٨/٨ (ثمانمائة رجل) .

(٣) الكامل ٢٤٠/٨ .

(٤) يقول ابن خالويه (ديوان ابي فراس ١٣٢) في شرح قول ابي فراس « وعمي الذي سمته قيس مزرفناً » : كان ابو سليمان (داود) مع اخيه ابي الهيجاء يوم العقبة .. وكان يخترق الرماح فتسرع اليه فلا تماقه فسمي يومئذ بالمزرفن، ووجد في يده اربع وعشرون طعنة وطعنة عبدالله بن مرووع الضبابي طعنة في صدره كادت تقتله . وسألت بعض من شهد الوقعة من شيوخ العرب عن موقف أبي الهيجاء وابي سليمان فقال لابي سليمان ... المزرفن اول النهار ولابي الهيجاء آخره . وكانت تحت ابي سليمان فرس برشاء صبرت على الطراد والجراح كصبره فطلبها المقتدر فقادها اليه فبلغني انه كان يركبها ويكر على الخدم ويقول : انا المزرفن .

ويقول ابن الاثير (٢٤٠/٨) ان داود سمي بالمجفجف وفيه يقول الشاعر :

لو كنت في الف الف كلهم بطل ... مثل المجفجف داود بن حمدان ... الخ

يقول ابن الاثير « ٢٣٩/٨ » رفض داود ان يقاتل مؤنساً . فلم يزل به اخوته حتى وافق . وذكروا له اساءة الحسين وابي الهيجاء الى المقتدر وانهم يريدون غسل هذه السيئات . وقال لهم : والله انكم لتحملوني على البغي وكفران الاحسان . وما آمن ان يجيئني سهم عائر فيقع في نحري فيقتلني .

ميمنة يلبق على ميسرة بني حمدان ، فقلعتها وطحنتها وغرق اكثرهم في دجلة ثم حمل يلبق بنفسه ورجاله الذين كانوا في القلب على قلب عسكر بني حمدان فهزموا من كان فيه واتصل القتل فيهم وأسر ابن لأبي السرايا ابن حمدان .. ودخل مؤنس الموصل لأربع خلون من صفر(١) » .

كان انتصار مؤنس حاسماً وغير متوقع ، وقد التحق بجيشه بعد النصر كثير من انصار الحمدانيين . وحاول بنو حمدان انقاذ ما يمكن انقاذه فتوجه ابو العلاء بن حمدان واخوه ابو السرايا نصر الى بغداد طالبين نجدة الخليفة(٢) . وتحصن الحسن (ناصر الدولة) في جبال معلثايا مع جماعة من غلمان الحمدانيين ، لكن يلبق هزمه ففر الحسن الى الجانب الغربي هارباً(٣) . وخسر الحمدانيون نفوذهم في المنطقة - موقتاً - فقد عزل ولاتهم وعمالهم وقلد يلبق (بالنيابة عن مؤنس) اقرباءه وانصاره اعمال نصيبين وجزيرة ابن عمر والحديثة وغيرها من اعمال الجزيرة . وارتفعت سمعة مؤنس في بغداد فعاد اليه كثير من انصاره القدامى ، كما عاد اليه بني بن نفيس من بلاد الروم في قومه(٤) ، وبدر الخرشني من أرزن في ثلاثمائة رجل وطريف السبكري من حلب في اربعمائة فارس (وهؤلاء من القادة الاتراك) . والتحق بعسكر مؤنس كذلك كثير من انصاره القدامى في بغداد امثال بالدوا (غلام ابن ابي الساج)

---

(١) الصلة ١٢٩ . كذلك الكامل ٨/٢٤٠

(٢) الصلة ١١٩ .

(٣) نفس المصدر ١٢٠

(٤) يقول ابن الاثير ٨/٢٣٥ ان بني (بضم الباء وتشديد النون) بن نفيس صاحب المقتدر وكان قد تنصر والتحق بالروم

في ماثتي فارس . بل ان الحسن ناصر الدولة لم يلبث ان طلب اللجوء الى مؤنس بعد أن ضاقت به الأرض وانقطع امله في ان تصله نجدة من الخليفة ، فآمنه مؤنس وفرح بقدومه وقال له : « نحن في ضيافتك منذ سبعة اشهر على كره منك . فشكره الحسن ولم يزل واقفاً بين يدي مؤنس في دراعة وعمامة بغير سيف (دلالة على الاستسلام والخنوع) مدة مقام مؤنس بالموصل »(١) . وهكذا تتجلى لنا قدرة ناصر الدولة على التقلب السياسي مدفوعاً بطموحه .

أصبح مؤنس سيد الموقف، وبخاصة بعد ان ساءت الاحوال في بغداد وثار العامة على المقتدر واتهموه بأنه أضاع الثغور وابطل الجهاد وانقطع عن النظر في أمور المسلمين و « اشتغل بالغناء والزنا عن النظر في أمور الحرمين والثغور ، يفرق مال الله في اعداء الله ولا يخاف عقاباً ولا ينتظر معاداً »(٢) . انتهز مؤنس هذه الأوضاع فسار الى بغداد بعد ان قلد من يثق بهم أعمال الموصل ونصيبين وبعربايا وغيرها من أعمال الجزيرة . ومن الطريق راسل مؤنس المقتدر مظهراً انه ليس بعاص ولا يريد احداث الفتن واراقة الدماء ، وطلب الى الخليفة ان لا يتصدى لحربه في ذلك الشتاء والفرقة وذهاب العدد وحدوث البلاء وفناء الرجال »(٣) . غير ان الحاشية التي تكره مؤنساً وتخشاه اكرهت المقتدر على القتال ، وانتهى الامر بقتله ومجيء القاهر الى الخلافة في يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة ٣٢٠/٩٣٢م . والذي يهمنا هنا اننا نجد في جيش المقتدر ابا الوليد

---

(١) صلة الطبري ١٢٠ . ابن الاثير ٨/ ٢٤٠

(٢) صلة الطبري ١٢١

(٣) صلة الطبري ١٢٢ يقول ابن الاثير ٨/ ٢٤٣ ان المقتدر بذر وضيع سبعين مليون دينار

سليمان بن حمدان (شيخ بني حمدان)(١) الذي أسره عسكر مؤنس ، كما نجد ايضاً ابا العلاء سعيد بن حمدان الذي نصح المقتدر ان لا ينسحب من المعركة لئلا ينهزم جيشه .

كان الحسن ناصر الدولة يسعى سعياً حثيثاً لتكوين مجده الشخصي وإرساء دعائم إمارة واسعة فى الجزيرة تكون الموصل حاضرتها ويكون هو أميرها غير المنازع . والحق ان ناصر الدولة كان ممكناً له أن يقوم بمثل هذا الدور . لقد عاش ناصر الدولة طوال حياته عيشة عسكرية خشنة اشبه بعيشة الجنود منها بالأمراء ، وقد مثل الخصال البدوية خير تمثيل حتى فى أوج مجده . فقد كانت حياته خشنة وبسيطة حتى في عهد توليه امرة الامراء ، وبخاصة اذا قورنت بحياة الخاصة في ذلك العصر :

أخذ ناصر الدولة منذ ان تولى أعمال ابيه يسعى الى غاياته بدون كلل ، وقد سلك فى سبيل الوصول اليها طرقاً ملتوية كانت تدفعه في كثير من الحالات بالعقوق لاسرته وبالخروج على السلوك السوي . ومن هذه المواقف التي لا تبرر خلقياً جره عمه داود الى معركة ضد مؤنس خسر فيها حياته ، ثم انحيازه هو الى مؤنس بصورة مكشوفة . اما الحادثة الاخرى فهي اغتيال عمه ابي العلاء سعيد في سنة ٣٢٣/٩٣٤ م لأنه ضمن اعمال ابن اخيه (ناصر الدولة) سراً بمال يحمله الى ديوان الخليفة

---

(١) صلة الطبري ١٢٤

الراضي ببغداد(١) . وتفصيل الأمر ان سعيداً ذهب الى بغداد سراً فضمن الموصل وديار ربيعة دون علم ابن اخيه الذي كان أميراً بها بصورة رسمية. وخرج سعيد من بغداد في خمسين رجلا ، بحجة انه متوجه ليطلب مال الخليفة من ابن اخيه ، فلما وصل الى الموصل خرج ابن اخيه للقائه لكنه تعمد ان يذهب من طريق آخر ، وربما كان انصاره وأعوانه في بغداد قد وافوه بالاخبار فأراد ان يأخذ عمه على حين غرة . ووصل ابو العلاء سعيد الى الموصل فدخل دار أبن اخيه وسأل عنه فقيل : انه خرج الى لقائك . وجلس ينتظره ، فلما علم ناصر الدولة بوجوده في داره أرسل جماعة من غلمانه فقبضوا عليه ثم انفذ جماعة آخرين قتلوه(٢) . فأي خلق عجيب في هذا الموقف ؟ ان بعض اللوم بطبيعة الحال ينصب على ابي العلاء سعيد ، فما كان يجب ان يسلك هذا السلوك ضد ابن اخيه ، غيران تصدي ناصر الدولة الى قتل عمه وهو ضيفه وفي داره أمر لا ينسجم مع قيم الضيافة وصلة الرحم .

كان أبو العلاء سعيد أحد أولاد عديدين ذكور لحمدان بن حمدون ، واستطيع ان اجزم بأنه كان من أم اخرى غير أم ابي الهيجاء عبدالله والد الحسن لناصر الدولة . ذلك ان حمدان - كما يبدو - تزوج عدة زوجات ربما كان بينهن زوجة كردية . وسعيد هذا هو ابو الشاعر الحمداني ابي فراس الحارث ، الذي ولد في سنة ٩٣٢/٣٢٠ م وكان عمره ثلاث سنوات فقط حين اغتيل ابوه(٣) وكان ابو العلاء مقرباً لدى المقتدر اثيراً عنده

---

(١) الذهبي ١٦/ ورقة ٤٣ ب : ابن الاثير الكامل ٢٠٩/٨ « بيروت » و ص ٩٨ « مصر »

(٢) الذهبي ، تاريخ الاسلام ١٦/ ورقة ٤٣ ب

(٣) يقول ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٣٥٢/١ « مصر » ، كان مولد ابي فراس في سنة ٣٢٠ وقيل ٣٢١

حتى قال ابن خالويه (١) : « وكان ابو العلاء سعيد بن حمدان ملازماً حضرة المقتدر مكيناً عنده وكان اكثر مواقفه بين يديه وعلى بابه ، ولما عظم أمر الرجال وساروا الى باب المقتدر في اربعين الفاً فهزموا ابن ياقوت الحاجب والحجرية والساجية معهم ، وكان أبو العلاء في دار الخليفة ، عن غير أهبة فأمره بالخروج اليهم ودفع اليه جيوش المعتضد وخرج فيمن خرج معه من غلمانه وضرب فيهم فغشوه في كل ناحية واثخنوه بالجراح وثبت حتى هزمهم » . ونحن نجد سعيداً فعلا في جيش المقتدر في المعركة الحاسمة التي قتل فيها الخليفة من جانب جيش مؤنس ، فقد روى عريب(٢) ان المقتدر - حين رأى رجحان كفة مؤنس - « اراد العدول الى المضرب أو الى الحراقة (٣) فلقيه سعيد بن حمدان فقال له : يا أمير المؤمنين قد وقعت العين على العين فأن رآك من حولك قد زلت انهزموا وانفلوا » .

ان اغتيال ناصر الدولة عمه سعيداً اوغر صدر الخليفة الراضي الذي انكر هذا العمل واعتبره تحدياً له . ذلك ان الخليفة فيما يبدو كان ينوي عزل ناصر الدولة عن الموصل التي نالها جزاء انحيازه الى مؤنس(٤) . ولا بد ان ناصر الدولة كان يؤخر الاموال المقررة عليه او ينقطع عن ارسالها في وقت كانت السلطة المركزية فيه في اشد الحاجة الى المال ، فاستغل سعيد حاجة البلاط هذه ، وربما وعد بأرسال مبالغ مغرية . ومهما يكن من شيء فنحن لا نستطيع نغتفر لناصر الدولة هذه الفعلة

---

(١) ديوان ابي فراس ، الشرح ، ١٣٤

(٢) صلة الطبري ١٢٤

(٣) الحراقة نوع من السفن

(٤) الذهبي ، تاريخ الاسلام ١٦/ ورقة ٤٣ ب

التي تدل على الغدر ولا يمكن تبريرها بان عمه هو الذي بدأه بالخيانة ، فقد كان يستطيع ان يعتقله ويسجنه مثلا . لكن مزاج ناصر الدولة اتضح ويتضح في مواقف اخرى مشابهة، ولم يكن لاعتبار من الاعتبارات - بما في ذلك القرابة - ان يقف في طريق طموحه : وعبر الراضي عن غضبه بأرسال جيش بقيادة الوزير ابن مقلة لقتال ناصر الدولة ، الذي رحل عن الموصل الى (الزوزان) فلما تبعه الوزير الى جبل (التنين) لم يستطع ان يظفر به فعاد الى الموصل يجبي اموالها . ولما بدا ان الوزير اطال البقاء بالموصل لجأ بعض اصحاب ناصر الدولة في بغداد الى الحيلة ورشوا ابن الوزير فكتب اليه ان يعود الى العاصمة لان شؤونها قداختلت، فعاد ابن مقلة بعد ان عين على الموصل عاملين يثق بهما هما علي بن خلف بن طياب وماكرد الديلمي ، ومن ثم عاد ناصر الدولة فخاض حرباً مع ماكرد هزم فيها ، ثم عاد فجمع جيشاً جديداً هزم ماكرد عند نصيبين في ذي الحجة سنة ٣٢٣ . وحين عجز العاملان عن تحقيق اي نصر عادا الى بغداد ،فاستولى الحسن ناصر الدولة على الموصل وديار ربيعة، وراسل الراضي يطلب الصفح وأن يضمن البلاد فأجيب الى طلبه(١) ،

وفي بدايات سنة ٩٣٥/٣٢٤ م ازداد نفوذ ناصر الدولة وامتدسلطانه فتولى المنطقةالشاسعة الممتدة من تكريت الى آمد وفق نظام الضمان ،وحاول ان يثبت مركزه باسترضاء الرأي العام في بغداد وسامراء فكان يرسل الدقيق والأقوات الى هاتين المدينتين كلما حصلت مجاعة ، وهو أمر قام به عدة مرات في السنوات ٣٢٤ و ٣٢٩ و ٣٣٤(٢) . أي ان نفوذ ناصر

---

(١) الذهبي ، تاريخ الاسلام ١٦/ ورقة ٤٤ أ . ابن الاثير ٩٨/٨

(٢) مسكويه ، تجارب الأمم ٨١/٢

الدولة اتسع وازداد ايام الفوضى خلال فترة إمرة الأمراء (٣٢٤-٣٣٤/ ٩٣٥-٩٤٥ م) . وفي هذا الصدد يقول الصولي(١) في حوادث سنة ٣٣٠: عز الدقيق بمدينة السلام فلم يوجد فبعث المتقي لله بأبي الفرج المالكي القاضي الى الحسن بن عبدالله يأمره بإدرار حمل الدقيق ، وقد كان المكوك(٢) بلغ ستة دراهم ، فجاء الدقيق في شهر ربيع الأخر فصلح السعر.

٤- الحمدانيون وإمرة الأمراء

(أ) عصر إمرة الأمراء

لم يكن القاهر بالله خيرا من سلفه فقد ورث عيوبه وهي اللهو والتبذير وضعف الارادة واهمال الاصلاح . وفي عهده ظهر بنوبويه وامتد نفوذهم الى فارس والاهواز (٣) . فلما خلع سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م وخلفه الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) (٩٣٤ - ٩٤٠ م) كانت الدولة التي حافظ عليها الخلفاء الأول قد تبددت وتناثرت اشلاء ، فاستقل السامانيون بخراسان وما وراء النهر واحتلوا اذربيجان وارمينية ، وانفصل اهل كرمان ، وصارت مصر بيد الاخشيديين ، واخذ البيزنطيون يجتاحون الثغور واحدا بعد الاخر حتى اضطر الراضي الى مهادنتهم(٤) . اما في الداخل فنجد الخليفة غاية في الجشع وفساد النية ، وخير مثل لذلك تلك المعاملة القاسية التي لقيها علي بن عيسى فقد قبض عليه الراضي سنة ٣٢٣

---

(١) الاوراق ٢٢٥-٢٢٦

(٢) المكوك مكيال وهو ثلاث كيلجات والكيلجة منا وسبعة اثمان (الفيومي ، المصباح المنير ٧٩٣)

(٣) الفخري في الاداب السلطانية ٣٢٣

(٤) Khan Bahadur , Histry of the muslim world, P , 133

وارغمه على ان يوقع ورقة بخمسين الف دينار(١) .

ولما يئس الخليفة من تحقيق الاصلاح كتب الى محمد بن رائق والي البصرة وواسط واسند اليـه امرة الامراء سنة ٣٢٤ هـ أي فوضه جميع شؤون الخلافة .وقدخطا الراضي هذه الخطوة لانوزراءه اثبتوا عجزهم، وكيف نتوقع الاصلاح من اشخاص مرتشين وصلوا الى المنصب عن طريق المؤامرات وشراء الذمم ؟ وسرعان ما غـدا « امير الامراء » ابرز رؤوس الدولة فقد كان يشرف على الإدارة وقيـادة الجيش والشؤون المالية(٢) .وباعلان امرة الامراءبطلت الوزارة «وصارت امور النواحي تحمل الى خزائن الامراء فيأمرون وينهون فيهـا وينفقونهـا كما يرون ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون(٣) . وهكذا غـدا امير الامراء رأس الدولة الفعلي حتى شارك الخليفة في خطبة الجمعة(٤) .

اضمحلت السيادة العباسية في عصر امرة الامراء (٣٢٤-٣٣٤ هـ)، فاعلنت الولايات استقلالها واصبحت البصرة في يد ابن رائق وخوزستان في يد البريدي وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ، واستولى ركن الدولة بن بويه على الري وأصبهان والجبل ينازعه في حكمهـا وشمكير بن زياد اخو مرداويج كما انفصل مغامر آخر يدعى محمد بن الياس بكرمان، واستقل الحمدانيون بالموصل وديار بكر وديار مضر وديار ربيعة. اما مصر والشام فكانت في يد الاخشيديين ،وظهر في المغرب الفاطميون وكان يجلس على

(١) الصولي الاوراق ٦٦

(٢) ابن الاثير ١٠٣/٨ ابن خلدون ٤٠١/٣

(٣) مسكويه . تجارب الامم ٣٥١/١

Mufr , Caliphate , P , 569 (٤)

عرش خلافتهم القائم بامر الله الذي تلقب بلقب امير المؤمنين(١) :
واذا عرفنا ان الأمويين في الاندلس اعلنوا خلافة ثالثة في قرطبة سنة ٣١٧هـ
على عهد عبدالرحمن الناصر وان السامانيين استقلوا بخراسان وما وراء
النهر ، واستولى الديلم على طبرستان وجرجان واستقل ابو طاهر القرمطي
بالبحرين واليمامة(٢) ادركنا انه لم يبق بيد الخليفة غير بغداد وضواحيها
والأمر الفعلي فيها لابن رائق(٣) .

لقد اختلت أمور الخلافة وصارت الدولة ما بين « خارجي قد تغلب
عليها او عامل لا يحمل مالا . وصاروا مثل ملوك الطوائف ولم يبق بيد
الراضي غير بغداد والسواد»(٤) . بل ان الخليفة الراضي اصبح الى جانب
ابن رائق «صورة بلا معنى». ٥) ان الامبراطورية الواسعة التي كانت تتجمع
بقاعها الشاسعة وشعوبها المختلفة تحت رمز واحد هو الخليفة العباسي لم
تعد تؤمن بهذا الرمز فانقسمت الى ثلاث خلافات ، العباسية والفاطمية
والاموية في الاندلس . بل ان مغامرين آخرين لم يعودوا يؤمنون بالدولة
العربية نفسها ، فآمن مرداويج بن زيار الديلمي بضرورة احياء دولة
الفرس القديمة واستولى على قزوين والري واصبهان وطبرستان وجرجان
وهمدان ابتداء من سنة ٣٢٢ هـ بل عزم على أخذ بغداد ذاتها لولا ان
اغتاله غلمانه بزعامة بجكم الديلمي(٦) .

---

(١) الذهبي ، تاريخ الاسلام « مخطوط » ١٦ ورقة ٣٩ ب
(٢) ابن الاثير ١٠٣/٨ . ابو الفدا ٨٤/٢ ، القرماني . اخبار الدول ٩٥/١
(٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ١٥٧
(٤) المصدر السابق ١٥٧
(٥) الذهبي . تاريخ الاسلام « مخطوط » ١٦ ورقة ٣٣ ب - ٣٥ أ
(٦) الصولي . اخبار الراضي والمتقي ٢-٢٢

ونجد في عام ٣٢٦هـ شخصيتين هامتين في تاريخ الدولة العباسية ابان هذه الفترة اولها ابو عبدالله البريدي صاحب الاهواز الذي استولى على واسط وهدد بغداد فقصده الخليفة برفقة ابن رائق(١) ، وثانيهما بجكم الذي سار الى بغداد بالفعل لحرب سيده ابن رائق فدخلها منتصراً سنة ٣٢٧ وآلت اليه إمرة الأمراء(٢) . ولم يكن عهد بجكم خيرا من سلفه فقد بدأ بالشغب والفوضى في كثرة الجرائم والسرقات وندرة الاقوات . وعبر الراضي نفسه عن سوء الاحوال واستبداد الاجانب بقوله(٣) «واكثر ما فيه انه يسألني كلب من كلابهم فلا املك رده وان رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا»...

بلغت الاحوال العامة حداً كبيراً من السوء في أيام إمـــارة بجكم ، بسبب تسلط القواد العسكريين الاتراك ، فمن جهة كان القرامطة ذوي نفوذ في سواد العراق وكانوا يقتحمون الكوفة بسهولة ويسر كلما أرادوا ذلك(٤) ، وكان للشيعة الامامية من جهة اخرى نفوذ وانصار ، حتى ان الراضي نفسه ذكر لخاصته : ان الامامية كانوا يحملون الاموال الى ابي القاسم الحسين بن روح النوبختي(٥) . وكانت الأسعار غير مستقرة في بغداد وتذمر العامة على أشده ، وزاد الطين بلة ان الجند الأجانب كانوا يضايقون الباعة ويعتدون عليهم ، بل انهم ـ بسبب خلاف مع بقال في

---

(١) ابن كثير . البداية والنهاية ١١/١٨٧

(٢) ابن الاثير ٨/٣٤٨

(٣) الصولي ، الأوراق ٤١

(٤) نفس المصدر ٨٨

(٥) نفس المصدر ١٠٤

بغداد ـ أحرقوا حوانيت كثيرة « في سوق الثلاثاء الى ناحية المخرم(١)».
لقد بلغ الاستهتار بابن رائق انه اقدم ـ خلال صراعه مع بجكم ـ سنة ٣٢٦ ـ على احداث خرق في نهر ديالى؛ وفعل افعالا كانت سبباً لبثق النهروان الذي خربت به الدنيا ، وافتقر الناس وغلت الاسعار(٢) » .
يضاف الى كل ذلك ان البريديين ظلوا يهددون جنوب العراق وواسط ، والديلم يخططون للوصول الى بغداد ، والروم يهددون الحدود تهديداً مستمراً . كل هذه الاخطار كانت تحدق بالخليفه ، وهو مكتوف اليدين ومشغول بالصراع الداخلي ولا يستطيع ان يفعل شيئاً خاصة والخزينة خاوية الوفاض ، والفرق العسكرية دائبة على الشغب في طلب الأرزاق .

والحق ان الراضي لفسه شخص الأزمة بقوله لخاصته(٣) :
« كأني بالناس يقولون أرضي هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركي، حتى يتحكم في المال وينفرد بالتدبير ؟ ولا يدرون ان هذا الامر أفسد قبلي ، وأدخلني فيه قوم بغير شهوتي ، فسلمت الى ساجية وحجرية يتسحبون علي ويجلسون في اليوم مرات ويقصدونني ليلا ، ويريد كل واحد منهم ان أخصه دون صاحبه ، وان يكون له بيت مال ... »

ساءت علاقة الخلافة بالحمدانيين بسبب تأخر الحسن بن عبدالله المال المفروض عليه ـ مقابل ضمان ديار ربيعة ـ سنة ٩٣٨/٣٢٧ م ، فخرج الراضي في المحرم من هذه السنة نحو سامراء ومعه بجكم أمير الأمراء

---

(١) نفس المصدر ١٠٤

(٢) نفس المصدر ١٠٦

(٣) نفس المصدر ٤١

متجهين الى الموصل لحرب الحمدانيين ، على الرغم من احتجاج العامة الذين كانوا يكنون للحسن الود والمحبة بسبب امداده بغداد وسامراء بالدقيق والميرة في اوقات الغلاء والمجاعة ، و « لبره بالأشراف وما يتصدق على الضعفي بسر من رأى وبغداد ، ولكفاية اخيه على الناس أمر الثغور والغزو وعنايته بغزو الصايفة وغيرها»(١). ويقول الصولي(٢) - الذي كان بصحبة الخليفة - انه وبعض المخلصين نصحوا الراضي بألا يغادر سامراء ، خاصةوان ابن رائق كان يتآمر لاحتلال بغدادوالاستيلاء على السلطة ، وان الحسن بن عبدالله الحمداني (ناصر الدولة) راسل الخليفة يبدي استعداده بدفع اكثر مما يراد منه من المبالغ . ويعبر الصولي بوضوح عما يدور في اذهان الرأي العام من عطف على الحمدانيين العرب المسلمين ونقمته على جيش المرتزقة الذي يسير به الخليفة الى الموصل « يقول الصولي (٣) انه انفرد بالخليفة بسامراء فنصحه بأن « الناس يتحدثون بأن العسكر الذي قد رحلت لتزيله أشبه بعساكر الاسلام من العسكر الذي تقصده به من قوم لا يرون طاعتك وأشبه بعساكر آبائك ؛ وقد تحدثوا بأن الحسن قد بذل اكثر مما أريد منه ، فأن رأى سيدنا أن يقبل هذا ويرجع الى دار ملكه ويزول ما يخافه من وثوب ابن رايق فأنه غير مأمون ... ومع هذا فأن الحسن بن عبدالله قد نظر الى أقرب الناس من قلبك وهو قاضيك فجعله السفير له والضامن عنه وانه يلقاه فينصرف بجميع ما يريده » . ولما وجد الصولي ان هذا النصح لم يفعل مفعوله في الخليفة استطرد قائلا : «واذا يئس الحسن من قبول سيدنا لما بذل لم نأمن

---

(١) نفس المصدر ١٠٩ .

(٢) نفس المصدر ١٠٩-١١٠ .

(٣) نفس المصدر ١١٠

ان يصرف أمره الى غيره ويلقي نفسه عليه ويتقرب اليه ويحظيه ببعض ما بذله فيجعله صنيعة له ومادة لدهره وعدة لجدته ويكلم من يلقي نفسه عليه سيدنا في أمره ويسأله له ما يريده فيقبل قوله ويهب له أمره فيحظى بما أردنا ان نحظى به ...». غير ان هذا المنطق السليم لم يلق اذناً صاغية من الخليفة الذي أصر على التقدم نحو الموصل . بل ان الراضي فكر فى هجر بغداد واتخاذ سر من رأى عاصمة للدولة ، وحجته فى ذلك ان بغداد «كان في بيت المال بها عشرة آلاف الف دينار فى أيام المعتضد وضعف لها فى أيام المكتفي ، فأما ولا مال بها فهي كسائر البلدان»(١) .

ووصل الخليفة وأمير الأمراء الى الموصل فى أول صفر ، فجاءت الاخبار السيئة من بغداد تفيد ان ابن رائق قد احتلها وتولى الأمور فيها : والطريف في الامر انه استعان لتنفيذ هذه العملية بألف من القرامطة كانوا هم العنصر الفعال فى احتلال بغداد(٢) ، التي شهدت فترة فوضى واضطراب سادها السلب والنهب وانعدام الأمن كما هو مألوف(٣).

ويختلف المؤرخون حول وجود الراضي بالموصل لحرب الحمدانيين، فالصولي يتحدث عن وجوده مع الخليفة فى الموصل حيث يروي تفاصيل هذه الإقامة(٤) . أما ابن الاثير فيقول(٥) ان بجكم سار وحده الى

---

(١) نفس المصدر ١١٥
(٢) نفس المصدر ١١٧-١٢٠ . ابن الاثير ٣٥٣/٨
(٣) الاوراق ١١٨
(٤) نفس المصدر ١٣١
(٥) الكامل ٣٥٣/٨

الموصل على حين أقام الراضي بتكريت ، ويتفق ابو المحاسن(١) مع ابن الاثير في هذا الصدد . والواضح ان رواية الصولي ـ وهو شاهد عيان ـ هي الأصح ، خاصة ولن ابن الاثير يعود فيقول ان بجكم كتب الى الراضي بعد انتصاره على الحسن بن عبدالله (ناصر الـدولة) فسار الخليفة من تكريت الى الموصل عن طريق النهر . ومهما يكن فأن الحسن الحمداني التقى أول الأمر ببجكم بالكحيل ـ على ستة فراسخ من الموصل ـ فلما هزم لجأ الى نصيبين(٢) وحين تبعه بجكم سار ابن حمدان الى آمد. ويقول ابن الاثير(٣) ان الحسن ناصر الدولة عاد الى نصيبين بعد رحيل بجكم عنها عائداً الى الموصل للقاء الراضي ، فاستولى عليها وعلى ديار ربيعة . غير ان ناصر الدولة ارتكب خطأ سياسياً وعسكرياً ، فقد استعجل في طلب الصلح دون ان يعلم باخبار ابن رائق وانهيار عزيمة جيش الخلافة ، ففرح بجكم بهذا الحل واخذ موافقة الخليفة .فتم الصلح فعلا وعاد الراضي وجيشه الى بغداد .وقيل وصولها دخل ابن رائق في مفاوضات مع الخلافة حصل بموجبها على ولاية طريق الفرات وديار مضر (حران والرها وجند قنسرين والعواصم)(٤) . وأود أن اشير هنا الى ان ابن رائق وسع دائرة نفوذه في السنة التالية (٣٢٨/٩٣٩م) فاستولى على حمص ودمشق والرملة حتى بلغ العريش وهدد باحتلال مصر لولا ان تصدى له الاخشيديون(٥) .

ويبدو ان أمر الصلح تقـرر أول الامر بين ناصـر الدولة وبجكم

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٦٤/٣

(٢) ابن الاثير ٣٩٣/٨

(٣) نفس المصدر ٣٥٤/٨

(٤) نفس المصدر ٣٥٤/٨

(٥) نفس المصدر ٣٦٣/٨

وحدهما دون علم الخليفة ، الذي احتج على بجكم بأنه صرف في هذه الحملة مبلغ مائة الف دينار وان ابن رائق استولى في بغداد على مبلغ مماثل . الا ان بجكم فرض رأيه ولم ينل الراضي سوى مبلغ ضئيل لنفقته في العودة الى بغداد دفعه الحسن الحمداني(١) . وهكذا ذهب الخليفة ضحية مخادعة بجكم الذي حصل على حصة الأسد ودمر علاقة الراضي بالحمدانيين ، تلك العلاقة التي كان من الممكن استثمارها في حلف ضد القادة الاتراك امثال بجكم وابن رائق كما نصحه الصولي وغيره من المخلصين له . فقد زوج بجكم ابنته للحسن الحمداني ، وهو زواج سياسي كان الغرض منه ان يقوم حلف بين بجكم صاحب النفوذ الكبير وبين الحمدانيين ، كما قدم الحسن الحمداني رشوة ضخمة لبجكم بلغت مليون دينار لم ينل منها الخليفة شيئاً(٢) .

ما هي الدوافع التي جعلت الراضي يرفض حلف الحمدانيين في مثل ظروفه الصعبة العسيرة تلك ؟ يقول الصولي(٣) ان الراضي طمع في الموصل ذات النواحي الزراعية العامرة « وأكثرها ضياع آل حمدان ، فأقبضها كلها وانفرد بأولئك واجعلها لبجكم واصحابه وهي كفاية وفاضلة عنهم ، ويخلص لي مال ضياعي فأوسع على الناس منه وأعطي من حرمت وأجعل في بيت المال شيئاً يرجع الناس اليه » . اي ان دوافع الراضي كانت مالية بحتة بسبب افلاس الخزينة وحاجته للصرف على شؤون الخلافة . وفي ظني ان الصولي كان يحب الحمدانيين ويتعصب

---

(١) الاوراق ١٣١

(٢) نفس المصدر ١٣٢

(٣) نفس المصدر ١٣١

لهم ؛ فقد رد على الراضي قائلا : « ان هذه الناحية إنما عمرت بعناية ابن حمدان بها ، ونزولهم فيهـا . ولو قد صارت الى غيرهم لعادت خراباً كما عادت فارس بعد عمرو ابن الليث ، وأصبهان ونواحيها بعد ابي دلف » . وعلى كل حال فقد كانت الامور تجري على غير ما يريد الخليفة ، فالاتفاقات التي جرت بين الحسن بن حمدان وبجكم احيطت بجو من السرية ، حتى انه لم يعلم بتزويج بجكم ابنته الصغيرة السن للحسن الحمداني ، حتى وقع بين يديه صدقة عقد الزواج . وتحسنت بسبب هذا الزواج غير المتكافيء العلاقات بين ابن حمدان وبجكم فتبادلا الهدايا النفيسة فأرسل بجكم للحسن هدية « فيهما خمسون ثوباً من فاخر الفرش والديباج ومثلها من الخز وعشرة مراكب على عشرة افراس، وجاءت من الحسن هدية الى بجكم تزيد على هذا(١) » . اصبح عهد بجكم كعهد غيره من امراء الامراء الاجانب عهداً لايطاق، فبالاضافة الى كل ما اسلفنا ، انحطت قيمة النقد بسبب الغش في ضرب الدنانير وسوء الاستعمال في دار الضرب ، وكان بجكم هو الذي يوعز بضرب دنانير رديئة(٢) .

توفي الراضي بالله سنة ٣٢٩هـ فامر بجكم وهو في واسط بعقد مجلس عام يحضره الوزير سليمان بن الحسن وجميع الوزراء السابقين واصحاب الدواوين والقضاة والفقهاء والعلويون والعباسيون والشخصيات البارزة من اهل بغداد . وقرر هؤلاء بناء على رغبة بجكم انتخاب ابراهيم بن المقتدر خليفة ولقب بالمتقي لله(٣). ومعنى ذلك ان عقد هذا المجلس لم

---

(١) نفس المصدر ١٣٣

(٢) نفس المصدر ١٣٦

(٣) مسكويه ٢/٢ ، ابن الاثير ٣٦٨/٨ ، ابن خلدون ، العبر ٤٠٩/٣

يكن سوى اجراء صوري لإيهام العامة والمحافظة على المظاهر الشرعية في انتخاب الخليفة .

قتل بجكم سنة ٣٢٩ وهو في الصيد فانضم غلمانه من الديلم الى ابي عبدالله البريدي الذي اشتد ساعده فترك البصرة الى واسط ثم دخل بغداد يوم الثلاثاء ٢ رمضان من هذه السنة . ولم يتعظ البريديون بالتجارب الماضية فلجأوا الى سلاح ذى حدين فاستخدموا الجند للشغب على الخليفة طالبين الاموال ، وحين نفذت اموال المتقى شغب الجند على البريديين انفسهم واحرقوا دورهم ونهبوها ففروا الى واسط ، واستدعى الخليفة ابن رائق فدخل بغداد في ٢٦ ذى الحجة سنة ٣٢٩هـ وتقلد امرة الأمراء(١) .

تم مجيء ابن رائق الى امرة الامراء في ظروف شاذة . ونحن نرى انباء الفوضى تتكرر على نفس النمط : قوافل التجار تنهب ، البيوت تسرق ، والجند من اتراك وديلم وغيرهم يصطرعون، والأسعار ترتفع ، والناس تلقى الأذى والمشقة في حياتهم اليومية . وهنا يجب ان نؤكد على تحول جديد وجدي وخطير في تاريخ الخلافة العباسية وهو ازدياد عدد الديلم واستفحال خطرهم . حتى ان المتقي وجه نداء الى العامة - تحت الحاح وضغط القواد الأتراك - هذا نصه : « يا معاشر العامة ان امير المؤمنين قد اباحكم دماء الديلم واموالهم !(٢) » . ويقول الصولى(٣) أن الذين تحمسوا لتنفيذ هذا النداء كانوا « شذاذ بغداد

(١) مسكويه ٢/٢٣
(٢) الاوراق ٢٠٧
(٣) نفس المصدر والمكان

وملاحيهم وعياريهم » ، بحيث انهم مضوا في المهمة الى حد « قطع انافهم واذانهم واصابعهم وهم قيام احياء » . غير ان الناس الأسوياء - وهم الأغلبية الساحقة - استفظعوا هذا الفعل « واستعظموه وكرهوه(١) » . وجاء ابن رائق اميراً للامراء - بدعوة من الخليفة - في اواخر سنة ٩٤٠/٣٢٩م ، « وطوق بطوق عظيم مكلل بالجوهر وسور بسوارين ، وجعل يشكو ثقل الطوق .. ولزم الشرب ليله ونهاره اياماً متوالية(٢) » . فأي نفع يرجى من مثل هذا المنقذ !!

ماذا نجد وراء هذه التفاصيل من معاني ؟ اول ما نجده هو ان الخلافة فقدت مركزها ، وان الأمر تركز في ايدي اصحاب القوة من العسكريين الأتراك الذين جمعوا حولهم فرقاً من المرتزقة يدفعون لهم الأرزاق السخية على حساب الخلافة من جهة وعلى حساب عامة الشعب - بالدرجة الاولى - من جهة اخرى . ونحن نجد ايضاً ان فرق المرتزقة كانت تتحول بسهولة ويسر من قائد الى آخر اذا وجدوا ان العطاء هناك اسخى واوفر . وقد ادى هذا الصراع بين الطامحين الى السلطة كالبريديين وابن رائق وغيرهم الى تدمير اقتصاديات البلاد ونهب الثروات وافقار الريف والمدينة على حد سواء .

ثم انتصر البريديون ودخلوا بغداد وسط الفوضى . كان الغذاء يتحول كله للجيوش المتصارعة ، والخبز يرتفع سعره حتى يبلغ الرطل بدرهم ثم ينعدم وجوده(٣) .. وفي سبيل النكاية يفتح ابن رائق السجون

(١) نفس المصدر ٢٠٨

(٢) نفس المصدر ٢٠٩

(٣) نفس المصدر ٢٢٣

لتشيع الفوضى في العاصمة ويعم نهب التجار وأبناء الطبقة المترفة .
لقد كانت قوى البريدي ضخمة بدليل ان جيش الخلافة وقوة ابن رائق و « القرامطة » ـ الذين تحول الان بعضهم الى جنود محترفين ـ اخفقوا في صدهم(١) .

وفي الوقت المناسب نجد الحمدانيين ينبرون لكي يلعبوا دورهم في تقرير المصير ، فقد كانت هناك فرقة عسكرية حمدانية بقيادة الحسين بن سعيد بن حمدان تنتظر ما تسفر عنه نتائج هذا الصراع ، فلما ظهر واضحاً ان البريديين قد دخلوا بغداد فعلا ، وضع الحمدانيون انفسهم في خدمة الخلافة واقنعوه بالسير معهم الى سامراء باتجاه الموصل ، حيث وصلها في رجب (٩٤١/٣٣٠م)(٢) . وتبدو حمية الحمدانيين في السيطرة على الموقف ان الحسن الحمداني (ناصر الدولة) أرسل اخاه علياً (سيف الدولة) في جيش كثيف لنجدة الخليفة ضد البريديين ، لكن هذا الجيش التقى بالخليفة وابن رائق بتكريت وقد انهزما أمام البريديين . وقد أظهر علي بن عبدالله (سيف الدولة) للمتقي غاية الاحترام وخدمه بنفسه وقدم له ولصحبه الثياب والفرش والدراهم وسار في ركابه الى الموصل(٣) .

هنا تعترضنا مشكلة : كان الخليفة وابن رائق مهزومين لاجئين الى آل حمدان ، وقد كان علي بن عبدالله (سيف الدولة) قد جاء بهما ، وكان الحسين بن سعيد بن حمدان قد تقدمهما ، اي ان الحمدانيين

---

(١) نفس المصدر ٢٢٥

(٢) نفس المصدر ٢٢٥

(٣) ابن الاثير ٣٨٢/٨ ، كتاب العيون ورقة ١٩٤ أ

كالوا اصحاب الموقف . فلماذا يغادر الحسن ناصر الدولة الموصل الى (معلثايا) على مقربة من الموصل(١) ؟ أغالب الظن ان ناصر الدولة لم تبلغه انباء هزيمة الخليفة وابن رائق ودخول البريديين بغداد ، وانه ظن عند وصولهما قرب الموصل انهما انما قصدا الى حربه او لمطالبته بمبالغ الضمان المقررة . ويؤكد الصولي هذا بقوله ان اخباراً وصلت للحسن ناصر الدولة ان ابن رائق قد عزم على قتله(٢) . اما الذي حدث فعلا فان ناصر الدولة هو الذي قتل (ابن رائق) . ان اولى رواية عثرت عليها لقصة اغتيال ناصر الدولة لابن رائق هي الرواية التي وردت في كتاب العيون(٣) وانا الخصها عنه مع حرصي على المحافظة على هذا النص القيم الزاخر بالتفاصيل .

.. حين وصل المتقي وحاشيته الى الموصل نزل هو في دار ابي فهد الموصلي ونزل ابن رائق في دار قريبة ، ونزل علي بن عبدالله بن حمدان (سيف الدولة) بالدير الأعلى في « خيمة » . أما الحسن ناصر الدولة فقد تحصن في احدى قلاع الحمدانيين بالجزيرة . وقام علي (سيف الدولة) بدور السفير بين الخليفة واخيه الحسن ، ويبدو انه أوضح له الموقف ، فنزل من قلعته قاصداً الموصل ، وفي حادث عارض يشخص لنا صاحب كتاب العيون(٤) العقدة التي أوغرت صدر « السفير » على الحمداني (سيف الدولة) علي ابن رائق حين يقول : « وكان علي بن

---

(١) ياقوت . معجم البلدان ٨/٩٩

(٢) ٢٣٦

(٣) ورقة ١٩٤ - ١٩٥ وما بعدها

(٤) ١٩٤ ب

عبدالله بن حمدان قد وافى ابن رائق ، وكانا يدخلان جميعاً الى المتقي فيأمرهما بالجلوس بين يديه ، وكان محمد بن رايق قد دعاه علي بن عبدالله مرات كثيرة الى دعوته فكانا اذا جلسا للشرب وعمل الشراب في ابن رايق وصف نفسه بالرجولة والشهامة وازرى ببني حمدان ، وقال : أي شيء تسوون انتم ؟ وأي يوم كان لكم ؟ وهل انتم إلا أعراب ؟ فكان يعظم ذلك على علي بن حمدان ويحقد عليه ويقع له ان هذا الكلام عن خبث في نفس محمد بن رايق لهم ، وانما كان جهلا منه وتركاً للحزم » .

لا بد ان علياً كان يوافي اخاه بكل هذه التفاصيل ، لذلك ظل الحسن على حذره المعهود عنه ، فلم يدخل الموصل بل أقام في قرية فوقها بفرسخ تدعى واسط . وهنا يتحدث ذكا الحاجب - الذي يرد ذكره في كتاب الأوراق للصولي(١) كثيراً خلال هذه الفترة - فيقول(٢) انه كان اول من قابل الحسن من اصحاب الخليفة « فدخلت اليه وهو في خيمة ، فقام الي وسلم علي وجلسنا . واخذ يسألني عن هزيمتنا وعن اشياء اخرى من امر الخليفة . وشكرني على قصدي إياه وانصرفت من عنده ورجعت الى الموصل ... » .

ويبدو ان سوء الظن كان متبادلا بين الحسن وابن رائق وان كليهما كان يحاول الغدر بصاحبه ليخلو له الميدان ويستأثر بالخليفة الشرعي ، ومن ثم يعلن نفسه أمام الرأي العام اميراً للامراء وصاحب القدح المعلى في الأمر والنهي ، وبالفعل راجت في الموصل الأشاعات ان ابن حمدان

---

(١) الاوراق ١٠٧ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ... الخ

(٢) كتاب العيون ورقة ١٩٥ أ

يريد القبض على ابن رائق . وتطوع احد غلمان الحسن بن حمدان بالجاسوسية فقصد ابن رائق سراً وقال له(١): اخل لي مجلسك فأن في عنقي نصيحة ... أنا غلام ابي محمد بن حمدان ومعه جئت من الجزيرة ، والرجل في الحيلة عليك . الله الله في نفسك فكن مستظهراً ، وان قدرت ان لا تجتمع معه في موضع واحد فافعل ، فأن الرجل قد طمع فيك لضعفك وضعف رجالك وتفوقه بالمال والسلاح . وحين عرض ابن رائق على هذا المتطوع بإفشاء سر سيده مالاً رفض هذا المال واعلن انه إنما فعل ذلك نصحاً لابن رائق وشفقة عليه !

يبدو حسب ما ورد في كتاب العيون(٢) ان المتقي وابن رائق حين وصلا الموصل انما كانا يريدان ان يحصلا على اموال للصرف على الجيش الذي كان بصحبتهم ، ثم يسيران الى الشام حيث يتخذ الخليفة دمشق داراً للخلافة باعتبار انها كانت بيد محمد بن يزداد وخليفة ابن رائق(٣) . وانما اعتقد ان كلا الطرفين - ابن حمدان وابن رائق - كانا يخططان لكسب الخليفة الى جانبهما بصورة نهائية في الموصل أو في دمشق ، وعندها يكون المتفوق فيهما هو الذي كسب تأييد السلطة الشرعية ذات النفوذ الديني لدى العامة .

وهنا اترك الحديث اصاحب كتاب العيون(٤) : اتفق الخليفة وابن

---

(١) العيون ورقة ١٩٥ ب

(٢) نفس المصدر ورقة ١٩٥ ب

(٣) ابن الاثير ٣٨٣/٨

(٤) ١٩٦ أ - ١٩٩ ب

رائق على ان يمضي ابو منصور ابن المتقي (ولي العهد) وابن رائق الى مضارب الحسن بن حمدان لكسب وده وازالة ما علق في نفسه من سوء الظن. غير ان الحسن بن عبدالله (ناصر الدولة) كان يكره ابن رائق وكان يخشاه ويشك في نواياه ، وقد أدرك المتقي ذلك وعرفه لذلك نصح ابن رائق ألا يعبر الى ناصر الدولة وأن يذهب ابنه ابو منصور وحده سفيراً. الا أن ابن رائق أصر على مقابلة لناصر الدولة : واذا أردنا ان ننفذ الى ما وراء النصوص فأننا نستطيع ان نجـــزم بأن الخليفة كان قد اتفق مع الحمدانيين (سراً) على التخلص من ابن رائق ، أو لعـــل الحمدانيين انفسهم قد أقنعوا الخليفة بأن يوقعوا بابن رائق على ان يسند اليهم إمرة الامراء ببغداد وأن يكونوا حلفاءه مادياً وأدبياً في الخلاص من ورطته. ويبدو لي كذلك ان علياً (سيف الدولة) قـــام بالدور الخفي في هذا الاتفاق السـري ، لأنه ـ وهو الذي قدم مع الخليفة من بغـــداد ـ يترك مقامه في الدير الأعلى ـ بالجانب الغربي ـ ويلتحق بمعسكر اخيه بالجانب الشرقي دون علم من ابن رائق الذي ارتاب بالأمر بعد ان وقف عليه(١)؛

ويروي ذكا(٢) الـذي كان يرافق ابن الخليفة وابن رائق : « وسار ابن المتقي ونحن بين يديه، استقبلنا ابو عبدالله ابن ابي العلاء(٣) وجماعة من بني حمدان وجاء علي بن عبدالله وسلموا على ابن المتقي وســـارت

---

(١) العيون ١٩٦ ب

(٢) نفس المرجع ورقة ١٩٧ أ

(٣) هو الحسين بن سعيد بن حمدان ، الذي كان قد سار امام الخليفة بعد هزيمته أمـــام البريديين « انظر الصولي ٢٢٥ »

الجماعة بين يديه حتى وافينا المضرب وابن رائق ينكر تأخر ابي محمد الحسن عن استقبال ابن المتقي ويقول لأولاد عمه (يعني أولاد عم الحسن ناصر الدولة) : ياقوم يترفع عن ان يستقبل ابن الخليفة . هذا قبيح ! حتى وافينا باب المضرب ، فنزل سائر القواد الا القرامطة ، فأنهم أقاموا على دوابهم خارج المضرب ، ودخلنا المضرب ، واذا الحسن بن حمدان قائم في الدهليز الذي في المضرب . فلما دخل ابن الخليفة قبل يده ، واخذ بعنان فرسه عند البساط ونزل وجلس في وسط الدست ، ثم رجع الى خلف حتى استقبل ابن رائق واخذ بعنان دابته حتى انزله في الموضع الذي قدم فيه دابة ابن المتقي فنزل وجلس بين يديه . وقام الحسن بن عبدالله واخوه علي بين ايديهما على سيفيهما . قال ذكا وكنت قائماً خلف ظهر ابن المتقي [فقلت] : سيدي يقول(١) لابي محمد يجلس فقال : اجلس ياابا محمد (يعني ناصر الدولة) فقال : لا والله ياسيدي ما أجلس ، قيامي بحضرتك شرفي فقال له بحق رأس سيدي - يعني المتقي - الا جلست ! فجلس على ركبته بحذاء محمد بن رائق ، ثم أمر علياً فجلس . ثم قال ابن المتقي للحسن بن حمدان : سيدي يقرأ عليك السلام ، ويتعرف اخبارك ويقول لك ما آنسني بقربك وانما أرجوا ان يكون في اجتماعنا صلاح لنا ولجميع المسلمين فقال له الحسن : تقول له يامولاي أنا وسائر سلفي عبيدك ونشوء دولتك ودولة ابائك ، ما نعرف نعمة الا من الله ومنكم والله لأبذلن نفسي ومالي وعشيرتي بين يدي مولاي ولأعاضدن هذا الاخ محمد بن رائق ... على نصرة مولانا وخدمته حتى يرده باذن الله الى دار مملكته قال ذكا : فرأيت محمد بن رائق قد صعب عليه قوله « هذاالاخ »

---

(١) في الاصل « ورقة ١٩٧ ب » يا سيدي

وكانت السماء مغيمة وابتدأ المطر يرش فقال ابن رائق لابن المتقي : انهض يامولاي قد جاء المطر ! فقام وقدموا دابته ليركب ... وقدموا دابة ابن رائق فلما وضع رجله في الركاب قال الحسن : تجلس عندي ....(١) فقدر ابن رائق (انه) يريد ان يحبسه فقال له : ليس هذا يوم ذاك ونحن اليوم مشاغيل بالخدمة وبعد هذا نلتقي(٢) فقال له : بحياتي الا فعلت ، فليس من ذلك بدل . فجذب ابن رائق نفسه ليركب فجذبه ابن حمدان حتى تخرق كمه فنمر دابن رائق وقال : أي شيء هذا ! فضربه من خلفه غلام لابن حمدان بدبوس مدور على وسط رأسه فنزلت العامـة على وجهه واخذته السيوف »(٣) . وكانت نوايا ناصر الدولة واضحة فقد اراد ان يزيل أبن رائق وينفرد بالخليفة ، لذلك قصده في اليوم التـالي ووضع خدماته تحت تصرفه .

(ب) ناصر الدولة اميراً للأمراء

اذا كان مثل هذا العمل الذي ارتكبه ناصر الدولة ينطوي على الغدر فى نظر المؤرخ المعاصر ، فأن مثل هذه الاغتيالات السياسية كانت سمة بارزة من سمات ذلك العصر ، ودوافعها معروفة وهي الطموح الشخصي ونشدان المراكز المرموقة . ولعل الحسن كان على اتفاق مع الخليفة بهذا الشأن ، أو على الأقل كان متأكداً من رغبته فى التخلص من ابن رائق . ويؤيد هذا القول ان الحسن كتب الى الخليفة يبرر فعلته في انه اكتشف

---

(١) كلمات غير واضحة في الاصل «ورقة ١٩٨ ب » غير ان ابن الاثير يقول «٢٨٢/٨» انه قال له « تقيم اليوم عندي لنتحدث فيما نفعله »

(٢) يقول ابن الاثير « ٢٨٢/٨ » : « فاعتذر ابن رائق بابن المتقي »

(٣) انظر كتاب العيون اوراق من ١٩٥ أ - ١٩٩ أ

خيانة ابن رائق وتآمره على الخليفة . كما ان ابن خالويه - في دفاعه الحماسي عن الحمدانيين يقول(١) ولما حصل ابن رائق بالموصل دبر على ناصر الدولة ليقتله فسبقه ناصر الدولة بالفتكة ، فضربه ابو عبدالله بن ابي العلاء ضربة خر منها ميتاً وقد كان ابن رائق قتل عمارة العقيلي وجماعة من بني نمير » وهو يشير بذلك الى ان ناصر الدولة كان في موقف الدفاع عن النفس ، ثم يعترف انه كان يريد أن ينتقم لقتلى من بطون تمت بصلة القربى الى الحمدانيين .

ومهما يكن فأن الخليفة اثنى على الحسن الحمداني وخلع عليه وعقد له لواء ولقبه ناصر الدولة و كناه وجعله أمير الامراء وذلك في مستهل شعبان سنة ٣٣٠، كما خلع على أخيه علي ولقبه سيف الدولة(٢) . ان هذه الألقاب والكنى كانت علامات تقدير وتشريف يضفيها الخلفاء على ذوي المراكز العسكرية او الأدارية العليا ، وهي ذات صفة مدلية أي انهـا - بتعبير آخر - تشير الى إسناد هؤلاء الاشخاص « للدولة » بصفتها العلمانية ، على حين أختص الخلفاء بالألقاب ذات الصفة الدينية الروحية باعتبارهم حماة الشريعة وخلفاء رسول الله (ص) (٣) »

وصل الخليفة الى حاضرة الخلافة بصحبة أمير الامراء الجديد وأخيه علي سيف الدولة » وعملت لهم العامة القباب (٤) وهي معالم الزينة التي ما زال الناس يقيمونها في المناسبات والأعياد : ونزل الاخوان في البستان

---

(١) ٢/١٣٨ « الدهان »

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ١/١٧٥ ، مسكويه ٢/٢٨ ، العيون ١٩٩ ب

(٣) انظر حول الألقاب القلقشندي ٥/٤٣١ ، ٤٤٠ وما بعدها

(٤) الأوراق ٢٢٧

الشفيعي(١) ، وتولى الوزارة القراريطي والشرطة توزون . وخلع الخليفة على اعوانه الجدد وطوق الاخوين الحمداليين وسورهما ، والطريف فى التطويق والتسوير - الذي اظنه تقليداً ساسانياً يرمز فى الاصل الى دخول الشخص الذي تتم لههذه العملية فى طاعة الملك او الامير - انه أصبح من علامات التكريم في العصر العباسي المتأخر ،وكلما تضاعف عدد الأطواق والأسورة (وهي من الذهب) كلما كان ذلك دلالـــة على علو مكـــانة الشخص الـــذي يضفى عليه هذا التكريم . ومن ثم فقد نال الاخوان الحمداليان ناصر الدولة وسيف الـــدولة عدداً متساوياً من الاســـورة والأطواق فقد طوقا وسورا بطوقين طوقين وأربعة اسورة ذهباً فى حين ان ابا عبدالله الحسين بن سعيد بن حمدان « طوق بطوق واحد وسوارين ذهباً »(٢) فقط، وهذه الشارات هي بمثابة النياشين والأوسمة في العصـر الحاضر .

وحين بلغت هذه الانباء ابا الحسن البريدي ترك واسط يريد بغداد ، في حين خرج الحمدانيون ميممين واسط . اما الخليفة فقد ترك قصر الخلافة الى الزبيدية(٣) ، مما يدل على انه كان يشك في قدرة اعوانه الجدد على الحيلولة دون وصول البريديين الى بغداد. ومهما يكن فقد التقى الحمدانيون بالبريديين عند قرية كيل التي تقـــع على بعد فرسخين أســـفل المـدائن حيث دارت رحى معركة ضارية استغرقت أربعة أيام متواصلة من ٣٠

---

(١) البستان الشفيعي يقع على شاطيء دجلة الايمن وهو نسبة الى شفيع اللؤلؤي الـــذي صادره الخليفة الراضي بالله في سنة ٣٢٢ - انظر مسكويه ١/٢٩٥

(٢) مسكويه ٢/٢٩ ، الصولي ، الأوراق او اخبار الراضي والمتقي ٢٢٨

(٣) الزبيدية على الجانب الشرقي لدجلة « ياقوت ٢/٩١٧ »

ذي القعدة حتى ٣ ذي الحجة انتصر فيها سيف الدولة على البريديين الذين انسحبوا الى البصرة (١) . وقد برهن سيف الدولة الذي كان اذ ذاك في السابعة والعشرين على مهارة حربية بشرت بمستقبله الزاهر . ويرى مسكويه(٢) وصاحب كتاب العيون ان علياً لقب بسيف الدولة على اثر احرازه هذا النصر ، في حين يرى ابن الاثير والصولي(٣) انه نال هذا اللقب قبل هذا التاريخ حين تولى اخوه امرة الامراء كما أسلفنا .

وفي ظني ان رواية مسكويه هي الأرجح لان سيف الدولة لم يكن قد صنع بعد شيئاً يستحق من اجله اللقب الذي استحقه اخوه الذي خلص الخلافة من خطر ابن رائق . ويجب ان نلاحظ هنا ان الاتراك كانوا في جانب الحمدانيين في معركة « كيل » على حين كان الديلم في جانب البريديين(٤) فهل نستطيع ان نخلص من ذلك الى نتيجة ما ؟ يبدو لي ان خطر الديلم الذي كان يقرع ابواب بغداد جعل الخلافة تستعين بحلفائها القدامى الجند الاتراك فتضعهم تحت تصرف قوة جديدة فتية هم الحمدانيون العرب لصد الخطر الجديد الذي لن يلبث ان يدهم الخلافة ويغزوها في عقر دارها . انه وان كان من الخطأ الفادح ان نفسر تاريخ هذه الفترة على انه نزاع عنصري بين العرب والفرس والترك والديلم وغيرهم ، او على انه نزاع بين السنة والشيعة ، لكن هناك حقيقة اساسية تبرز في هذا الميدان هي ان الغزو جاء الى بغداد من الشرق طوال العصور

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١٤٩/٨

(٢) تجارب الامم ٣٠/٢ كتاب العيون ٢٠٢ أ

(٣) ابن الاثير ١٤٩/٨ ، الصولي ٢٢٨

(٤) ابن الاثير ١٤٩/٨

العباسية ، وان بداوة هذه الاقوام وفتوتها وجرأة قادتها من جهة وانحلال الاقوام التي سبقتها الى الاستقرار في مركز الخلافة حيث الترف والحياة الوادعة من جهة ثانية، كانا العاملين اللذين دفعا بالترك ثم الديلم ثم المغول الى غزو بغداد بعد ان ذابت فتوة العنصر الفارسي ،وبعد ان ابعد العرب عن مراكز القوة في إدارة الدولة وجيشها .

وبعد ان حقق الحمدانيون هذا النصر ، عاد الخليفة مع حرمه الى بغداد ، كما دخلها ناصر الدولة دخول الظافرين وبين يديه كبار الأسرى من اعدائه مشهرين على جمال وعلى رؤوسهم برانس(١) وهي من اساليب النكاية بالأعداء يومذاك . واستقر ناصر الدولة في العاصمة واخذ يمارس سلطاته الواسعة أميراً للأمراء فوجه اهتمامه قبل كل شيء الى اصلاح الوضع الاقتصادي المتردي فالاسعار كانت مرتفعة نتيجة لاختلال الامن وانعدام الاستقرار وانخفاض القيمة الشرائية للنقود بسبب تلاعب الصيارفة وغشهم في عيار الدنانير(٢) . وقد زاد الطين بلة ان ناصر الدولة في مقاومته للبريديين اراد ان يحرمهم من موردهم المالي الرئيس وهو الضرائب التي فرضوها على التمر فأمر التجار الا يحملوا البضائع الى جنوب العراق « فغلا الثمن وبلغ ما لم يبلغ مثله قط . ونزل الحسن واخوه عند البستان الشفيعي لينحدروا ، وغلت الاسعار فتشاءم الناس بتلك الأيام وقالوا : كان الرخص مع البريدي » . ومعنى ذلك ان العبء كله وقع على كاهل العامة الى حد انهم استقبلوا حكم الحمدانيين بفتور وتحسروا على ايام البريديين وغيرهم التعسة مع ما نالهم من الضرائب والغلاء والمصادرة .

---

(١) مسكويه ٢/٣٠

(٢) الصولي . الاوراق ٢٢٩ . الدوادار ، زبدة الفكر ٥ ورقة ٤٧ أ

والسبب - كما يقول الصولي - كثرة الضرائب التي فرضها ناصر الدولة(١).

ثم انصرف ناصر الدولة الى تنظيم الاحوال الداخلية وتوطيد الأمن فضرب بشدة على ايدي الدعار لعبثهم وافسادهم . وأخذ يقوم باعباء صاحب الشرطة بنفسه فينظر في الجنايات ويقيم الحدود من جلد وقطع يد أو رجل ، ثم تعرض عليه الاعضاء المبتورة فيعدها ليضمن تنفيذ الشرطة للعقوبات تنفيذا دقيقا(٢) . ولما كانت الخزينة فارغة فقد نظم ناصر الدولة المالية واشتط في جباية الضرائب يقول الصولي(٣) : حدثني جماعة من التجارين ان ناصر الدولة خاطبهم فقال ما اعوض للضريبة على شيء سوى التمر ، وبارك الله لكم في كل شيء غيره يعني ضريبة ما حصل ببغداد . قالوا فقال لرجل الى جانبه ونحن نسمع : والدبس فقال والدبس ، وقال له والبسر فقال والبسر ، ومعنى ذلك ان ناصر الدولة فرض الضرائب على التمر ومشتقاته .

ووجه ناصر الدولة اهتماماً الى الادارة ، فعمد على طريقة غيره من حكام بغداد السابقين واللاحقين الى تغيير الموظفين الكبار ، لذلك عزل بدواً الخرشني الحاجب وولى ابا بكر احمد بن خاقان الحجبة وهي منصب هام لانه يعني رئيس تشريفات الخليفة . وبعد ان استتبت له السلطة بالقضاء على البريديين عرضهم - كما هي العادة يومذاك - مشهرين في

---

(١) المصدر السابق ٢٢٨ و٢٣٥

(٢) مسكويه ، تجارب الامم ٣٨/٢

(٣) الصولي ، الاوراق ٢٢٩ و ٢٣٥

الكرخ ذات جمعة ، ثم صلى بجامع المدينة(١) ، ويبدو أن ناصر الدولة غير العمال والولاة فولى مثلا عيسى جال مدينة ميافارقين(٢) :

غير ان سلطة ناصر الدولة لم تكن تتعدى بغداد فيما يبدو ، وهو أمر ينطبق على جميع حكام السلطة المركزية في هذا العصر ، وذلك بسبب اختلال الأمن وكثرة الطامعين في الحكم . وكان الديلم - بعد البريديين - قد بدأوا يلعبون دورهم على نطاق محدود بحيث انهم حاولوا اغتيال سيف الدولة الحمداني حين ارسله اخوه ناصر الدولة في مهمة الى واسط . وحين أخفقت المؤامرة ارسل المتآمرون الى بغداد بطريق النهر في زورقين فقتل بعضهم ممن اعترف وحبس اولئك الذين لم يحصل منهم على اعتراف(٣) .

وتصدى ناصر الدولة لحفظ الامن في سنة ٣٣١ ولاحق الدعار والمفسدين والعابثين بالأمن وأوقع بهم اشنع العقوبات التي تراوحت بين القتل و«الكحل» - أي إتلاف البصر - فهدأت الاحوال وقلت الجرائم في بغداد(٤). ثم حول اهتمامه في بداية هذه السنة الى اصلاح العملة فضرب دنانير جديدة ذات عيار جديد . اما من الناحية الشكلية فأنه ادخل تغييراً على نقش الدينار ، فبينما كان يكتب على أحد جانبيه « لا اله إلا الله » وعلى الجانب الآخر « محمد رسول الله » ثم يذكر نعت الخليفة ، أضاف

---

(١) الصولي ، الاوراق ٢٢٩

(٢) نفس المصدر والمكان

(٣) الصولي ، الاوراق ٢٢٩

(٤) نفس المصدر ٢٣١

لناصر الدولة بعد ذكر الرسول « صلى الله عليه وسلم »(١) . لقـد حاول ناصر الدولة ايقاف تلاعب الصيارفـة عن طريق ضبط العملة والتدقيق في عيارها ، غير ان ذلك لم يجد شيئاً فقد « بلغـه مع ذلك ان الصيارف يربون رباء ظاهـراً ، فأحضرهم وحلفهم وأحلفهم ، فتحسن قبيـح أمرهم قليلا »(٢) . ولا بد ان نلاحظ هنا ان التغيير السريع للعملة خلق جواً من عدم الاستقرار المـالي أدى الى تحسن وقتي فحسب . ذلك ان الداء لم يكمن في نوع العملة وعيارها وشكلها ، بل في مجموع الظروف الشاذة السيئة التي نسفت كل محاولة لتحسين الاوضاع الاقتصادية .

وكان المجهود الثاني لناصر الـدولة في سبيل تحسين الأوضاع هو محاولة الاقتصاد والتقتير في المصروفات ، غير انه لجأ الى اجراآت سلبية بحتة لا طائـل تحتها . فحين شكا اليه المسجونون واستغاثوا به من الجوع والضر والقسوة (وكان السجن الى جانب داره) ابدى امتعاضاً كبيراً و « جلس لهـم جلوس غضبان فأطلق وقتل وقطع وكحل » على حد قول الصولي الذي يعترف ـ رغم انه من الذين يعطفون على الحمدانيين ـ بأن هذا العمل كان لمجـرد توفير الأقوات التي تصرف على السجناء ، بحيث دفعه هذا التقتير الى اطلاق سراحهم « فأخلى السجون فلم يترك فيها أحداً »(٣) . ومن جهة اخرى عمد ناصر الدولة الى اسقاط ارزاق الجند المولدين من المرتزقة بحجة توفير المال لحرب البريديين في الوقت الذي كان يرسل الهدايا الفاخـرة الى ابن طغج الأخشيدي عن طريق

---

(١) نفس المصدر والمكان

(٢) نفس المصدر والمكان

(٣) الاوراق ٢٣٢

كاتبه النصراني سهلون(١)، أي انه كان يضع مصالحه السياسية وعلاقاته الدبلوماسية في المقام الأول .

كان عام ٣٣١ حافلا بالمشقة لبغداد ، فقد كثر اللصوص وقطاع الطرق وتعرضت الدور للعدوان وفر الناس الى جميع النواحي رغم المخاطر التي تعرضوا لها في الطرق . وغلت الاسعار غلاء فاحشا حتى مات الفقراء جوعا ، وزاد الطين بلة انتشار الاوبئة فكان الموتى « يبقون على الطريق اياما لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم »(٢) اما الخليفة المتقي فقد ضيق عليه ناصر الدولة اشد التضييق فقاص لنفقاته ونفقات أهله وصادر ضياعه(٣) في سبيل تحقيق مصلحته لا سعيا وراء تحسين الاحوال. ومن الامثلة التي تدل على ما كان يتحمله الفقراء أنهم أخذوا يصطادون الجراد ويأكلونه(٤) ، وهي عادة كانت سائدة في العراق الى عهد قريب حيث يباع الجراد على العامة في مواسم انتشاره . وهكذا اخفق ناصر الدولة الاخفاق كله في حل الازمة الاقتصادية التي تعرضت لها بغداد اثناء حكمه .

غير ان ناصر الدولة - من ناحية أخرى - لا يتردد في نشدان مجده العائلي - وهو ما نسميه اليوم استغلال النفوذ - فيعين ابن عمه ابي عبدالله الحسين بن سعيد بن حمدان (في المحرم سنة ٣٣١) واليا على أرمينية

« ١ » نفس المصدر ٢٣٣

« ٢ » نفس المصدر ٢٣٦

« ٣ » الصولي ٢٣٥ ، ابو المحاسن ٣/٢٧٨

« ٤ » الصولي ٢٣٧

وأذربيجان ويعقد لهم لواء(١) . بل انه ـ في ظل هذه الظروف التعسة ـ يزوج ابنته الى ابي منصور بن الخليفة المتقي (في ربيع الاول) بصداق بلغ نصف مليون درهم » وجعل النحلة مائة الف دينار «.(٢). ويقول الصولي بهذا الصدد(٣) : ان وكيل الزواج عن ناصر الدولة كان ابا عبدالله بن ابي موسى العباسي . وبعد عقد القران قصد ابن الخليفة دار ناصر الدولة بباب خراسان » فنثرت عليه بدرتا دنانير التقطها من كان معه وأصحاب ناصر الدولة وتغدى عنده في اليوم الثالث جماعة من قواده وتجاره فرأيت الناس كالمجتمعين على انه كان طعاماً ناقصاً عن المقدار مقصر الشرط والكمال والآلة « . وهكذا يدمغ الصولي ناصر الدولة بتهمة البخل والتقتير في مناسبة هامة بالنسبة له كان يهدف منها الى وضع الخليفة وابنه تحت سطوته على امل ان ينتقل سلطان الخلافة الى الاسرة الحمدانية عن طريق المصاهرة .

تميز عهد ناصر الدولة كأمير للأمراء بأنه كان عهداً شديد الوطأة على بغداد ، وكانت حاجة ناصر الدولة الى المال تقوده الى ركوب مركب وعر وخشنة جرت عليه وعلى الخلافة اسوأ النتائج ولو نعم العواقب. فقد ادت الأزمة الاقتصادية الى كثرة اللصوص حتى هرب الناس من بغداد بالرغم من تعرضهم لاخطار الطرق الخارجية(٤) . وينبري هنا مستغلون من الطراز الاول يريدون ان يثروا على حسابه

« ١ » الصولي . الأوراق ٢٢٢

« ٢ » نفس المصدر ٢٢٤.

« ٣ » ٢٢٤

« ٤ » نفس المصدر ٢٢٤

الخراب العام فيعرض ابو الحسين علي بن مقلة (من الوزراء المحترفين) على ناصر الدولة ان يستوزره وان يطلق يده في جباية الضرائب عن طريق سبعين وكيلا له جشعين جزاء مبالغ يدفعها لناصر الدولة الذي رحب بهذا العرض(١) .

لقد اتضحت مظاهر الإخفاق في حكم الحمدانيين لبغداد أسوة بغيرهم من أمراء الأمراء لأن الوضع العام كان اكبر واعسر من ان يعالج بمثل هذه الاجراآت التي اتبعها لناصر الدولة .

أما سيف الدولة فكان بواسط يفكر في احتلال البصرة وطرد البريديين منها ، وقد كلف هذا المشروع ناصر الدولة الكثير من المال اذ كان يرسل اليه نصف مليون دينار في كل شهرين مما افقر الخزينة(٢). وكان جل هذه الأموال يذهب الى جيوب الاتراك الذين تفاقم جشعهم وبلاؤهم حتى ان زعيميهم توزون وخجخج أخذا يسيئان معاملة سيف الدولة(٣) . وفي نهاية شعبان عام ٣٣١هـ ثار هؤلاء الاتراك عليه ونهبوا معسكره ففر الى بغداد في جنح الظلام(٤). ولما بلغت انباء هذا العصيان ناصر الدولة ساوره الرعب ففر الى الموصل ونهبت داره وتعرضت العاصمة لفوضى الديلم والاتراك لخلوها من سلطة حاكمة حازمة وبذلك انتهت امارة الحمدانيين التي استمرت ثلاثة عشر شهرا تقريبا(٥) .

---

(١) نفس المصدر ٢٣٤

(٢) نفس المصدر ٢٣٨

(٣) الدوادار . زبدة الفكرة (مخطوط) ج ٥ ورقة ٦٠ أ

(٤) نفس المصدر ٣٩/٢ . ابن الاثير الكامل ١٠٣/٨ ، مصر .

(٥) ابن الاثير . الكامل ١٠٣/٨ . الصولي . اخبار الراضي ٢٣٨-٢٣٩

وقد حاول سيف الدولة دخول بغــداد حين وقع الخــلاف بين توزون وخجخج غير ان توزون بادره بجيش ضخم اضطره الى العودة الى الموصــل ودخل توزون بغــداد حيث قلده المتقي امرة الامراء فى ٢٥ رمضان سنة ٣٣١(١) .

أخفق الحمدانيون في حكم بغداد وتميز عهد امارتهم بنفس العيوب والمساوىء التي اثرت عن ذلك العصر . ويعلل ميور(٢) هذا الاخفاق بان العنصر العربي فقد قدرته على الوقوف في وجه العناصــر الاجنبية وانهم لم يعودوا قوة حربية هامة اذا قورنوا بالقوات التركية المنظمة . غير أنه اذا كان في هذا القول نصيب من الصحة الا أنه ليس السبب الوحيد في فشل الحمدانيين ، فقد أخفق قبلهم ابن رائق وبجكم والبريديون ، كما اخفق من بعدهم توزون ايضا في حين كانوا جميعا من الاجانب . كما كان الاتراك الذين اشاد ميور بنظامهم متفرقين مختلفين متناحرين حتى ان توزون قبض عــلى زميله خجخج وسمله ليستأثر بالزعامة(٣) . اما الاسباب الرئيسة التي ادت الى فشل الحمدانيين وغيرهم في عصر امرة الامراء فكانت ترجع في رأيي الى ضعف الخلفاء وانعدام الوحــدة في جيوش الخلافة وسخط العامة على السياسة المالية الجائرة التي استنزفت اموالهم في الوقت الــذي لم تعمــل الحكومة على انعاش الاحــوال الاقتصادية ونشر الأمن ، هذا فضلا عن الانحلال الذي كان يغلب على شؤون الادارة والجيش .

---

(١) ابن الاثير الكامل ١٥٣/٨ . ابن خلدون . العبر ٤١٥/٣ (مصر) . الصولي اخبار الراضي ٢٤٢ .

(٢) The Caliphate, p. 573

(٣) ابن الاثير . الكامل ١٥٣/٨

لم ينجح توزون في ارضاء الخليفة المتقي، فخرج هذا غاضباً من عاصمة ملكه (٣٣٢) ونزل مع أهلـه وحاشيته بتكريت(١) . ويبدو ان السبب كان يرجع الى ميل توزون الى البريديين إعداء الخليفة . ومرت بغداد بساعات عصيبة تعرضت فيها للسرقات والظلم والمصادرة والنهب واضطهاد اهل الذمة والتجار في سبيل مصادرة أموالهم مما ادى الى فرار كثير منهم الى الشام(٢) . ووصل ناصـر الدولة وسيف الدولة وابن عمهما الحسين بن سعيد بن حمدان الى تكريت للقاء الخليفة ، فأرسلوه الى الموصل وظلوا هم بتكريت ليعملوا على طرد توزون . غير ان سيف الدولة هزم في الموقعة الدامية التي جرت في اسفل تكريت ، ومما ساعد على هزيمته ان الاعراب من قشير ونمير نهبوا معسكره ونصروا توزون عليه(٣) ، لا لشيء سوى رغبتهم في الحصول على الغنائم . وعاد سيف الدولة الى الموصل حيث سبقه أخوه ، ووصلوا جميعا بصحبة الخليفة الى نصيبين فارقة فارين في وجه توزون الـذي دخل الموصـل سنة ٣٣٢(٤) .

ولما ادرك المتقي قوة توزون توسط في الصلح بينه وبين الحمدانيين فعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لمدة ثلاث سنوات على ان يدفع في كل سـنة ثلاثة ملايين وستمائة الف درهم(٥) . ويبدو ان

---

(١) السيوطي . تاريخ الخلفاء ٢٦٢

(٢) الصولي . الاوراق ٢٥١

(٣) ابن الاثير . الكامل ٨/١٤٤

(٤) الدواداري . زبدة الفكرة (مخطوط) ٥ ورقة ٥٣ ب

(٥) مسكويه . تجارب الامم ٢/٤٩ . ابن كثير . البداية والنهاية ٧/٢٠٧

سبب اسراع توزون في عقد الصلح يرجع الى ظهور الخطر البويهي ودخول احمد بن بويه واسط(١) .

لم يلبث الخليفة ان ابدى رغبته في العودة الى بغداد ، حين احس - كما يقول المؤرخون(٢) - بضجر بني حمدان منه ولارتيابه بنواياهم نحوه . في حين يقول المسعودي(٣) ان الحمدانيين اكرموا المتقي غاية الاكرام وبذلوا في سبيل ارضائه كثيرا من الاموال . ومع ذلك كتب الخليفة الى محمد بن طغج الاخشيد صاحب مصر يستدعيه اليه فوصل الى الرقة في المحرم سنة ٣٣٣هـ ، وحاول ان يقنع المتقي بالمسير معه الى مصر والشام فابى ثم نصحه ان يقيم مكانه ولا يعود الى توزون فأبى كذلك(٤) . وهكذا سعى المتقي الى حتفه لأنه بمجرد ان عاد الى بغداد سمله توزون وخلعه وبايع المستكفي في (صفر سنة ٣٣٣هـ)(٥) . ويبدو ان جميع هؤلاء الامراء كانوا يحاولون جذب الخليفة الى جانبهم واقناعه بالعيش في اقاليمهم ليحكموا عن طريقه ويضفوا على حكمهم صفة شرعية .

٥ - ناصر الدولة والبويهيون

قلنا ان ناصر الدولة أخفق في امرة الامراء عام ٣٣١ وخرج من

---

(١) الصولي . الأوراق ٢٥٨

(٢) ابن خلدون . العبر ٢٣٤/٤

(٣) مروج الذهب . ٥٣٢/٢

(٤) ابن خلدون . العبر ٢٣٤/٤ . مسكويه . تجارب الامم ٦٨/٢

(٥) ابو الفدا . المختصر في اخبار البشر ٩١/٢ . المسعودي . مروج الذهب ٥٣١/٢- ٥٣٢ .

بغداد الى الموصل هاربا بعد أن نهبت داره . وقد ساءت احواله في تلك السنة فاستولى عدل حاجب بجكم على نصيبين والرحبة واشيع ان الاخشيد ارسل جيشا للاستيلاء على الموصل(١) . وما كاد ناصر الدولة يعيد سلطانه على الجزيرة ، حتى فتح توزون الموصل في سنة ٣٣٢هـ وارغمه على ان يدفع ثلاثة ملايين وستمائة الف درهم سنويا لمدة ثلاث سنوات(٢) . وفي السنة التالية استغل ناصر الدولة سوء الاحوال في بغداد فمد نفوذه على جميع انحاء الجزيرة حتى شملت مملكته الموصل وديار ربيعة وديار بكر وقردى وبزبدى وبهذرا(٣) وأخذ ينيب عنه في حكم هذه المناطق الشاسعة عمالا من اقاربه خاصة ، فولى ابن عمه الحسين بن سعيد قنسرين والعواصم(٤) .

لقد بلغت الاحوال في بغداد غاية السوء على يد ابن شيرزاد الذي كان يتولى امرة الامراء سنة ٣٣٤ والذي استرضى الجند من الاتراك والديلم فزاد في ارزاقهم على حساب الخزينة الخاوية(٥) . وفي سبيل التخلص من نفوذ الاتراك عمد قواد بغداد وبموافقة الخليفة المستكفي الى مراسلة احمد بن بويه فتوجه من الاهواز ودخل العاصمة حيث رحب به الخليفة ولقبه معز الدولة واخاه عليا عماد الدولة واخاه الحسن ركن الدولة وضربت القابهم وكناهم على الدنانير والدراهم(٦) . وهكذا

(١) الصولي . اخبار الراضي ٢٤٠

(٢) مسكويه . تجارب الامم ٤٩/٢ ابن كثير . البداية والنهاية ٢٠٧/١١

(٣) الصولي . اخبار الراضي ٢٨٤

(٤) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢٨٠/٢

(٥) مسكويه . تجارب الامم ٨١/٢

(٦) مسكويه . تجارب الامم ٨٤/٢-٨٥

تخلص الخليفة من أسر الأتراك ليقع في اسر الديلم .

كان بنو بويه من الديلم الذين استوطنوا حول بحر الخزر وهم شعب فطرى صلب تميز بالقوة والفتوة والبداوة(١) . وكانوا في أول الأمر وثنيين ثم نشر فيهم الحسن بن علي الاطروش المذهب الشيعي في بداية القرن الرابع(٢) . ويكتنف الغموض تاريخ بني بويه شأنهم شأن المغامرين المجهولين الذين ارتفعوا في ذلك العصر من الحضيض بفضل الجرأة والفوضى الشاملة . لكن المؤرخين أضفوا عليهم نسبا عريقا فقال ابن خلكان (٣)في ترجمة معز الدولة انه « ابو الحسين بن ابي شجاع بويه ابن فنا خسرو بن تمام بن كوهى بن شيرزيل الاصغر بن شيركوه ابن شيرزيل الاكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن شستان شاه بن سسن فرو بن شرزويل بن سناد بن بهرام جور الملك بن يزدجرد بن هرمز كرامانشاه بن سابور الملك بن سابور ذى الاكتاف » . وكذلك نسبهم ابن الجوزى(٤) الى سابور ذى الاكتاف على حين اضفى عليهم صاحب الفخري(٥) نسبا اكثر نبلا فارجعهم الى ابراهيم الخليل. ويرى الاستاذ زترشتاين (٦) ، ان نسب بني بويه يرجع الى مهر نرسي كبير وزراء بهرام جور ثم يقول ان هذا النسب ليس سوى محاولة لرفع مجد هذه الاسرة وهو الرأي الصواب .

---

(١) الخضرى . محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ٥١٦

(٢) ابن الاثير . الكامل ١٤٦/٦

(٣) وفيات الاعيان ٦٩/١

(٤) المنتظم ٢٧٠/٦

(٥) ابن الطقطقى . الفخري في الاداب السلطانية ٢٤٩

(٦) Ency. of Islam Vol. I, P. 807

والواقع ان بني بويه كانوا اسرة فقيرة من عامة الشعب . وكان ابو شجاع بويه صيادا للسمك ، على حين اعترف معز الدولة انه كان حطابا يحمل الحطب على رأسه(١) . ويروي لنا المؤرخون(٢) . قصة المنجم الذي تنبأ لابناء بويه بالرفعة والمجد ، ومنها نستدل على فقرهـم المدقع حتى أنهم لم يستطيعوا ان يدفعوا للمنجم سوى شيء يسير . ويحاول بعض المؤرخين ان يصل النسب البويهي بالعرب كما فعل المقريزي(٣) في نسبة الديلم الى العرب العدنانية حين تزوج باسل بن ضبة في بلاد الديلم من امرأة من العجم انجبت له ديلم ومنه بنو بويه .

اسلم الديلم على يد الحسن الزيدي الاطروش كما تقدم . ولما توفي سنة ٣٠٤ هـ ظلت طبرستان في ايدي العلويين اثنى عشرة سنة ثم انتقلت الى امراء الديلم فحكمها ما كان بن كالي فمرداويج بن زيار ثم البويهيون(٤).

بدأ اولاد بويه جنودا مرتزقة في قوات ما كان بن كالي ثم انحازوا الى مرداويج الذي ازداد نفوذه سنة ٣٢٠ هـ ، وتولى علي بن بويه بلاد الكرج واستولى على اصبهان . وبعد حروب طويلة مع وشمكير بن زيار استطاع الحسن بن بويه الاستيلاء على اصبهان وهمذان وقم وقاشان والكرج والرى كما استولى احمد على الاهواز واحتل واسط ، ومنها سار الى بغداد

---

(١) ابن الطقطقى . الفخري في الاداب السلطانية ٢٤٩ . ابن خلكان . وفيات الاعيان ٧٠/١

(٢) الذهبي . تاريخ الاسلام ١٦ ورقة ٣٥ ب . الدوادار . زبدة الفكر « مخطوط » ٥ ورقة ٢٢٧ ب ٢٢٨ أ

(٣) السلوك ٢٣/١

(٤) المقريزي . السلوك ٢٣/١-٢٥

بخـداع على طلب الخليفة منه سرا وبذلك اصبح البويهيون السادة الجدد للخلافة العباسية (١).

استبد البويهيون بالسلطة وضيقوا على الخلفاء ، وحين حلت سنة ٣٥٤/ ٩٥٦م كانت الدولة العباسية قد تناثرت اشلاء واصبح حال المسلمين - على حد قول المسعودي (٢) - اشبه بحال الفرس بعد قتل داريوس حين تجزأت الامبراطورية الفارسية . واصبح وضع الخلفاء المادي والأدبي خلال العصر البويهي ٣٣٤-٤٤٧ (٩٤٥-١٠٥٥ م) ، في الـدرك الاسفل ولم يمنع البويهيين من الغاء الخلافة العباسية واقامة خلافة علوية سوى خوفهم من ثورة العامة (٣) ، او اشفاقهم من فقدان نفوذهم حين يتولى خليفة علوي يضطرون - بحكم مذهبهم - الى الخضوع له والاعتراف بامامته .

وبمجرد ان استقر البويهيون فى بغـداد قامت علاقات عدائية بينهم وبين الحمدانيين . ويبدو ان معز الدولة شعر بنية ناصر الدولة فى إعلان استقلاله بالجزيرة ، خاصة وقد اصر على عـدم ارسال الاموال المقررة عن البلدان التي فى يـده كما كان يفعل الحمدانيون قبل مجيء البويهيين . وهكذا قرر معز الدولة ان يقصد الموصل فأرسل جيشاً نحوها فى رجب ٣٣٤ بقيادة قائدين هما ينال كوشة وموسى فيادة . وبمجرد ان وصل هذا الجيش الى عكبرا قرب سامراء باغت ينال معسكر زميله فنهبه والتحق بناصر الدولة الـذي كان قد خرج من الموصل فى جيش بضم الأتراك

---

(١) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، مخطوط ، ١٦ ورقة ٢٤ ب

(٢) التنبيه والاشراف ٣٤٦/٣٤٧

(٣) Muir , The Caliphate , P . 578

فوصل سامراء فى اواخـــر شعبان . ويمكن ان نستنتج بأن ينال كان من الأتراك الذين كرهوا الديلم الذين احتلوا مراكزهم ، ومن يدري فربما كان القـائد الآخر ديلمياً . ومهما يكن فقد بدأت الحرب بين الخصمين ـ ناصر الدولة ومعز الدولة ـ بعكبرا قرب سامراء(١). وبينما كانت الحرب مستعرة انتهز ناصر الـــدولة فرصة غياب خصمه عن العاصمة فأرسل اخاه ابا العطاف جابر بن عبدالله بن حمدان لاحتلال بغـــداد ، بالاتفاق مع ابي جعفر بن شيرزاد الذي دخلها وحكمها بأسم ناصر الدولة واستقبل بحفاوة من البغداديين . ولم يلبث ناصـر الدولة نفسه ان دخل بغداد فى رمضان ونزل بالجانب الغربي منها مخلفاً ابن اخيـه الحسين بن سعيد بن حمدان فى حرب البويهيين(٢) . غير ان معز الدولة حين وصلته هذه الانباء عاد سريعاً الى بغـداد ، لكنه قبل أن يعود هاجم تكريت . ـ من أعمـال ناصر الدولة ـ وانتهبها جنده(٣) . وعسكر معز الدولة فى الجانب الغربي من بغـداد قرب معسكر ناصر الدولة أسفل قطربل ، فما كان من هذا الا ان عبر الى الجانب الشرقي في الشماسية وخلع طاعة المطيع لله وحذف اسمه من الخطبة وهو عمل خطير معناه الغاء الخلافة العباسية ومحاولة حكم بغداد حكماً مستقلا (٤) .

وقعت الحرب في بغداد وارتفعت الأسعار وبدت كفة الحمداليين هي الراجحة في اول الأمر حين اوقع الحسين بن حمدان بعسكر معز الدولة

---

(١) ابن الاثير ٨/٤٥٣ . مسكويه ٢/٨٩ . تاريخ يحي بن سعيد ١١٠

(٢) مسكويه ٢/٩٠

(٣) ابن الاثير ٨/٤٥٣ . مسكويه ٢/٩٠

(٤) ابن الاثير ٨/٤٥٣ « بيروت » و ٨/١٧٨ « القاهرة » . مسكويه ٢/٩٠

وفرض الحمدانيون الحصار على الجيش البويهي ومنعوا عنه الإمدادات. وقاسى اهل بغـــداد كالمعتاد المجاعة والضيق فتسلط الجند على غلات الفلاحين وحصدوها ونقلوها الى معسكراتهم(١). ويقول المؤرخون(٢) بهذا الصدد ان الأعراب في جيش ناصر الـــدولة انتشروا في الجانب الغربي فمنعوا عن الجيش البويهي الميرة والعلف وغلت الأسعار حتى بلغ سعر الرطل الواحد من الخبز درهماً وربع ، في حين كان السعر في معسكر ناصر الدولة معقولا ، باعتبار انـــه كان يستلم الميرة من الموصل بطريق دجلة « فكان الخبز عنده كل خمسة ارطال بدرهم ». واتخذ ناصر الدولة اجراء آخر في الانتقاض على سلطة الخليفة والتعبير عن الاستقلال عنها، فقد منع الناس من تداول الدنانير التي نقش عليها أسم المطيع «وضرب دنانير ودراهم على سكة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وعليها اسم المتقي لله »(٣). وهكذا أزال ناصر الـــدولة كل مظهر من مظاهر الاعتراف بالخلافة العباسية - الخطبة والسكة - وهي خطوة بالغة الجـــرأة لم يقم بها سوى القلائل من الحكام المستقلين. ويبدو لي ان الظروف هي التي شجعت ناصر الدولة على سلوك هذا المسلك ، فقد كان الناس في بغداد الى جانبه ومعارضين للحكم البويهي ، كما أن سيطرته على اقليم الجزيرة الغني حتى تكريت جنوباً ثم احتلاله بغداد بقوات عربية - تركية (بـــل وديالمة وقرامطة كذلك)(٤) واعبته البـــارعة في توفير القوت بأسعار رخيصة

---

(١) مسكويه ٩١/٢

(٢) ابن الاثير ٤٥٤/٨ . مسكويه ٩١/٢

(٣) ابن الاثير ٤٥٤/٨ . مسكويه ٩١/٢

(٤) مسكويه ٩٠/٢

لجيشه وجماعته ، وفرض الحصار الاقتصادي على اعدائه عوامل مشجعة دفعته الى اعلان تمرده على الخلافة(١) .

غير ان مجهود ناصر الدولة انتهى الى الاخفاق على الرغم من ان «العامة والعيارين»(٢) كانوا في صفه ضد البويهيين كذلك. ويعترف المؤرخون بأن شجاعة الديلم واستماتتهم كانت عاملا فعالا في هذه الحرب بحيث ان «رجلا واحداً (من الديلم) يفي بألف رجل»(٣). لقد اتيحت للحمدانيين فرصة ذهبية لحكم بغداد وقد واتتهم الظروف بحيث ان معز الدولة كاد ييأس من النصر وفكر جدياً في الهرب الى الاهواز(٤) . غير ان حيلة حربية هي التي غيرت ميزان القوى ، فقد استطاع ان يخدع ناصر الدولة وأن يعبر الى الجانب الشرقي من بغداد ليلا ويوقع الاضطراب في الجيش الحمداني ، مما أدى الى هزيمة ناصر الدولة واستيلاء البويهيين على بغداد. ويروي لنا المؤرخون ما قاساه العامة من مآسي في الايام التالية على الاحتلال وفي اقوالهم إشارات واضحة الى تأييدهم للحمدانيين ومعارضتهم للحكم البويهي . يقول مسكويه(٥) ان الديلم حين استولوا على الجانب الشرقي احرقوا ونهبوا وقتلوا جماعات من العامة . كما ان كثيراً من الرجال والنساء والصبيان ماتوا في الطريق الى عكبرا حين فروا من بغداد خوفاً من الديلم باعتبارهم وقفوا ضدهم ايام الحرب . لقد

---

(١) يقول مسكويه ان كر دقيق الحنطة « أي ١٧٠٠ رطلا » اشتراه معز الدولة بعشرين الف درهم

(٢) مسكويه ٩١/٢

(٣) نفس المصدر ٩٢/٢

(٤) ابن الاثير ٤٠٤/٨ . مسكويه ٩٢/٢

(٥) ٩٣/٢

فاسك بغداد اياماً سوداً وهو أمر منكرر ومألوف في ذلك العصر ؛ وعاث الجند الديلم نهباً وفساداً بحيث بلغ ما انتهبوه من اموال التجار عشرة ملايين دينار(١) . ولم تقف الفوضى عند حد الا حين تدخل معز الدولة واستخدم القسوة في ايقافها(٢) .

ومهما يكن من أمر فقد اخفقت آخر محاولة حمدانية للسيطرة على بغداد . ذلك ان ناصر الدولة ـ بعد هذه الهزيمة ـ اقام في عكبرا وارسل الى معز الدولة طالباً الصلح في بداية سنة ٣٣٥/٩٤٦ م ، قانعاً بحكم الجزيرة في ظل الاعتراف الاسمي بالخلافة وبسلطة البويهيين الحكام الفعليين جزاء مبالغ يدفعها ضماناً للبلدان التي تحت حكمه . ومن الجدير بالذكر انه اتخذ هذا الاجراء دون استشارة حلفائه الاتراك ، فلما علموا قرروا اغتياله ، فترك عكبرا على عجل واتجه الى الموصل(٣) . ويروي مسكويه(٤) حادثة طريفة ملخصها ان البويهيين دبروا لناصر الدولة مؤامرة اغتيال ، فقد دخل رجل الى خيمته ليلا وهو نائم ـ في غفلة عن الحجاب والحراس ـ وتأكد من موضع رأسه على الوسادة على ضوء الشمعة التي كانت الى جانب سريره . واطفأ الرجل الشمعة وعاد الى خارج الخيمة ينتظر الفرصة المناسبة . وحين عاد كان ناصر الدولة قد انقلب من نومه وغير موضع رأسه فغرز الرجل السكينة في الوسادة وهو يظن انها في رأس ناصر الدولة . وعاد يبشر معز الدولة بنجاح المؤامرة فماذا كان مصيره ؟ لقد قتله معز الدولة ليظل السر مكتوماً !

---

(١) ابن الاثير ٨/٤٥٥ . مسكويه ٢/٩٤

(٢) ابن الاثير ٨/٤٥٥ . مسكويه ٢/٩٤

(٣) ابن الاثير ٨/٤٥٥ . مسكويه ٢/٩٤

(٤) ٢/٩٤-٩٥

وعلى الرغم من الصلح الذي تم بين ناصر الدولة والبويهيين فأن الصراع ظل قائماً بين الطرفين حتى نهاية حياة ناصر الدولة ، ثم استمر بين ابنه ابي تغلب وبين عضد الدولة . واني لا اعتقد بان الحمدانيين كانت لهم - قبل مجيء البويهيين - غايات بعيدة وآمال كبيرة فقد طمعوا في حكم بغداد وجعل الخليفة تحت سيطرتهم . وكادوا يحققون هذا الهدف فعلا لولا عوامل الخيبة التي اصابتهم وادت الى انسحابهم ، واهمها ظهور بني بويه ومن ورائهم العنصر الديلمي المحارب . وكانت اخر محاولة للحمدانيين في هذا المجال ما ذكرناه من دخولهم بغداد بالتعاون مع ابن شيرزاد أي بينهم وبين الأتراك ضد الديلم . كانت فعاليات ناصر الدولة ومطامحه قد تخطت في هذه الفترة - أي قبل هزيمته - كل الحدود . وان مطامحه بلغت خراسان ، بحيث انه عين في خدمته ابراهيم بن احمد الساماني وشجعه على ان يحتل بلاد خراسان التي كانت في يد ابن أخيه نوح بن نصر الساماني «ثم وردت كتبه من الري على ناصر الدولة بأنه سائر الى نيسابور لمحاربة ابن اخيه نوح فأنفذ اليه ناصر الدولة خلعاً سلطانية ولواء ... »(١) غير انه فشل في هذا المجهود كذلك .

وحين اخفقت محاولة ناصر الدولة وادرك ان البويهيين ثبتوا اقدامهم في بغداد ووضعوا سيطرتهم الكاملة على الخليفة ، أرسل سفيراً من عكبرا (أي قبل رحيله الى الموصل) يطلب الصلح . وتوصل الطرفان الى توقيع معاهدة في المحرم ٣٣٥ تنص على :

١ - ان يكون في يد ناصر الدولة من تكريت وما يليها شمالا ويضاف

(١) مسكويه ١٠١/٢

الى عماله مصر والشام على ان لا يحمل عن الموصل وديار ربيعة شيئا من المال .

٢ـ ان يحمل لناصر الدولة عن مصر الشام مثل ما كان يحمله الاخشيد محمد بن طغج عنهما .

٣ـ ان يرسل ناصر الدوله الميرة والاقوات الى بغداد لتلافي الغلاء والمجاعة على الا يؤخذ عنها ضريبة(١) .

والواقع ان هذا الصلح ادى الى عكس ما كان يريد معز الدولة فقد قوى نفوذ ناصر الدولة ووسع مملكته ، فأصبحت ـ ولو نظريا ـ تشمل جميع مناطق الجزيرة ومصر والشام . وكانت هذه فرصة ذهبية لم يحسن الأمير الحمداني استغلالها ،فلو كان حكيما بعيد النظر لاستطاع ان يغدو حاكما لمناطق شاسعة تشمل العراق والشام ومصر ولتمكن من ان يحل محل الدولة الاخشيدية التي بدأت تفقد قوتها . غير أنه برهن في هذا الموقف ـ كما في غيره ـ على قصر النظر . ولم يثبت أنه قادر على حكم دولة واسعة منظمة ، وظل يهدف بالدرجة الاولى الى جباية الاموال دون ان يقوم بأي اصلاح يرضي رعيته . ومن نتائج هذه السياسة ان الصلح لم يستمر طويلا ، فرغم ان معز الدولة نصر ناصر الدولة ضد الأتراك الذين تزعمهم تكين الشيرازي بعد ان كادوا يفتكون به واعاده الى ولايته(٢)، نجد ناصر الدولة يحاول عدم تنفيذ الصلح وخاصة ما يتعلق منه بمال الضمان مما أدى الى خروج معز الدولة الى الموصل ثانية سنة ٣٣٧ هـ ،

---

(١) مسكويه ١٠٨/٢ . ابن الاثير ٤٦٦/٨

(٢) مسكويه ، تجارب الامم ١٠٩/٢-١١١ ابن الاثير ، الكامل ١٨٣/٨-١٨٤

حيث عقد صلح آخر بعد المفاوضات بينهما . وكان هذا الصلح في غير مصلحة ناصر الدولة لأنه قلص نفوذه وقلم أظافره وينص على :

١ـ ان يحمل ناصر الدولة عن الموصل وديار ربيعة وديار مضر والرحبة والشام في كل سنة ثمانية ملايين درهم .

٢ـ ان يقيم الخطبة لعماد الدولة ومعز الدولة وبختيار بن معز الدولة.

٣ـ أخذ الفضل والحسين ابني ناصر الدولة رهينة(١) . وبذلك اصبح مجرد تابع للبويهيين على حين كان بوسعه ان يقف ندا لهم او احسن التصرف .

ويلاحظ الباحث ان هذه الحوادث تتكرر فكلما آنس لناصر الدولة ضعفا لدى الحاكمين ببغداد استقل بولاياته وقطع الأموال فاذا طرق الخطر بابه وهدده معز الدولة تهديداً فعليا عاد يطلب الصلح . وقد ظل الصلح معقودا بين ناصر الدولة والبويهيين من ٣٣٧ـ٣٤٦ هـ فلا نجد ذكرا للعلاقات العدائية بينهما . وفي سنة ٣٤٦ قطع ناصر الدولة الأموال المقررة ثم عاد فوافق على ارسال مليوني درهم فقط في كل سنة(٢) .

نقم معز الدولة على ناصر الدولة تأخيره الدائم للأموال ونقضه للعهود وعدم عرفانه للجميل فخرج لحربه وأولاده سنة ٣٤٧ وأمر أن تكتب عنه توبيخات عنيفة شديدة اللهجة تقرأ في كل مكان وهي في غاية الطرافة والأهمية وفيها اتهم معز الدولة خصمه بالعقوق والتقلب والانتهازية

---

(١) مسكويه . تجارب الامم ٢/١١٥ .

(٢) ابن الاثير . الكامل ٨/٢٠٦

الفرقيّ وعدم الاخلاص وعيره بأنه القتله من تكين تورد اليه اعتبارة وغفر لـه ذنوبه غير أنه لم يرع ذلك وقلب لمعز الدولة ظهر المجن(١). ثم استطرد مخاطبه «ثم حصلت في يد وزيري الصيمري حصول المستجير الذليل فوق ذلك ولو شاء لاسرك واشتمل على بلادك وقلاعك. وظننت أنك تعرف لي حق هذه النعمة وتطالب نفسك عليها بالمجازاة فابيت الا غدراً بي وتقبيحا في معاملتي وليتك لما لم تعمل عمل الاصدقاء الاوفياء عملت عمل الاعـداء الحزماء فكاتبتني تعرض نفسك علي في النائبـة التي نابتني ... وتبذل على معاونتك فكنت تنفذ عسكرك الى تكريت على أنه مدد لي فان لاح لك استظهار مني تحمدت علي وتوددت الي وان لاح لك استظهار علي اظهرت ما في نفسك ... »(٢) فاجاب ناصر الـدولة على هذا التوبيخ المهين قائـلا « انك قد صدقت في جميـع ما عددت واني معترف بـه ووالله ما كان عن رأي ولا أمرت بـه ولكني شيخ لي أولاد احداث يخالفونني في تدبيرهم فيركبون الهوى في أمورهم ولا رأي لمن لا يطاع »(٣).

هذه « التوبيخات » تظهـر باخـلاق ناصر الـدولة على حقيقتها فهو متقلب مراوغ اذا لمس قوة عدوه تودد اليـه وخضع له ، وان آنس منه ضعفا تنكر لـه وكان حربا عليـه . وقد اعترف ناصر الدولة في جوابـه

---

(١) مسكويه · تجارب الأمم ٢/١٦٩
(٢) نفس المصدر ٢/١٦٩
(٣) نفس المصدر ٢/١٧٠

بالعيوب التي الصقها به معز الدولة لكنه برر تصرفاته بتسلط اولاده عليه . والواقع ان ناصر الدولة كان قد جاوز في هذه السنة (٣٤٧) الخمسين من عمره ، وسنرى بعدئذ امثلة لاستبداد اولاده وتنكرهم له .

غير ان ناصر الدولة اخر المال رغم كل ذلك فخرج معز الدولة الى الموصل سنة ٣٤٧ وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ ففر ناصر الدولة الى نصيبين . وكان من عادته اذا هاجمه عدو ان يترك الموصل ومعه كل كتابه وموظفيه وادلائه ودفاتر حساباته ودواوينه الى قلاعه الحصينة ويأمر الاعراب بمنع الميرة عن عدوه(١) . لذلك قاسى معز الدولة صعوبات شديدة في المؤن كما ان ابا المرجى وهبة الله ابنا ناصر الدولة دمرا فرقة كاملة من جيشه في سنجار(٢) . لكن معز الدولة طلب المدد من بغداد ثم سار الى نصيبين للحصول على الأقوات فاصعد ناصر الدولة الى ميافارقين متخليا عن جيشه بعد ان يئس من الصمود ، فلجأ جنوده الى الأمير البويهي كما لجأ اليه اخو ناصر الدولة ابو زهير . ولما ضاقت بالأمير الحمداني السبل لجأ الى أخيه سيف الدولة بحلب الذي تلقاه بالتجلة والترحاب وخدمه بنفسه حتى نزع خفه بيده(٣) . وتوسط سيف الدولة هذه المرة في الصلح فقبل معز الدولة شفاعته وضمانه وعقدت عليه ولايات أخيه على ان يدفع مليولين وتسعمائة الف درهم سنويا يدفع مليوناً منها مقدما ،

---

(١) ابن الاثير . الكامل ٨/٢٠٦ مسكويه تجارب الامم ٢/١٧١

(٢) مسكويه . تجارب الامم ٢/١٧١

(٣) ابن الاثير . الكامل ٨/٢٠٧ . مسكويه . تجارب الامم ٢/١٧١

وهكذا عاد لناصر الدولة الى مملكته بضمان أخيه سنة ٣٤٨ هـ (١).

ظل الصلح قائما حتى سنة ٣٥٢ ثم نقضه ناصر الدولة على عادته وتتكرر القصة نفسها حيث سار معز الدولة الى الموصل عام ٣٥٣ وفر ناصر الدولة امامه على عادته في تجنب عدوه مستغلا وعورة الجزيرة وصعوبة التموين وبذلك يتعب مطارده ويوفر على نفسه مشقة الحرب(٢). وبالرغم من ان لناصر الدولة واولاده نالوا انتصارات محلية ، فإن النصر النهائي كان لمعز الدولة الذي رفض هذه المرة باصرار اسناد الولاية الى ناصر الدولة(٣) فضمن ابنه ابو تغلب اعمال ابيه على ان يدفع ستمائة الف درهم عن بقية سنة ٣٥٣ وستة ملايين ومائتي الف درهم عن كل سنة من ٣٥٤-٣٥٧ (٤).

وهنا ينتهي عصر ناصر الدولة عمليا ويختفي من ميدان السياسة تقريبا فيحل محله ابنه ابو تغلب فضل الله الذي يحاول اثبات حسن نيته

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ٢٠٨/٨

(٢) مسكويه ، تجارب الامم ٢٠٤/٢

(٣) لابي فراس الحمداني قصيدة مدح فيها سيف الدولة وعرض بناصر الدولة لفراره امام معز الدولة ، وقد ذكر فيها خصال ناصر الدولة وانقاذ اخيه له ومنها :

ولم يفضل عقيلا في ولادته — على علي اخيه السن والقدم

وكيف يفضل من ازرى به بخل — وقعدة اليد والرجلين والصمم

كادت تخازيه ترديه فانقذه — منها بحسن دفاع عنه محتكم

الديوان ٣٦٦/٢-٣٦٨

(٤) ابن الاثير ، الكامل ٢١٧/٢

بإرسال أموال طائلة الى بغداد سنة ٣٥٤ (١) . وقد بلغ ناصر الدولة سن الشيخوخة فساءت احواله وضيق على أولاده ففقد احترامهم سنة ٣٥٦ حتى أخذوا يعرضون عن مشورته (٢) . ومن أمثلة ذلك ان ابا تغلب واخوته فكروا في الإستيلاء على بغداد واسقاط بختيار الذي خلف اباه معز الدولة عام ٣٥٦ فنصحهم والدهم بالتريث والتدبر حتى تنفد اموال بختيار وتخلو يده لنتيجة انشغاله باللعب والسكر (٣) . ويبدو ان ابا تغلب واخوته ضاقوا ذرعا بتدخل ابيهم ووقوفه في وجه اغراضهم السياسية فقبضوا عليه مستغلين ضعفه وشيخوخته ، واعتقله ابو تغلب في احدى القلاع ليلة السبت ٢٤ جمادي الاولى سنة ٣٥٦ ، وضمن من بختيار اعمال ابيه بمليون ومائتي الف درهم سنويا (٤) . ويقول المؤرخون ان قوى ناصر الدولة العقلية اختلت بسبب حزنه على أخيه سيف الدولة الذي توفى سنة ٣٥٦ كما انه اصيب بالصمم (٥) مما ساعد اولاده على التخلص منه بهذه الطريقة التي تدل على العقوق وظل ناصر الدولة معتقلا حتى توفى في عصر يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ وله من العمر ستون سنة على الأقل (٦) . ودفن بالموصل في جبل التوبة شرقي هذه المدينة (٧) .

---

(١) مسكويه ١/ ٢١٥

(٢) ابن الاثير ٨/ ٢٢٨

(٣) مسكويه • تجارب الامم ٢/ ٢٣٨

(٤) ابن الاثير • الكامل ٨/ ٢٢٨ • مسكويه تجارب الامم ٢/ ٢٣٨

(٥) ابن خلكان • وفيات الاعيان ١/ ١٧٦ . ديوان ابي فراس ٢/ ٣٦٦-٦٨

(٦) ابن الاثير • الكامل ٨/ ٢٣٤-٢٣٥

(٧) ابن خلكان • وفيات الاعيان ١/ ١٧٦

ولا يسع الباحث وهو يتتبع حياة ناصر الدولة الا ان يحكم عليه حكما قاسيا ، فنحن اذا استثنينا المقدرة الحربية وقوة العزيمة وهما صفتان ميزتا جميع الحكام المستقلين في القرن الرابع وجدنا ان خصال هذا الامير وأعماله تدمغه بتهمة الفشل السياسي . فهو علاوة على قسوته ونقضه للعهود لم يقدم لشعبه خدمات كثيرة يذكرها له التاريخ . وكانت سياسته الداخلية تقوم على استنزاف موارد البلاد وسياسته الخارجية على صراع حربي غير منظم ادى الى اضعافه وإشاعة الفوضى في مملكته ، بل انه اخفق حتى في ايجاد الوحدة والوفاق بين ابنائه مما ادى الى طغيانهم عليه في أواخر حياته واختلافهم فيما بينهم بعد وفاته .

الفصل الثالث

خلفاء ناصر الدولــــة

١ـ الصـراع بين الأخوة ٢ـ التدخل البويهي ٣ـ الأميرة جميلة ـ ٤ـ نهاية الحمدانيين في الموصل ٥ـ اللجوء الى الفاطميين .

١ـ الصراع بين الأخوة

خلف ناصر الدولة أبناء عديدين ذكوراً واناثاً هم ابو المرجى جابر (أو ابو المرجا الذي توفي قبل ٩٦١/٣٥١)(١) وابو القاسـم هبة الله وابو البركات لطف الله (ت ٩٦٩/٣٥٩م) وابو الفـوارس محمد وابو طاهر ابراهيم (ت٩٩١/٣٨١م) وابو المظفر حمدان وابو عبدالله الحسين (ت ٩٩٠/٣٨٠م) وابو المطـاع ذو القرنين ، والغضنفر فضل الله ابو تغلب عدة الدولة (ت٩٧٩/٣٦٩م) وهو أهمهم من وجهة نظر المؤرخ . واشتهرت من بنات ناصـر الدولة جميلة ، كما وردت اشارات عابرة الى ابنة اخرى هي علوية(٢) .

كان ابو تغلب ابرز اخوته ، وهو من زوجة كردية لناصر الدولة كانت أثيرة لديه مسموعة الكلمة عنده(٣) ، يبدو انه تزوجها لمصلحة سياسية هدف من ورائها الى جذب الأكراد الى صفوفه . وقد مارس

---

(١) ابو المرجى «أو المرجاء بتشديد الجيم . ويرد «ابو الرجال» خطأ في العبر لابن خلدون

(٢) ورد ذكر هؤلاء في ديوان ابي فراس « شرح ابن خالويه » م ٤/٠٤٠٩ - بيروت

(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ٢٠٤ « مجلة المجمع العلمي بدمشق » .

ابو تغلب شؤون الحكم والادارة في حياة ابيه ثم اعتقله سنة ٩٦٦/٣٥٦م واستأثر بالسلطة . وقد أطاع أبا تغلب جميع اخوته عدا ابي المظفر حمدان ، فقد نقم على اخيه معاملته العاقة لأبيه ناصر الدولة ، وكان هذا بدوره يؤثر حمدان على سائر أولاده حتى انه ولاه الرقة ونصيبين والرحبة بعد وفاة سيف الدولة (سنة ٣٥٦) واطلق يده في تلك النواحي ومواردها(١) .

ومن الجدير بالذكر ان ناصر الدولة في اواخر ايامه لم يتمتع باحترام أولاده وطاعتهم ، بل انهم كانوا يرفضون مشورته ويتمردون عليها ، وكان اكثر الاخوة تمرداً هو ابو تغلب . ويعلل المؤرخون تمرد ابي تغلب على ابيه واعتقاله بسببين اولهما ان ناصر الدولة حين بلغ سن الشيخوخة أخذ يفرط في سوء الظن بأولاده والتقتير عليهم ، وعلى حاشيته . ويقول مسكويه(٢) بهذا الصدد « ان ابا تغلب قبض على ابيه ناصر الدولة لما رآه قد كبر ولم يبق فيه بقية غير سوء الظن والتقتير على أولاده وعلى حاشيته ... » ويؤكد ابن الاثير ذلك بقوله(٣) : ان سبب القبض على ناصر الدولة « انه كان قد كبر وساءت اخلاقه ، وضيق على أولاده وأصحابه ، وخالفهم في اغراضهم للمصلحة فضجروا منه » . غير ان السبب الثاني كان هو الأهم وهو الحاسم ، فقد عارض ناصر الدولة قرار أولاده (الذين تزعمهم ابو تغلب) باحتلال بغداد والاطاحة بالبويهيين والوثوب الى السلطة . وكان رأي ناصر الدولة

---

(١) ابن ظافر . اخبار الدولة المنقطعة ، مخطوط ، ورقة ١١ أ .

(٢) تجارب الامم ٢/٢٣٨

(٣) ٨/٥٧٩ (بيروت)

الا يستعجل ابناؤه تنفيذ هذا المشروع وان ينتظروا ريثما يبدد بختيار بن معز الدولة امواله الضئيلة، ثم يتصلون الى شراء المؤيدين بالمال الذي امتلك منه الحمدانيون الشيء الكثير. غير ان ابا تغلب لم ترقه هذه النصيحة التي تحد من طموحه ومن ثم قام باعتقال ابيه كما أسلفنا(١).

نشب النزاع بين الأخوة بسبب الاجراء القاسي الذي اتخذه ابو تغلب بحق الأب الشيخ، وفي هذا الصدد يقول مسكويه(٢) ان ابا تغلب حين قبض على ابيه «أصعده الى قلعته ووكل به من يخدمه ويزيح علته في حاجاته. فامتنع بعض اخوته وانتشر النظام الذي كان يجمعهم فشغلهم حفظ ما في ايديهم عن طلب ما ليس لهم». أي ان المشروع الذي طمح اليه ابو تغلب - وهو القضاء على سلطة البويهيين - حال دون تنفيذه الصراع بين الاخوة الذي قاد الى أبشع النتائج ومزق وحدة الأسرة الحمدانية. ومن الطريف ان المؤرخين تشاءموا من هذه السنة (٣٥٦) واعتبروها سنة جنائزية تلاحق فيها «مشايخ الملوك بالموت»، فقد مات سيف الدولة ومعز الدولة ونقفور ملك الروم وكافور الاخشيدي ووشمكير بن زيار ومحمد بن الياس (صاحب كرمان)(٣).

وقد اساء ابو تغلب في الحق لمصلحة الحمدانيين انفسهم فأنه في سبيل الاستئثار بالسلطة لجأ الى مداراة البويهيين الذين ادعى انه كان يريد الاطاحة بهم، وانبرى يطلب تجديد عقد الضمان ليتفوق على اخوته

---

(١) مسكويه ٢/٢٣٨-٢٣٩ . ابن الاثير ٨/٥٧٩-٥٨٠ .

(٢) ٢/٢٣٨-٢٣٩ . كذلك ابن الاثير ٨/٥٨٠

(٣) مسكويه ٢/٢٣٩ . ابن الاثير ٨/٥٨٠

« فضمنه - أي بختيار - البلاد بالف الف ومائتي الف درهم كل سنة(١) » . وذلك نتيجة لنجاح كاتبه ابي الحسن علي بن عمرو بن ميمون في تذليل الصعوبات في بغداد(٢) واقناع بختيار بتوقيع العقد مستغلا سوء الاحوال المالية وافلاس الخزينة المركزية .

حقاً لقد مزق ابو تغلب وحدة الاسرة الحمدانية التي افتقدت عميديها ناصر الدولة وسيف الدولة ، وظهر الصراع بين الاخوة مكشوفاً ومبتذلا حتى « انخرقت الحشمة » بين الاخوة على حد تعبير مسكويه(٣) . وقد انقسم الاخوة الى فريقين فريق ابي تغلب وشقيقه ابي البركات وشقيقته جميلة (وكلهم من فاطمة بنت أحمد الكردية) وفريق حمدان الذي اسلفنا انه كان اثيراً لدى ابيه حتى اقطعه الرحبة وماردين وغيرهما مما أوغر صدور اخوته الاخرين . ويصرح المؤرخون بأن فاطمة هي التي حرضت ابنها الأكبر ابا تغلب على الخروج على ابيه خوفاً من أن تؤول السلطة الى حمدان الذي يعتبر اشجع الاخوة واكثرهم شهامة والتزاماً بالقيم الخلقية(٤) . ويبدو ان ناصر الدولة أحس بالمؤامرة التي تجري من حوله فراسل ابنه حمدان يستدعيه ليشد ازره ، غير ان الرسالة وقعت في ايدي حزب ابي تغلب فأتلفوها ، ومن ثم تصدى ابو تغلب وجماعته الى القبض على ابيهم ليلا - وأرسل الى

---

(١) ابن الاثير ٥٨٠/٨ . مسكويه ٢٣٩/٢

(٢) مسكويه ٢٣٩/٢

(٣) ٢٥٦/٢

(٤) ابن الاثير ٥٩٣/٨ . مسكويه ٢٥٥/٢

قلعة كواشي ، حيث توفي في ربيع الاول ٣٥٨/٩٦٨م(١) .

تنازع الاخوة على السلطة فوقف حمدان في وجه ابي تغلب واخوته الاخرين وكتب اليهم يأمرهم بالافراج عن ابيه ، غير ان ابا تغلب سار لحربه فتحصن حمدان بالرقة ثم سار الى الرافقة حيث دارت بين الاخوين مناوشات انتهت بالصلح على دخن(٢) . وظل حمدان يناوئ اخاه حتى أنه هدده بالاستعانة بالبويهيين فاذا لم يجد ذلك فبالقرامطة واذا اعوزه الأمر فبملك الروم ، وكان رد ابي تغلب أنه استولى على قلاع أخيه وطرد نوابه وموظفيه(٣) . وأظهر الاخوان عداوتهما الصريحة السافرة فارسل ابو تغلب اخاه ابا البركات في جيش كبير ما أن ابصر به اصحاب حمدان حتى استسلموا . فلم يملك هو الا الفرار لاجئا الى بختيار بن معز الدولة مع أهله وحاشيته فاستقبله احسن الاستقبال واسكنه دارا مريحة مؤثثة بافخر الرياش واغدق عليه المال والثياب والطيب والدواب « بمراكب ذهب وفضة »(٤) . ثم توسط بختيار بين الاخوين فتصالحا وعاد حمدان الى الرحبة سنة ٣٥٨(٥) .

غير أن النزاع قام بينهما من جديد سنة ٣٦٠ فارسل ابو تغلب اخاه ابا البركات الذي طرد حمدان من الرحبة والجأه الى الفرار الى دمشق . غير أن العطش أصاب حمدان وصحبه في الصحراء فاضطر الى العودة

---

(١) ٥٩٣/٨

(٢) مسكويه ٢٥٥/٢

(٣) نفس المصدر والمكان .

(٤) المصدر السابق ٢٥٦/٢

(٥) ابن الاثير . الكامل ٢٣٤/٨-٢٣٥

الى الرحبة على جنح الليل ودخلها من ثلمة أحدثها في السور و اباد الحامية التي تركها بها ابو البركات واستولى على أمواله واسلحته ثم اصعد الى قرقيسيا . ولما علم ابو البركات بذلك عاد مسرعا وجرت بين الاخوين مناوشة في ماكسين على نهر الخابور وعلى مقربة من رحبة مالك بن طوق(١) فأسر حمدان ابا البركات وحمله الى قرقيسيا حيث توفى من جرح خطير اصابه فارسله فى تابوت الى الموصل(٢) .

انقسم اولاد ناصر الدولة الى حزبين فانحاز محمد ابو الفوارس الى حمدان وكان يتولى نصيبين غير ان ابا تغلب اعتقل محمدا في قلعة اردمشت وكانت من اقوى قلاع الحمدانيين في الجزيرة . وكبله بالحديد فظل محبوسا حتى اطلقه عضد الدولة كما سنرى(٣) . وقد أثار هذا العمل الوحشي اخوة ابي تغلب وخاصة الحسين وابراهيم اللذين انحازا الى حمدان(٤) . ولجأ ابو طاهر ابراهيم الى عز الدولة بختيار ثم تبعه اخوه ابو القاسم هبة الله فرحب بهما الأمير البويهي عند وصولهما الى واسط سنة ٣٦١ واغدق عليهما الهدايا من الثياب والطيب والدواب وانزلهما في دارين فخمتين(٥) . وكان رد ابي تغلب على ذلك أنه استولى على قلعة ماردين التابعة لحمدان وصادر أمواله وممتلكاته من الفرش والثياب

---

(١) معجم البلدان ٢٦٦/٧

(٢) مسكويه . تجارب الامم ٢٩١/٢

(٣) التنوخي . نشوار المحاضرة ٢٣٥/١

(٤) نفس المرجع ٢٣٥/١

(٥) مسكويه . تجارب الامم ٢٩٢/٢

والجوهر(١) . والحق أن ابا تغلب يذكرنا في تصـرفاته هذه بأبيه فقد كان مثله قاسيا واقعيا يقدم مصالحه على كل اعتبار اخر ولا يقيم وزنا لاية عاطفة .

٢- التدخل البويهي

استطاع حمدان واخوته الذين لجأوا الى البويهيين وهم ابراهيم وذو القرنين ابو المطاع(٢) وهبة الله ان يكونوا حزبا قويا ضد ابي تغلب غير انه استطاع ان يفرق بينهم فجذب الى صفه ابراهيم وذا القرنين . ومع ذلك ظل حمدان مصرا على موقفه العدائي من أخيه واستطاع ان يغري بختيار بمساعدته فاقنعه بالمسير الى الموصل سنة ٣٦٣(٣) . فما كان من ابي تغلب الا أن مثل دور ابيه مع معز الدولة فهجر حاضـرته بعد ان اخلاها من جميع المؤن والكتاب والدواوين وقام بمناورة جريئة فقصد بغـداد بجيشه منتهزا غياب بختيار عنها ونزل قرية القادسية على نهر الدجيل على بعد نحو ثلاثة فراسخ من بغداد وعامل أهلها معاملة حسنة فجذبهم الى صفه(٤) . وقد اسلفنا القـول أنه كان يفكر في احتلال بغداد والقضاء على بختيار منذ ايام ناصر الدولة .

كان نائب بختيار في بغـداد سبكتكين ويبدو أنه لم يكن مخلصا

---

(١) ابن ظافر . اخبار الدول المنقطعة « مخطوط » ورقة ١٢ أ

(٢) كان ذو القرنين ابو المطـاع وجيه الدولة رهينة لدى معز الدولة ثم بختيار منذ عهد ناصر الدولة كما مر بنا .

(٣) ابن الاثير . الكامل ٨/٢٤٩-٢٥٠

(٤) مسكويه . تجارب الامم ٢/٣١٧

لسيده فقد تآمر مع ابي تغلب ضده وقسما العمل بينهما فكان على سبكتكين ان يقبض على الخليفة المطيع ووالدة بختيار وحرمه ويعلن للعصيان في بغداد . اما ابو تغلب فكان عليه ان يعود الى الموصل للقضاء على بختيار . ويظهر ان سبكتكين خاف العاقبة فتهرب من وعده ولحق ببختيار مما فت في عضد ابي تغلب وجعله يتخلى عن مشروعه الخطير ، فغادر بغداد الى حاضرته حيث وجد بختيار في الدير الاعلى خارج الموصل وهناك جرت مفاوضات الصلح التي قطعها وصول سبكتكين وحمدان ومحمد بن بقية الوزير الذين اقنعوا بختيار بحرب ابي تغلب ، لكنه كان قد مل الحرب والبعد عن بغداد حيث ملاهيه ومجالس انسه ، فقبل شروط ابي تغلب وهي ان يلقب لقبا سلطانيا وان تزف اليه بنت بختيار(١) . وفي رجب سنة ٣٦٣ عقد الصلح فعلا واصدر المطيع عهدا بتلقيب ابي تغلب عدة الدولة وانفذت اليه خلع سلطانية ونقلت اليه زوجه وذلك يوم الخميس ٢٠ ذي الحجة من تلك السنة(٢) . واذا قرأنا عهد المطيع الى ابي تغلب نستطيع ان نستنتج توسع سلطانه وقوة نفوذه فقد اسند اليه الخليفة جميع السلطات في اقليم الجزيرة وخاطبه بلهجة تدل على التقدير(٣) ، ولا غرابة في ذلك فقد كانت السلطة الحاكمة ببغداد في غاية الخور وكان بختيار يؤثر السلامة ليعكف على لهوه وانسه ولم يكن الخليفة اقل ضعفا منه .

---

(١) ابن الاثير . الكامل ٨/٢٤٩-٢٥٠

(٢) مسكويه . تجارب الامم ٢/٣٢١ . ابن ظافر . اخبار الدول المنقطعة ورقة ١٣ ب

(٣) الصابي . رسائل الصابي ١٧٤-١٧٧

ظل حمدان يعمل بكل وسيلة على الالتقام من أخيه غير ان ابا تغلب استطاع ان يحالف عضد الـدولة البويهي الذي استولى على السـلطة في بغداد واخرج ابن عمه بختيار الى الشام سنة ٣٦٧ وشرط عليه الا يتعرض لابي تغلب بسـوء . واستغل حمـدان نقمـة بختيـار فقابله في عكبرا واغراه ان يستولى على الموصل ، واوحى اليـه انها خير له واجدى عليه من الشام . لكن ابا تغلب ابطل تدبير اخيه حين ارسـل مع كاتبه علي بن عمر هدايا ثمينة الى بختيار وهو بتكريت(١) . وكان علي بن عمر يحمل مع الهدايا رسالة طلب فيهاابو تغلب من بختيار ان يقبض على حمدان ويسلمه اليه ومناه أن يعينه ـ مقابل ذلك ـ على حرب عضد الدولة . ووقع بختيار فى مأزق حرج لأنه كان قد حاف لحمدان ان يكون معه غير ان المصالح الماديه قضت على تردده فهيـأ السبيل للقبض على حمدان دون ان يشترك هو شخصيا في هذا العمل وبذلك اقنع نفسه أنـه حقق مصلحته دون ان يحنث بيمينه . ولما قبض ابو تغلب على أخيه حبسه فى احدى القـلاع ثم قتلـه بمساعدة اخته جميلة(٢) . وهكذا كانت أواصـر الاخوة والعهود والايمان والمعاهدات في هذا العصر أمورا لا قيمة لهـا بجالب الاطماع والمصالح الشخصية . ولمـا فتح عضد الدولة الموصل وجد جثة حمـدان ملقاة في بعض القلاع في حين فر أبنـه ابو السرايا الى بغداد ملتجئا الى عضد الدولة(٣) .

ر ابو تغلب بوعده فخرج مع بختيار من الموصل فى خمسة وعشرين

---

(١) ابن ظافر . اخبار الدول المنقطعة ، مخطوط ، ورقة ١٤ أ

(٢) ابن الاثير . الكامل ٨/٢٧٥

(٣) ابن ظافر . الدول المنقطعة ، مخطوط ، ورقة ١٤ أ

الف رجل(١) او عشرين الفا(٢) في رواية اخرى ، وترك عضد الدولة بغداد فالتقى باعدائه يوم الاربعاء ١٨ شوال ٣٦٧ في قصر الجص (٣) ، وهزمهم شر هزيمة فقداسر بختيار وحز رأسه(٤) وتعقب ابا تغلب الذي فر الى الموصل وأخلاها من جميع المؤن والأموال والدواوين (٥) . غير ان عضد الدولة كان قد اتعظ بالتجارب فحمل معه الميرة والاقوات والكتاب ودخل الموصل منتصرا واحتل أعمالها وظل بهـا يدبر أموره ويستجم . واقام ابو تغلب مع جميلة اخته وشريكته في الحكم في ميافارقين واخذ يراسل عضد الدولة مستغفرا نادما ، غير ان هذا صرح بان الموصل احب اليه من بغداد ، ولعله يشير بذلك الى انها اشبه بطبيعة بلاد الديلم الجبلية . ولما استراح عضد الدولة سار للقضاء على غريمه الذي نقل أهله الى حصن بدليس وذهب هو الى الحسنية من نواحي الجزيرة حاملا معه كل ما لديه من مال وجوهر ودر ومتاع ، ففر ابو تغلب على وجهه سالكا طريقا ملتويا ليصل الى بدليس فلما ادركته عساكر عضد الدولة دخل بلاد الروم ولجأ الى الملك بردس السقلاروس Bardas Solereus الذي دعاه العرب ورد الرومي(٦) .

ولما كان بردس مشغولا بمشاكله الداخلية فقد ترك ابو تغلب بلاد

---

(١) مسكويه . تجارب الامم ٢/٣٨٠

(٢) ابن الاثير . الكامل ٨/٢٧٥

(٣) قصر الجص . قصر عظيم قرب سامراء بناه المعتصم للنزهة . ياقوت . معجم البلدان ٧/١٠٠ .

(٤) مسكويه . تجارب الامم ٢/٣٨١

(٥) نفس المصدر ٢/٣٨٢

(٦) نفس المصدر ٢/٣٨٦

الروم ونزل بآمد حيث قضى شهرين ينتظر مصيره ، على حين أخذ ابو الوفاء طاهر بن محمد قائد عضد الدولة يفتتح المـــدن والحصون واحدا اثر الاخر حتى بلغ ميافارقين التي كانت من أحصن مدة الجزيرة فحاصرها. ولما مل أهلها الحصار سلموا مدينتهم الى قائد عضد الدولة سنة ٣٦٨(١). وسارت فرقة من الجيش البويهي لفتح آمد ففر ابو تغلب الى الرحبة مع شقيقته جميلة في حين ارسل أهلـــه واخواته الاخريات لاجئات الى ابي الوفاء . وهكذا استسلمت آمـد وبقية مدن ديار بكر وعاد ابو الوفاء الى الموصل يحمل في ركابه الاسرى والغنائم بعد ان نظم الادارة والشؤون المالية هناك وترك موظفين اكفاء فى الحصون والمدن المفتوحة(٢) .

بعث ابو تغلب من الرحبة وفدا يتكون من أخيه ابي عبدالله الحسين وسلامة البرقعيدي وهومن كبار الغلمان الحمدانيين الى عضد الدولة وكان الوفد يحمل رسالة تفيض استعطافا وتوسلا ، وظل هو ينتظر الرد على احر من الجمر غير ان عضد الدولة استطاع ان يستميل اليه الحسين ممنيا اياه بالوعود المعسولة فخذل هذا أخاه وانضم الى حاشية عضد الدولة(٣). ومما ساعد على خذلان ابي تغلب ان ابن عمـــه سعد الدولة حالف عضد الدولة ضده وكوفئ ببعض مدن ديار مضر (٤) ، وبذلك فقد ابو تغلب كل امل في النصر او الصلح . ويجدر بنا ان نلاحظ هنا بان عضد الدولة كان أحزم من معز الدولة فلم يفعل ما فعله هذا مع ناصر الدولة من العفو

---

(١) مسكويه ، تجارب الامم ٢/٣٩٠

(٢) ابن الاثير ، الكامل ٨/٢٧٥ ، مسكويه ، تجارب الأمم ٢/٣٩١

(٣) مسكويه ، تجارب الأمم ٢/٣٩٢

(٤) ابن الاثير ، الكامل ٨/٢٧٥

الحكم ، بل اراد ان يحطم قوة الحمدانيين في الجزيرة نهائيا ، تلك القوة التي زعزعت امن الخلافة وافقدتها سيادتها منذ امد ، خاصة وان تلك الاقاليم كانت مشهورة بالغنى ووفرة الحاصلات ووجودها تحت سلطة الخلافة المباشرة يجعل تحت تصرفها موردا ماليا كبيرا للخزينة المركزية يمكن الانتفاع منه في المشاريع الكثيرة التي كان عضد الدولة ينوي القيام بها .

وأخذ عضد الدولة يفتح قلاع الجزيرة الغنية الممتدة على ضفة دجلة الشرقية كاردمشت التي كانت تزخر بالامتعة والأموال والجواهر والحلي ، وقد وصف لنا مسكويه(١) الذي كان شاهد عيان لهذه الحوادث وكان ضمن حاشية عضد الدولة كيفية استيلاء الأمير البويهي على هذه القلاع وما كانت تحويه من الثروة حتى ان اردمشت وحدها حوت أكثر من عشرين مليون درهم ، ووجد ابو الفوارس بن ناصر الدولة محبوسا في هذه القلعة فاطلق عضد الدولة سراحه (٢). ولما نظم الامير البويهي أمور تلك الاقاليم عاد الى بغداد في اخر ذي القعدة سنة ٣٦٨ (٣) .

توجه ابو تغلب بعد ان ضاقت به السبل الى دمشق موغلا في الصحراء فلم يسمح له بدخولها قسام العيار ، وهو مغامر من ادنى الطبقات الاجتماعية كما يدلل على ذلك اسمه كان قد استولى على تلك المدينة . فكتب ابو تغلب الى الخليفة الفاطمي العزيز يطلب توليته الشام فاطاله وطلب اليه الشخوص

---

(١) تجارب الأمم ٢/٣٩٣-٣٩٤

(٢) ابن ظافر ، الدول المنقطعة ، مخطوط ، ورقة ١٤ ب

(٣) مسكويه تجارب الامم ٢/٣٩٥

الى مصر(١) . لكنه رفض ورحل الى طبرية بفلسطين ، بعد ان تخلى عنه جيشه وصحبه وحتى أخوته فقد استأمن أخوه ابو طاهر وابن عمه ابو الغطريف الى عضد الدولة . ثم ارسل العزيز الفاطمي أحد غلمانه وهو الفضل لفتح دمشق وحاول هذا ان يتفق مع ابي تغلب على اخراج قسام من تلك المدينة غير ان ابا تغلب رفض الاتفاق لأنه فيما يبدو لم يكن يرغب في أن يكون تابعا للفاطميين ، فرحل في مستهل سنة ٣٦٩ الى الرملة في جمع كبير من حلفائه بني عقيل محاولا الاستيلاء عليها من رجل بدوي يشايع الفاطميين هو دغفل المفرج بن الجراح ، الا ان هذه المحاولة الاخيرة اليائسة كلفته حياته ، فقد اسره دغفل وقتله وقطع بعض الاعراب يديه ورجليه وانفذ الفضل رأسه الى العزيز (صفر سنة ٣٦٩)(٢) ثم صلبت جثته واحرقت وكان في الحادية والاربعين من عمره(٣) . وقد خلف ابو تغلب ولدين هما ابو الهيجاء احمد وابو النصر نصر الله(٤) .

٣ـ الأميرة جميلة

يجدر بنا ان نتحدث قليلا عن جميلة بنت ناصر الدولة فقد كانت شخصية قوية من المع بني حمدان وخير مثل للنساء العربيات في القرن الرابع اللائي قمن بدور كبير في السياسة والادارة . كانت جميلة شقيقة ابي تغلب فضل الله من زوجة ناصر الدولة الكردية فاطمة بنت احمد(٥) .

---

(١) ابن ظافر . الدول المنقطعة . مخطوط . ١٥ أ

(٢) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢/٥١٩

(٣) ابن خلكان . وفيات الاعيان ١/١٧٦

(٤) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١٥ أ

(٥) مسكويه . تجارب الأمم ٢/٢٥٥

ذلك ان ناصر الدولة تزوج عدة نساء وكان اولاده الذين اسلفنا ذكرهم ليسوا اشقاء وهذا من اسباب تنافرهم واختلافهم . وكانت جميلة من اقرب اولاد ناصر الدولة اليه في اخريات ايامه وهي المدبرة لجميع أموره، كما كانت غالية على أخيها ابي تغلب حتى انه لم يكن يقرر امرا دون الرجوع الى مشورتها(١). وتدل سيرة هذه السيدة اللامعة على الدهاء والشجاعة وروح المغامرة فقد وقفت الى جانب ابي تغلب في حربه وسلمه وضربت معه في الآفاق حتى لقي مصيره . وكانت فوق ذلك كله كريمة سخية محسنة الى الفقراء حتى ضرب المثل بحجها عام ٣٦٦ فقد نثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار وفرقت المال على الفقراء والمجاورين وخلعت على كبار الناس خمسين الف ثوب(٢) .

كان ابو تغلب قد خلف أخته جميلة وزوجه وهي بنت عمه سيف الدولة في احياء بني عقيل ، فلما قتل ارسلت مع غيرها من حريم ابي تغلب الى حلب فأخذ سعد الدولة اخته وارسل جميلة الى الرقة فعانة فالموصل حيث سلمت الى ابي الوفاء ثم عضد الدولة باعتبارها سبيا . وهذا مثل من امثلة عدم التعاون بين افراد الاسرة الحمدانية وانعدام روح المحبة بين افرادها . ولما عاد ابو الوفاء الى بغداد أخذها معه فضمت الى جواري عضد الدولة ونسائه بعد ان سلبها البويهيون جميع أموالها وحصونها . وختمت حياة جميلة ختاما مؤثراً مؤسيا ذلك ان عضد الدولة خطبها لنفسه فامتنعت ترفعا عليه فحقد عليها وهتكها وأخذ يذيقها مر العذاب وقاست وهي المدللة الفقر والمذلة والحرمان والعار وشهر بها على جمل والمنادي ينادي « هذه قبيحة أخت ابي مغلوب »

---

(١) التنوخي . نشوار المحاضرة ١/٩٧

(٢) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢/٥٠٩

القت بنفسها أو ألقيت في دجلة(١) . وهكذا تكشفت جميلة لناعن شخصية فذة في عزها وذلها ومثلت عزة النفس والاباء احسن تمثيل وفضلت ذلك المصير البشع الاليم على الزواج من عضد الدولة وهو الأمير الحاكم بأمره آنـذاك لا لأمـر الا لكونـه أعجميا ، وهذه خصلة تذكرنا بالعرب في صدر الاسلام الا أنها بدت غريبة على القرن الرابع الذي شهد امتزاج العرب بالاعاجم الى حد كبير .

اما اولاد ناصر الدولة الآخرون فلم تكن لهم من الاهمية ما كان لابي تغلب وجميلة عدا حمدان الذي كان بدوره شخصية جـذابة قوية وقد اسلفنا الحديث عن وقوفه في وجه أخيه ومصيره المؤلم على يديه . على أننا حين نتصفح كتب التاريخ نجد بعض الاشـارات العابرة الى أولاد ناصر الدولة الآخرين فنجد ابا الفوارس محمد يخرج فى سرية لحرب الروم وابا البركات يحاول الاستيلاء على ميافارقين سنة ٣٥٨ من زوجة سيف الدولة فيخفق ويهزم ثم يموت متأثرا بجراحه في سنة ٣٦٠ في اسر اخيه حمدان (٢) .

ونرى الحمدانيين يبذلون آخـر محاولة لاستعادة نفوذهم فى الجزيرة سنة ٣٧٩ حين تولى الموصل ابو طـاهر ابراهيم وابو عبدالله الحسين . وتفصيل الأمر ان هذين الأخوين كانا في خدمة شرف الدولة البويهي ببغداد فلما توفي وجاء بهاء الدولة اذن لهـما بالمسير الى الموصل غير انه ندم فكتب الى خواشاذة عامل تلك المدينة ان يمنعهما من دخولها . لكنهما

---

(١) مسكويه ، تجارب الامم ٢/٤٠٤

(٢) نفس المصدر ٢/٢٩١

اغذا السير حتى اقتربا من الموصل . ومما يلفت النظر ان اهل تلك المدينة انحازوا اليهما واظهروا العداء نحو الديلم والاتراك وهزموهم ودخل ابنا حمدان الموصل بفضل نصرة الموصليين لهما(١) . وهذه الحادثة ترينا كراهية العرب للاعاجم في الجزيرة حيث الروح العربية ما زالت قوية آنــذاك خاصة بين القبائل التي لم تستسغ بحال من الاحوال الخضوع للعناصــر الأجنبية . غير ان ثورة اهل الموصل على الديــلم والأتراك ومصــادرة اموالهم ونهب ممتلكاتهم تدلل من ناحية اخرى - وهذا هو الأهم - على تأييد اهل المدينة للحمدانيين . ويقول ابو شجاع في هذا الصدد(٢) : «ثار اهل الموصل على الديلم والأتراك فنهبوا ارحالهم واخذوا اموالهم وخرجوا الى بني حمدان واظهروا المباينة والعصيان » . وقد برهن العامة على جدية في المضي بمهمة اعــلان الاستقلال وقتل الديلم ، فــاذا كان موقف الاخوين الحمدانيين ؟ لقد خافا مغبــة هذا الأمر وخشيا عواقبه فخذلا العامة واجريا مراسلات مع ممثلي السلطه المركزية قالا فيها انهما « خدم السلطان ، وقد جرت الأقدار بغير الاختيار ولا قدرة لنا الآن على ضبط العامة لما في نفوسهم من الــديلم وهم في غد يحرقون الــدار ويسفكون الدماء ... » وطلبا من ممثلي السلطة المركزية التدخل ، وانتهى الأمر بتسوية غريبة هي ان «تنهب اموال الجند (الديلم) وتحقن دماؤهم . وعاد الديلم بأسوأ حــال بالزواريق الى دار السلام » (٤) . وهكذا بدت الظـروف

---

(١) ابن الاثير . الكامل ٢٧/٩ « مصر » . ابو الفدا المختصر ١٢٦/٢

(٢) ذيل تجارب الامم ١٧٥

(٣) نفس المصدر والمكان

(٤) ابو شجاع . ذيل تجارب الامم ١٧٦

موالية لابراهيم والحسين ابني ناصر الدولة ، فقد انثال عليهما من بني عقيل عدد كبير من الأنصار والمؤيدين وكان العامة مؤيدين لهم تأييداً كاملا ، فضلا عن جيشهم الذي بلغ ثلاثين الف جندي من الغلمان الحمدانية(١) .

٤ـ نهاية الحمدانيين في الموصل

إلا ان قوة كبيرة ظهرت الآن في الميدان فقلبت كل تقديرات الاخوين الحمدانيين ، وهي التي وضعت النهاية لنفوذ الحمدانيين في الجزيرة . كان الأكراد يمثلون قوة كبيرة في الجزيرة ، وقد دخلوا في هذه الفترة (٣٨٠/٩٩٠) تحت زعامة باذ الكردي صاحب ديار بكر ، الذي ادرك عوامل الوهن في موقف الحمدانيين فسار لاحتلال الموصل في جيش من ستة آلاف ، من أصناف الأكراد ، ونزل في الجانب الشرقي (٢) . واستنجد ابراهيم والحسين بامير بني عقيل محمد بن المسيب الذي اشترط لنصرتهما الحصول على جزيرة ابن عمر ونصيبين وبلد وبضعة مواضع اخرى في الجزيرة ، فأجابه الى طلبه(٣) . وكانت الخطة التي وضعها الحمدانيون والعقيليون بارعة ، فقد سار الحسين الحمداني وبنو عقيل الى بلد وعبروا دجلة فأصبحوا مع باذ في ساحة واحدة ، وكانت هذه مباغتة لباذ من الخلف لأنه كان مشغولا بحرب ابي طاهر ابراهيم واهل الموصل ، فأوعز الى اصحابه باللجوء الى قمم الجبال . وبينما كان باذ يريد الانتقال من فرس الى أخرى سقط على الارض واندقت ترقوته وقتله أحد بني عقيل ،وحمل رأسه الى ابني حمدان . كما حملت جثته الى

---

(٢) نفس المصدر والمكان
(٣) نفس المصدر ١٧٧
(٤) ابن الاثير ٢٩/٩ ، مصر ، ابو شجاع ١٧٧

الموصل وقطعت يده ورجله وحملنا الى بغداد ، اما جثته فصلبت على باب دار الامارة بالموصل . ومن الطريف ان العامة ثاروا على هذا العمل وقالوا « هذا رجل غاز فلا تحل المثلة به . فحط وكفن وصلي عليه ودفن . وظهر من محبة العامة له بعد هلاكه ما كان طريفاً ... » (١) .

غير ان زعامة الأكراد آلت بعد مقتل باذ الى ابن اخته ابي علي الحسن بن مروان ، الذي كان في الاصل صاحب طاحونة يشغلها في قرية كرماص بين اسعرد (أو سعرت) والمعدن(٢) . قصد ابو علي مروان قلعة كيفا على دجلة وهي قلعة حصينة جداً في ديار بكر (وتسمى حصن كيفا) وبها زوجة باذ الديلمية فتزوجها وامتلك القلعة . ثم تصدى للحصون والقلاع الحربية في تلك المنطقة فنظم شؤون الدفاع عنها . ويبدو ان الاخوين الحمدانيين - بإسناد من العقيليين - طمحا الى الاطاحة بابن مروان فقصداه الى ديار بكر يحملان معهما رأس باذ لاضعاف الروح المعنوية لدى الاكراد . غير ان وعورة المنطقة ومناعة قلاعها حالتا دون تحقيق هدفهما ، خاصة وان ابن مروان استطاع أن يتحصن داخل قلاعه المنيعة(٣) . وفي ميافارقين جرت بين ابن مروان وابي عبدالله الحمداني معركة حامية رجحت فيها كفة ابن مروان فانتصر على خصمه وأسره ، غير انه اكرمه وافرج عنه فالتحق بأخيه ابي طاهر الذي كان يحاصر آمد، ونصحه أن يعقد الصلح مع ابن مروان

---

(١) ابو شجاع ١٧٨ . ابن الاثير ٢٩/٩

(٢) اسعرد او سعرت على جبل بالقرب من دجلة وهي من ميافارقين « تقويم البلدان (باريس) ٢٨٩ » . حيزان والمعدن من مدن أرمينية ويقول ياقوت ان هذه المنطقة ذات شجر وبساتين وهي قرب اسعرت من ديار بكر « ٢٨٠/٢ »

(٣) ابو شجاع . ذيل تجارب الامم ١٧٨

وينسحب من ديار بكر . غير ان ابا طاهر أصر على الدخول في حرب جديدة ، واضطر اخوه الى إطاعته(١). وسارا الى ابن مروان وهاجماه، غير انه اوقع بهما هزيمة جديدة وأسر ابا عبدالله ثانية ، وفي هذه المرة أساء اليه وضيق عليه حتى راسله الفاطميون وشفعوا له فأطلقه ، ومضى الى مصر وتقلد منها ولاية حلب حيث اقام هناك حتى توفي(٢) . اما أبو طاهر الذي أفلت من ابن مروان فقد قصد نصيبين ، لكن ابا الذواد محمد بن المسيب زعيم بني عقيل تصدى له واسره وابنه علياً والمزعفر امير بني نمير فقتلهم(٣) . ومعنى ذلك ان بني عقيل تخلوا عن حلفهم وتأييدهم للحمدانيين ، وانبروا هم أنفسهم لاقامة سلطة عقيلية وسط الصراع الدامي الذي شهدته تلك المنطقة في تلك الحقبة .

وهكذا انتهى حكم الحمدانيين القلق في الجزيرة ، وآلت السلطة الى ابن مروان في ديار بكر، وبلغت مطامحه حداً انه خطب (ست الناس) بنت سعد الدولة الحمداني ودفع لها مهراً بلغ مائتي الف درهم في محاولة منه لضم الحمدانيين وانصارهم العرب تحت جناحه . واشترط ابن مروان ان تزف اليه العروس في آمد التي اتخذها عاصمة له . والطريف في موضوع هذه الزيجة - التي لم تتم - ان العروس كانت غير راغبة قلبياً في مثل هذا الارتباط ، غير ان خاطبتها - وهي بنت ابن نباتة خطيب سيف الدولة -(٤) نصحتها ان لا تجزع « فأنك قد ملكت بلاد ابيك

---

(١) ابن الاثير ٧٢/٩

(٢) نفس المصدر ٧٢/٩ « بيروت » و ٣١/٩ « مصر »

(٣) نفس المصدر والمكان

(٤) عبدالرحيم بن نباتة الفارقي خطيب سيف الدولة « ت ٣٧٤ » النجوم الزاهرة ١٤٦/٤

وجلدك ، وتكون ابن ملكة ديار بكر ... » . وكانت الاميرة الحمدانية قد تملكها الجزع حين سمعت صوتاً خارج الخيمة ينذر بان هذا الزواج لن يتم ، وان العروس سوف تترمل(١) . ومهما يكن فقد اغتيل ابن مروان على يد احد شيوخ الاعراب وهو عبدالبر ، الذي استولى على آمد(٢) .

وخلف ابا علي ابن مروان اخوه ابو منصور الذي تلقب بممهد الدولة في حكم ميافارقين(٣) وخطب (ست الناس) بنفس المهر الذي دفعه لها اخوه وتزوجها فعلا(٤) . وفي عهد ابي نصر بن مروان الذي خلف اخاه ممهد الدولة توسع ملك المروانيين فشمل ميافارقين وأرزن ومناطق اخرى من ديار بكر وحفل بلاطهم بالشعراء والأدباء(٥)

والواقع ان حكم الحمدانيين في الموصل والجزيرة عموماً انتهى بمقتل ابي تغلب ، لأن افراد هذه الاسرة تفرقوا واختلفوا - كما رأينا - فدخل بعضهم في طاعة بني بويه ودخل بعضهم الآخر في طاعة العزيز الفاطمي ، على حين التحق فريق منهم بعمهم ابي المعالي شريف سعد الدولة في حلب(٦) :

---

(١) . تاريخ الفارقي ٧٢-٧٤

(٢) ابن الاثير ٩/ ٣٠ « مصر »

(٣) نفس المصدر والمكان .

(٤) الفارقي ٨٠

(٥) ابن الاثير ٩/ ٣٠ « مصر »

(٦) ابن ظافر . الدولة المنقطعة ٢٥ ب

يرى الباحث في تاريخ الحمدانيين بالموصل أنهم أخفقوا فى اقامة دولة ثابتة الاركان مستقرة الدعائم فكان عهدهم من بدايته حتى منتهاه سلسلة من الصراع مع عدة أطراف : مع العباسين والبويهيين والاكراد والقبائل الضاربة فى الجزيرة . وسوف نرى فيما بعد ان فرع الاسرة الحمدانية في حلب تمتع بالاستقرار الداخلي اكثر من هؤلاء ، فاتيح لسيف الدولة بوجه خاص ان يلتفت الى حروب الروم والى العناية بالفنون والثقافة . ولعل أهم ما يلاحظ الباحث في هذا الصدد ان الاتفاق كان معدوما بين ابناء ناصر الدولة انفسهم وكان اختلافهم ومنازعاتهم المستمرة التي عرضنا لها سببا في ضعف سلطانهم مما سهل على اعدائهم ان يقضوا عليهم ويستأصلوا شأفتهم :

ويمكن أن نجمل العوامل التي ادت الى سقوط الحمدانيين في الجزيرة فيما يلي :-

١- قوة البويهيين وبخاصة عضد الدولة الذي اعتبر جنده من احسن الجنود واكثرهم نظاما وطاعة على حين كان هو محاربا صلبا قاسي القلب ؛

٢- صعوبة اخضاع القبائل العربية الضاربة في الجزيرة وأهمها في هذه الفترة بنو عقيل ؛

٣- قوة العناصر الكردية التي تجمعت تحت زعامة المروانيين ؛

٤- اختلاف الحمدانيين فيما بينهم مما افقدهم وحدتهم ؛

٥- ظهور الفاطميين وسعيهم للسيطرة على بلاد الحمدانيين ؛

٥ـ اللجوء الى الفاطميين

مازال نسب الفاطميين يكتنفه الغموض ، فقد ذكر بعض المؤرخين انهم من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) ، على حين نسبهم البعض الاخر الى عبدالله ابن ميمون القداح الاهوازي الفارسي(١) . ومهما يكن من أمر فقد نشط دعاة الاسماعيلية فى نشر دعوتهم . ولما وجدوا ان سلمية من أعمال حماة غير صالحة كمركز للدعوة انتقلوا الى شمال افريقية البعيدة عن قبضة العباسيين ، وحيث قبائل البربر ذات الاستعداد لتقبل اية دعوة ضد الخلافة(٢) . وكان ابو عبدالله الشيعى الذى يدين له الفاطميون بتثبيت سلطانهم في افريقية قد ارسل يدعو عبيدالله المهدى الى تلك البلاد ، فلما قبض عليه أمير سجلماسة أخذ ابو عبدالله يعمل بجد ومثابرة حتي اطلقه من سجنه سنة ٢٩٦/٩٠٨م، وهيأ له ان يكون أول خلفاء الفاطميين في القيروان(٣) وظل الخلفاء الفاطميون يسعون الى فتح مصر حتى تم لهم ذلك سنة ٣٥٨ على يد قائدهم جوهر الصقلى(٤) .

يبدو ان الحمدانيين حاولوا أول الأمر ان يجذبوا الفاطميين الى جانبهم ، وقد بذلوا لهم الطاعة واظهروا استعدادهم لمعاونة جوهر في

---

(١) حسن ابراهيم حسن . الفاطميون في مصر ٦٣

(٢) نفس المصدر ٥١

(٣) المقريزي . الخطط ١/٣٥٠

(٤) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٤/٢٨ . المقريزي الخطط ١/٣٥٠

فتح مصر ومحالفته(١) ، وقد كتب القائد الفاطمي الى المعز يعرض عليه هذا الطلب ، غير ان هذا حذر جوهرا من ان يحالف بني حمدان او يراسلهم ، كما حذره من ان يفسح لهم مجال قيادة الجيش الفاطمي ، او امتلاك اعمال الفاطميين . وختم الخليفة كتابه قائلا أن بنى حمدان « يتظاهرون بثلاثة اشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب : يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله ، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للاخرة ، فاحذر كل الحذر من الاستناد الى احد منهم(٢)» . وهكذا بدأت العلاقات بين الطرفين عدائية ، ولم يقبل الفاطميون اليد التي مدها اليهم الحمدانيون رغم ان الاسرتين كانتا من الشيعة . ذلك ان الفاطميين ادركوا ان الحمدانيين لن يقنعوا بالتبعية لهم بل يطمحون الى السيادة والاستقلال . والحقيقة ان وحدة المذهب لم تكن عاملا في التقريب بين القوى المتطاحنة اذ ذاك ، وانما كانت المصالح هي التي تملي الاتجاه السياسي . وقد مر بنا كيف اصطرع البويهيون والحمدانيون مع انهم من الشيعة ، خاصة وان الحمدانيين لم يكونوا متطرفين مغالين في تشيعهم كالفاطميين .

كان الفاطميون قد امتلكوا دمشق وطبرية سنة ٣٥٩/٩٦٩م ومعنى ذلك ان مصالحهم اصطدمت بمصالح الحمدانيين في حلب والجزيرة ، وبذلك قامت بين الدولتين علاقات عدائية منذ البداية . وفي عهد ابي تغلب بن ناصر الدولة زادت علاقة الحمدانيين بالفاطميين سوء حتى انه تظافر

---

(١) المقريزي . الخطط ٢٥٢/١

(٢) نفس المصدر ٢٥٢/١

مع الحسن الاعصم القرمطي ضدهم فدفع له اربعمائة ألف درهم وزوده بالميرة ليستعين بــه في دفع خطر الفاطميين عن سورية والجزيرة .
غير ان كفة الفاطميين ما لبثت ان رجحت سنة ٣٦٨ حتى ان ابا عبدالله الحسين بن ناصر الدولة دخل في حمايتهم كلاجيء سياسي عند فراره الى دمشق اثناء نزاع الحمدانيين مع عضد الدولة(١) . بل ان ابا تغلب نفسه توجه الى دمشق حين يئس من النصر ، حيث راسل الخليفة الفاطمي يطلب النجدة على ثائر يدعى قسام انشق على الفاطميين وتغلب بتلك المدينة فدعاه الخليفة الى مصر ليعيش فى كنفه غير أنه رفض هذه الدعوة(٢) :

ارسل الخليفة الفاطمى أحد غلمانه وهو الفضل الى دمشق للقضاء على قسام وحاول الفضل ان يتحالف مع ابي تغلب ووعده بان يكون نائباً عن الفاطميين في الشام ،غير ان الحلف لم يتم لان ابا تغلب كان على حراجة موقفه يرفض ان يغدو مجرد تابع يأتمر باوامر الفاطميين . بل انه اصطدم مع دغفل بن الجراح الطائي وهو بدوي اظهر الطاعة للفاطميين في الرملة وانضم الفضل بطبيعة الحال الى دغفل فهزم ابو تغلب شر هزيمة على باب الرملة سنة ٣٦٩ وقتل فانفذ الفضل رأسه الى مصر(٣) .

ومن الطريف ان ابا عبدالله الحسين بن ناصر الدولة واخاه ابا المطاع

---

(١) مسكويه ٢/٣٩١

(٢) نفس المصدر ٢/٤٠١

(٣) نفس المصدر ٢/٤٠٣

التجئا الى مصر بعد انهيار سلطة الحمداليين في الجزيرة ، وولـد هناك لابي عبدالله الحسين ولد هو ابو محمد الحسن الذي لقب ناصر الدولة (١) .
اما ابو المطاع ذو القرنين فكان شاعرا حسن السبك جميل المقاصد لقب وجيه الدولة وعاش في مصر ايام الظاهر بن الحاكم الفاطمي ، وقد قلده الاسكندرية واعمالها فاقام بها سنة ثم رجع الى دمشق ، غير أنه عاد الى مصر ثانية وتوفي بها في صفر سنة ٤٢٨/١٠٣٦م(٢) . ونجد هناك خلطا في اخبار هذين الاميرين الحمدانيين فقد قال ابن خلكان (٣) خطأ ان ابا المطاع هو ابن ابي المظفر حمدان بن ناصر الدولة ، كما خلط المؤرخون فيما يتعلق بابي محمد ناصر الدولة وسوف نناقش هذه المسألة فيما بعد .

قام ناصر الدولة الحسن بدور سياسي كبير في خلافة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) فقد تولى دمشق سنة ٤٣٣ ، وتلقب « بذي المجدين ناصر الدولة وسيفها » وظل في ولايتها سبع سنوات حيث خلفه بهاء الدولة طارق المستنصري(٤) . ثم اعيد ناصر الدولة هذا الى ولاية دمشق في سنة ٤٥٠ وحاول بناء على أمر المستنصر ان يفتح حلب فتوجه اليها في ١٦ربيع الاول سنة ٤٥٢ وهناك جرت بينه وبين الكلابيين موقعة الفنيدق يوم الاثنين ١ شعبان فحلت به الهزيمة وعاد جريحا الى مصر(٥).

استطاع ناصر الـدولة ان يستولي على مصر في عهد المستنصر وان يصبح هو الحاكم الحقيقي الى حد ان الخليفة غـدا الى جانبه لا يملك

---

(١) ابن خلكان . وفيات الاعيان ١/٢٢٧
(٢) نفس المصدر ١/٢٢٧
(٣) نفس المصدر ١/٢٢٧
(٤) ابن القلانسي . ذيل التاريخ دمشق ٨٤
(٥) نفس المصدر ٨٦

سوى الاسم(١). وقد جذب ناصر الدولة الى صفه الجند فزاد في عطائهم حتى افلست الخزينة ، كما جذب الى صفه الشريف ابا طاهر حيدرة بن الحسن الحسيني وحازم وحميد ابني جراح وهما من امراء عرب الشام وكانا في السجن مدة عشرين سنة فاطلقهما ناصر الدولة سنة ٤٥٩ ، ودبر هؤلاء مؤامرة لقتل بدر الجمالي وخلع المستنصر وتنصيب الشريف ابي طاهر الخلافة لنسبه الهاشمي الصحيح (٢). ويعلق فريتاخ على هذا بقوله (٣) ، ان ناصر الدولة كان يحاول اعادة سلطة العباسيين الى مصر ليحكم باسمهم غير اني لم اعثر على اي دليل على اتصال بينه وبين العباسيين في هذا الصدد ، وارجح انه كان يسعى للاستئثار بالسلطة لمصلحته هو الا اذا كان فريتاخ يشير الى الشريف ابي طاهر باعتباره هاشميا .

انقسم الجيش الفاطمي الى حزبين يؤيد احدهما ابن حمدان ويقف الاخر ضده . ولجأ ناصر الدولة الى الصرف على نطاق واسع حتى باع سنة ٤٦٠ جميع ما في قصر المستنصر من ثياب واثاث بثمن بخس (٤) ، كما حالف الاتراك سرا ، لكن الخليفة علم بهذه المؤامرة فعاتب ابن حمدان بقوله « انك قدمت علينا زائرا وجئتنا ضيفا فقابلناك بالاحسان وأكرمناك فقابلتنا بما لا نستحقه منك ونحن عليك صابرون وعنك مغضون . وقد انتهت بك الحال الى محالفة العسكر علينا والسعي في تلافنا وما ذلك مما يهمك ، وتحب ان تنصرف عنا موتورا في نفسك ومالك

---

(١) Freytag , Z D M G , Vol. , Xl , P . , 498

(٢) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢/٦٧٢

(٣) Freytag , Z D M G vol .Xl P 498

(٤) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢/٦٧٢

والا قابلناك على قبيح افعالك »(١) . لكن ابن حمدان سخر من رسول الخليفة الذي نقل اليه هذه الرسالة واغلظ لـه في القول فلجأ المستنصر الى الدكز اسد الدولة شيخ الاتراك وكان من الد اعداء ابن حمدان ، كما الب عليه المغاربة والكتاميين خاصة فاعلنت الحرب صريحة ، وخرج ابن حمدان وعسكر عند بركة الحبش وضرب المستنصر خيمته الحمراء المسماة « خيمة الدم » بين القصرين من القاهرة ، وحين وافاه جنده سار الى حرب ناصر الدولة فالتقيا بالباب الجديد ، فهزم هذا بعد ان تخلى عنه انصاره وهرب الى الاسكندرية ونهبت دوره وامواله ودور اصحابه، فمضى الى حي من احياء العرب فحالفهم وتزوج منهم وأخذ يشن الغارات على اعمال مصر ، ثم جمع جيشا كبيرا ونزل الصالحية فخرج اليه انصاره حتى « امتـدت عسكره لحو عشرة فراسخ »(٢) . وضرب على مصر حصارا عجز المستنصر عن رفعه وغلت الاسعار واختفت الاقوات من القاهرة حتى ضج العامة(٣) .

ولما ساءت احوال المستنصر وخاف من قيـام ثورة داخلية صالح ناصر الدولة وفق شروط املاها هذا ، وهي ابعـاد الدكز ومن يعادي ناصر الدولة ، وان ينفرد هو بحكم مصر وتدبير الامور والجيش ، وبذلك انتصر الامير الحمداني ودخل القاهرة حيث حجز على المستنصر في قصره فاصبح لا يملك من امره شيئا(٤) .

ساءت احوال مصر في هذه الفترة فاشتد الغلاء الذي بدأ سنة ٤٥٧/١٠٦٤م

---

(١) نفس المصدر ٢/٦٧٣

(٢) نفس المصدر . النجوم الزاهرة ٢/٦٧٤

(٣) نفس المصدر ٢/٦٧٤

(٤) نفس المصدر ٢/٦٧٤

ودام سبع سنوات بسبب ضعف الخليفة وكثرة الفتن وهبوط النيل(١) . وقد هجر البلاد كثيرون من اهلها ومات كثيرون ايضا وقيل ان الناس اكل بعضهم بعضا ، وظهروا على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد ان طبخها واكلت الدواب باسرها وبيع الكلب بخمسة دنانير والسنور بثلاثة دنانير»(٢) . ومما زاد الطين بلة ان الوباء اعقب الغلاء ورافقه تعطيل الاراضي من الزراعة ، واختل الامن وباع الخليفة كل مسا في قصره من اثاث وذخائر وثياب وسلاح وحلي وجواهر « وصـــار يجلس على حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره » (٣) . ولعل هذه الشدة العظمى احرج فترة مرت بهـا مصر في تاريخها .

حالف ناصر الدولة الدكز وزوجه ابنته غير ان هذا لم يكن مخلصا في نواياه فاوعز الى غلام له يدعى كشتكين بقتل ناصر الدولة سنة ٤٦٥ ، قائلا له « علمت ما فعل ابن حمدان بالمسلمين من سفك الدماء والغلاء والجلاء وقد عزمت على قتله فهل فيك موافقة ومشاركة واريح الاسلام منه ؟ » فاجابه « نعم ولكن اخاف ان يفلت فتبرأ مني » قال « لا »(٤) . وقابل المتآمرون ضحيتهم على اثر وصوله من الاسكندرية فضربه الدكز وهو يماشيه في صحن داره بسكين وأعقبه كشتكين وحزا رأسه(٥) . ثم قتلا اخاه الامير تاج المعالي، ومثل الدكز بناصر الدولة شر تمثيل فقطع

---

(١) المقريزي . اغاثة الامة بكشف الغمة ٢٤

(٢) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢/٦٧٤ . المقريزي . اغاثة الامة ٢٤

(٣) المقريزي . اغاثة الامة ٢٥

(٤) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢/٦٧٩

(٥) نفس المصدر ٢/٦٧٩

بجسمه الى قطع صغيرة وانفذ كل قطعة الى بلد وجاء برؤوس القتلى الى المستنصر طالبا المال فقال له « اما المال فما ترك ابن حمدان عندي مالا واما ابن حمدان فما كان عدوي وانما كانت الشحنة بينك وبينه يا الدكز فهلكت الدنيا بينكما واني ما اخترت ما فعلت من قتله ولا رضيته وستعلم غب الغدر ونقض العهد »(١) وهذا النص ينطوي على حقيقة هامة هي ان الخليفة الفاطمي لم يكن العداء لناصر الدولة ، ولم يكن راضيا عن قتله وانما كان العداء في الواقع بين الدكز وناصر الدولة وهو عداء املته المصالح والمنافسة في سبيل الاستئثار بالسلطة . وقد أكد المستنصر كرهه لألدكز حين استدعى بدر الجمالي امير الجيوش فسار من عكا سنة ٤٦٦ وقتل الدكز فتحسنت احوال مصر(٢) ، مما يدل على الدور الذي قام به فيما وصلت اليه تلك البلاد من الاحوال السيئة خلال هذه الفترة .

وفي ختام هذا الفصل يجب ان نجلو بعض الغموض الذي يكتنف الحمداليين في مصر ذلك ان هناك خلطا كثيرا في هذا الصدد ، وفيما يلي بعض اقوال المؤرخين نعرضها علنا نصل الى الحقائق التاريخية التي تهمنا هنا .

١ـ يقول ابن القلانسي(٣) : ان ابا عبدالله الحسين بن ناصر الدولة الذي لجأ الى مصر عند هزيمة اخيه ابي تغلب سنة ٣٦٨ تولى صور من قبل الفاطميين سنة ٣٨٧ . ويقول ابن الاثير (٤) . ان الفاطميين انفذوه

---

(١) نفس المصدر ٢/٦٨٠

(٢) نفس المصدر ٢/٦٨١

(٣) ذيل تاريخ دمشق ٥٠

(٤) الكامل ٩/٩٦-٩٧

لقتال ابي علوان ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٤٠ . وهذا خطأ من ابن الاثير لان ابا عبدالله يكون في هذه السنة قد مضي عليه منذ لجأ الى مصر اثنتان وسبعون سنة ومعني ذلك أنه كان اذ ذاك شيخا طاعنا ان لم يكن قد مات . لذلك إعتقد ان ابن الاثير خلط بين ابي عبدالله الحسين وبين ابنه الحسن الذي يؤكد لنا ابن الاثير نفسه(١) ، انه اوفد الى حلب سنة ٤٥٢ لقتال مكين الدولة الحسن بن ملهم لكنه فشل وعاد الى مصر .

٢ـ ويقول ابو المحاسن(٢) ، ان ناصر الدولة ابا محمد الحسن بن الحسين بن حمدان ولي دمشق من قبل الفاطميين سنة ٤٥٠ وارسله المستنصر سنة ٤٥٢ لقتال بني مرداس بحلب فهزم وعاد جريحا الى مصر . ويؤكد ابن القلانسي(٣) هذه الوقائع فيذكر ان ابا محمد الحسن تولى دمشق مرتين سنة ٤٣٣ وسنة ٤٥٠ وهو الذي جرح في وقعة الفنيدق كما مر بنا .

٣ـ اما ابن ظافر فيوقعنا في مشكلة تاريخية حين يقول(٤) ، ان ابا عبدالله الحسين ابن ناصر الدولة ولد له بمصر ولد هو ناصر الدولة ابو محمد الحسن الذي سبقت الاشارة اليه ؛ ورزق هذا بولد هو الحسن بن الحسن ناصر الدولة . ويقول أنه هو الذي شلت يده في وقعة الفنيدق في حربه مع تاج الملوك نصر بن صالح الكلابي ثم ولاه المستنصر بعد ذلك دمشق سنة ٤٤٣ . فالمشكلة التي أمامنا الان هي ان جميع المؤرخين يعزون

---

(١) المصدر السابق ٩/٩٦-٩٧

(٢) النجوم الزاهرة ٥٠ وما بعدها

(٣) ذيل تاريخ دمشق ٥٠ وما بعدها

(٤) الدول المنقطعة ورقة ٢٥ ب

الحوادث التالية الذكر التي وقعت في عهد المستنصر الى ابي محمد الحسن بن الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان ، على حين ينسبها ابن ظافر فيقول(٢)، انها تعزى الى ابنه الذي يدعى الحسن الذي لقب بناصر الدولة كذلك . واني أميل الى مخالفة ابن ظافر لاجماع المؤرخين الاخرين اولا ، ولان التسلسل التاريخي يؤيد الرواية الاولى . اي ان الذي تسلط على مصر ايام المستنصر هو ابو محمد الحسن بن الحسين وهو اخر شخص مهم من افراد الاسرة الحمدانية قام بدور تاريخي نعرفه، وبمقتله سنة ٤٦٥/١٠٧٢م تختفي الاسرة من بطون كتب التاريخ .

---

(١) نفس المصدر ورقة ٢٥ ب

الباب الثالث

حضارة الحمدانيين في الموصل والجزيرة



الفصل الاول

النظم الادارية والمــــالية

١ـ طبيعة الدولة الحمدانية ٢ـ النظـام الإداري ٣ـ النظـام المالي

١ـ طبيعة الدولة الحمدانية

اود ان اشير قبل كل شيء الى ان الدويلات المستقلة عن الخلافة ـ ومنها الدولة الحمدانية ـ لم تكن ذات تقاليد ادارية ثابتة واضحة المعالم، وان نظمها تكاد تكون صـورة مصغرة مطابقـة لنظم الخلافة العباسية التي انفصلت عنها وتفرعت منها . ومما تجدر الاشارة اليه ان الامراء حاولوا جهدهم ان يقلدوا الخلفاء ويحذوا حذوهم في كل شيء : في حياتهم الخاصـة وتقاليد بلاطهم واساليب حكمهم ونظم دولتهم ، حتى انـه يمكن القول ان الـدولـة المستقلة خـلافة مصغرة يحكمها امير . وثمة حقيقة هامة هي ان اعمار الدويلات المستقلة كانت قصيرة في الغالب ، وان حكامها انشغلوا في توطيد سلطانهم وتثبيت استقلالهم فلم يتح لهم ان يشرعوا نظماً ثابتة مستقرة ، وكانت سياستهم متقلبة توحي بها الظروف الطارئـة يضـاف الى كل ذلك حقيقة جوهريـة هي ان حتى الامراء الاقوياء الـذين تمتعوا باستقلال فعلي لم يجرؤا على الانفصال عن الخلافة فظلوا يعترفون بسيادتهـا الاسمية .

ويقفز الى الذهن سؤال في هذا الصدد هو : هل كون الحمدانيون دولة تتوافر فيها مقومات الدول؟ ام انهم كانوا مجرد ولاة تابعين للخلافة العباسية؟

تولى الحمدانيون الموصل منذ سنة ٢٩٣ ، فحكمها ابو الهيجاء عبدالله

ابن حمدان كنائب الخليفة المكتفي الملك تعتبر هذه السنة بداية قيام الدولة الحمدانية (١) . وحين قتل ابو الهيجاء بسبب تآمره على المقتدر سنة ٣١٧ اسندت ولاية الموصل اولده الحسن ناصر الدولة (٢) . غير اننا لانستطيع اعتبار الحمدانيين في هذه الفترة دولة مستقلة ، فقد كانوا مجرد ولاة اونواب للخليفة العباسي . وقد اسلفنا القول عن تولي الحمدانيين امرة الامراء سنة ٣٣٠ حيث اصبحوا اصحاب الشأن في بغداد ، ووقفوا الى جانب الخليفة المتقي ضد البريديين حتى انه لجأ اليهم واحتمى بهم « وأمــر لناصر الدولة وسيف الــدولة « مع التكنية والتلقيب ان تكتب اسمؤهما على الدنانير والدراهم وهذه فضيلة لم يسبقهما احد اليها »(٣) .
واذا امعنا النظر فى الرسالةالتي ارسلها المتقي الى سيف الدولة عندخروجه الى حرب البريدي ، نجدها تنطوي على أعظم الود واشد الاحترام فقد قال له « بسم الله الرحمن الرحيم . عرفت لا اخلانى الله منك ما تقرر عليه العزم في رواحك قرنه الله بالخيرة التامة والمعونة الشاملة والكفاية الجامعة ووصله بالنصر والفلــح والظفر والفتــح فتعجلت الاستيحاش لبعدك والتحسر لما يفوتني من قربك لا خلوت منك وكنت احب ان القاك واسر برؤيتك قبل نفوذك . ولما تعذر ذلك دعوت الله لك بجميل الصحابة وولي عليك بجيش الخــلافة وان سعدنا جميعا بذلك سعادة محمودة البدي والعاقبة أنوهميع الدعاء لطيف لما يشاء . ولا يزال قلبي متطلعا لمعرفة خبرك الى ان يرد علي من مستقرك بما تـراه وتمضيه وتــدبره وتمشيه فتحمل

---

(١) ابن خلكان . وفيات الاعيان ١/١٧٥

(٢) ابن الاثير . الكامل ٨/٦٧

(٣) ابن ظافر . الدول المنقطعة « مخطوط » ورقة ٤ ب

لا أخلاه الله منك على ملاحظتي من ذلك في كل وقت وساعة بما تعلم حسن موقعه مني والسلام(١)..

غير ان الحمدانيين اخفقوا - كما اسلفنا - في حكم بغـــداد فعادوا الى الموصل ليعوضوا عن اخفاقهم بانشاء دولة مستقلة في الجزيرة . وكانت الخطوة الاولى ان ناصر الدولة بدأ بضمان هذه الأقاليم سنة ٣٣٢ مـدى ثلاث سنوات(٢) .

تميز القرن الرابع بانحلال الخلافة العباسية ، فقد انتهز الامراء والحكام في الاقاليم ضعف الخليفة وانشغاله بالخصومات الداخلية فقطعوا كل صلة بينهم وبين بغداد مع ان البعض منهم ظل يقيم الخطبة للخليفة العباسي وينقش لقبه على السكة . وحذا الحمدانيون حذو غيرهم فاقتطعوا اجزاء واسعة من أملاك الخلافة فاستقلوا بها استقلالا فعليا وان ظلوا - وبخاصة في الجزيرة - يقدمون للخليفة الجزية ، ويعترفون به - شأنهم شأن امثالهم من امراء الدويلات المستقلة - اعترافا اسميا ولقبوه بامير المؤمنين وذكروا اسمه في خطبة الجمعة(٣).

وما كاد الثلث الأول من القرن الرابـــع ينتهي حتى كانت الـــدولة الحمدانية تشمل سورية الشمالية وديار ربيعة وديار مضـــر وديار بكر والثغور(٤) ، اى ان رقعتهم امتدت من حـدود الموصل الى آخر بلاد

(١) المصدر السابق . ورقة ٤ ب ٥ أ

(٢) مسكويه تجارب الامم ٢/ ٤٩

(٣) المسعودي . التنبيه والاشراف ٣٤٦

(٤) نفس المصدر ١٤٨

حمص والى جوانب جيحان(١) . وحاول الحمداليون تثبيت استقلالهم والاحتفاظ بـه بكل وسيلة بالحرب والسياسة ، بل لجأوا الى مصاهرة الخلفاء والامراء والحكام المتنفذين في بغداد ليوسعوا سلطالهم ويقروا نفوذهم . ففي سنة ٣٢٧ تزوج ناصر الدولة من ابنة بجكم وكان آنذاك أمير الامراء فى عهد الخليفة الراضي(٢) ، وزوج ابنته للأمير ابي منصور اسحاق بن الخليفة المتقي سنة ٣٣١ على صداق ضخم بلـغ مائتي الف دينار(٣) ، وتزوج ابو تغلب بن ناصر الدولة كذلك من ابنة بختيار(٤) ، كما تزوج سيف الدولة من ابنة اخي الاخشيد(٥) . كل ذلك نستطيع ان نسلكه في عداد الزيجات السياسية التي فرضتها المصالح الشخصية للحمدانيين. وهذا شبيه بالمصاهرات السياسية التي تمت بين الاسر الحاكمة في اوربا في العصور الحديثة بحيث اجتمعت كثير من البلدان تحت تاج واحد . كذلك حاول الحمداليون جذب الخلفاء الى صفوفهم بما قدموا اليهم من الأموال فالفقوا على المتقي مثلا أموالا طائلة طوال مقامه عندهم(٦). وجذبوا اليهم العامة بارسال المؤن والاقوات كلما تعرضت بغداد وسامراء للغلاء او المجاعة . وهي سياسة حكيمة اكسبتهم سمعة طيبة في هاتين الحاضرتين(٧) .

---

(١) القرماني ٠ الأوراق ٢٦٤

(٢) الصولي ، اخبار الراضي ١٣٣

(٣) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، مخطوط ، ١٦ ورقة ٥٣ أ ٠ ابو المحاسن النجوم الزاهرة ٢٧٨/٣

(٤) مسكويه ٠ تجارب الامم ٢١٩/٢

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ١١٥/١

(٦) المسعودي ٠ مروج الذهب ٥٣٢/٢

(٧) الصولي ٠ الأوراق ١٠٨

وبهذه الاساليب استطاع الحمدانيون ان يحكموا اقاليم شاسعة . وانتشر افراد هذه الاسرة الكثيرون في اقاليم الدولة العباسية ، فلكوها متعاونين او منفردين . فاذا استثنينا املاك ناصر الدولة وسيف الدولة في الجزيرة والشام لجد سعيد ابن حمدان يحكم نهاوند سنة ٣١٢ ، ويتولى ابو الهيجاء طريق خراسان والدينور(١) . ونال الحمدانيون القابا سلطانية وخلعا ، فلقب الحسن ناصر الدولة واخوه على سيف الدولة وابو تغلب عدة الدولة شأنهم شأن الامراء والحكام في ذلك العصر . ويجب ان نعلم ان التلقيب كان امرا ذا اهمية لأنه اثبات لسلطة الملقب ونفوذه . والاصل في الالقاب ان الخلفاء العباسيين أول من اتخذها ثم تعدت القاب الخلافة الى كثير من الامراء وتلا الخلفاء في الالقاب الوزراء . كذلك العم بالالقاب على ارباب السيوف وقراد الجيش(٢) . وفي عهد المكتفي وقع التلقيب بالاضافة الى الدولة كما نجد لدى الحمدانيين الذين كانوا أول من اتخذ الالقاب بالاضافة الى الدولة من امراء المشرق . وحذا حذوهم سائر الامراء في العصر البويهي حتى عهد القادر بالله(٣) . ومن الادلة على اهتمام الحمدانيين بالالقاب ان ابا تغلب اشترط لصلحه مع بختيار سنة ٣٦٣ ان يلقب لقبا سلطانيا فاجيب الى ذلك ولقب عدة الدولة(٤) .

ان الباحث في تاريخ الحمدانيين يلاحظ ان علاقاتهم بالعباسيين كانت مضطربة متناقضة حسب الاحوال في بغداد ، وحسب ما أملته

---

(١) ابن الاثير . الكامل ٨/٣٩

(٢) القلقشندي . صبح الاعشى ٥/٤٨٦

(٣) نفس المصدر ٥/٤٨٦

(٤) مسكويه . تجارب الامم ٢/٣٢٠

مصالحهم ، فبينما كانت علاقتهم بالدولة العباسية ودية للغـــاية في اواخر القرن الثالث حتى لهاية الثلث الأول من القرن الرابع ، الى حد الهم تولوا امرة الامراء ، نجد ان العلاقات لغدو عدائية في العصـر البويهي وبخاصة بين ناصر الدولة ومعز الدولة بن بويه وبين ابي تغلب وعضد الـدولة ، وطابعها تلك المعـارك المتلاحقة المستمرة بين الطرفين . غير انه يجب ان نلاحظ ان الخلفاء لم يكن لهم ضلع في هذا الموقف العدائي بـــل كانوا مرغمين على قبول السياسة التي يرسمها البويهيون اصحاب السلطة الفعلية.
وبينما تفيض كتب التـــاريخ بذكر العـــداء بين الحمدانيين في الموصل والعباسيين في العصر البويهي ، نجدها تغفل ذكر اي اصطدام بين سيف الدولة وبغداد ، بل على العكس فالها كما سنرى تظهر لنا حسن العلاقات بين الطرفين . هذا من ناحية ومن ناحية ثانية نرى سيف الـــدولة اكثر استقلالا من اخيه ناصر الدولة حتى انـــه لم يكن يرسل الى الخلفاء اي جزية او ضريبة تدل على الخضوع ، بل انه وقف صديقا لدا لخلفاء ببغداد وكانت شفاعته مقبولة عندهـــم ، ولا نجد اي دليل على الخصومة بينه وبينهم(١) ،وان اعلن الطاعة للخلفاء اسميا فذكر اسماءهم في الخطبة(٢).

وكانت التقـاليد المرعية في تولية الـولاة الحمدانيين ان يوجـه اليهم الخلفاء عهـدا يحددون فيـه واجباتهم والتزاماتهم واختصاصاتهم لـكي يثبت الخلفاء تبعيتهم لهم .ولم نجد مثل هذه العهود الا في ايام ابي تغلب الذي دخل تحت حكم العباسيين المباشر فوجه اليه الخليفة المطيع لله عهدا

Sadruddin . Saifuddulah , P . 121 . (١)
(٢) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ١ ٤-٢٠٤

أورده ابو اسحاق الصابي(١) . وفيه قلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والاحداث والخراج والاعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجيش والمظالم والاشراف على العيار في دور الضرب والطراز والحسبة في مناطق الجزيرة كلها وهي « الموصل وقردى وبزبدى وبهدرا والرحبة وديار ربيعة وديار مضر والثغور الجزرية والشامية وجند قنسرين والعواصم» (٢) . وأوصاه فى هذا العهد بتقوى الله ومراعاة اصول الدين وحماية الامن والتشدد في مراقبة الاخلاق العامة ومنع المنكرات والعدل بين الرعية والتلطف في الجباية(٣) . ومما يؤكد تبعية الدولة الحمدانية للعباسيين ايام ابي تغلب ان الخليفة اوصاه فى هذا العهد بالرجوع الى ركن الدولة وعز الدولة ابني بويه واحترام ارادتهما(٤) .

ومما هو جدير بالذكر ان الخلفاء العباسيين اذا ارادوا اظهار رضاهم على الحمدانيين حملوا اليهم لواء وخلعا كاملة ودابة بما عليها من الزينة وطوقا وسوارا من الذهب الخالص مرصعين بالدر (٥) ، وذلك لان العباسيين ادركوا حق الادراك ان وجود الحمدانيين فى هذه المناطق امر ضروري لسلامة الحدود من غارات الروم ولحماية الامن مما تثيره القبائل العربية والكردية الضاربة في تلك الاقاليم . ومن هنا اعتبر الخلفاء واجب

---

(١) الصابي ، رسائل الصابي ١/١٢٦-١٤٣

(٢) نفس المصدر ١/١٢٧

(٣) نفس المصدر ١/١٣٦-١٤٠

(٤) نفس المصدر ١/١٢٧

(٥) نفس المصدر ١/١٧٤-١٧٧

الجهاد ودفع الروم عن الثغور من اولى واجبات الحمدانيين وقد اكدوها في كتب التولية(١) .

ظلت الدولة الحمدانية في الجزيرة مستقلة فعليا حتى اختلف الحمدانيون فيما بينهم بعد وفاة ناصر الدولة ، مما هيأ للقوى المختلفة ان تسلبهم استقلالهم

واذا اردنا ان نصل الى جواب قاطع عن السؤال السالف ، وجب علينا ان نعرف ما هو معنى الدولة ثم نطبق هذا المعنى على الدولة الحمدانية . فالدولة جماعة تعيش على ارض محددة ، تحكمهم سلطة واحدة منظمة تدافع عنهم وتحمي استقلالهم ، اي انه يجب ان تتوافر شروط معينة لقيام اية دولة هي الشعب والوطن والحكومة والاستقلال ، فهل توافرت هذه الشروط في الدولة الحمدانية ؟ اما الشعب الحمداني فكان قائما حقا يتمثل في مجموعة المواطنين المستقرين في الجزيرة وسورية الشمالية واغلبهم من العرب الذين تتوافر فيهم خصائص الشعب كروابط اللغة والدين والتقاليد والمصالح المادية المشتركة ، ولا يقلل من هذه الحقيقة وجود قبائل بدوية متنقلة لان الغالبية العظمى كانوا مستقرين . واما الوطن فأنه يتمثل في تلك البقعة الشاسعة التي دخلت تحت حكم الحمدانيين وهي الجزيرة وشمالي سورية والثغور ، مع ان حدودها لم تكن ثابتة نتيجة الحروب البيزنطية من ناحية ، والمنازعات مع العباسيين من ناحية ثانية . واما الحكومة او الهيئة التي اشرفت على حكم الشعب فتتمثل في الامراء الحمدانيين والموظفين الذين استعانوا بهم . واذا تذكرنا ما قلناه عن مدى

---

(١) نفس المصدر ٢/١٧٤-١٧٧

(٢) Sadruddin, Sayfuddaula and his Time. P. 121

استقلال الحمداليين ، استطعنا ان نصل الى هذه النتيجة وهي : ان عناصر الدولة - أو على الأقل الدويلة - توافرت واقعيا الى حد كبير في الدولة الحمدالية وان تعرض استقلالها في كثير من الحالات الى التهديد كما حصل فى الموصل بعد عهد ناصر الدولة، وفى حلب بعد سيف الدولة(١) .

وثمة سؤال آخر لا يقل أهمية عن السؤال السابق هو . هل كون الحمداليون دولة واحدة امدولتين احدهما في الموصل والأخرى في حلب؟ والحق اننا نجد في هذا الصدد عدة حقائق تجعلنا لتردد كثيرا قبل ان نجيب على هذا السؤال لأن بعضها ينقض البعض الاخر . وفيما يلي تعرض الحقائق التي تؤيد انفصال الحمدانيين في الموصل عن افراد اسرتهم في حلب ، علنا نصل منها الى الرأي القاطع فى هذا الموضوع .

١- اتخذ الحمدانيون حاضرتين احداهما هي الموصل والاخرى هي حلب ، ونحن نعلم ان الدولة يجب ان تكون لها حاضرة واحدة تتركز فيها الادارة المركزية .

٢- كان للحمداليين فى الموصل أمير وللحمدانيين فى حلب امير وهما متكافئان لا يخضع احدهما للاخر .

٣- كانت سياسة الحمدانيين نحو العباسيين غير موحدة فبينما ساد العداء بين فرع الموصل والعباسيين ساد السلام بين هؤلاء وبين الحمداليين في حلب .

---

(١) اطلق الاستاذ فريتساخ لفظة Dynasty على الدول الحمدانية وهو ترجمة لفظة Dynasty التي اطلقها لين بول عليها ومعناها « دويلة »

٤ـ نلمس في كثير من الحالات عدم تعاون بين فرعي الأسرة الحمدانية ، وابرز الامثلة ما ذكرته المراجع من تحالف سعد الدولة مع عضد الدولة البويهي ضد ابي تغلب حتى ان الامير البويهي كافأ سعد الدولة ببعض مدن ديار مضر سنة ٣٦٧ هـ (١) . ولعل هذا الموقف العدائي الذي وقفه سعد الدولة من ابن عمه كان نتيجة لموقف ابي تغلب العدائي منه حين طرده قرغويه كما سنرى .

هذه الحقائق تؤيد انفصال فرعي الأسرة عن بعضهما ، غير ان هناك حقائق اخرى تتعارض مع هذا الرأي وترجح وحدة الدولة الحمدانية وهي كما يلي :-

١ـ كان سيف الدولة تابعا لاخيه ناصر الدولة وهذا هو الذي امده بالرجال والمال لفتح حلب ، وقد ظل التعاون قائما بين الاخوين الى النهاية سياسيا وماليا .

٢ـ كانت سياسة الحمدانيين موحدة تجاه البيزنطيين ، وقد تعاون فرعا الاسرة على صد عدوانهم وغزو اراضيهم .

٣ـ لم تكن هناك ايـــة حواجز بين اراضي الحمدانيين في الجزيرة واراضيهم في سورية حتى ان الشعراء والادباء كانوا يتنقلون بين الموصل وحلب ، وكذلك التجار والقبائل .

٤ـ و نرى كذلك ان النقود التي ضربها الحمدانيون كانت تحمل في كثير من الحالات اسماء فرعي الاسرة فقد ضربوا دنانير تحمل اسماء

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ٨/٢٧٥

الناصر الدولة وسيف الدولة واولادهما(١).

هـ- عمل الحمدانيون على ربط افراد اسرتهم بالمصاهرة فتزوج سيف الدولة ابنتيه ابا المكارم وابا المعالي من ابنتي اخيه ناصر الدولة ، وزوج ناصر الدولة ابنه ابا تغلب من ست الناس ابنة سيف الدولة(٢).

والنتيجة التي نستطيع ان نصل اليها بعد الموازنة بين الحقائق السالفة الذكر ان الحمدانيين كونوا امارتين لكنهم احتفظوا بوحدتهم وتعاونهم في الفترة الاولى اي في حياة ناصر الدولة وسيف الدولة ، فلما توفي هذان افتقدت الاسرة وحدتها وانفصمت عرى التعاون بين افرادها حتى قام بينهم عداء سافر وذلك نتيجة تضارب المصالح والاطماع الشخصية ، وتدخل القوى الخارجية الثلاث وهي العباسيون والفاطميون والبيزنطيون . تلك القوى تضافرت في خلق جو من الجهل والسيطرة على بلاد الحمدانيين لطرحت باستقلالهم في النهاية . والنتيجة الاخيرة في هذا الموضوع هي ان الحمدانيين في الموصل فقدوا استقلالهم سنة ٣٦٨هـ ، على حين ظل الحمدانيون يحكمون في حلب حتى سنة ٣٩٤هـ ومعنى ذلك ان فرع حلب كان اطول عمرا من فرع الموصل ، كما ان افراد الاسرة في الموصل انضموا بعد مقتل ابي تغلب الى ابن عمهم سعد الدولة ، وبذلك اخذ الحمدانيون يحكمون في حاضرة واحدة هي حلب .

٢- النظام الاداري

لما اتسعت الدولة الاسلامية على اثر الفتوحات في عهد الخلفاء

---

(١) ابن ظافر ، الدول المنقطعة ، مخطوط ، ورقة ١٠ أ

(٢) نفس المصدر ورقة ١٠ أ

الراشدين ، اناب الخلفاء عنهم عمالا يمارسون سلطة الخليفة بانفسهم او يعهدون بها الى اشخاص يقيمون في هذه الولايات . ووزعت السلطات في الولاية بين الامير او العامل الذي يتولى الجيش والادارة والقاضي الذي يقوم على بسط العدل بين الناس ، ثم توسعت سلطات الولاة في القرن الرابع ، فاصبحت لهم حرية واسعة في انجاز اعمالهم. ذلك ان الاقاليم بعدت عن العاصمة، فمالت حرية الحكم التي منحت للولاة الى الاستقلال شيئا فشيئا ، واصبح امراء الولايات الواحد بعد الاخر ملكا او سلطانا مستقلا يحكم جانبا من العالم الاسلامي ، وان ذكر هؤلاء اسم الخليفة في الخطبة مع اسمائهم(١) . ومما ساعد على انفصال الولاة ان الدولة الاسلامية كانت اشبه باتحاد بين الولايات ولم تكن هناك رابطة قوية تربط حاضرة الدولة بالاطراف من الناحية الادارية(٢) . ويقسم الماوردى(٣) الامارة على البلدان الى نوعين خاصة وعامة وهذه نوعان امارة استكفاء بعقد عن اختيار وامارة استيلاء بعقد عن اضطرار ، وامارة الاستيلاء ان يستولي الامير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة امارتها فيستبد بها وبجباية اموالها . ومع استقلال هذا النوع من الامراء فأنهم كانوا يدينون بالطاعة الدينية وتوحيد كلمة المسلمين وتنفيذ الاحكام واستيفاء الاموال الشرعية واقامة الحدود وغيرها من الواجبات(٤) .

---

(١) ديموميين . النظم الاسلامية ١٤٩-١٥٠

(٢) ادم متز - الحضارة الاسلامية ٩٨/١

(٣) الاحكام السلطانية ٤٧-٥٥

(٤) نفس المصدر ٤٧-٥٥

ولقد اوجد العباسيون طريقة لتسهيل جباية اموال الولايات هي تضمين الخراج للعمال . فادت هذه الطريقة الى استقلال الولايات كلما ضعفت الخلافة ، ولم يعد يربط الخليفة بهذه الدويلات المستقلة سوى دفع مبلغ معلوم من المال كل سنة ، والمحافظة على المظاهر التي اعتز بها الخلفاء وهي اقامة الخطبة لهم وضرب النقود باسمائهم في الولايات وحتى هذه المظاهر لم يراعها الحكام المستقلون ما داموا اقوياء . ومن هنا قامت الدولة الحمدانية التي شملت ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر .

لما استقل الحمدانيون بهذه المناطق الشاسعة اخذو يحكمونها لحسابهم متشبهين بالخلفاء فاتخذوا الوزراء والكتاب والدواوين والعمال ، وبرغم قلة المعلومات التي بين ايدينا نلاحظ ان الحمدانيين قسموا مملكتهم الى اعمال فجعلوا عاملاً ينوب عنهم في كل صقع . وكان ناصر الدولة اول من اتبع هذه الخطة فولى ابنه حمدان الرحبة ، وولى ابنه هبة الله ميافارقين ، وابا الفوارس نصيبين(١) . ونجد غلاما لعبدالله بن حمدان يدعى هزارمرد يتولى آمد ثم ميافارقين في الايام الاخيرة من حكم ابي تغلب ، فلما توفى نصب مكانه غلاما حمدانيا اخر يدعى مونس(٢) ، كما كان الغلام سبك يتولى ميافارقين(٣) .

وعلى الرغم من ان الامراء الحمدانيين اتبعوا اسلوب تولية افراد

---

(١) مسكويه . تجارب الامم ٢٥٤/٢ و ٢٩١ و ٣٠٥

(٢) مسكويه . تجارب الامم ٣٠٥/٢

(٣) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١٢ ب

اسرتهم والمقربين اليهم من غلمانهم على الاعمال لكي يضمنوا اخلاصهم وولاءهم وليكونوا عيونا لهم على اعدائهم ، فقد قام في وجههم كثير من حركات العصيان والتمرد في اطراف مملكتهم .

كان الامير الحمداني يضطلع بكثير من الاعمال ومن اهمها ضبط الثغور وجباية الاموال وتوطيد الامن واخضاع القبائل المتمردة ، لذلك فاستخدموا عمالا وموظفين لمعاونتهم في اداء هذه الواجبات ... ونجد هنالك اشارات الى وجود عمال الخراج والاعشار وسعاة الصدقات والجزية ودواوين الجند التي كانت تحوي سجلات خاصة لحفظ اسماء الجند وارزاقهم ، كما نسمع عن دار الطراز التي تعد الخلع والملابس التي يحتاجها الامراء ، وكانت مهنة صاحب هذه الدار الاشراف على الصناع والانسجة والاعلام (١) . ومعنى ذلك ان الادارة الحمدانية كانت صورة مصغرة للادارة في بغداد فنجد دواوين وهيئات للاشراف على مختلف نواحي الدولة . وكان الامير هو الحاكم الفعلي وبيده جميع السلطات غير انه كان يمنح الادارة المحلية المدنية والبلدية الى شيوخ (٢) .

ونستطيع ان نطلق على نمط الحكم الحمداني لفظة النظام المطلق Despotism ذلك ان جميع السلطات كانت مركزة في يد الامير ، وهو المرجع الاعلى في كل شيء . فكان هو الذي

---

(١) الصابي . رسائل الصابي ١/١٤٠-١٤١

(٢) Freytag, Z. D. M. G, Vol. XI, P. 224

يشرف على الادارة والمالية والحرب ، وهو الذي يولي الموظفين ويعزلهم . ولم يكن الوزراء والكتاب والقضاة سوى ادوات مسخرة لخدمة رغبات الامير - وتنفيذ اوامره . ومعنى ذلك ان الحكومة الحمدانية كانت مركزية ، ولم يترك بايدي الموظفين والعمال سوى الامور الثانوية . ولم يكن حكم الحمدانيين شبيها بما يسمى بـ « الاستبداد المستنير Enlightened Despotism » بمعنى ان يسعى الحاكم الى خدمة مواطنيه ، اذن لوجدنا لهم عذرا عما اتهمهم به المؤرخون . لكنهم نظروا الى البلاد التي كانت بايديهم على انها ملك شخصي ، بما تضم من مواطنين وما تحوي من زرع وضرع وثروة . ويقول آدم متز (١) في شيء من المبالغة والقسوة ان بني حمدان الذين ظلوا يحكمون الجزيرة في القرن الرابع ، جاروا على الرعية جورا عظيما وهو ما يفعله اهل البادية الذين لا يستطيعون ان يرعوا اي شيء يتفق والمصلحة العامة ، وكانوا اسوأ جميع حكام القرن الرابع ، حتى ان الترك والفرس الذين حكموا في هذا القرن كانوا كالاباء لرعيتهم اذا قورنوا بالحمدانيين . ومما دفع متز الى هذا القول اغتصاب الحمدانيين للاراضي واقتلاعهم للشجر وهي امور سوف

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية ١/٢١٢

نناقشها عند الكلام عن السياسة الاقتصادية . وانه وان كان في قول متز نصيب من الصحة فاني اخالفه في قوله انهم كانوا اسوأ حكام القرن الرابع جميعا ، ويبدو أنه نسي ما كان يفعله الأتراك والبويهيون في بغداد من مصادرة الأموال واقطاع الضياع وقبول الرشى والشفاعات واهمال العمارة والري ، والغاء ديوان المظالم(١) وغيرها من مظاهر الديمقراطية في ذلك العصر .

نستطيع أن نقدم كثيرا من الأمثلة التي تقوم دليلا على الاتجاهات المطلقة التي طبعت سياسة الحمدانيين ، مع ان هذه الاتجاهات كانت متفشية بين اغلب حكام العصور الوسطى في الشرق والغرب . بل انها واضحة في تاريخ اوربا الحديث ، حيث اعتبر ملوك القرنين السابع عشر والثامن عشر انفسهم ظل الله في الارض حتى قال لويس الرابع عشر ملك فرنسا « انا الدولة » . ويسوق المؤرخون بعض الشواهد على طبيعة الحكم الحمداني .

١ـ استولى ناصر الدولة على الموصل واكثر اعمالها واجبر ملاك الاراضي على بيع املاكهم وعقارهم بابخس الاثمان حتى « استولى على الناحية ملكا وملكا »(٢) .

٢ـ كان ابو تغلب يستولي على اكثر غلة الارض ثم يشتري حصة المزارع بثمن بخس يقدره هو :

---

(١) مسكويه . تجارب الامم ٢/٩٧-٩٩

(٢) نفس المصدر ٢/٣٨٤

وقف كتابخانهٔ عمومی حضرت آیت الله العظمی مرعشی نجفی (ره)
قم
تاریخ ۱۳۵۳ هـ.ش

٣ـ اضطهد الحمدانيون قبيلة بني حبيب اضطهـــادا اقتصاديا حتّى ارغموها على الهجرة الى بلاد الروم والتحول الى النصرانية(١) .

غير أنه يجب انْنلاحظ بانواجب الحمدانيين فى حكم الجزيرة كان واجبا شاقا بسبب وجود عدة قوى يصعب خضوعها لسلطة مركزية . واهم هذه كانت القبائل العربية التي ـ وان كان بعضها مستقرا يمارس الزراعة ـ فالها كانت في الغالب تعيش حياتها البدوية متنقلة من صقع الى آخـر ، وقد سببت للحمداليين كثيرا من المتاعب والقلاقل ، وهنـــاك الاكراد الذين عاشوا فى الجزيرة وبخاصة في المناطق الجبلية التي ما زالت موطنهم الى اليوم ، وهم وان دخلوا تحت طاعة الحمدانيين وتصاهروا معهـم ، فقد ظلوا عنصرا خطيرا محاربا يحسب له الف حساب . هذا فضلا عن القرامطة الذين نسمع عنهم كثيرا طوال تاريخ الدولة الحمدانية . واذا اضفنا الى مـــا تقدم تهديد البويهيين والفاطميين والبيزنطيين ، ادركنـا السبب في عدم استطاعة الحمدانيين اقامة سلم دائم في ربوع بلادهم .

ومن ثم فقداعتمد الحمداليون على جيش ضخم كان عدتهم واداتهم في المحافظة على سلطتهم في الجزيرة التي صعب على جميع الحكام توطيد نفوذهم بها . ولما كان الامراء الحمداليون رجال كروفر قبل ان يكونوا رجال دهاء وسياسة ، فقد بنوا ملكهم وبسطوا نفوذهم بفضل براعتهم الحربية وقوة جيوشهم وخوضهم الكثير من المعامع والحروب . ويمكن القول ان صفات العرب الخلص تمثلت فيهم من هذه النـــاحية ، فهم جميعا دون استثناء فرسان اشداء وقواد ممتازون ، لم يتخلف احد منهم

---

(١) نفس المصدر ١٤٠ - ١٤٣

من الحروب حتى في ايام ضعفهم . وكان تاريخهم منذ مبدئه حتى نهايته سلسلة من المواقع والغزوات .

لقد تطلبت الدولة الحمدانية جيشا قويا مدربا مجهزا بخبر العدو وكان اول من ادرك هذه الحقيقة ناصر الدولة الذي اعتمد على القبائل العربية والمماليك الاعاجم في تكوين جيشه ، واستطاع ان يخوض المعارك التي اسلفنا ذكرها ضد البريديين والبويهيين . غير ان ناصر الدولة اخفق في جلب جنوده اليه ، لان الروح المعنوية لم تكن سائدة في قلوب الجند . وكان اهتمامهم مقصورا على الارزاق والغنائم ، حتى اذا ما شح عليهم الامير عمدوا الى اثارة الشغب والفتن كما فعلوا في الموصل وفي واسط حين كان الحمدانيون يتولون امرة الامراء . وكان العرب اهم عنصر في الجيوش الحمدانية فاستعان ابو تغلب بعقيل التي لاصرته حتى هزيمته(٢). وكثيرا ما ضم جيش الحمدانيين المتطوعة الذين دفعهم الجهاد الى حرب الروم . غير ان ناصر الدولة كون جيشه اول الامر من الاتراك ، لانهم اشتهروا في ذلك العصر بالروح العسكرية وصحة الابدان ، غير انهم سببوا له كثيراً من المتاعب فتآمروا ضده سنة ٣٣٥ وكادوا يقتلونه لولا انه فر الى ... الحديثة فالسن وهم يتعقبونه بقيادة تكين الشرزادي(٣). وكان ناصر الدولة شديد اليقظة بالغ القسوة فنكل بغلمانه واكثر من قتلهم حين تمردوا عليه سنة ٣٤٧ (٤) . والى جانب هؤلاء الاتراك استعان

---

(١)

(٢) ابن العديم . زبدة الحلب ١/١٧٠

(٣) مسكويه . تجارب الامم ٢/٤٠٣

(٤) نفس المصدر ٢/١٦٨

لناصر الدولة يعرب الجزيرة حتى انه كان يوعز اليهم بقطع الميرة عن عدوه ، ويبدو أنه اعتمد على الاكراد ايضا فقد كانوا عنصرا عسكريا ممتازا ومن القوى المؤثرة في تاريخ الجزيرة ، ومن هنا حالفهم ناصر الدولة وتزوج منهم زوجته فاطمة بنت احمد(١) وبذلك اصبحوا حلفاء له ولابنه ابي تغلب(٢) .

وكان للامراء الحمدانيين خطط حربية اكتسبوها بالخبرة والتجربة، وابرز ما يميز حروب ناصر الدولة انه كان يبتعد عن موطن الخطر ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ويتحاشى لقاء عدوه ويفر امامه في مسالك الجزيرة الوعرة اذا آنس فيه القوة ، ويقطع عنه المؤن والميرة ، فيضطر هذا العدو الى التراجع ،وبذلك يوفر ناصر الدولة على نفسه مشقة الحرب والصدام .

يعطينا الصابي(٣) صورة واضحة للادارة العسكرية عند الحمدانيين في الموصل فقد كان الجند يسجلون في دواوين خاصة مع ارزاقهم وعدتهم وخيلهم ، وكانوا يعرضون بين الحين والحين ، فتصرف لهم الاموال حسب رتبهم . اما المخلون بواجباتهم العسكرية او المتخلفون فتسقط ارزاقهم . وكان الجند يطالبون باحضار الخيل الاصيلة والاسلحة الكاملة حسب ارزاقهم واعطياتهم ، فاذا اهملوا في ذلك تعرضوا للغرامة والقصاص .

وفي المجال المدني اتخذ الحمدانيون لانفسهم وزراء متشبهين

---

(١) مسكويه : تجارب الامم ٢/٣٩٢

(٢) نفس المصدر ٢/٣٩٢

(٣) رسائل الصابي ١/١٤٠-١٤٨

بالخلفاء ، لكي يعاونوهم في ادارة دفة شؤون الدولة فى الجزيرة ، خاصة وقد شغل الامراء الحمدانيون انفسهم بالحروب ولم يكن لديهم الوقت الكافي للنظر في الاعمـــال الادارية . ونلاحـظ ان المؤرخين اطلقوا على هؤلاء الـوزراء لقب الكتاب ايضاً ، والواقـــع ان الوظيفتين متلازمتان وقد اختير الوزراء ـ حتى في الخلافة العباسية ـ من بين الكتاب الحاذقين. واله وان كانت معلوماتنا في هذا الموضوع قليلة الى حـــد الندرة ، فاننا نستطيع ان نجد بضعة وزراء تولوا مهام الوزارة للامراء الحمدانيين فى الجزيرة منهـــم الحسين بن علي المغربي وهو من اسرة فارسية تدعي ان نسبها ينتهي الى بهرام جور ، ونسبوا الى المغرب لتوليهم ديوان المغرب وقيـــل لإقامتهم فيـه . ويقول المقريزي (١) ان اصل هذه الاسـرة من البصرة ، ثم انتقلت الى بغداد حيث ولـد الحسين ، الذي تولى مناصب كثيرة ايام ابن رائق ثم استوزره ناصر الـدولة . واستوزر ابو تغلب ابا موسى النصراني وكان من اهل الذمة وقرة بن دنحا وهو نصراني كذلك وابا الحسن علي بن عمر بن ميمون بن علي بن عمر(٢) .

وهناك اشارات الى نظام القضاء لدى الحمدانيين فى الجزيرة ، ونحن نسمع عن احد قضاتهم في الموصل وهو ابن ابي ادريس وقد تولى القضاء لابي تغلب بن ناصر الدولة الذي يتضح من سيرته انه كان اقرب من ابيه الى الحياة المدنية فقد حاول بناء سلطة ذات طابع مدني بعكس ابيه الذي صرف جل وقته وجهده وماله فى الصراع الحربي كما رأينـــا . ونجد لهذا القاضي ـ ابن ابي ادريس ـ ضلعاً في الاحداث السياسية ســـنة ٣٦٨ ،

---

(١) الخطط ٢/١٥٧

(٢) ابن ظافر ورقة ٢٥ أ

فقد استغل ضعف مؤلس والي ميافارقين فجمع كلمة اهلها للدفاع عنها ضد البويهيين ، غير ان هؤلاء قبضوا عليه وقتلوه. وقد وصم مسكويه هذا القاضي بالجهل(١) .

٣ـ النظام المالي

عمد الامراء الحمدانيون الى توفير المال اللازم للانفاق على مشاريعهم العمرانية وحياتهم الخاصة وحروبهم الداخلية والخارجية. ولما كانت الدولة الحمدانية دولة اسلامية ، فقد سارت على نفس الاسس الاسلامية في الضرائب اي فرض الزكاة على المسلمين وفق الشروط الشرعية ، والجزية على أهل الذمة من أهل الكتاب من الرجال القادرين ، والخراج على الارض المزروعة التي استولى عليها المسلمون من المشركين عنوة او صلحا(٢) .

ان التشريع الاسلامي في الضرائب متشعب معقد ، فإنه فضلا عن الاختلاف الذي وجده المسلمون ـ عند الفتح ـ بين بلاد الفرس والروم، كانت هناك نظم محلية تختلف من اقليم الى آخر من الاقاليم التابعة لكل من هاتين الدولتين(٣) . ولم يظل التشريع المالي الاسلامي كما كان في صدر الاسلام ، بل انه تطور على مر الزمن تبعا لحاجات الدولة من ناحية واجتهاد الفقهاء من ناحية اخرى حتى اذا جاء العباسيون وجدنا ضرائب

---

(١) تجارب الامم ٣٨٨/٢

(٢) الماوردي . الاحكام السلطانية ٢٤٥ـ٢٥٥

(٣) ادم متز . الحضارة الاسلامية ١٤١/١

اخرى متفرقة غير شرعية ابتدعها الحكام للحصول على الاموال التي تسد حاجاتهم الكثيرة .

وبين ايدينا اخبار تدل على ان الحمدانيين كانوا اغنى امراء المسلمين في القرن الرابع، ذلك ان عضد الدولة البويهي لما فتح قلاعهم في الجزيرة وجد قلعة اردمشت زاخرة بالامتعة والثياب والفرش والجواهر والحلي، وكان فيها نحو عشرين مليون درهم(١) ، عدا ما حمله ابو تغلب معه حين فر امام عضد الدولة من الصناديق الملأى بالسدر والجوهر والامتعة والنقود(٢) . كما كان لدى حمدان بن ناصر الدولة في قلعة ماردين مائتا الف درهم ومن الفرش والجوهر والثياب ما حمل في نيف وسبعين بغلا، وحوت قلعة اردمشت من قلاع ابي تغلب اكثر من عشرين مليون درهم(٣) . ومن الامثلة الطريفة على ثراء الحمدانيين ان جميلة بنت ناصر الدولة نثرت على الكعبة حين حجت سنة ٣٦٦/٩٧٦ م عشرة الاف دينار وفرقت كثيرا من المال على الفقراء وخلعت على الناس خمسين الف ثوب(٤) .

فمن اين جاء الحمدانيون بكل هذه الثروة الضخمة ؟ ان شرح سياسة الحمدانيين المالية لخير جواب على هذا السؤال .

ولكي يستطيع الحمدانيون الانفاق على الحرب والادارة وحياة البلاط وارزاق الجند والموظفين ، اتبعوا سياسة مالية قاسية ، فنجد

---

(١) مسكويه . تجارب الامم ٢/٣٩٢-٣٩٣
(٢) نفس المصدر ٢/٣٨٦
(٣) نفس المصدر ورقة ١٣ ب و ١٤
(٤) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢/٥٠٩

لناصر الدولة يلجأ، كلما طالبه معز الدولة باموال الضمان الى اهل الموصل فيستنزف اموالهم ويطالبهم « بمال التعجيل » (١) وهي ضريبة غير ثابتة تجمع من الاهلين في حالات اضطرارية ، وقد ادت سياسة الحمدانيين هذه في جباية الخراج الى خراب بعض المدن وترك أهلها لهـا حتى عفت رسومها(٢) . لذلك حمل ابن حوقل (٣) عليهم حملة لاهوادة فيها ووصف سياساتهم المالية بالجور بحيث أن مدينة نصيبين العامرة انهارت لحدود أو قسوتهم في جباية الضرائب ، وذهب اهلها بددا بعد ان انتزع الحمدانيون املاكهم واستولوا على ضياعهم . ولا نريد هنا ان نورد جميع الامثلة على تطرف الحمدانيين واشتطاطهم في جباية الاموال على ان الامثلة السالفة تكفي للتدليل على ما نريد ، من ان الحمدانيين في الموصل هدفوا الى تعبئة جميع الموارد الممكنة لخدمة بلاطهم وتوفير حاجاتهم الحربية والمدنية .

جبى الحمداليون الخراج اي ضريبة الارض بطريقتين ، المحاسبة والمقاسمة وقد وصلت نسبة الخراج في بعض الحالات الى خمسين فى المائة اي نصف الغلة ، كما فعل الحمدانيون مع قبيلة بني حبيب الساكنة قرب نصيبين . وخيروها بين ان تدفع هذه الضريبة عينا او نقدا او مقاسمة او محاسبة(٤) . وقد استطاع الحمدانيون فى الموصل ان يرفعوا وارد هذه المدينة من خراج الحنطة والشعير حتى بلغ في اوائل القرن الرابع خمسة

---

(١) ابن مسكويه . تجارب الامم ١١٥/٢

(٢) ادم متز . الحضارة الاسلامية ٢٤٠/٢

(٣) صورة الارض ٢١٦/٢

(٤) ادم متز . الحضارة الاسلامية ٢١٣/١

ملايين درهم على حين كان في القرن الثالث اربعة ملايين(١) ، ومحمد ناصر الدولة الى اتباع نظام المقاسمة في جباية الخراج لوقف هجرة القبائل كما فعل مع بني حبيب . ولدينا بعض الارقام التي تعطينا فكرة عن الخراج في مختلف نواحي الدولة الحمدانية ، ومنها نرى مبلغ غنى هذه الدولة العريض وثرائها الواسع ، فقد بلغ خراج ديار مضر خمسة ملايين وستمائة الف درهم او ستة ملايين (٢) . وبلغ خراج ديار ربيعة سبعة ملايين وسبعمائة الف درهم (٣) وخراج اعمال الفرات وهي تكريت والطيرهان والسن والبوازيج تسعمائة الف درهم والموصل واعمالها اي شهرزور والصامغان وداراباذ مليونين وسبعمائة الف وخمسين الف درهم . اما نينوى والمرج وبعذرا والحديثة وبهدرا وغيرها من نواحي الموصل الشرقية والغربية فبلغ ستة ملايين وثلثمائة الف درهم(٤) . اما اعمال هذه المدينة الشمالية وهي قردى وبزبدى وجزيرة بن عمر وباسورين فبلغ ارتفاعها ثلاثة ملايين ومائتي الف درهم(٥) . وبلغ ارتفاع ديار ربيعة وكورها اربعة ملايين وستمائة الف وخمسة وثلثين الف درهم . هذا عدا اعمالها الشمالية التي كانت تؤدي اربعة ملايين ومائة الف درهم(٦) . وكان ارتفاع هيت وعانة وقرقيسيا مليونين وتسعمائة الف درهم (٧) . وفيما يلي ثبت يبين خراج اقاليم الجزيرة حسب قائمة قدامة :-

---

(١) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ٩٤

(٢) قدامة ٢٤٦

(٣) نفس المصدر ٧٣ و ٩٥

(٤) قدامة . كتاب الخراج وصنعة الكتابة ٢٤٥

(٥) نفس المصدر ٢٤٥

(٦) نفس المصدر ٢٤٦

(٧) نفس المصدر ٢٤٦

تكريت والطيرهان والسن والبوازيج	٩٠٠ر٠٠٠	درهم
شهرزور والصامغان	٢ر٧٥٠ر٠٠٠	«
الموصل	٦ر٣٠٠ر٠٠٠	«
قردى وبزبدى	٣ر٢٠٠ر٠٠٠	«
ديار ربيعة	٩ر٦٣٥ر٠٠٠	«
ارزن ومياقارقين	٤ر٢٠٠ر٠٠٠	«
آمـــد	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	«
ديار مضر	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	«

وكان خراج نصيبين وحدهـــا ايام ابي تغلب من الحنطـة والشعير والارز خمسة ملايين درهم، ومن الجزية والجوالى اي الضريبة اهل الذمة خمسة الاف دينـار ، ومن العشور وضرائب الخمرة خمسة الاف دينار ايضا ، ومن الغنم والبقر والدواب والبقول مثل هذا المبلغ ، ومن ضريبة المستغلات كالدور والحمامات والـدكاكين سبعة عشر الف دينار ، وبلـــغ وارد رستاق ابنين من اعمـــال دارا مليون درهم من الحبوب وثلاثين الف دينار من العرصات والطواحين وضريبة الرؤوس (١) . ونجـد المطيع فى هذا الصدد يحث ابا تغلب على ان يوعز الى « عمال الجوالي بأخذ الجزية حسب احتمال أهل الذمة » .

وعلى كل حـال فقد جبى الحمداليون في الجزيرة أرباحاً طائلـة من ضريبة الخراج التي فرضت على الغلال ، وكانت في الحق اهـــم مورد

---

(١) ابن حوقل ١٤٠-١٤٣

لحزبنتهم . ولعل القائمة التالية ـ التي أوردها الاصطخري (١) تعطي القاري، فكرة واضحة عن مقادير الأموال التي جبيت من ضريبة الخراج في بعض مناطق الجزيرة .

الاقليم	درهـم
كور الجزيرة	٩ر٧١٥ر٨٠٠
حران	٧٤٠ر٠٠٠
الرها	١ر٣٠٠ر٠٠٠
سميساط	١ر٠٠٠ر٠٠٠
سروج	٦٠٠ر٠٠٠
قريات الفرات	٦٠ر٠٠٠
رأس كيفا	٣٥٠ر٠٠٠
ارض البيضاء	١٥٠ر٠٠٠
الرقـة	١٦٠ر٠٠٠
الزافقة وللروابي	٥٧ر٠٠٠
المازحين والمديبر	٢٨٥ر٠٠٠
ارزن	١ر٠٤٥ر٠٠٠
آمـد	١ر٧٥٠ر٠٠٠
ميافارقين	٨٥٦ر٠٠٠

(١) مسالك الممالك ١٣٥-١٣٦ .

ويزودنا ابن حوقل(١) - الذي حدد هذه الأرقام ايام الحمدانيين - بمعلومات قيمة عن واردات اقليم الجزيرة من الخراج والأعشار والجزية وغيرها . وهو يقول انه حضر بنفسه في سنة ٣٥٨ تقدير ضمان نصيبين في عهد ابي تغلب الغضنفر وهو بالموصل ، فكان التقدير على النحو التالي:

الحنطة والأرز والشعير وحبوب اخرى (١٠/٠٠٠ كـر) (٢)	٩ر٠٠٠ درهم(٣)
ضريبة الرأس (الجوالي)	٥ر٠٠٠ دينار
ضرائب اللطف (للشراب)	٥ر٠٠٠ دينار
عن الغنم والبقر والبقول والفواكه	٥ر٠٠٠ دينار
عن الطواحين والضياع المقبوضة والمشتراة وغلات العقار المسقف من الخانات والحمامات والحوانيت والدور	١٦ر٠٠٠ دينار
تقدير ارتفاع رستاق ابنين المجاور لطور عابدين (تابع لنصيبين) (٣٠ر٠٠٠ كر) من الحبوب	١ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم

(١) صورة الارض ، بيروت ، ١٩٣-١٩٤

(٢) الكر من مكاييل العراق وهو ستون قفيزاً والقفيز خمسة وعشرون رطلا ، الخوارزمي مفاتيح العلوم ٤٤ .

(٣) الدينار كان يتاذل ١٥ درهماً

العصير والأسقاء والجاجم والمراص
والطواحين ٣٠٫٠٠٠ دينار

وفيما يتعلق بالموصل يدرج ابن حوقل (١) هذه الأرقـام التي حصل عليها في سنة ٣٥٨ (في عهد ابي تغلب بن ناصر الدولة) بناء على تقدير رسمي لمبالغ الضمان التي تحتم على ابي تغلب دفعها وفق تقدير الموارد .

١ـ الارتفـاع من الحاصل(٢) دون قسمة المزارعين بنينوى والمرج وكورة حزة ٦٫٠٠٠ كر حنطة وشعيراً قيمتها ٣٫٠٠٠ درهم .

٢ـ من الحبوب الاخرى كالقطاني ٣٠٠ كر قيمتها ١٠٫٠٠٠ دينار (أي ١٥٠ الف درهم) .

٣ـ الجوالي والضمانات ومرافق اخرى ١٠٫٠٠٠ دينار .

٤ـ ضياع خاصة بالاخوة الحمدانيين فى نينوى والمرج وحزة كانت تدر اربعة آلاف كر حنطـة وشعيراً قيمتها مليونا درهـم ، بالاضافة الى ثلاثين الف درهم (الفي دينـار) عن توابع هذه الضياع الملحقة ببيت مال السلطان .

٥ـ وقدر الرافع (أي المالي الرسمي المسؤول) اموال نواحي الموصل عن المراص والجزائر والبســاتين والمستغلات المصادرة من اصحابهـا

---

(١) صورة الارض ١٩٧

(٢) يقول الخوارزمي « مفاتيح العلوم ٤٠ » ان الحاصل هو مـا يكون في بيت المال او على العامل . اما الارتفاع فيعني معدل الريع وفق الأسعار السائدة

والمشتراة ومال اللطف (أي الضرائب عن الخمرة) والجوالي(١) (أي الجزية) بمبلغ مليوني درهم .

٦ ـ وقدر نصيب الحمدانيين بموجب نظام المقاسمة(٢) الذي اتبعوه فى الجزيرة عن منطقة باعربايا (أي المبلـغ الصافي بعد دفع نصيب العمال الزراعيين ـ الأكـــرة ـ (٣) والمزارعين بثمانيـة آلاف كو من الحنطة والشعير وقيمتها اربعة ملايين درهم .

٧ـ برقعيد : الفا دينار أي ثلاثون الف درهم .

٨ـ عن دخل بازبدى من الحنطة والشعير الذي بلغ حاصلهـا الفي كر مليون درهم .

٩ـ باهدرا : الصافي بعد مقاسمة المزارعين من الحنطة والشعير ثلاثة آلاف كر وقيمتها مائة الف دينار أي مليون ونصف مليون درهـــم ، بالاضافة الى ثلاثين الف دينار عن الرسوم المدفوعة عن استخدام ميـاه الري وتسهيلات السقي .

١٠ـ قردى : والصافي بعد مقاسمة المزارعين ثلاثة آلاف كروقيمتها مائة الف دينار (أي مليون ونصف مليون درهـم) . ويضاف الى ذلك ما يجبى عن الطواحين وضريبة الجزية ومقداره ثلاثون الف دينار .

ويختتم ابن حوقل تقديراته ـ وهي تقديرات شاهد عيان ـ عن المبالغ

---

(١) جمع جالية والتعبير يشير الى اهل الذمة والى الجزية التي تؤخذ منهم

(٢) نظام المقاسمة يعني اخذ جزء من المحصول « الماوردي ١٤٤ـ١٤٥ »

(٣) الذين يقومون باعمال الحراثة

التي تدفع مقابل ضمان الموصل وأعمالها في سنة ٣٥٨ بمبلغ ستة عشر مليوني ومائتي الف وتسعين الف درهم (أي ٠٠٠ر٠٨٦ر١ دينار) ، وهو كما يبدو - مبلغ ضخم حتى بمقاييس هـذا العصر . فاذا اضفنا الى ذلك تقدير موارد المناطق الأخرى وجدنا ان الحمدانيين كانوا من اغنى الأغنياء ، لأنهم حين ضمنوا من الخلافة هذه الأقاليم الشاسعة الغنية الممتدة من تكريت الى ديار بكر لدفع هذه المبالغ على احسن تقدير ، فأنهم كانوا يلجأون الى اسلوبين لزيادة دخلهم ، اولهما : الاشتطاط في جباية الضرائب ، وثانيهما : التقاعس عن دفع المبالغ التي يتحتم عليهم دفعها للسلطة المركزية مقابل ضمانهم لتلك الأقاليم . هذان الأسلوبان هما اللذان حددا نمط السلطة الحمدانية بل وقررا مصيرها . فمن جهة كانت الرعية في الجزيرة غير مستريحة للسياسة الزراعية والمالية التي اتبعها الحمدانيون ، مما أدى الى عدم الاستقرار ، ومن جهة أخرى عمد الأمراء الحمدانيون ، كلما واتتهم الفرصة الى التمرد على السلطة المركزية والامتناع عن دفع المبالغ التي بذمتهم .

الفصل الثاني

الحالة الاقتصادية

١- سياسة الحمدانيين الزراعية

٢- التجارة وطرق المواصلات

٣- الصناعة

١- سياسة الحمدانيين الزراعية

لقيت سياسة الحمدانيين الزراعية حملة شديدة من المؤرخين . فقد اتهموا بانهم بدو مخربون قطعوا الاشجار وقضوا على العمران، وكان في مقدمة الذين هاجموهم ابن حوقل . وقد تميزت حملته هذه بالحماس العاطفي الذي املاه حنقه وغضبه وهو يشهد موطنه نصيبين وقد اصبح قاب قوسين او ادنى من الخراب ومواطنيه من خيرة القبائل يهيمون على وجوههم في الاصقاع فرارا من قسوة الحمدانيين وضغطهم الاقتصادي..

يقول ابن حوقل(١) ان الحمدانيين حين استولوا على الموصل اشتروا الاراضي والاملاك بابخس الاسعار بل بعشر سعرها . ويقول عن نصيبين(٢) ان اهلها الذين كانوا من وجوه العرب كبني فهد وبني

---

(١) صورة الارض ٢١٥/١

(٢) نفس المصدر ٢١٦/١

عمران من خيرة الازد واشراف اليمن وبني شخاج واود وزبيد والجارود وبني ابي حنداش والصداميين والعمريين وبني هاشم فرقهم « جور بني حمدان وبددهم في كل صقع ومكان بعد انتزاع املاكهم وقبض ضياعهم واحواج اكثرهم الى قصد الاطراف » . كذلك هاجم مسكويه سياسة الحمدانيين الاقتصادية فقال(١) ان اكثر اعمال الموصل اصبحت ملكا لناصر الدولة الذي كان يضايق اصحاب الاراضي ويجبرهم على بيعها بابخس الاسعار . وكان بالموصل في وسط دجلة وببلد التي تبعد عنها قليلا مطاحن تعرف بالعروب تزود العراق بالدقيق « فلم يبق منها شؤم ابن حمدان ولا من اهلها باقية(٢) » . وكذلك هاجم ابن حوقل(٣) سياسة ناصر الدولة الحمداني في الحديثة وتكريت وعكبرا والبردان وبلد التي كانت كثيرة الغلات والاموال ومشهورة بغنى أهلها وثرائهم ، حتى « وضع الملقب بناصر الدولة عليهم يده واستفرغ فيهم جهده فلم يبق لهم باقية وبددهم في كل فتر وزاوية ولم يبق لهم ثاغية ولا راغية حتى اكلتهم الشدائد وصبت عليهم بشؤمه المصائب » .

على ان من ابرز الامثلة على سياسة الحمدانيين الزراعية هو ذلك الضغط الاقتصادي الشديد الذى لقيه بنو حبيب وهم من تغلب وابناء عم الحمدانيين في برقعيد . فقد اشتط بنو حمدان في جمع الخراج منهم (سنة ٣٦٠) حتى انهم هجروا ديارهم بذراريهم ومواشيهم وساروا

---

(٥) تجارب الامم ٢/٣٨٤

(١) ابن حوقل . صورة الارض ٢٢٩/١

(٢) نفس المصدر ٢٢٠/١

في اثنى عشر الف فارس الى بلاد الروم حيث احسن اليهم الامبراطور ومنحهم اجود الضياع فتحولوا الى النصرانية ، وعادوا يشنون الغارات على بلاد الاسلام انتقاما لما لقوه من اضطهاد(١) .

ومما يميز سياسة الحمدانيين الاقتصادية وبخاصة في عهد ناصر الدولة انهم قلعوا اشجار الفاكهة وغابات الصنوبر والسرو والغار وزرعوا مكانها الغلات والحبوب كالقطن والسمسم والارز ، وبذلك ارتفع خراجها وزادت غلتها . وقد اتبع ناصر الدولة هذه السياسة في نصيبين حيث فرض على اصحاب الارض خراجا بلغ نصف غلتها . واذا علمنا انه هو الذي كان يقدر الغلة بنفسه فلا نعجب مما يقوله ابن حوقل(٢) من أن اصحاب الارض بلغت حصتهم الخمس فحسب ، لذلك عجزوا عن الزراعة وهاجروا الى بلاد الروم كما اسلفنا . ولما جاء ابو تغلب استولى على اكثر الغلات كما استولى على حصة المزارع بثمن كان هو الذي يقدره وبذلك تحمل جميع الغلة الى مخازنه . ومن هذا يظهر ان الحمدانيين هدفوا الى انماء الغلال والحبوب على حساب الاشجار غير المثمرة، وهذه السياسة بلا شك قد ادت من الناحيةالعملية الى كثرة الانتاج وزيادة الخراج للحصول على اكبر مورد يسد حاجاتهم ، وان ابدى آدم متز(٣) اسفه على ضياع جمال هذه الاشجار التي كانت تزين تلك الاقاليم .

---

(١) ابن حوقل . صورة الارض ١/٢٢٠

(٢) نفس المصدر ١٤٠-١٤٣

(٣) الحضارة الاسلامية ١/٢١٢

والغريب ان ابن حوقل نفسه امتدح سياسة الحمدانيين الزراعية في موضع آخر فقال(١) : « لما تملك بنو حمدان ورجالهم غرسوا فيهـا - اي في الموصل - الاشجار وكثرت الكروم وغرزت الفواكه وغرست النخيل والخضـر ... ولها اقاليم ورساتيق ومدن كثيرة مضافة اليهـا وارتفاع وجبايات زادت على ما كانت عليه في سالف الزمان» . ولكن يجب ان نذكر ان ما فعلـه الحمدانيون كان لمصلحتهم الشخصية ، وان الهدف الذي كانت ترمي اليه سياستهم الزراعية انما كان يقوم على إثراء انفسهم وافقار مواطنيهم، حتى ان « بلد » التي كانت من اغنى الاقاليم بوفرة غلاتها ، اصبح اصحاب الاراضي - بعد ان استولى الحمدانيون عليها - فقراء معدمين انصبت عليهم الشدائد والمصائب(٢) .

ويبرر الاسـتاذ صدر الدين(٣) سياسـة الحمدانيين الاقتصادية المتشددة بحاجتهم للنقود لحـرب الروم وارضاء جنودهم من القبائل العربية الطامعين في الغنائم ، والذين اذا لم تدر عليهم الاموال انسحبوا من المعركة وفتر حماسـهم ، كما يبرر معاملتهم لاهل الرقة والرافقة التي تميزت بفداحة الضـرائب ومصادرة اموال الاهلين واراضيهم(٤) ، بان اهل هاتين المدينتين كانوا ذوي ميول اموية ولعلهم خلقوا المصاعب والقلاقل لبني حمـدان المتشيعين . لكن الذي يقلل من قيمة هذا الرأي ان هذه السياسة لم تقتصر على هاتين المدينتين بل شملت المدن الأخـرى وبخاصة الموصل ونصيبين وبلد .

---

(١) ابن حوقل . صورة الارض ١/٢١٥

(٢) نفس المصدر ١/٢٢٠

(٣) Ṣayfuddaulah, P, 123

(٤) ابن حوقل . صورة الارض ١/٢٢٥

٢ـ التجارة وطرق المواصلات

كان الشرق في العصور الوسطى المركز الرئيس للتجارة الاوربية ، فقد استوردت اوربا القطن وقصب السكر من سورية وآسية الصغرى والحرير والتوابل من الشرق الاقصى . وبعد انقسام الامبراطورية الرومانية ، اصبحت الدولة البيزنطية وارثة تجارة الشرق ، وظلت تقوم بدور الوسيط بين اوربا وبلدان الشرق(١) . ومما هو جدير بالذكر ان العرب اشتغلوا بالتجارة منذ القدم ، فقد اشتهرت مكة قبل الاسلام بتجارتها النشيطة مع اليمن والشام ، واقيمت الاسواق في ايام معينة في مختلف انحاء بلاد العرب وبخاصة في الحجاز(٢) . وبعد ان هدأت حركة الفتوحات واتصل العرب بالعناصر الاجنبية نشطت التجارة في العالم الاسلامي ، وذلك بسبب توسع الدولة وتشجيع الخلفاء والاغنياء وحاجة القصور الى ادوات الزينة ووسائل الترف وبناء الاساطيل وتقدم العلوم الجغرافية التي وجهت اذهان التجار الى بلدان واقاليم جديدة ، وكذلك لسرعة انتقال العرب ونظام الحج الذي هيأ فرصة لالتقاء القوافل من مختلف الانحاء . وحين انتشرت الرفاهية بين المسلمين بدأت تظهر الحاجة لتبادل المنتجات مع الدول الاجنبية .

ارتبطت مدن اقليم الجزيرة ببعضها وبالخارج بطرق برية داخلية وخارجية كثيرة نذكر اهمها فيما يلي :

---

(١) Heyd, Histoire Du Commerce Du Levant, Vol. 1, P. 2

(٢) ديموبين ، النظم الاسلامية ٢٤٩

١ـ طريق البريد الذي يصل بغداد بالجزيرة محاذيا ضفة دجلة الشرقية فيدخل الجزيرة في تكريت ويظل يحاذي ضفة النهر اليسرى حتى الموصل مارا بالمدن والقرى الاتية :

بغـداد ـ البردان ـ عكبرا ـ باحمشا ـ القادسية ـ الكرخ ـ جبلتا ـ السودقانية ـ بارما ـ السن ـ الحديثة ـ طهمان ـ الموصل ـ بلد ـ باعيناثا ـ برقعيد ـ اذرمة ـ تل فراشـة ـ نصيبين . ومن نصيبين يتفرع طريقان يذهب أحدهما وهو الأيمن الى الشمال مارا بهـذه المواضع : دارا ـ كفرتوثا ـ قصـر بني نازع ـ آمد ـ ميافارقين ـ ارزن ٠ ثم يتفرع هذا الطـريق بدوره فيذهب فرع من آمد الى الرقة ـ شمشاط ـ تل جوفر جرنان ـ بامقدار ـ جلاب ـ الرها ـ حران ـ تل محرا ـ باجروان ـ الرقة٠ والاخر من نصيبين الى الرقة ـ دارا ـ كفرتوثا ـ العرادة ـ راس عين ـ الجارود ـ حصن مسلمة ـ باجروان ـ الرقة(١) ـ اما الفرع الايسـر لطريق البريد الرئيس فيمر بهذه المواضع: بلد ـ قرقيسيا ـ سنجار(٢) .

٢ـ وهناك طريق يصل بين الرقة والثغور يكمل الطريق السابق ويمر بعين الرومية (عين زربة) تل عبدا ـ سروج ـ المـزينة ـ سميساط ـ

---

(١) قدامة . كتاب الخراج وصنعة الكتابة ٢١٥ . ابن خرداذبه . المسـالك والممالك ٩٣-٩٤

(٢) قدامة ٢١٦

حصن منصور ـ ملطية ـ كمخ ـ زبطرة ـ الحدث ـ مرعش(١) .

٣ـ وتتصل الموصل بنصيبين بطريق يمر بهذه المواضع : الموصل ـ بلد ـ باعيناثا ـ برقعيد ـ اذرمة ـ تل فراشة ـ نصيبين(٢) .

٤ـ ونجد على الفرات طريق البريد الذي يحاذي الضفة اليمنى او الغربية من هذا النهر ويصل الى آلوس فعانة ثم يتفرع الى فرعين يذهب اولها الى الرقة محاذيا الفرات ، ويخترق ثانيهما وهو الايسر الصحراء الى الرقة ايضا مارا برصافة هشام ثم الى سروج وسميساط(٣) .

٥ـ وهناك ايضا طريق هام يصل مدن الجزيرة بمدن الشام ويبدأ من سر من رأى ويمر بهذه المدن : بالس ـ الحديثة ـ الموصل ـ بلد ـ نصيبين ـ راس عين ـ الرقة ـ منبج ـ حلب ـ قنسرين ـ حماة ـ حمص ـ جوسية ـ بعلبك ـ دمشق(٤) .

٦ـ طريق الفرات : بلد ـ تل أعفر ـ سنجار ـ عين الجبال ـ سكير العباس ـ الفدين ـ ماكسين ـ قرقيسيا(٥) .

من هذا يتضح ان الطرق كانت كثيرة وعامرة، وكانت تصل بغداد بمدن الجزيرة من جهة ، ومدن الجزيرة ببعضها من جهة ثانية ، واقليم

---

(١) ابن خرداذبه . المسالك والممالك ٩٦ . قدامة ٢١٦

(٢) ابن خرداذبه ٩٥

(٣) Lestrange 124

(٤) ابن خرداذبه ٢١٦ـ٢١٧

(٥) قدامة ٢١٦

الجزيرة بالشام وببلاد الروم وأرمينية من جهة أخـــرى . وبين ايدينا نص قيم يقف دليلا واضحاً على العناية الفائقــة التي بذلها الحمدانيون بالتعاون مع السلطة المركزية في بغداد من أجـل صيانة الطرق وتسهيل مرور التجارة وحماية الأمن الذي كان ضرورة اساسية لأزدهار التجارة ، فقد اشترط الخليفة المطيع على ابي تغلب بن ناصـر الدولة في عهد له أصدره في سنة ٣٦٦/٩٧٦م « أن يوكل بالطرقات من الخيل والرجال من يتقصاها ليلا ونهاراً ، ويستقر بها سـهلا وجبلا ، ويسير في برها وبحرها ، ويقلد عليهم أهل النجدة والبسالة ، وذوي الشهامة والجزالة. ويوعز الى من يو ليه بأن يتبعوا مظان أهل الريب فيشـردوهم عنها ... وأن يسيروا مع السابلة ويصحبوا من يسلك الطـرق من المارة ويحموا النفوس والأموال ، ويحوطوا الذراري والتجـارات ، ويقفوا على من تخلف ويسيروا بمسير من ضعف ، حتى لا يلحق احـداً من السالكين عيب ولا يغوله دون مقصده غول . ولا يلزموا احـــداً من المجتازين مؤونة ولا يحملوه ثقلا ولا كلفة ، لتؤمن السبل وتحمى المسالك وتدر للرعية المتاجـر وتستقيم لها أسباب العيش ، وتكون الطـرق مضبوطة والامال محوطة »(١) .

ولما كان من مصلحة الحمدانيين استتباب الامن في ربوع مملكتهم فانهم جعلوا في الطـــرق والمسالك الوعرة خيالة ومشاة لحفظ الامـن والقضاء على العابثين ، وولوا الاحداث وهي اعمال الشرطة لاشخاص يجب ان تتوافر فيهم صفات العقل والعفة والشدة ليراقبوا الاحـــوال

---

(١) رسائل ابي اسحاق الصابي ١/١٣٤-١٣٥ « بيروت » .

العامة ويتعقبوا الجناة الذين يحملون الى السجون وتقام عليهم الحدود(١).

امتازت الموصل بموقع جغرافي على جانب كبير من الاهمية ، فهي تطل على دجلة وكانت محط الركبان ومنها يقصد الى جميع البلدان ، فهي « باب العـــراق ومفتاح خراسان ومنها يقصـد الى اذربيجان » . لذلك اصبحت من المدن التجارية الممتازة في العصور الوسطى، واشبه بهمزة الوصل بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية . وكانت الموصل في القرن الرابع الهجري ذات تجارة رائجة فامتازت باسواقها الواسعة الكثيرة بحيث كان لكل صنف من اصناف البضاعة سوقان او ثلاثة او اربعة خاصـــة بها . وكل سوق منها ينتظم مائة حانوت او اكثر(٢) ، ومن هذه الاسواق سوق الطعام والاساكفة والغنم . وكان يقام في كل يوم اربعاء سوق عرف «بسوق الاربعاء» وذلك في الساحة الفسيحة بداخل القلعة حيث يفد الفلاحون من القرى والبلدان المجاورة(٣) . ويذكر الازدي(٤) من اسواق الموصل الاربعاء والحشيش والسقائين والقنابين والدواب والبزازين والســراجين ، مما يدل على أن هناك ســـوقا لكل صنف من اصناف البضاعة . وكانت هذه المدينة تصدر الى الخارج منتجاتهـا الزراعية والحيوانية والصناعية من القمح والعســل والفحم والجـــبن والفواكه واللحوم المملحة والسمك والحديد والسكاكين والسهام والسلاسل(٥) . وما زال أهلها الى اليوم يقومون بتربية الاغنام

---

(١) نفس المصدر ١/١٣٦

(٢) ابن حوقل . صورة الارض ١/٢١٥

(٣) المقدسي . احسن التقاسيم ١٣٨-١٣٩

(٤) تاريخ الموصل (مخطوط) ٢ ورقة ١٧ و ٢٤ الخ

(٥) المقدسي ١٣٨-١٣٩

وتصدرها الى البلدان المجاورة ، كما كانت هذه المدينة تمون بغداد بالدقيق والسكر والعسل والسمن والجبن ونعال الخيل(١) ، وكانت الفنادق التي خصصت لاقامة التجار كثيرة بالموصل بحيث كان « على كل ركن فندق »(٢) .

وكانت الرقة ـ قصبة ديار مضر ـ مشهورة باسواقها المظللة الجميلة التي تزخر بالسلع ، وقد استمدت اهميتها من موقعها بين العراق والشام(٣)، كما اشتهرت سنجار بتصدير الفواكه المجففة وقصب السكر . على حين انتجت نصيبين القمح والشعير والارز والجوز(٤) وصدرت الرقة زيت الزيتون والصابون وقصب الاقلام كما صدرت آمد الحجارة الأرحية النادرة بحيث كان يساوي الحجر الواحد خمسين دينارا او اكثر(٥) . كما صدرت ثياب الصوف والكتان « الرومية على عمل الصقلي » . وصدرت بلد اللبأ في القدور عن طريق النهر بحيث يبع القدر الذي يزن خمسة امنان بخمسة دوانيق . واشتهرت حران بتصدير العسل والموازين والانسجة القطنية . وجزيرة ابن عمر بالجوز والزبدة والخيول(٦) .

ادت المعاملات التجارية الى قيام محيط تجاري راق في بلاد

---

(١) المنتظم . ابن الجوزي ١٠/١٧٠

(٢) المقدسي . احسن التقاسيم ١٣٨

(٣) نفس المصدر ١٤١

(٤) ابن حوقل . صورة الارض ١٩١ ، ١٩٩

(٥) نفس المصدر ٢٠١

(٦) المقدسي ١٤٥

الحمدانيين وقد افاد الأمراء من العشور والضرائب المختلفة التي فرضوها على التجار، فنشأت الاسواق والخانات لسكنى التجار وخزن بضائعهم، ومدت الطرق البرية التي عين فيها شرطة خيالة ورجالة لحماية القوافل. وقام الصيارفة ـ وهم الذين مثلوا المصارف في ذلك العصر ـ بمهمة الايداع والصيرفة والتحويل. وترتب على ذلك ان يصدر الحمدانيون عملة خاصة بدولتهم مادامت السكة مظهرا من مظاهر السيادة والاستقلال، وعاملا هاما في قيام التجارة والتبادل.

استعمل المسلمون نقودا ثنائية القاعدة اي من الذهب والفضة، فكان الدينار ذهبا والدرهم فضة. وكانت النقود في الجاهلية هي الرومية والفارسية، واقر الرسول (ص) النقود على ما كانت عليه، كذلك لم يغير ابو بكر شيئا، وفي زمن عمر ادخلت على الدراهم الكسروية عبارات «الحمد لله» او «محمد رسول الله» او «لا اله الا الله» (١). لكن عبدالملك عرب النقود سنة ٧٦هـ فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا والدرهم خمسة عشر وبها صورة وآيات وبذلك يعتبر أول من وضع السكة الاسلامية (٢). ثم جاء العباسيون فتولوا النظر في العيار. الا الرشيد فانـــه اناب عن البرامكة. وفي عهد نفوذ الاتراك والبويهيين حيث انفصلت الاقاليم تعرضت النقود للفوضى في عيارها ومعدنها (٣).

والسكة ـ حسب المفهوم الاسلامي ـ النظر في النقود المتعامل بها

---

(١) المقريزي . النقود الاسلامية « مخطوط » ورقة ٣٠ أ

(٢) نفس المصدر ورقة ٣١ أ - ٣٠ ب

(٣) نفس المصدر ورقة ٣٢ أ - ٣٢ أ

بين الناس وحفظها من الغش او النقص ، وختمها بخاتم السلطان الحديدي الذي يحمل صورا او كلمات مقلوبة تضرب على الدينار او الدرهم فتخرج مستقيمة بعد ان يضبط عيار القطعة النقدية ويسبك معدنها (١) .

اصدر ناصر الدولة نقودا خاصة بـه منذ سنة ٣٣٠ هـ فهناك بضعة قطع محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة تشير الى ان الحمدانيين بدأوا بسك نقودهم منذ هذه السنة . واقدم قطعة نقدية حمدالية ضربت في نصيبين سنة ٣٣٠هـ (٢) . ولما تولى ناصر الدولة امرة الامراء سنة ٣٣١ ضرب نقودا في «مدينة السلام» تحمل اسمه واسم اخيه سيف الدولة منها قطعتان في دار الكتب المصرية (٣) وفي سنة ٣٣٢ اي حين رجع ناصر الدولة الى الموصل بعد ان اخفق في حكم بغداد ضرب نقوداً منها قطعتان في المكتبة المذكورة تحمل احداهما تاريخ سنة ٣٣٢ والاخرى سنة ٣٤٤ (٤) .

كما ان الظروف السياسية دفعت بالحمدانيين الى ضرب عملات مختلفة مثال ذلك انهم ذكروا اسم الخليفة العباسي على بعض الدنانير اشارة الى اعترافهم بسيادته ، كما ذكروا اسم الخليفة الفاطمي على البعض الاخر حين خضعوا لسلطان الفاطميين . واخيرا فان الامراء عمدوا الى ضرب نقود خاصة للصلات واخرى يصدرونها في المناسبات كما فعل سيف الدولة حين زوج ابنه من أبنة اخيه ناصر الدولة (٥) .

---

(١) ابن خلدون . المقدمة ٢٢٦

(٢) lane Poole , Catalogue , P . 3361

(٣) lbid , P , 336

(٤) lbid . P . 386

(٥) ابن ظافر ١٠ أ

ويذكر كسودر لجتون ان الحمدانيين ضربوا كثيراً من النقود في الجزيرة والرحبة والموصل (١) . لقد ضاعت الأسف كثير من هذه القطع النقدية ، غير ان بعضها مـا زال ـ لحسن الحظ ـ محفوظاً في دور الآثار (٢) .

وثمة اشارات متفرقة في الكتب على ان ناصر الدولة وسيف الدولة ضربا دنانير ذات اوزان مختلفة ، منها دنانير في كل دينار ثلاثون ديناراً ، وعشرة دنانير في كل منها عشرة ضربت سنة ٣٥٤ وقد كتب عليهـا :

الوجه : لا الـه الا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين
علي ابن ابي طالب فاطمة الزهراء
الحسن الحسين جبريل عليم السلام ،

الظهر : امير المؤمنين المطيع لله الاميران
الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة
الامير ابو تغلب وابو المكارم(٣) .

والظاهرة البارزة في نقود الحمدانيين انها كانت كثيرة سريعة التغيير ولعلهم كانوا يهدفون من وراء ذلك الى القضاء على تلاعب الصرافين بعيار النقود كما ان نقودهم تغيرت بتغيير الاحوال السياسية .

٣ـ الصناعة

مما ساعد على ارتقاء الصناعة وازدهارها في العصر الحمداني تشجيع

---

(١) p . 62 - 191

(٢) هناك بعض القطع النقدية الحمدانية محفوظة في المتحف العراقي

(٣) ابن ظافر ورقة ١٠ أ

الأمراء والأغنياء واهتمامهم بكل ما له علاقة بالترف من جهة كالثياب والسجاد والعطور والزجاج والصياغات ، وبما له علاقة بعمارة القصور والمساجد والمشاهد والحصون وصناعة الاسلحة من جهة اخرى .

وقد اختصت كل مدينة بصناعة محلية برع فيها أهلها واشتهروا . فقد اشتهرت الموصل بالموصلين الذي ذاعت شهرته عالياً خلال العصور الوسطى وحظي بالتقدير في اسواق الشرق والغرب(١) .

ومما هو جدير بالذكر ان الفضل في نشر زراعة القطن في الجزيرة يعود الى الحمدانيين مما شجع صناعة الاقمشة القطنية(٢) .

لقد حفلت مدن الجزيرة بالمطاحن والأرحاء الضخمة في تكريت والحديثة وعكبرا والبردان ، فضلا عن الارحاء الشهيرة بالموصل . وكانت طواحين بلد لها فصل تدور فيه ، وهو المدة التي تحمل فيها الحنطة في السفن الى العراق . وكانت مطاحن الموصل تسمى العربات او العروب وهي مصنوعة من الخشب والحديد الذي لا يمازجه شيء من الحجر والجص ، وتقوم في وسط الماء بسلاسل حديد ، كل عربة فيها حجران ، يطحن كل حجر منها خمسين وقراً في كل يوم (٣) . وقد خلف لنا الشاعر السري الرفاء وصفا جميلا « للعربات » يدل على كثرتها في مدينة الموصل(٤) . كذلك ذكر ابن حوقل(٥) ان الموصل وبلد والحديثة

---

(١) ديمومبين ، النظم الاسلامية ٢٥٣

(٢) ادم متز ٢٦٢/٢ الحضارة الاسلامية

(٣) نفس المصدر ، ٢٦٧/٢

(٤) انظر ، ديوان السري الرفاء

(٥) صورة الارض ١٩٨

وتكريت وعكبرا والبردان حوت كثيرا من الدروب التي اقيمت في وسط النهر لتزود مناطق العراق المختلفة بالدقيق .

واشتهرت مدينة حران في الجزيرة بصنع الالات الهندسية ، فصنعت فيها الاسطرلابات وغيرها من الالات الرياضية الدقيقة . ومما هو جدير بالذكر ان هذه الصناعة نشأت متأثرة بالدين ، لان حران كانت مركز الصابئة الذين عبدوا الكواكب فاهتموا برصد حركاتها ومعرفة بروجها . وكذلك اشتهرت تلك المدينة بموازينها الدقيقة حتى غدت مضرب الامثال(١) .

على ان اعظم صناعة قامت في الموصل هي صناعة الموصلين الذي عرف في اوربا بهذا الاسم ونسبوه الى هذه المدينة . وهو نسيج قطني خفيف يدعى الشاش ، وبرع اهل هذه المدينة بصناعة المسوح وهو نسيج مخطط تصنع منه الملابس او الابسطة كما صنع اهل هذه المدينة الخز ايضا ، في حين اشتهرت آمد بالوشي والمناديل والطيلسانات (٢) .

وقد زودنا المقدسي(٣) بمعلومات قيمة عن أبرز المنتجات الصناعية التي اختصت بها مدن الجزيرة ، وهي :

١- الموصل : اشتهرت في صنع النمكسود (وهو اللحم المجفف) والعسل والجبن والمن وهو نوع من الحلواء . وبرع اهلها في صناعات الحديد كالاسطال والسكاكين والنشاب والسلاسل . هذا بالاضافة الى استخراجهم القير من العيون المعدنية لاستعماله في البناء والفحم للوقود .

---

(١) المقدسي ١٤٥
(٢) الدوري . تاريخ العراق الاقتصادي ٩١
(٣) أحسن التقاسيم ١٤٥-١٤٦

٢ـ نصيبين : اشتهرت بصناعة الموازين والمحابر والفواكه المقددة .

٣ـ الرقة : وكانت تنتج الصابون والزيت واقلام الكتابة .

٤ـ حران : اشتهرت بصناعة الموازين الدقيقة والاسطرلابات ، فضلا عن صناعات القطن والسكر والعسل .

٥ـ مطلايا : امتازت بصناعة القنب والنمكسود وانتاج الفحم .

٦ـ آمد : برع اهل هذه المدينة في صنع ثياب الصوف والكتان الرومية .

الفصل الثالث

الحياة الثقافية والاجتماعية

١- العمارة ٢- الأديرة ٣- الثقافة ٤- المجتمع

١- العمارة

كانت أغلب مدن الجزيرة - وهي البلاد التي دخلت في حكم الحمدانيين - مراكز هامة كما أنها وذات تراث حضاري ورثته من المدنيات الأجنبية التي سادت هناك قبل الفتح الإسلامي . ومن ثم فقد حفلت هذه المدن بالعمائر والأبنية والأسواق والفنادق والحمامات ، خاصة وقد كان كثير منها مدناً تجارية تقع على طرق المواصلات التي تربط مدن الجزيرة بعضها بالبعض الآخر من جهة ، او تربط الجزيرة بالخارج من جهة اخرى .

- ازدهرت الموصل بالعمران منذ الفتح الاسلامي ، وقد اسلفنا القول ان المسلمين بمجرد أن دخلوها شيدوا بها مسجدا جامعا على عادتهم في البلدان المفتوحة . ومن سرعان ما غدت هذه المدينة مصرا عظيما في العصر الاموي فقد أقام بها الامراء الامويون وبنوا بها المساجد والقصور ، مثال ذلك القصر الذي شيده هشام بن عبدالملك في موضع قطايع بني وائل(١) وقصر المنقوشة الذي ابتناه الحر بن يوسف واتخذه دار امارة ، وسمي بهذا الاسم لأنه كان منقوشا بالوان النقش والساج والقشاقش(٢) .

---

(١) الازدي . تاريخ الموصل « مخطوط » ورقة ١٧

(٢) نفس المصدر . ورقة ١٨

وقد عني العباسيون بالموصل فاصلح اسمعيل بن علي عاملها في عهد المنصور جامعها وهدم الاسواق التي تحيط به وضمها اليه ونقل الاسواق الى مقبرة المدينة ، ونقــل المقبرة خارج العمران ، وشيد مسجدا يعرف « بابي حاضر » . وفى عهد المهدي وسع المسجد الجامع، فقد كانت هناك اسواق للبزازين والسراجين ملاصقة للجامع فهدمها وضمها للمسجد ، وتم ذلك الاصلاح على يد عامله موسى بن مصعب(١) .

حين اتخذ الحمدانيون الموصل حاضرة لهم بنوا فيها كثيرا من القصور المنيفة المشرفة التي وصفها السرى الــرفاء وهو من شعراء هذا العصر بقوله :

قصور حلقت في الجــو حتى   لقصرت الكواكب عن مداها

مشرفة كأن بنـــات نعش   تناجيها اذا خفقت شفاها(٢)

ومن اجمل قصور الحمدانيين بالموصول القصر الذي بناه ابو تغلب بن ناصر الدولة على ضفة دجلة ، وتحيط بــه الحدائق والبساتين التي تخترقها السواقي والغدران ، وعليها الدواليب التي استعملت للري ، وقد زرعت فى هذه الحدائق اشجار النخيل والكروم ، وتوسطتها برك ملئت بالمياه التي تشف عما تحتها وتسبح فيها اسراب الاوز والبط ،والفوارات التي تبعث المياه عالية من افواهها . ويبدو من شعر السري الرفاء الـذي زودنا بوصف جميل مسهب لهذا القصر(٣) ، انـه كان شامخا مرتفعا

---

(١) نفس المصدر والمكان والصفحات التالية .

(٢) ديوان السرى الرفاء ٢٨٠

(٣) ديوان السرى الرفاء ٣٤-٣٦

في اجواز الفضاء ، واسعا ذا اجنحة متعددة ، حوى من الزخرفة وجمال النقش فنونا والـوانا وفيما يلي بعض الابيات من قصيدة الرفاء السالفة الذكر :

انشأته منزلا في قلب دجلة لا	تحتاج جنته الغدران والقلبا
وبركة ليس يخفي موج لجتها	من القذى ماطفا فيها وما رسبا
يبيت اعلاه بالجوزاء منتطقاً	ويغتدي برداء الغيم محتجبا
حصباؤه لؤلؤ نثر وتربته	مسك ذكي فلو لم تحمه انتهبا
وكل ناحية منه زبرجـدة	اجرى اللجين عليها جدولا سربا

ووصف لنا الرفاء قصرا آخر في الموصل بناه ابو الحسن ياروخ بن عبدالله ويبدو انه قصر ضخم شامخ ذو شرفات تطل على ما حواه ،وهو بدوره مطل على دجلة محاط بالحدائق الغناء ذات البرك والسواقي(١) .

كانت الموصل مدينة كبيرة عامرة ذات اعمال ورساتيق كثيرة وصفها ياقوت فقال(٢) انها كانت حسنة الابنية ، وبيوتها تبنى بالرخام والنورة ولا يكاد اهلها يستعملون الخشب في السقوف ، وقد استغل الناس جمال دجلة فشيدوا على ضفافه قصورا انيقة جميلة(٣) . ولما زارها ابن جبير في القرن السادس اعجب بابراجها العالية وقلاعها الحصينة ومساجدها وحماماتها وخاناتها واسواقها واشاد ببيوتها ذات الزخرفة التي لا مثيل لها ومدارسها التي تلوح على دجلة كانها القصور المشرفة(٤) .

---

(١) ديوان السري الرفاء ٤٩-٥٠

(٢) معجم البلدان ٨/١٩٦

(٣) القزويني . اثار البلاد ٣٠٩

(٤) رحلة ابن جبير ١٨٨-١٨٩

ولما كان الحمدانيون قد اتخذوا الموصل حاضرة لهم ، ومنها حكموا مناطق الجزيرة الاخرى ، فأنهم اهتموا ببناء دار الإمارة ، وهي المقر الرسمي للأمراء . ويعتقد الاستاذ سعيد الديوه جي(١) ان الحمدانيين سكنوا على ضفة دجلة الغربية قرب (قره سراي) اليوم ، خاصة وانهم اهتموا بعمارة هذه الناحية من الموصل فبنوا لهم مسجدا في للدير الأعلى، كما بنوا مشهدا لعمرو بن الحمق الخزاعي هناك . ويبدو ان العقيليين الذين حلوا محلهم في حكم الموصل سكنوا قصورهم - أي قصور الحمدانيين - التي كانت تقع على دجلة . وفي احداث النزاع بين الحمدانيين والعقيليين من جهة والبويهيين من جهة ثانية يشير ابن الاثير (في حوادث ٣٦٣) الى ان بختيار نزل بالدير الأعلى، في حين نزل ابو تغلب بالحصباء تحت الموصل وبينهما عرض البلد (٢) . ويستنتج الاستاذ سعيد الديوجي من ذلك(٣) ان موقع الدير الاعلى كان قرب قلعة الموصل (شماليها) وهي التي تسمى الآن (باش طابية) ، اما الحصباء فلم تزل تعرف بشط الحصباء او شط العرب وهي على ضفة دجلة . ونحن لا ندري متى شيدت هذه القلعة ، لكن هناك ما يشير الى وجودها في منتصف القرن الخامس الهجري(٤) ، ولعلها كانت موجودة ايام الحمدانيين واستخدمت من قبلهم .

وفي عصر كان للدين والتقوى فيه شأن أي شأن ، عمد الأمراء والخاصة الى تشييد المساجد والمشاهد والمراقد الخاصة بالأولياء وذوي

---

(١) سومر المجلد م١٠ ٩٩/١

(٢) الكامل ٤٦٥/٨

(٣) سومرم ١٠-١٠١/١

(٤) نفس المصدر والجزء ١٠٠

الفضل . ونستطيع ان نستنتج بأن الحمدانيين الشيعة عنوا اكبر عناية باحياء ذكر الائمة العلويين وآل البيت عموماً . ولا بد ان المراقد والمشاهد الكثيرة التي حفلت بها الموصل في ذلك العصر يرجع بعضها على الاقل إلى هذه الفترة التي حكم فيها الحمدانيون في الجزيرة . فهناك مرقد نسب للعباس بن علي كتب على جدرانه «هذا قبر العباس بن علي ... عمره الحاج كاظم في سنة خمس واربعمائة »(١) . فاذا صح هذا التاريخ - وهو عرضة للشك - فأنه يرقى الى عصر الحمدانيين . والعباس هذا هو بن مرداس السلمي كما يقول الباحثون(٢) . وهناك ضريح لزيد بن علي وآخر لعون بن الحسن وثالث لابراهيم بن الامام جعفر الصادق (ع) .. ومشاهد اخرى كثيرة كمرقد بنات الحسن وعلي الهادي وغيرهما . وواضح ان هذه ليست اضرحة او مراقد حقيقية دفن فيها هؤلاء الائمة والأولياء ، بل هي مشاهد للتبرك تتصل أشد الاتصال بالتراث الديني الشعبي وجاء ، بناؤها في عديد من المدن الاسلامية نتيجة تعلق العامة بهؤلاء الائمة . وهناك إلى جانب دير الأعلى مشهد عمرو بن الحمق الخزاعي الصحابي الذي بقي على حبه للامام علي بن ابي طالب (ع) ، وحين طلبه معاوية فر إلى الموصل . ويقال ان رأسه حمل الى معاوية ودفنت جثته في هذه المدينة . وقد بنى على قبره سعيد بن حمدان مشهداً في سنة ٣٣٦ ، مما أثار يومئذ فتنة بين الشيعة والسنة هناك(٣) .

بنى الحمدانيون في الموصل مساجد عدة اهمها المسجد الذي شيدته

---

(١) العمري ، منية الادباء ١٠٠

(٢) نفس المصدر والمكان

(٣) نفس المصدر (والهامش) ١٤٦

الاميرة جميلة بنت ناصر الدولة ، وكان على تل توبة شرقي الموصل ، تحيط به دور للمجاورين . وقد اوقفت جميلة على هذا البناء كثيرا من الاوقاف(١) . وفي تل توبة بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات(٢) ثم تحول البناء الى جامع النبي يونس الذي ما زال قائما في الموصل الى الان . كما بنى ناصر الدولة قبة على مشهد علي بن ابي طالب . ولما زار ابن جبير هذه المدينة شاهد بها جامعين احدهما جديد والاخر من عهد بني امية ، والجامع الاموي بالموصل الذي يقع في محلة الكوازين اسس على اثر فتح المسلمين لها ، ثم جدده الامويون والعباسيون فضمت اليه الاسواق المجاورة ، وكانت تعقد فيه حلقات الدرس والتعليم وفيه تخرج كثير من العلماء(٣) .

٢- الأديرة :

واذا أردنا ان نقدم صورة صحيحة صادقة لهذا العصر وجب علينا ان نتحدث عن الأديرة التي كونت في الجزيرة - وبخاصة في الموصل وما حولها - مظهراً بارزاً من مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية ، بالاضافة الى كونها مراكز دينية للمسيحية ونموذجاً للعمائر التي قامت في هذا الاقليم قبل ان يفتحه المسلمون .

اشتهرت الموصل ونواحيها بكثرة الاديرة ، لانها مدينة سكنها النصارى مدة طويلة ، وما زالت حتى اليوم تزخر باثار المسيحية فهناك

---

(١) المقدسي . احسن التقاسيم ١٤٦

(٢) ابن جبير . رحلة ابن جبير ١٨٩

(٣) سعيد ديوه جي . الجامع الاموي في الموصل « سومر مجلد ٢/٦ » ٢١١-٢١٤

اثار لدير الخنافس على هضبة قريبة من قرية شرقي هذه المدينة وكذلك اثار دير برعيتا . ومن اشهر الاديرة « دير الكلب » بالقرب معلثايا بين والموصل وبلد في سفح جبل ينحدر الماء عليه ووصفه الخالدي بان له « خاصية في برء عضة الكلب ، وله عيد في وقت من السنة ، يخرج اليه خلق من النصارى نساء ورجال للاقامة عندهم »(١) . وكان بالقرب من معلثايا ايضا « دير الزعفران » ويقع عند سفح جبل تطل عليه قلعة اردمشت الحمدانية(٢) . غير ان الشابشتي(٣) يقول ان هذا الدير يقع على الجانب الشرقي من نصيبين على قمة جبل يشرف على المدينة وهو كثير العيون والقلايات وحوله الشجر والكروم ويقع الى جانبه ديرا مرواوجي ومريوحنا . وامتاز دير العذارى عند تكريت بموقعه الجميل على دجلة ، وبحسن عذاراه ورهبانه ، وكثرة حاناته ومتنزهاته، وقد وصف الخالدي اعياده وحاناته وقال فيه الصنوبري شعرا(٤) . ومن الاديرة الشهيرة في الادب العربي دير الشياطين غربي دجلة من اعمال بلد ويقع بين جبلين ويمتاز بجمال طبيعته وكثرة اشجاره ورياضه(٥) . وكان يقوم بقرب الموصل « دير باقوقا » وهو ذو رهبان كثيرين تحيط به المزارع والبساتين(٦) وفي الجانب الغربي من الموصل ايضا يقع

---

(١) العمري . مسالك الابصار ٢٥٤/١

(٢) نفس المصدر ٢٥٥/١

(٣) الديارات ١٢١

(٤) الشابشتي . الديارات ٦٩ . العمري . مسالك الابصار ٢٥٩/١

(٥) نفس المصدر ١١٧

(٦) العمري . مسالك الابصار ٢٨٩/١

« دير سعيد » وكان حسن البناء مطلا على دجلة حوله قلال كثيرة حسنة العمارة ظاهرة النضارة في كل قلاية منها جنينات لرهبانه فيهـا طرائف الرياحين وغرائب الشجر . كثير النرجس وهو يقارب تل باذع وتراه في الربيع كالوشـي الملمع والحلي المرصع وهو منسوب الى سعيد بن عبدالملك ابن مروان »(١) . وقد وصف الخالدي هذا الدير بقوله(٢).

سعدت صحبتي بدير سعيد   يوم عيد في حسنه الف عيد
كم فتاة مثل المهاة سلبناها   صليبا من بين نحر وجيد

وكان « الدير الاعلى » الذي ورد ذكره في اخبار الحمدانيين يطل على دجلة في الموصـل حيث تقوم طواحين الماء « العروب » ويشتهر بعذوبة هوائه وبعيونه الكبريتية وهو كبير عامر يزخـر باثار المسيحية كالاناجيل والايقونات وفيه كثير من قلايات الرهبان وله سلم منقور في الجـبل يؤدي الى دجلة . ويروى ان المأمون مر به في عيد الشعانين « فزين الدير باحسن الزينة وخرج رهبانه وقسسه الى المذبح وحولهم فتيانهم بايديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة. وخرجت وصائفه المزنرات عشـرون وصيفة كأنهـن البدور عليهن الديباج وفي اعناقهن صلبان الذهب بأيديهن الخمص والزيتون(٣) » . والى جانب الدير الاعلى يقوم مشهد عمر (ويرد عمرو) بن الحمق الخزاعي من اصحاب علي المذكور اهتم به الحمدانيون واقاموا الى جانبه مسجدا يتصل

---

(١) نفس المصدر ١/٢٨٩-٢٩٠

(٢) نفس المصدر ١/٢٩٠

(٣) الشابشتي . الديارات ١١٢-١١٣

بالقبر (١) . اما دير مارمخايل فيقع على بعد ميل واحد من هذه المدينة مطلا على النهر وتكثر فيه الكروم والاشجار وله عيد يقام قبل الشعانين باسبوع ، فيخرج اليه النصارى نسائهم وصبيانهم ويرتل الرهبان الصلوات وتتجاوب فيه الالحان ووصفه الخالدي بقوله «كان في هذا الدير خمار يقال له الحارث ، ويكنى ابا الاسد معروف بجودة الشراب ، وكان المجان من اهل الموصل يقصدوله ، وكان له ابن حسن الوجه ::: يسقينا ومعنا مغني مليح الغناء غنانا في شعر حسان بن ثابت(٢)» . وهناك «دير متى» بالجانب الشرقي من الموصل على جبل شامخ يعرف بنفس الاسم ، وهو يشرف على نينوى ويمتاز بان بيوته منقورة في الصخر . واشتهر دير يونس بن متى هذا بان ارضه كانت تكسوها الشقائق والنوار وله في ايام الربيع جمال طبيعي خلاب ، وقد قصده الاهالي للاستشفاء والاغتسال بعينه المعدنية(٣) . وعلى مقربة منه «دير الخنافس» وهو دير صغير يطل على ضياع نينوى(٤) . غير ان اشهر اديرة الموصل في اخبار الحمدانيين «دير باعربا» بينها وبين حديثة على ضفة دجلة الغربية ، وقد نزله سيف الدولة مرة وضرب مضربه على الشاطىء ، وتغدى ونام فلما كان وقت العصر دخل الدير ، وصعد الى سطحه فشهد منظرا خلابا ، دفعه الى نصب مائدة الشراب واستدعاء سقارة العواد فغناه . وكان بصحبته من الندمان ابو اسحق اليسري والشيظمي الذي نظم ابياتا غناها سقارة وهي :-

---

(١) المصدر السابق ١١٤

(٢) العمري . مسالك الابصار ١/٢٩٦

(٣) الشابشتي . الديارات ١١٥

(٤) العمري . مسالك الابصار ١/٢٩٩-٣٠٠

شــرفا يا دير هرباء ومجــدا
بهما تعنى مدى الدهر ونعمــر

اذ على سطحك سيف الدولة القـ
ـرم الذي فات الورى عزا ومفخر(١)

وهناك اديرة اخرى كدير الخوات بعكبرا وقد اشتهر بليلة الماشوش وهو عيد يكون فى يوم الاحد الاول من الصــوم فيجتمع فيه المسلمون والنصارى ، فيتعبد هؤلاء ويتنزه اولئك(٢) :

وثمة اديرة اخـرى اشتهرت كدور للضيافة كدير الاسكون ودير باريشا فى الموصل ودير مريحنا ودير الدندورد ، ودير القيارة على شاطىء دجلة الغربي وهو اليوم حمام العليل على مسافة اربع ساعات من الموصل، وكان يسمى دير مارزنيا(٣) ، ويعتبر حتى اليوم من أماكـن الاستشفاء الهامة في العراق ويقصده العامة من جميع الانحاء للاستشفاء فى عيونه المعدنية . وقد ضمت هذه الديارات جميعا كنائس عظيمة واسعة فيها الكتب الدينية النفيسة والمؤلفات القيمة كما كانت انموذجا جميلا لفن العمارة . وقد امتدح كشاجم ما امتاز به الرهبان من خفة الروح وسعة الاطلاع فقال(٤) .

قد عدلوا ثقل ابدان بمعرفة
منهــم لخفــة ابدان وارواح

---

(١) نفس المصدر ٢٠١
(٢) الشابشتي ، الديارات ٦٠
(٣) الشابشتي ، الديارات ٢٦٣
(٤) ديوان كشاجم ٣٦

ورشحوا ضرر الآداب فلسفة
وحكمة بعلوم ذات اوضاح

في طب بقراط لحن الموصلي وفي
نحو المبرد اشعار الطرماح

وكان الامراء يقصدون هذه الاديرة لما تمتاز به من فن العمارة وجمال الابنية والنزه وجودة النبيذ وحسن الطبيعة(١) . كما كان يقصدها ابناء الطبقة المترفة والشعراء والأدباء الذين لقوا فى رحابها كل ترحاب ووجدوا فيما حولها مصدراً للإلهام .

٣ـ الثقافة

تميز القرن الرابع الهجري بنمو الحركة الثقافية وانتشارها ، فأن تفتت وحدة الدولة وقيام الدويلات المستقلة ادىا الى ظهور عدة بيئات ثقافية بسبب تنافس الأمراء في جذب الأدباء والمفكرين اليهم كوسيلة من وسائل الدعاية والمباهاة من جهة وولوعاً بالثقافة ذاتهــا من جانب بعض الأمراء من جهة اخرى . وفي هذا العصر نضج الفكر الاسلامي بما جد فيه من ثقافات نقلت الى العربية . وقد تعددت مراكز الثقافة في الدولة الاسلامية ، ففي أصبهان غدا الصاحب بن عباد وزير بني بويه راعياً الأدب ورجاله ، وغدت بخاري حيث اقام السامانيون بلاطهم

(١) الشابشتي . الديارات ١٣٩

(٢) التنبيه والاشراف ١٥٣

مثابة الأدباء والعلماء ، ولم يكن بلاط خوارزم وبلاط الغزنويين اقل ازدهاراً . ومن الناحية الثانية كان الحمدانيون في الموصل وحلب والاخشيديون ثم الفاطميون في مصر والامويون في الاندلس خير حماة ورعاة للعلم والادب .

لقد كان الحمدانيون فى مقدمة المهتمين بالثقافة في هذا العصر ، ولا غرابة فقد كان بينهم هم انفسهم شعراء وأدباء ينظمون الشعر ويتذوقونه . واذا استثنينا سيف الدولة الذي يقف في المقدمة في هذا الميدان ، نجد أمراء حمدانيين كثرا حفظت لهم كتب التاريخ والادب ذكرا عطرا في روضة الشعر والادب . صحيح ان ناصر الدولة وأولاده واحفاده شغلوا انفسهم بالحروب والمنازعات الداخلية والخارجية بالدرجة الاولى ، فلم يتح لهم الوقت والجهد لاشادة نهضة فكرية ثقافية كما سنرى في حلب على عهد سيف الدولة ، وصحيح ان الامراء الحمدانيين في الموصل والجزيرة كانوا اقرب الى البساطة فلم يقيموا بلاطاً فخماً ولم يحيطوا انفسهم بحاشية ادبية كبيرة ، غير انا - مع ذلك - نجد بينهم شعراء وأدباء . فقد كان ابو زهير مهلهل بن نصر بن حمدان وابو العشائر (الذي قصده المتنبي قبل أن يتصل بسيف الدولة) وابو وائل تغلب بن داود بن حمدان وابو المطاع شعراء .

وكان ابو تغلب بن ناصر الدولة اديباً شاعراً ومحباً للثقافة ، فقد وجدت له ابيات شعرية منقوشة على حائط قصر العباس بن عمرو بين سنجار ونصيبين بخطه(١) . وذكر له الثعالبي(٢) ايضاً مقطوعة منها قوله

---

(١) ابن شاكر ، فوات الوفيات ٢/١٥٣

(٢) يتيمة الدهر ١/٦٣

في الغزل :

لا والـــذي جعـل الموا	لي في الهوى خــدم العبيد
واصار في ايــدي الظبا	ء قيــاد اعناق الأسود
وأقــام الســوية المنيــة	بــين امنيــة المصــدود
ما الـورد أحسن منظـراً	من حسن توريد الخدود

ويروى التنوخي قصة لطيفة حول ابي تغلب ذات طابع أدبي ثقافي ، وهي تلقي - في الوقت نفسه - ضوء على علاقته باختــه جميلـة صاحبة الأمـر والنهي في أموره وشؤونه . يقـول التنوخي(١) : « حدثني ابو محمد يحيي بن محمد بن فهـد قال رأيت ابا الحسن علي بن عمرو الموصلي يكتب الى ابي تغلب بن ناصر الدولة، وكتب في موضع « أمور حميدة » فقلت له : هذا الموضع يصلح ان يكون فيه « أمور جميلة » ، فأما حميدة فهي لفظة مستكرهة . فقـال : صدقت ولكنني كتبت وانا [illegible] اوصل رقعة الى ابي تغلب فيهـا « أمور جميلة » وصلت اليـه وهو عند اخته وهي غالبة عليه محتوية على أمــره لا يقطع شيئاً دونها ولا يفصل رأيا الا على مشورتها . وكانت الرقعة بما احتاج الى مطالعتها بما فيها جميلة لانه اسمها [فأنكرها] انكاراً شديداً احتجت معه الى اعتذار فما كتبت بعدها الى الان جميلة في شيء من مكاتباتي الى احد وصارت لي طبعاً » .

كان ابو المطاع ذو القرنين بن ناصر الدولة شاعراً ظريفاً حسن السبك

(١) نشوار المحاضرة ، مخطوط ، ٦٤ ب - ٦٥ أ

جميل المقاصد - على حد قول ابن خلكان(١) ومن شعره قوله :

إني لأحسد « لا » في اسطر الصحف
اذا رأيت اعتناق اللام للألف
وما اظنهما طال اعتناقهما
الا لما لقيا من شدة الشغف

وقوله :

أفدي الذي زرته بالسيف مشتملا
ولحظ عينيه أمضى من مضاربه
فما خلعت نجادي في العناق له
حتى لبست نجاداً من ذوائبه
فكان أسعدنا في نيل بغيته
من كان في الحب اشتاقا بصاحبه

وقوله :

لما التقينا معاذ الليل يسترنا — من جنحه ظلم في طيها نعم
بتنا أعف مبيت باته بشر — ولا مراقب إلا الطرف والكرم
فلامشي من وشى عندالعدوبنا — ولاسعت بالذي يسعى بناقدم(٢)

---

(١) وفيات الاعيان ١/٢٢٧ . و ٢/ ٤٤-٤٥ « طبعة النهضة المصرية » وابو المطاع هو الذي لجأ الى الفاطميين وتوفي في سنة ٤٢٨ كما أسلفنا . نفس المصدر ٢/٤٤-٤٥ « النهضة »

(٢) اليتيمة ١/٧١-٧٤

واذا رجعنا الى الثعالبي الذي أسهب في تأريخ الحياة الأدبية في عصر الحمداليين نجده يضم الى الشعراء من أمراء بني حمدان كذلك ، حمدان والحسين ابني ناصر الدولة ، وقد أورد لهما مقطوعات جيدة من الشعر تدل على البراعة ، غير ان اغراضها ـ كأغراض شعر ابي المطاع وابي تغلب ـ لا تخرج عن الطابع التقليدي .

وبرز من شعراء هذا العصر ابو الحسن السري بن احمد بن السري الكندي الرفاء الموصلي الشاعر المشهور . وكان في صباه يرفو ويطرز في دكان بالموصل وينظم الشعر حتى برع فيه . « وكان بينه وبين ابي بكر محمد وابي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين الموصليين الشاعرين المشهورين معاداة فادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره » (١) حتى انه عمد الى دس أحسن شعر الخالديين في ديوان كشاجم حين قام بنسخه « ليزيد في حجم ما ينسخه وينفق سوقه ، ويغلي شعره ، ويشنع بذلك عليهما ويغض منهما ويظهر مصداق قوله في سرقتهما »(٢). وقد ترك السري ديوان شعر جيد، وله كتاب «المحب والمحبوب ، والمشموم والمشروب» وكتاب «الديرة»(٣). ومن شعره اللطيف في وصف مهنته قوله :

وكانت الابرة فيما مضى	صائنة وجهي واشعاري
فأصبح الرزق بها ضيقاً	كأنه من ثقبها جاري (٤)

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٢/١٠٤ « طبعة النهضة المصرية »

(٢) نفس المصدر والمكان

(٣) نفس المصدر ١٠٥

(٤) نفس المصدر والمكان . يقول ابن خلكان « ٢/١٠٦ »ان وفاة السري كانت ببغداد في سنة ٣٦٦ على الارجح

ولا بد لنا ان نشير الى شاعر ظريف برز من الحضيض كذلك وارتقى الى مصاف الشعراء المشهورين وهو ابو بكر بن احمد بن حمدان الخباز البلدي (نسبة الى بلد قرب الموصل) . وقد حفظ الخباز البلدي القرآن الكريم وضمن اشعاره كثيراً من الآيات ، وبخاصة في اظهار تشيعه الذي يدلل عليه شعره . وكان هذا الشاعر ملازماً للأديرة القريبة من الموصل وبخاصة دير الشياطين ببلد غربي دجلة(١) .

وفي الميدان الثقافي اللغوي برز ابو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي، ويصفه ابن خلكان(٢) بأنه « كان اماماً في علم العربية ، قرأ الأدب على الشيخ ابي علي الفارسي ... وقعد للاقراء بالموصل » . وابن جني كان مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي ، لكن اصله لم يحل دون ظهوره وبروزه الى القمة أسوة بكثير من غيره من العبيد الذين اتيحت لهم فرص التعلم . وقد شرح ابن جني ديوان المتنبي وخلف عدة مصنفات في النحو منها كتاب « الخصائص » و « سر الصناعة » و « المصنف » و « التلقين في النحو » و « التعاقب » و « الكافي في شرح القوافي » و « المذكر والمؤنث » و « المقصور والممدود » و « والتمام في شرح شعر الهذليين » وغيرها كثير عددها ابن خلكان(٣) . لقد ولد ابن جني بالموصل قبل سنة ٣٠٠ أي في عصر الحمدانيين وتوفي ببغداد في سنة ٣٩٢(٤) . وذكر الثعالبي (٥) عبيد الله بن أحمد البلدي باعتباره احد النحاة في الموصل .

---

(١) الشابشتي الديارات ١١٧

(٢) وفيات الاعيان ٣٩٤/٠ و ٤١٠/٢ « مطبعة النهضة المصرية »

(٣) نفس المصدر ٣٩٥/١ و ٤١١/٢-٤١٢ « النهضة »

(٤) نفس المصدر والمكان

(٥) يتيمة الدهر ٢١٤/٢

وكان ابو الحسن علي بن محمد الشمشاطي الارمني الأصل معلماً لأبي تغلب بن ناصر الدولة واخيه ثم اصبح نديمهما . وبالاضافة الى مصنفاته الأدبية مثل « النزه والابتهاج » و « الديارات » و « اخبار ابي تمام »(١) فأنه كان شاعرا مجيداً وواسع الرواية ترك لنا بضع مقطوعات عذبة في وصف البنفسج والجلنار والتغني بالطبيعة (٢) وكان التشيع يغلب على الشمشاطي(٣) شأن كثيرين ممن عاشوا في بلاط الحمدانيين .

وانه وان كانت الموصل اقل ازدهاراً من حلب في ميدان الثقافة الا انها انجبت في عصر الحمدانيين أدباء وعلماء مشهورين . فنجد السري الرفاء الذي تغنى بجمال هذه المدينة وتركلنا صوراً اجتماعية رائعة وصف فيها الخلاقين والأطباء والسفن وصيادي السمك والحمامات فضلا عن وصفه مشاهد الطبيعة وازهارها واشجارها وغدرانها والسحب والثلج والمطر ، كما افتن في وصف مجالس الشرب واللهو والخمر بالاضافة الى شعره في المديح والتهنئة والهجاء والغــــزل والاخوانيات والرثاء (٤) . وكذلك برز الخالديان الاخوان الموصليان ابو بكر وابو عثمان محمد وسعيد ابنا هاشم من قرية الخالدية بالموصل(٥) وكانا شاعرين اديبين حافظين غير انهما اتهما بالسرقة الشعرية(٦) . وقد جمع ابو عثمان شعره وشعر اخيه ، كما تركا تصانيف منها « كتاب حماسة شعر المحدثين » و « اخبار ابي تمام ومحاسن

---

(١) ياقوت ، معجم الأدباء ١٤/٢٤٠-٢٤٢

(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ١/٨٩

(٣) معجم الأدباء ١٤/٢٤٠/٢٤٢

(٤) ديوان السري الرفاء ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٩٤

(٥) ابن النديم ، الفهرست ١٦٩

(٦) نفس المصدر والمكان

شعره » و « اخبار الموصل » وغيرها(١) . وفي الموصل نجد بالأضافة الى الذين اسلفنا الاشارة اليهم الببغاء والتلعفري . ويجدر بالذكر ان الموصل كانت عاصمة الحمدانيين الأولى وفي ربوعها تفتحت ازاهير الثقافة . ولعل من خير الامثلة على اهتمام الحمدانيين في الموصل بالانتاج الفكري ان ابا تغلب اقتنى نسخة من كتاب الأغاني لابي الفرج الاصفهاني بعشرة آلاف درهم وعكف على دراسته ، فاعجب بما حــواه من طرائف الأدب حتى أمر ان تنسخ له نسخة اخرى وتجلد ويكتب عليها اسمه(٢). وعبر عن نفاسة هذا الكتاب بقوله : « لقد ظلم وراقه المسكين وانه ليساوي عندي عشرة آلاف دينار ، ولو فقد لما قدرت عليه الملوك الا بالرغائب. وهو قول ينطوي على تقدير فائق لقيمة هذا المؤلف الذي ما زال يعتبر كنزاً لا يقدر بثمن فى ميدان التراث العربي .

ويبدو لي ان عصر ابي تغلب عدة الدولة شهد نوعاً من الأستقرار والهدوء النسبيين اذا قيس بعصر ابيه ناصر الدولة الحافل بالصراع الذي لا هوادة فيه . ويبدو كذلك ان الأدباء والشعراء اخذوا يتطلعون الى بلاطه ـ وبخاصة بعد وفاة عمه سيف الدولة ـ بحيث كتب الشاعر عبدالواحد الببغاء اليه رسالة يذكر فيها رغبته في ان يعيش فى ظله وينقطع اليه(٣) . ولعل من الطريف ان نقتبس هنا بعض فقرات هذه الرسالة التي يستطيع القارئ ان يلمس منها اهتمام ابي تغلب بالأدب من جهة ، ومحتوى الأدب النثري الذي ساد يومذاك من جهة اخرى . يقول الببغاء مخاطباً عدة الدولة ابا تغلب:

---

(١) نفس المصدر والمكان

(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ١٢/١٢٥/١٢٦

(٣) يتيمة الدهر ٢٤٩/١ ، مطبعة حجازي بالقاهرة ،

« .. ومن أبرز لسيدنا صفحة رجائه ووفق للانقطاع الى سعة نعمائه ، فلقد استظهر لما بقي من عمره ، وحكم لنفسه بالفوز على دهره .

فما يقدح الفقر في حالـه	ولا يطمح الدهر في قصده
وكيف وقد صار ضيف الغما	م وهو قريب على بعده ؟
ومـن علقـــت بأبي تغلب	يداه احتذى البدر من سعده
همام قضى الله من عرشه	لـــه بالإمـــارة فى مهـده
فطـــود السيادة في دستـه	وشمس الرياسـة في بـرده

وقد استجاب عدة الدولة ابو تغلب لهذا الرجاء ، فأرسل الى الشاعر المستجير بهجواباً رقيقاً يرحب به في الموصل دون ان يغفل دفع تكاليف السفر ومـا يحتاج اليه الشاعر من نفقات اخرى « تزيح علته » (١). وقد لقي ابو تغلب بذلك اجزل الشكر واوفر الثناء واسخى المديح من الببغاء حين استلم هذا ما اعانه على السفر الى الموصل . فاستمع الى مـا قاله في ابي تغلب :

تحقق الدهر ان الملك منذ نشا
له ابو تغلب اسم غير مشترك
واستخلف الفلك الدوار همته
فلو ونى اغنت الدنيا عن الفلك

« موفر الحسـنات ، مـأمون الهفوات ، متناصـر الصفـات ، ربعي النفاسـة ، حمداني السياسة ، ناصري الرياسة عطـاردي الـذكاء ، موفق الآراء ، شمسي التأثير ، فلكي التقدير ، قمري التصوير ، للصدق كلامه ،

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ١/٢٥٠

وللعدل احكامه ، وللوفاء ذمامه ، وللحسام غزوه ، وللقدر مضاؤه وللسحاب عطاؤه :

اذا دعته ملوك الأرض سيدها
طرآً دعته المعالي سيد العرب

وقد احتضن ابو تغلب حقاً هذا الشاعر الناثر الذي ظل يتنقل بين الموصل يمدح ابا تغلب وينال عطاءه وبين بغداد دار السلام حيث الطموح والشهرة . وقد نال الببغاء فعلا ما يرتجي في الموصل وبغداد معاً واستطاع ان يتعرف في العاصمة على الأوساط الأدبية العالية بحيث زار ابا اسحاق الصابي كاتب الرسائل الفذ في سجنه(١) وعقد معه صداقة حميمة ظلت قائمة عن طريق المراسلات الأدبية التي كانت سمة من سمات الحياة الثقافية في ذلك العصر .

كان ابو اسحاق الصابي يومذاك شيخ البلغاء ، بحيث ان عز الدولة بختيار البويهي حين زوج ابنته لعدة الدولة ابي تغلب كلفه بتدبيج رسالة على لسانه يزف بها عروسه الغالية الى عريسها . ويقول الثعالبي(٢) ، ان هذه الرسالة نالت اعجاب الناس يومذاك حتى حفظوها عن ظهر قلب ووصفوها بالبراعة والبلاغة . والذي يهمنا هنا ان الببغاء يتصدى للرد على هذه الرسالة من بلاط ابي تغلب محاولا ان يرقى الى اسلوب الصابي ويقف الى صفه . ان المهم هنا هو اهتمام الأمراء يومذاك بالمراسلات ذات الصفة الأدبية العالية . وفي هذا الصدد يقول الثعالبي(٣) انه لما قرئ

---

(١) يتيمة الدهر ٢٥١/١
(٢) نفس المصدر ٢٥٦/١
(٣) اليتيمة ٢٥٦/١-٢٥٧

انشاء الصابي بحضرة ابي تغلب اعتمد في الجواب عنه على ابي الفرج الببغاء ... » - ونحن لا نريد ان نورد هذه النصوص الفصيحة البليغة التي يستطيع القارئ ان يرجع اليها بسهولة في اليتيمة الثعالبي ، لكن الذي يهمنا هنا ان الفكرة وراء هذه النصوص العالية الاسلوب لا قيمة لهما ، فهي تدور حول مديح يكال للعروس الاميرة واعريسها الامير ولأبيها وعمها وافراد اسرتها للبويهيين الذين كانوا يقبضون على أزمة الحكم يومذاك. ويكفيني ان اقتبس فقرة واحدة من رسالة الصابي والاخرى من جواب الببغاء . يقول الصابي (على لسان بختيار) : «قد توجه ابو النجم الحرمي... نحوك ياسيدي ومولاي - ادام الله عزك ! - بالوديعة . وانما نقلت من وطن الى سكن ومن مغرس الى معرس ، ومن مأوى بر وانعطاف الى مثوى كرامة والطاف ... وهي بضعة مني انفصلت اليك . وثمرة من جني قلبي حصلت لديك ... »ويقول الببغاء « واما ابو النجم بدر الحرمي - ايده الله ! - ... فقد أدى الأمانة الى متحملها ، وسلم الذخيرة الجليلة الى متقبلها ، فحلت من محل العز في وطنها ... وان سبباً قرن باحماد امير المؤمنين - اطال الله بقاءه - ذكري .ووصل بحبل السيد العم ركن الدولة - ادام الله تأييده حبلي . ومنح عز الدولة- ادام الله تأييده - مكنون ودي، واختص ولد ابيه السعيد رضي الله عنه وايده بوثيق عهدي ... » وهكذا نستطيع ان نستنتج بأن الأدب كان يعيش على موائد الأمراء والأغنياء ويجهد في خدمتهم ، اللهم إلا اولئك الذين لم يستطيعوا ان يصلوا الى أوساط البلاط ، أو الذين نشأوا نشأة فقيرة امثال السري الرفاء . ومع ذلك فنحن نجد شكوى الأدباء من جور الدهر ، وهي نغمة مألوفة لدى أدباء ذلك العصر حتى يتاح لهم أن يصلوا الى أمانيهم ويحققوا غاياتهم

في عيشة اكثر رخاء(١) .

٤ـ المجتمع

كان امراء بني حمدان اغنى الاغنياء فى بلادهم ، لانهم اعتبروا انفسهم اصحاب الارض بما تضمه من زرع وضرع ومواطنين . وقد اسلفنا القول عن غناهم وامتلاكهم أجود الاراضي واسلوبهم في جمع الضرائب . ونريد هنا ان نضرب بعض الامثلة على ثرائهم العريض .

١ـ بنى ابو اسحق ابراهم بن حمدان قصرا انفق عليه خمسين الف دينار ولم ينزله(٢) .

٢ـ حوت قلعة ماردين التي امتلكها حمدان بن ناصر الدولة اموالا طائلة ومن الفرش والجوهر والثياب ما حمل فى نيف وسبعين بغلا . وكان فى قلعة اردمشت ـ من قلاع ابي تغلب ـ اكثر من عشرين مليون درهم(٣) .

حين حجت جميلة سنة ٣٦٦ نثرت على الكعبة عشرة الاف دينار وسقت جميع الحجيج السويق بالسكر والثلج واعتقت ثلثمائة عبد ومائتي جارية وفرقت المال على المجاورين ، حتى اغنتهم ، وخلعت على الناس

---

(١) يقول احد الشعراء يومذاك :

وتغنم النفلات من	دهر يجور على الكرام
والدهر قد حمل السلا	ح على الكرام من اللئام

يتيمة الدهر ٢٨١

(٢) العاملي . اعيان الشيعة ١٨٣/٥

(٣) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١٤ أ

خمسين الف ثوب(١) .

٤ـ حين ولى المكتفي ابا جعفر محمد بن الغمر بن حمدون الصعيد الأعلى انصرف اليها ومعه الف بغل وجمل تحمل اثقاله(٢) مما يدل بوضوح على غناه الواسع .

٥ـ دفع ناصر الدولة مبلغ مليون دينار الى بجكم في سنة ٣٢٨ بمثابة رشوة لضمان بقائه في الموصل وديار ربية(٣) .

٦ـ كان ناصر الدولة يرسل الى أخيه سيف الدولة مبلغ نصف مليون دينار في كل شهرين لتوزيعها على الجند المرتزقة الاتراك بغية احتلال البصرة وتثبيت نفوذه في واسط ومن ثم في بغداد بعد طرد البريديين وذلك في سنة ٣٣١(٤). ويقول مسكويه(٥) ان ناصر الدولة انفذ كاتباً له من الموصل الى اخيه سيف الدولة بواسط (في سنة ٣٣١) ومعه مليونا درهم وخمسون الف دينار .

كانت حياة الأمراء والاغنياء والخاصة رافهة ناعمة ، فإذا علمنا ان مبلغ سبعمائة دينار كان يعد في القرن الرابع الهجري ثروة غير ضئيلة(٦)، أدركنا مقدار النعيم الذي تقلب فيه الأمراء والخاصة يومذاك . ونحن

---

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٢/٥٠٦ ، الثعالبي ثمار القلوب ٢٠٥

(٢) ابن خالويه ، شرح ديوان ابي فراس ٢/١٣٠

(٣) الصولي ، الاوراق ١٣٢

(٤) نفس المصدر ٢٢٨

(٥) تجارب الامم ٢/٣٩

(٦) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ١/١٥١

نرى ان قصور الامراء والكبراء كانت فسيحة فخمة تحتوي على كثير من القاعات والغرف ، تحيط بها حدائق غناء حافلة بالورد والنرجس والياسمين والسوسن والبنفسج والاقحوان وغيرها من الأزهار التي اكثر من وصفها الشعراء . وكان الاغنياء يصنعون بيوتاً من الخيش المبلل بالماء أو المغطس بالثلج المذاب ، حيث تعقد مجالس الشراب والطرب على نحو ما وصفه السري الرفاء(١) . وكان الأمراء والوجهاء يقطعون اوقات فراغهم بمختلف وسائل التسلية التي كثرت وتعددت في ذلك العصر كالصيد وحفلات الشرب والالمام بالأديرة والمسامرة وتطارح الشعر وسماع الغناء ولعب الشطرنج والنرد وغير ذلك . وكان ناصر الدولة يعرف الكرة والصولجان(٢) وهي لعبة الخاصة يومذاك . وكان ابنه عدة الدولة ابو تغلب مولعاً بالنرد ، فكان يجمع حوله في الليل طائفة من الندمان والأدباء والحاشية ليتسلى بهذه اللعبة(٣) .

وقد اطنب شعراء الحمدانيين في وصف الخمرة ومجالسها وكؤوسها وحاناتها والندمان والغلمان ، مما يدل على انتشار عادة الشرب في هذه الأوساط . وكان ثمة حانات يديرها اهل الذمة يغشاها الماجنون والظرفاء وبعض الشعراء ليلا حيث يخلعون العذار . وقد ردد السري الرفاء في شعره ذكر « حانة اترجة الخمارة » بالموصل ـ وتديرها امرأة كما هو واضح ـ فقال يصفها وصفاً ماجناً(٤) .

---

(١) ديوان السري الرفاء ٢٢٠

(٢) التنوخي ، نشوار المحاضر[illegible]

(٣) كشاجم . أدب الندماء ٩

(٤) الديوان ٧٥

حضرت آیت الله العظمی مرعشی نجفی
١٣٥٣

الحث في حالة الرجلة
وحبذا حانتها من مناخ

ثم اطرحنا الدين في بيتها
حتى انسلخنا منه أي انسلاخ

حتى اذا الشمس بها أذنت
خيامها الصفر بحل الأواخ

ولم تكن مرابع الحمدانيين في الموصل وما حولها تخلو من حفلات الغناء والموسيقى شأنهم في ذلك شأن الأمراء والخاصة . فقد احيا « سقارة العواد » مجلس غناء لامراء بني حمدان في دير باعربا قرب الموصل(١) :

غير ان امراء بني حمدان وجهوا اهتماماً خاصاً - شأنهم شأن غيرهم من الحكام المسلمين - للشؤون الدينية ولأعمال البر والاحسان . فقد اهتموا ببناء المساجد والمشاهد واضرحة الأولياء وصرفوا عليها مبالغ طائلة . فقد بنت جميلة بنت ناصر الدولة - كما أشرنا - على تل توبة بنينوى مسجداً ودوراً للمجاورين « اوقفت عليها اوقافاً جليلة »(٢) . كما شيد سعيد بن حمدان فى سنة ٣٣٦ مشهداً على ضريح الصحابي عمرو بن الحمق الخزاعي الذي اشتهر بحبه لآل علي وقتل ايام معاوية فدفنت جثته فى الموصل الى جانب الدير الأعلى(٣) .

---

(١) العمري . مسالك الابصار ١/٣٠١
(٢) المقدسي . احسن التقاسيم ١٣٩
(٣) اسد الغابة في معرفة الصحابة ٤/١٠١

وقد أطنب المؤرخون في وصف حج جميلة بنت ناصر الدولة حتى ضرب به المثل . ويقول الثعالبي في هذا الصدد(١) : « يضربون المثل في زماننا هذا (القرن الخامس) بعام جميلة وهي الموصلية بنت ناصر الدولة... اخت ابي تغلب ، فأنها حجت في سنة ست وستين وثلثمائة ، وأبانت من المروءة ، وفرقت من الأموال واظهرت من المحاسن ونثرت من المكارم ، ما لا يوصف بعضه عن زبيدة وعن غيرها ممن حجت من بنات الخلفاء والملوك .واخبرني الثقات(كذا)انهاسقت جميع أهل الموسم السويق بالسكر الطبرزد والثلج . وكانت استصحبت البقول المزروعة في مراكن الخزف على الجمال وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين من رجالة الحج ، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ، ولم تستصبح فيهـا الا بشموع العنبر ، وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتي جارية ، واغنت الفقراء والمجاورين بالصلات الجزيلة ، فصارت حجتها تاريخاً مذكوراً وصارت مثلا مشهوراً . ومن قصتها انها لما رجعت الى بلدها وضرب الدهر ضرباته وكان ما كان من استيلاء عضد الدولة على أموالها وحصونها وممالك أهلها ، افضت بها الحال الى كل قلة وذلة ، وتكشفت عن فقر مدقع . وكان عضد الدولة خطبها لنفسه ، فامتنعت وترفعت عنه واحتقدها عليها . فحين وقعت في يده تشفى منها ، وما زال يعنف بها في المطالبة بالأموال حتى عراها وهتكها ثم الزمها أحد امرين : إما ان تؤدي بقية ما وقعت عليه من المال ، واما أن تختلف الى دور العمل فتكتسب فيها ما تؤديه في بقية مصادرها . فانتهزت يوماً فرصة من غفلة

---

(١) ثمار القلوب « مصر » ٢٠٥

الموكلين بها ، وغرقت نفسها في دجلة، رضي الله عنها وأرضاها وجعل الجنة مأواها » .

وليست لدينا معلومات ذات غناء عن حياة العامة ، لكننا نستطيع ان نستنتج من الاشارات العابرة ، واقوال الشعراء والكتاب ، انهم كانوا يعيشون في ضنك من العيش . فقد كانت هناك حياة اخرى عابسة باكية هي حياة الطبقات العامة التي لم تنل للاسف كثيرا من اهتمام الشعراء الذين عاشوا على موائد الامراء . وقد صور لنا السري الرفاء وهو عامل بسيط قضى صباه في اسواق الموصل يرفو ويطرز ، حياة السوق والمهن البسيطة ، التى نقف منها على لمحات من حياة الشعب الحمداني . ويبدو ان السري خالط صيادى السمك الفقراء فوصف سفنهم وشباكهم ، كما وصف الحلاقين واشاد ببراعة « المزين عبدالكريم »(١) والاطباء المتواضعين الذين يتجولون في السوق بحثا عن المرضى(٢) وهو - كشاعر فقير في بدء حياته - عبر عن آلام العامة والديون المتراكمة عليهم ، وذكر لنا مثلا طريفا عن الرشوة المتفشية بين الموظفين، ولم ينس ان يصور مسرات العامة والطبقة الوسطى فى الموصل، فترك لنا صورا حية عن ليالي الانس والحانات والصيد والحمامات التي كانت تتخذ مثابة للهو والشرب والقصف(٣) .

يبدو ان العامة كانوا يعيشون عيشة ضنكة بالنسبة لانخفاض

---

(١) ديوان السري الرفاء ١٣٤

(٢) نفس المصدر ١٧٤

(٣) انظر ديوان السري الرفاء « مواضع مختلفة »

الأجور ، وقد وصف لنا السرى الرفاء حالة ابناء مهنته وهم الرفاؤون في الموصل ، فقال(١) ان الرزق ضيق كانه يجري من ثقب الابرة . غير ان هذه الظروف العسيرة لم تحل دون بروز ذوي المواهب والكفاءة حتى من بين العبيد . فقد كان رشأ مثلا عبداً مملوكاً تعلم الكتابة وأولع بالشعر حتى كان « يضرب به المثل في الكياسة والشهامة والنفاذ في حسن الخدمة وجمع محاسن المماليك ومناقب العبيد وهو غلام ابي عثمان الخالدي ...»(٢)

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٢٥٢/١ ، اليتيمة ١١٧/٢

(٢) الثعالبي ، ثمار القلوب ٢٢٩

خاتمة الجزء الاول

وتصدير الجزء الثاني

أود ان اعترف للقـــاريء الكريم بأن هذا الكتاب كان يجب ان يصدر فى مجلــد واحد يشمل تاريخ الحمدانيين فى الموصل وحلب . غير ان اصداره فى مجلدين مستقلين لا يعني ان هنـاك انفصاماً وانفصالا بين تاريخ الحمدانيين فى الجزيرة والشام ، بل بالعكس ، فقد وجـد القاريء فى هذا المجلد ، وسيجد فى المجلد الثاني ـ الذي أرجو أن يصدر فى أقرب وقت مستطاع ـ ان الموضوع وحــدة كاملة متكاملة ، وان تجزئته على هذا النحو كانت لمجرد ضرورات مادية فنية .

ان مسودات الجزء الثاني جاهزة تنتظر ان تنتقل الى المطبعة ، وانا بدوري أعد القاريء الكريم بأنني سأبذل قصارى جهدي فى اخراجه فى وقت قريب عاجل ان شاء الله .

وأود كذلك أن أبدي بعض الملاحظـات التي قد تكون ذات أهمية بالنسبة للقاريء وهي :

١ ـ انني اضطررت الى الرجوع الى طبعات مختلفة لبعض المصادر لبعد الشقة الزمنية بين وضع البحث بصورته الأوليـة وبين تاريخ تقديمه الى المطبعة .

٢ ـ اضطررت الى تجزئة قائمة المصادر ، فقصرت مـا اثبته فى هذا المجلد على ما كان ذا اهمية مباشرة بالنسبة لتاريخ الحمداليين في الموصل

والجزيرة . وأرجو ان تكون قائمة المصادر الخاصة بالجزء الثاني (وهو تاريخ الحمداليين في حلب) مكملة لهذه القائمة .

٣ـ سيكون الجزء الثاني من هذا الكتاب مشتملا على ثلاثة ابواب هي التاريخ السياسي للحمدانيين في حلب ،والعلاقات مع الروم ، والحضارة والثقافة .

٤ـ على الرغم من المجهود الذي بذلته في تصحيح مسودات هذا المجلد فقد وقعت للأسف بعض الأخطاء التي افردت لها جدولا خاصاً .

هذا وأرجو ـ في الختام ـ ان اكون قد وفقت الى إيفاء هذا الموضوع بعض حقه ـ على الاقل ـ وان يكون ذا فائدة في احياء جانب هام من تاريخنا والله ولي التوفيق .

مصادر البحث

(الجزء الأول)

١ ـ المخطوطات :

الأزدي (٣٣٤ ـ ٩٤٥ م) (١) ابو زكـرياء بن محمد ابن اياس بن القاسم الأزدي(٢)

« تاريخ الموصل » الجزء الثاني مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٥ .

التنوخي (٣٨٤ـ٩٩٤م) ابو علي المحسن بن علي بن محمد بن ابي الفهم

« كتاب جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة » مكتبة الدراسات العليا (كلية الآداب ـ بغداد) تحت رقم ١٥٦٣ .

الدوادار بيبرس المنصوري

« كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » مخطوط مصـور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٧ .

الذهبي (٧٤٨ هـ ـ ١٣٤٧ م) شمس الدين محمد بن احمد

« تاريخ الاسلام » مخطوط مصور عن نسـخة المكتبة الاحمدية بحلب ومحفوظ بمعهد احياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم ٦٥/٥٨٠ .

ابن ظافر (٦٢٣ هـ ـ ١٢٢٥ م) جمـال الدين ابو الحسـن علي بن

---

(١) السنة المثبتة امام اسم كل مؤلف هي سنة وفاته .

(٢) نشر الكتاب في القاهرة عام ١٩٦٧ بتحقيق د . علي حبيبة

كمال الدين ابو منصور ظافر بن حسين الأزدي الانصارى الخزرجي المصري .

« كتاب اخبار الزمان في تاريخ بني العباس او كتاب الدول المنقطعة » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ .

المقريزي (٨٤٥ - ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي

كتاب النقود الاسلامية » مخطوط مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٢٤٧ .

« كتاب العيون والحدائق »لمؤلف مجهول مخطوط في برلين تحت رقم ٩٤٩١ . (توجد نسخة مصورة منه في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بغداد تحت رقم ١٥١٣) .

المصادر المنشورة

باللغـــــة العربية

ابن الاثير (٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) ابو الحسن علي بن محمد بن ابي الكرم الملقب عز الدين .

« الكامل في التاريخ » (المطبعة الازهرية ١٣٠١ هـ وطبعة ليدن ١٨٩٧ م) (وطبعة دار الطباعة المنيرية سنة ١٣٥٣) وطبعة دار صادر ببيروت سنة ١٩٦٥) .

الاصطخري (القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي) ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي

« مسالك الممالك » (ليدن ١٩٢٧ م)

الاصفهاني (٣٥٦ هـ ٩٦٧ م) ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان .

« كتاب الاغاني » (دار الكتب المصرية ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م) .

البكري ، ابو عبيدالله عبدالله .

« معجم ما استعجم » تحقيق مصطفى السقا المغرب ١٩٤٥

البلاذري (٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م) ابو العباس احمد بن يحيى بن جابر
« فتوح البلدان » (ليدن ١٨٦٦ م) .

« انساب الاشراف » (بيت المقدس ١٩٢٦) تحقيق جويتن .

ابن بطوطة (٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م) شرف الدين ابو عبدالله محمد بن
عبدالله بن محمد الطنجي .

« رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب
الاسفار » (مطبعة التقدم مصر ١٣٢٢ هـ) .

ترتون . أ . س « اهل الذمة في الاسلام » ترجمة حسن حبشي (مطبعة
الاعتماد مصر ١٩٤٩)

التنوخي (٣٨٤هـ-٩٩٤ م) ابو علي الحسن بن علي بن محمد بن ابي الفهم

« كتاب جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة »
مطبعة امين هندية - مصر ١٩٢١ م) .

الثعالبي (٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م) ابو منصور عبدالملك النيسابوري

« يتيمة الدهر » (مطبعة الصاوي - مصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م)

« ثمار القلوب في المضاف والمنسوب »(مصر ١٣٨٤ - ١٩٦٥ م)
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم

ابن الجوزي (٤٩٧ هـ) ابو الفرج عبدالرحمن بن ابي الحسن علي بن
محمد بن علي القرشي التميمي البكري البغدادي .

« المنتظم في اخبار الامم » (حيدر آباد ١٣٥٧) .

ابن جبير (٦١٤هـ) ابو الحسين محمد بن احمد الكناني الاندلسي

« رحلة ابن جبير » (المكتبة العربية - بغداد ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م)

ابن حزم ، ابو محمد علي بن أحمد الاندلسي

« جمرة انساب العرب » (مصر ١٣٨٢ = ١٩٦٢)

حسن ابراهيم حسن (دكتور)

« الفاطميون في مصر واعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الاميرية مصر ١٩٣٢)

الحموي (٦٢٦هـ = ١٢٢٩م) شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت الحموي الرومي

« معجم البلدان » ١٠ اجزاء (القاهرة ١٣٢٥–١٩٠٧ م) (طبعة وستنفلد . ليبزج ١٨٦٦)

« معجم الادباء » عشرون جزء (دار المأمون . مصر)

ابن حوقل(القرن الرابع) ابو القاسم محمد بن علي البغدادي الموصلي النصيبي

« كتاب صورة الارض » (ليدن ١٩٣٨م) و (طبعة بيروت . مكتبة دار الحياة)

ابن خرداذبه(٣٠٠هـ) ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله بن احمد الخراساني

« المسالك والممالك » (ليدن ١٨٨٩م) و (ليدن ١٩٢٧)

الخضري . الشيخ محمد

« تاريخ الامم الاسلامية (المطبعة الجمالية القاهرة ١٩١٦م)

ابن خلكان (٦٨١هـ = ١٢٨١م) شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم ابن ابي بكر الشافعي البرمكي .

« وفيات الاعيان » جزآن (بولاق – مصر ١٢٩٩هـ) (النهضة المصرية القاهرة ١٣٦٧ = ١٩٤٨)

ابن خلدون (٨٠٨هـ = ١٤٠٥م) عبدالرحمن بن محمد . « مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٨٨٦م)
« كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » (مصر ١٢٨٤هـ) و(بيروت - دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦)

الخوارزمي (٣٨٣ = ٩٩٣)
ابو عبدالله محمد بن احمد بن يوسف « مفاتيح العلوم » القاهرة ١٣٤٢هـ وليدن ١٨٩٥

ديموميين . موريس جودفروا
« النظم الاسلامية » ترجمة فيصل السامر بالاشتراك مع الدكتور صالح الشماع (مطبعة الزهراء بغداد ١٩٥٢م)

الذهبي (٧٤٨هـ = ١٣٤٧م) الحافظ شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان
« دول الاسلام » (مطبعة دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد ١٣٢٧هـ)

ابن رستة (للقرن الثالث هـ) ابو علي احمد بن عمر
« كتاب الاعلاق النفيسة » (ليدن ١٨٩٢م)

السري الرفاء (٣٦٢هـ)
« ديوان السري الرفاء » (مصر ١٣٥٥) سعيد الديوه‌جي
« جامع النبي يونس » مجلة سومر (مديرية الآثار العامة) مجلد ١٠ الجزء ٢ « قلعة الموصل في مختلف العصور » (مجلة سومر مجلد ١٠ الجزء الاول ١٩٥٤)

«رسائل الصابي»-المختار من رسائله -(المطبعة العثمانية- لبنان ١٨٩٨م)
ابن سعيد : نور الدين ابو الحسن علي بن موسى بن محمد بن سعيد المغربي الاندلسي.
« المغرب في حلى المغرب » (ليدن ١٨٩٨)
سليمان صائغ الموصلي.
« تاريخ الموصل » (المطبعة السلفية - مصر ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣)
السمعاني (٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م) ابو سعيد عبدالكريم بن ابي بكر محمد بن ابي المظفر المنصور بن محمد بن عبدالجبار التميمي .
« الانساب للعرب » (ليدن ١٩١٢ م) .
السيوطي (٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) جلال الدين عبدالرحمن الشافعي
« تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين » (المطبعة اليمنية . مصر ١٣٠٥)
الشابشتي (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) ابو الحسن علي بن محمد
« الديارات » لنشره كوركيس عواد (بغداد ١٩٥١ م)
ابن شاكر (٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م) محمد بن شاكر بن احمد الكتبي
« فوات الوفيات » (بولاق ١٢٨٣ م)
ابو شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين الروذراوري
«ذيل كتاب تجارب الامم» (باعتناء امدروز مصر ١٣٣٤=١٩١٦ م).
الشهرستاني (٥٤٨ = ١١٥٣ م) ابو الفتح محمد بن عبدالكريم .
« الملل والنحل » (القاهرة ١٣١٧ هـ)
الصابي (٤٤٨ هـ) ابو اسحق ابراهيم بن هلال بن زهرون

تحفة الأمراء بتاريخ الوزراء (بيروت ١٩٠٤)
الصولي (٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م) ابو بكر محمد بن يحى
« اخبار الراضي بالله والمتقي لله او تاريخ الدولة العباسية من ٣٢٢ - ٣٣٣ هـ من كتاب الاوراق » (لشره هيورت دن القاهرة ١٩٣٥)
الطبري (٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) بو جعفر محمد بن جرير
« تاريخ الامم والملوك » ٨ اجزاء (مطبعة الاستقامة . مصر)١٣٥٨=١٩٣٩ (وليدن ١٩٠١)
ابن الطقطقي (٧٠٩ هـ) محمد بن علي بن طباطبا
« الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية » (طبعة مرسو ١٨٩٤ م) و (طبعة غريفزولد ١٨٥٨ م)
العاملي السيد محسن الامين .
« اعيان الشيعة » (دمشق ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م)
ابن عبدالحق (٧٣٩ هـ) صفي الدين البغدادي
« مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع » (نشره جولبول) و (عيسى البابي - مصر طبعة ١٩٥٤)
عبدالعزيز الدوري (دكتور)
« تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري » (بغداد ١٩٤٨ م)
ابن العبري (١٢٨٦ م) غريغوريوس ابو الفرج بن هرون الطبيب الملطي
« مختصر تاريخ الدول » (بيروت ١٣٠٨ = ١٨٩٠ م)
ابن العديم كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله

« زبدة الحلب من تاريخ حلب » (نشره د . سامي الدهان دمشق ١٣٧٠ = ١٩٥١ م)

عريب (٣٦٦ = ٩٧٦ م) ابن سعد القرطبي

« صلة تاريخ الطبري » (مطبعة الاستقامة - مصر ١٣٥٨ = ١٩٣٩)

العمري (٧٤٢ = ١٣٤١ م) ابن فضل الله شهاب الدين احمد

« مسالك الابصار في ممالك الامصار » (دار الكتب المصرية ١٣٤٢ = ١٩٢٤ م)

العمري بن خير الله الخطيب

« منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء » الموصل ١٩٥٥ حققه سعيد الديوه جي

الفارقي احمد بن يوسف بن علي بن الأزرق .

« تاريخ الفارقي » (القاهرة ١٣٧٩ = ١٩٥٩) تحقيق د . بدوي عبداللطيف عوض

ابو الفدا (٧٣٢ = ١٣٣١/٣٢ م) الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل .

« كتاب المختصر في اخبار البشر » (مصر ١٣٢٥ هـ) وطبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت)

« كتاب تقويم البلدان » (باريس ١٨٤٠)

ابو فراس (٣٥٧ هـ) الحارث بن سعيد بن حمدان

« ديوان ابي فراس » تحقيق د . سامي الدهان (دمشق) (بيروت ١٣٦٣ = ١٩٤٤)

ابن الفقيه (القرن الثالث) ابو بكر أحمد بن محمد الهمداني .

« مختصر كتاب البلدان » (ليدن ١٣٠٢ هـ)

فيصل السامر (دكتور)

« ثورة الزنج » (بغداد ١٩٥٤)

الفيومي احمد بن محمد بن علي

« المصباح المنير » في غريب الشرح الكبير للرافعي (بولاق ١٩٣٩)

قدامة (٣٢٠) ابن جعفر الكاتب البغدادي .

« كتاب الخراج وصنعة الكتابة » (ليدن ١٨٨٩م) و (ليدن ١٩٦٥)

القرماني . ابو العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي

« اخبار الدول وآثار الاول في التاريخ » (بغداد ١٢٨٢ هـ)

القزويني (٦٨٢ هـ) زكرياء بن محمد بن محمود

« آثار البلاد واخبار العباد » (جوتنجن ١٨٤٨ م)

ابن القفطي جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف

« تاريخ الحكماء » (ليبزج ١٣٢٠ هـ)

ابن القلانسي (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م)

« ذيل تاريخ دمشق » (بيروت ١٩٠٨ م)

القلقشندي (٨٢١ هـ) ابو العباس الشيخ شهاب الدين احمد بن عبدالله بن سليمان بن اسمعيل الشهير بابن غدة

« صبح الاعشى في صناعة الانشا » (مصر ١٣٣٣ هـ)

ابن كثير (٧٧٤ هـ = ١٣٧٢) عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي

« البداية والنهاية » (مصر)

كحالة عمر رضا

١ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة » (دمشق ١٣٦٨ = ١٩٤٩م)

كشاجم (٣٥٠ او ٣٦٠ هـ = ٩٦١ م او ٩٧٠ م)

« ديوان كشاجم » (بيروت ١٣١٣ هـ)

« ادب النديم » (بولاق ١٢٩٨ م) او « ادب الندماء واخبار الظرفاء

(الاسكندرية ١٣٢٩)

لسترانج جي

« بلدان الخلافة الشرقية » ترجمة كوركيس عواد

(بغداد ١٩٥٤)

الماوردي (٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م) ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي.

« الاحكام السلطانية والولايات الدينية » بن (١٢٩٩ هـ = ١٨٥٣م)

و (الحلبي بمصر ١٣٨٠ = ١٩٦٠)

متز . ادم

« الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي ابي ريدة (مصر ١٩٤٠ = ١٩٤١ م)

ابو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م) جمال الدين يوسف بن تغري بردى الاتابكي.

« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » كاليفورنيا ١٩٠٩) و

(مصر ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م)
محمد امين زكي
« خلاصة تاريخ الكرد وكردستان » (مصر ١٩٣٩ م)
المسعودي (٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي
« التنبيه والاشراف » (مصر ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)و (ليدن ١٨٩١)
«مروج الذهب ومعادن الجوهر»(مصر ١٣٤٦م) و(باريس ١٨٦١-٧٧)
مسكويه (٤٢١ هـ) ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب
« تجارب الامم وتعاقب الهمم » نشره هـ . ن . آمـد روز (مصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م)
المقدسي (٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) شمس الدين ابو عبدالله محمد ابن احمد بن ابي البناء الشامي البشاري
« احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » (ليدن ١٩٠٦ م)
المقريزي (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقي الـدين احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد .
« المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار » (بولاق ١٢٧٠ هـ)
« السلوك لمعرفة دول الملوك » (مصر ١٩٣٤ م)
« اغاثة الامة بكشف الغمة » (مصر ١٩٤٠ م)
ابن النديم (٣٨٣ = ٩٩٣) محمد بن اسحق
« كتاب الفهرست » نشره جوستاف فلوجيل (ليبزج ١٨٧١)
النويرى شهاب الدين احمد (٧٣٣)
« نهاب الأرب » (القاهرة ١٣٤٧)

الهمداني (اواخر القرن ٣ هـ) ابو بكر احمد بن محمد بن الفقيه

« مختصر كتاب البلدان » (ليدن ١٣٠٢ هـ)

الهمداني (٣٣٤) ابو محمد الحسن بن احمـــد بن يعقوب بن يوسف بن داود

« صفة جزيرة العرب » (ليدن ١٨٨٤ م) و (مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣)

الهمداني ابو الفضل احمد بن الحسين بديع الزمان

« مقامات الهمداني » (مطبعة الجوائب القسطنطينية ١٢٩٨ م)



المصادر الافرنجية

Ahsanullah , *Khan Bahadur*
" *Histoty of the Muslim World* ,, (*Calcutta 1930*)

Ameer Ali , *Sayeed* .
" *A short History of the Saracens* " (*London 1921*)

Bowen , *Harold* ,
" *The Life and times of Ali Ibn Isa ' The Good Vizier* " (*Camridge* 1927)

Codrington , *O* .
" *A manual of Musulman Numismatics* " (*London* 1904)

Freytag , *Dr. G. W.*
" *Geschichte der dynastien der Hamdaniden in Mosul und Aleppo* " (*Z D M G X* , *XI* 1856 - 1857)

Heyd , *W* .
" *Histoire du commerce du Levant* " (*Leipzig 1923*)

Hitti , *Philip* . *K*
" *History of Syria* " (*London* 1951)

Lane - Poole , Stanley

"*Catalogue of the Collection of Arabic coins Preserved in the Khedivial Library in Cairo*" (London 1897).

" *The Mohammedan Dynasties* " (*Paris* 1925)

Lavoix , M . Henry .

" *Catalogue des monnaies Muslamanes de la bibiotheque nationale* (*Paris 1887*).

Moret . A .

" *Histoire du L'orient* "

Muir , William

" *The Caliphate , Its Rise , Decline and fall* (*Edinbeurgh* 1926)

Oppenheim .

" *Der tel halaf* " (*Leipzig* 1931)

Ramsay , W .

" *The Historical geography of Asia Minor* (*London 1890*)

Le *Strange Guy .*

" *The Londs of the Eastern Caliphate* " (*Cambridge* 1931)

Sauvaire, H.
" *Deux derhams Hamdanits inedites* "
(*annuaire de la societe Francis de Numismatique et d'archeologies tome* 9 *annee 1885*)

Sadruddin, Muhammad.
" *Saifunddawlh and his times* (Lahore 1930)

The Encylopaedia Britannica (*U*. S. *A*. 1965)

The Encyclopaedia of Islam (Lyeden, London) (*Paris*)

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

[ح]

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

[ل]

[م]

[ن]

[هـ]

(و)

[ي]

فهرس الاماكن

- أ -

(ب)

(ت)

[ث]

[ج]

[ح]

(خ)

(د)

(ذ)

ر

ز

س

(ش)

ص

ض

ط

ظ

ع

[ك]

[ل]

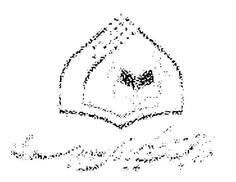
[م]

(ن)

(ه)

(و)

(ي)



جـــدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
شأنهما	شأنها	٧	٤
أر دوا	أرجو	١٠	٤
مقلبلتهما	مقابلتها	١٢	٨
خرذابه	خرداذبة	١٩	١٦
التخابات	منتخبات	٢٠	٢٠
القلقشيدي	القلقشندي	٢١	١٠
قصور	وقصور	٣١	١٠
بن الفرت	بن الفرات	٣٤	١١
الإهة	الاهة	٤٨	٢٣
التنوير	الثوير	٤٩	٣ هامش ٢
فتوح البلدان	معجم البلدان	٥٢	١٥
زمام بني	زمام بن	٥٧	١٤ الملحق ٥
طريف	ابن طريف	٦٧	٥ ، ٨
الحسين	الحسن	٧١	١٧
فيما بعد مماأدى	فيما بعد أديا	٧٦	٩
أمد	آمد	٧٣	٦
أخذ	اخذت	٧٨	٨
اردمشة	اردمشت	٨١	٢٨
التأيخية	التاريخية	٨٦	٣

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
فانقلوا	فانفلوا	٩٦	١٣
السد	السند	١٠٧	٦
حمل بين على	حمل بين يديه على	١٠٨	١١
ليف وعشرين	نيف وعشرون	١٢٠	٥
معجم البلدان	معجم البلدان	١٥٤	٢١
ص ١٨٦-١٨٧	١/١٨٦-١٨٧		هامش ٤
الفرثيين	الفرثيين	١٦٦	١٢
برتعيد	برقعيد	١٧٦	١٢
الأرمنية	الأرامية	١٨٨	١٢
زياد	زيار	٢٢٣	١٥
الشيرازي	الشيرزادي	٣٢٥	١٩ هامش ١
ابن مسكويه	مسكويه	٢٦٣	١٧
الدولة	للدولة	٢٨٢	٣
جذبة	جذابة	٢٨٤	٨
القادر	القاهر	٣٠٧	١٤
ابراهم	ابراهيم	٣٧٠	٧
ربية	ربيعة	٣٧١	٢
العمر	الغمر	٣٧١	٦
الأولباء	الأولياء	٣٧٣	١٣

وهناك اخطاء طفيفة يستطيع القارئ الكريم ادراك صوابها لم أجد داعيا لإيرادها في هذا الجدول .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة





حمدو

الغمر بن حمدون
ابو جعفر محمد

ابو الهيجاء عبدالله ٣١٧/٩٢٩ — ابو اسحاق ابراهيم (ديار ربيعة) — ابو سليمان داود — ابو الوليد سليمان — ابو السرايا نصر

ابوالعباس احمد — ابو عثمان محمد — ابو زهير مهلهل ٣٣٩/٥٠

ابو الحسن علي سيف الدولة ٣٥٦/٩٦٦ — ابو العطاف جابر — خسولة ٣٥٣/٩٦٤ — فاطمة ٣٤٤/٩٥٥ — ابو محمد الحسن ناصر الدولة ٣٥٨/٩٦٨

[ابو الم]عالي [شري]ف ٩٩١/ — ابو الهيجاء عبدالله ٣٣٨/٩٤٩ — ابو البركات ٣٥٤/٥٦٥ — ابو الفضائل — ابو المكارم ٣٥٤/٩٦٥ — ست الناس

[ابو الف]ضائل [سعد] الدولة — ابو الهيجاء

ابو المرجي جابر (قبل ٣٥١/٩٦١) — ابو عبدالله الحسين ٣٨٠/٩٩٠ — جميلة — علوية

[ابو ال]حسن [عل]ي — ابو المعالي شريف

(١) السنوات تشير الى تاريخ الوفاة .

ـن

ابو العباس
حمدان بن حمدون

علي | ابو علي الحسين ٩١٨/٣٠٧ | ابو سليمان داود | ابو العلاء سعيد ٩٣٣/٣٢٣

عبد الوهاب | علي — ابو العشائر الحسين ٩٦٥/٣٥٥

ابو اليقظان عمارة | ابو وائل تغلب ٩٤٩/٣٣٨

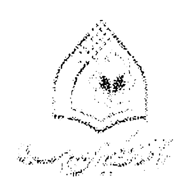
ابو الهيجاء حرب | ابو الاغر احمد | ابو عبدالله الحسين | ابو فراس الحارث ٩٦٨/٣٥٧ | ابو الفضائل

٩

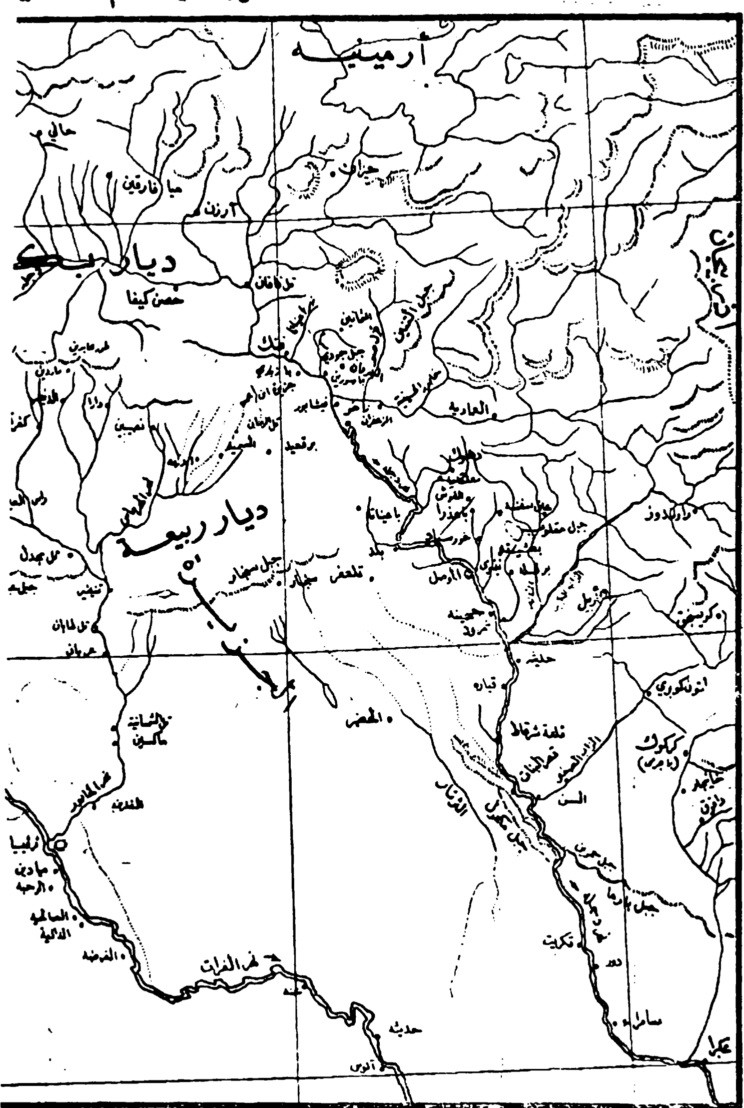
ابو القاسم هبة الله | ابو البركات لطف الله ٩٦٩/٣٥٩ | ابو الفوارس محمد | ابو طاهر ابراهيم ٩٩١/٣٨١ | ابو تغلب عدة الدولة ٩٦٩/٣٦٩ | ابو المظفر حمدان

ابو المطاع ذو القرنين وجيه الدولة
١٠٣٨/٤٢٨

ابو محمد الحسن ناصر الدولة



خارطة الجزيرة والشام وا قلي



م العواصم والثغور (أيام الحمدانيين)

قيسارية
سمندو
خابوط
شمشاط
عربسوس
ملطية
ارغاند
الحدث
حصن منصور
سميساط
رعبان
قلعة الروم
سروج
حران
تل خالد
جسر منبج
منبج
دابق
بوقا
حلب
حارم
اثاريب
بياس
الاسكندرونة
بيلان
انطاكية
ديار مضر
معرة مصرين
بالس
الرافقة
الرقة
الرصافة
معرة النعمان
كفر طاب
حماه
القسطل
سلمية
الرستن
حمص
جوسية
البيضا
تدمر
قصر الحير
اللاذقية
جبلة
بانياس
انطرطوس
بعلبك

المقياس:- ١ ميل = ١٦٠٩م